موسوعة الفنون الإسلامية

دراسات

حول

الكتابة العربية

تاريخها وتطورها

الجزء الأول

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

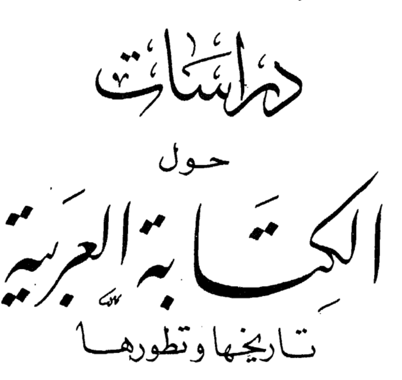
دكتور

عبد الفتاح مصطفى غنيمه

كلية الآداب

جامعة المنوفية

موسوعة الفنون الإسلامية



الجزء الأول

دكتور
عبد الفتاح مصطفى غنيمه


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى الحبيب الغالى أبي الشيخ مصطفى غنيمة .. رحمة الله عليه ، بما كان له من غرس حب القراءة والعلم في نفسي .

وإلى استاذي المربي المعلم الفاضل أحمد سليمان أول من علمني الكتابة والتجويد .

وإلى أستاذي الفاضل الدكتور ماهر رائف شفاه الله وعفاه .. أول من اختارني لتدريس مادة علم الكتابة بكلية الفنون الجميلة .

أهدي هذه الصحائف المتواضعة المعطرة بعبق حبهم للعلم ، فيها نسائم غرسهم التي أوقظت في نفسي روح المثابرة والاجتهاد ، في سبيل استرداد مجد الأقدمين ، لكي تعلو راية مصر رمز الحب والوفاء والعطاء ، مصر حارسة التراث العربي الأصيل الساعية إلى بناء المستقبل لأمة العرب والإسلام .

عبد الفتاح مصطفى غنيمة

الفصـل الأول

الكتابة في الحضارات القديمة

مقـــــدمة

الكتابة بوجه عام أقدم حدث في تاريخ تطور البشرية كما أنها أعظم الانجازات الانسانية الفكرية والتشكيلية عبر العصور وإن كنا لا نعرف حتى الآن تاريخ محدد لبداية معرفة الإنسان للكتابة . رغم ما للكتابة عند الأمم جميعاً من أثر بعيد ، حيث لها الفضل في حفظ تراث الأمم السابقة بالتدوين فهي أداة التعبير عن المعاني والأفكار والمشاعر التي تتبلور في الفكر الإنساني ويرغب الإنسان في تدوينها للاثبات والتسجيل . وقد ازدادت أهمية الكتابة وآثارها في العصر الحاضر من حيث تطور وسائل الطباعة والتكنولوجيا تطوراً مذهلاً وسريعاً ، ولقد حرص الإنسان منذ أقدم العصور على تسجيل أخباره على العظام والأحجار وعلى أوراق البردى ، وظهرت الكتابة في وقت واحد على الأرجح منذ ستة آلاف سنة في كل من مصر وبلاد الرافدين ووادي السند ، ثم ظهرت بشكل بدائي آخر في الصين بعد ذلك بحوالي ألف عام .

كانت لكل مجموعة من البشر سمات التفاهم الخاصة بها من خلال النطق والسمع ، ويرى أغلب علماء الكتابات الأثرية أن الفراعنة كانوا أول من عرف الكتابة وسجلها على القبور والجدران والآثار وفي مخطوطاتهم البردية ، وبدأت الكتابة تأخذ طريقها عن الشعوب القديمة كالسامية والسومرية والآرامية والآشورية والكلدانية والفينيقية والعبرية وغيرها ، من الكتابات التي اختصت بها تلك الشعوب القديمة . ولاشك أنه منذ القدم ارتبطت الكتابة بالخربشة والنقوش والفنون الرمزية خاصة حين كانت الكتابة تأخذ تعبيرها عن طريق تلك الرسوم والأشكال والرموز في الكتابة العربية فقد جاءت بعد الكتابة اليونانية ، وورثت بظهورها كل ثقافات الكتابات الأخرى ، فآثرتها وأصبحت من أغنى الكتابات في العالم ، فقد نهضت الكتابة العربية مع اطلال أعرق الامبراطوريات قدماً حيث اختلطت السومرية والبابلية وما جاء بعد ذلك من أثينا والاسكندرية وما جاء من آسيا الوسطى ومن الصين ، وما جاء من الهند ومن بلاد فارس ، وما كان موجوداً على سواحل البحر المتوسط من حكايات وأساطير قبل الإسلام ، ناهيك عما كانت تعج به أسواق الجزيرة العربية من قصص وروايات وأخبار وحكايات يرتبط فيها الخيال بالقسوة ، الخيال الشعري وقسوة الحياة وتجارة الصيف والشتاء وملتقى الحجيج للكعبة . وعلى ذلك فإن الكتابة العربية تقع عند ملتقى جميع هذه التأثيرات وكل هذه التداخلات .

لا أريد في هذا التصدير أن أخوض في موضوع الكتاب وخطته تفصيلاً وإنما حسبي أن يرى القاريء في صفحاته ما وددت أن أشير اليه من أهمية نشأة الكتابة العربية وأصولها

التاريخية ولم يكن ذلك بالمهمة السهلة في المعالجة وكثرة المصطلحات والأسماء التي ترددت ، والتي تدخل في كافة فروع العلوم الإنسانية ، ولقد حاولت جهدي ما استطعت أن يكون أسلوب الكتاب مما يتقبله القاريء العربي ويفهمه في غير صعوبة . لإيماني بأهمية موضوع الكتاب وحاجة المكتبة العربية إليه .

قبيل الإسلام كان العرب قد عرفوا الكتابة التي عرفناها من خلال الآثار وشواهد القبور والعملات المعدنية وهي الكتابات النبطية والسبأية والمعينية والحيرية . إلا أن الظروف الكشفية لكل أراضي بقاع الجزيرة العربية وما حولها لم تحطنا حتى الآن بما فيه الكفاية للإستدلال والإستقراء عن هذا الموضوع . ومع ذلك فإن أحدث النظريات التي قيلت بهذا الشأن أثبتت أن الكتابة العربية كانت في جنوب وشرق شبه الجزيرة العربية .

وبظهور الإسلام كانت كتابة القرآن الكريم وظهور المصحف الإمام لكل أنحاء العالم الإسلامي ولكل المسلمين . وبمضي الأيام أخذت كتابة القرآن تتطور ، بعد التنقيط والتشكيل ، ورسم وتجويد حروف المصحف ، وحتى أصبحت متوحدة في كل نسخ القرآن مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ ولقد أسهمت مقتضيات العقيدة الإسلامية في ربط لغة كتابة القرآن الكريم بكل الكتابات الأخرى وبعد أن تغيرت أساليب الكتابة وظهر منها الكوفي والنسخ والثلث والرقعة وغيرها . لذا أوضحنا الرابطة الأصيلة بين الكتابة العربية وفن الخط العربي ، وكيف استخدمه الفنان المسلم كعنصر أساسي وزخرفي هام ، في نقوشه على الفخار والخزف والخشب والجبس والسجاد والمنسوجات .. الخ .

كان لزاماً علينا أن نروي قصة صناعة الورق كأهم مادة من مواد الكتابة عرفتها الحضارات القديمة والحديثة . فكل ما تركه الأقدمون من علم وثقافة وفكر ، ينحصر فيما سجلوه على مواد الكتابة .

فقد برع المصريون القدامى في صناعة الورق من نبات البردى الذي كان ينمو على طول ضفاف النيل وحول البحيرات والمستنقعات . علاوة على ذلك كانت هناك مواد أخرى للكتابة مثل الجلود والرق والألواح الطينية والخشبية مثل التي استعملت في العراق القديم ، والألواح المغطاة بالشمع التي ابتكرها الرومان .

وابتكر الصينيون الصناعة الحقيقية للورق حوالي عام ١٠٥ ميلادية . وعندما حكم العرب سمرقند عام ٧٥١ ميلادية نقلوا صناعة الورق إلى بغداد وأدخلوا عليها تحسينات كثيرة . ومنها انتشرت في أنحاء الدولة الإسلامية إلى أوروبا في العصر الوسيط مما أدى إلى الحفاظ على تراث الإنسانية القديم . ولولا العرب لإندثر هذا التراث القيم .

إنتقلنا بعد ذلك إلى ذكر أهمية الكتابة والكتاب في العصرين الأموى والعباسى منوهين ببعض الشخصيات والأعلام العرب والمسلمين ممن كان لهم اليد الطولى في ذكر أهمية صناعة الكتابة آنذاك وما يجب أن يتحلى به الكاتب . منهم عبد الحميد الكاتب وابن قتيبة وأبو بكر الصولي وأبو حيان التوحيدي وأبو العباس القلقشندي . ثم تطرقنا إلى موضوع فن الكتابة وديوان الإنشاء على مر العصور الإسلامية لكي نبرز أهمية فن كتابة المصاحف والمخطوطات العربية في كل أقطار العالم الإسلامي وأهمية الكتابة والتصوير في كتب العلم والأدب والدين والتاريخ . وكيفية التجليد والتذهيب للمصاحف والمخطوطات في مشارق الأرض ومغاربها .. بعد ذلك انتقلنا إلى ذكر أهمية صنعة الكتاب وفن تجويد وتحسين الخط العربي عند المسلمين ولكي نبين أن الكتابة العربية المجردة هي أهم المعالم التعبيرية للفنون الإسلامية .

من هنا أقدم هذا الكتاب في مجال الثقافة العلمية الإسلامية إلى طلاب العلم في المعاهد والجامعات العربية ، بعد أن قدمت مادته في محاضرات على طلاب كلية الفنون الجميلة ضمن مقرر (تاريخ ودراسة الكتابة العربية) لتغطية هذا الجانب الثقافي الهام ، ودوره في الحضارة العربية الإسلامية ولإبراز دور الكتابة والكتاب العرب والمسلمين في تاريخ العلم والحضارة ، وتأكيد سبقهم إلى وضع أصول ذلك العلم ، ولتعميق المعرفة بالكتابة كأهم وسيلة اتصال حضاري وفتح الأذهان على الصلة الوثيقة بين اللغة والكتابة ودوران الزمن مع تطور الشكل الجمالي للكتابة ، وفلسفة جمال الخط العربي .

وقد حرصت على أن أقدم للقاريء العربي مهما كان تخصصه صورة شاملة عن معالم ذلك التراث العلمي لأصول الكتابة العربية بلغة العصر وأسلوبه ، وحاولت جهدي أن أعطي اهتماماً خاصاً لايضاح أهمية أثر التراث في دفع مسيرة الفكر البشري خلال العصور . وإلقاء الضوء على مكانة الكتابة والكتاب العرب في تاريخ العلم عبر حضارات العصور الوسطى والحديثة ، وذلك بهدف إطلاع القاريء على أهم مقومات النهضة العربية وعناصر التقدم الحضاري خاصة موضوع كتابة القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ وفي عهد الصحابة ومن بعدهم وذلك دون شطط أو إسراف أو تأويل . على أن كل ذلك لمحات من قصة الكتابة العربية ، قصة خط الكتابة الذي يكتب به الناطقون بالضاد في كل مكان ، ومن حق هؤلاء أن يتبينوا كيف أصبح لهم خط يكتبون به وكيف تعددت صوره . ومما شجعني على القيام بهذا العمل وجود الكثير من المراجع والمصادر القيمة التي كان لها أعظم الفضل في تيسير الكتابة في هذا الموضوع وقد قمت بتعداد ذكرها في ختام الكتاب وإني لأرجو لهذا الكتاب أن يتخطى نطاق علم الكتابة العربية وتاريخها ، لكي يسهم في تربية جيل يؤمن أن طريق تقدم الأمم لابد وأن يمر بمعرفة أهمية الكتابة والتدوين

بجانب الاستزادة من مناهل العلم والتكنولوجيا .. سبيل رقي الأمم منذ أخذ الإنسان بأسباب الحضارة وحتى يرث الأرض ومن عليها .. وإني لاحتسب هذا العمل لله سبحانه وتعالى عسى أن يتقبله وهذا ما قصدت .. فلله الحمد . وهو من وراء قصدي خير معين .. اسأله أن يوفقني فيما ذهبت إليه .

دكتور/**عبد الفتاح مصطفى غنيمة**

الاسكندرية في أغسطس ١٩٨٧

الفصـــل الأول

الكتابة في الحضارات القديمة

مدخـــل :

علم الكتابة وصلته بالعلوم الأخرى :

الواقع أنه لم توجد حتى الآن محاولات جادة لجمع المادة العلمية المتعلقة بتاريخ الكتابة العربية . في حدود اطارات البحوث الأكاديمية المتفق عليها بين العلماء . رغم أن هناك نتائج علمية ممتازة حول تاريخ الكتابة اللاتينية أو الاغريقية القديمة توصل اليها علماء دراسات الكتابات الأثرية في الغرب . ويمكن إرجاع فشل محاولات العلماء العرب والمستشرقين في جمع مادة الكتابة العربية القديمة لعدم إمكانهم تصنيف الموضوعات المتصلة بهذه الدراسات وقلة الدراسات المقارنة المنظمة في هذا المجال ، كما أن اللغة العربية ولهجتها القديمة مما يصعب على المستشرقين فهمها ، إلا أن هناك محاولات في بداية الطريق لبعض علماء المسلمين في مصر والعراق وتركيا ، يتبين منها جدية وإصرار هؤلاء الباحثين على مواصلة الطريق في سبيل جمع أكبر كمية من المادة العلمية المتعلقة بهذه البحوث المضنية ، من الحفائر ومتروكات الأقدمين التي تم التوصل اليها . يساعدهم في ذلك وسائل التكنولوجيا المعاصرة كاستخدام لأجهزة النظائر المشعة والكربون المشع في تحديد عمر الألواح المكتوبة ، واستخدامهم لأشعة الليزر في معرفة الكتابات الممسوحة أو التي انمحت على مر الزمن .

ومن الجدير بالذكر أن مجال دراسة تاريخ الكتابات يحتاج إلى مؤرخين وعلماء من صنف جديد ، يجب أن يكونوا على إلمام وإحاطة بالكثير من أفرع العلم في الآداب والعلوم والفنون وطالما أن الباحث في هذا المجال يبتغي الوصول إلى بدائيات نشأة الكتابة على الأرض منذ أزمنة طال بعدها ، فإن لابد وأن يكون على علم بأساسيات علمي الجيولوجيا Geology والجغرافيا Geography الأول لأنه علم تاريخ الأرض وكل ما يختص بالكرة الأرضية من حيث تركيبها وكيفية تكوينها والحوادث التي تعاقبت عليها من عهد نشأتها الأولى ، وفي العوامل الداخلية والخارجية التي وصلت بها إلى ماهي عليه الآن . وكيفية

(*) نحن في عصر ثورة المعلومات وتراكمها ، بالاضافة الى كثرة المصادر البحثية في العالم وتنوع اللغات ، مع اختلاف وسائل الاتصال . وعلم الكتابة النشأة والتطور هو البداية والمدخل لعلم ثورة المعلومات عند الانسان منذ بدايات معرفته واكتشافاته ، والكتابة هي أهم اختراع توصل اليه الانسان في هذا الكون الفسيح ، وهي أقدم حدث في تاريخ تطور البشرية كما أنها أعظم الانجازات الانسانية عبر العصور .

تطور الكائنات التي سكنت سطحها . والإحاطة بأن الجيولوجيا المعاصرة تعتمد في هذه المباحث العديدة على ما تقدمه العلوم الأخرى كالطبيعة والكيمياء والرياضة والحيوان والنبات من قواعد ثابتة ، تتطلب أن يكون الباحث دقيق الملاحظة لما يحيط به من ظواهر طبيعية ، وما تؤثر فيها عوامل مختلفة وأن يكون عميق التفكير صحيح الاستنباط . وأما ضرورة احاطته بعلم الجغرافيا فلكونها تختص بشكل الأرض وحجمها وتوزيع اليابس والماء على سطحها ، كما تختص بتحديد الجبال والوديان والبحار والأنهار ، وعمن سكن سطح الأرض وجوف البحار من أحياء نباتية وحيوانية عاشت وازدهرت ثم ماتت واندثرت فلم تترك لنا سوى بعض البقايا التي تدل عليها . كما يجب على الباحث أن يكون على إلمام وإحاطة بعلم الإنسان البدائي أو الأنثروبولوجيا Anthropology وهي التي تعنى بدراسة الانسان البدائي من الناحيتين العضوية والثقافية على حد سواء يدخل في ذلك الدراسات التي تتعلق بحياة الانسان القديم في حضارات ما قبل التاريخ Archeology وتتناول الانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology دراسات لغات الشعوب البدائية واللهجات المحلية والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة بصفة عامة وذلك في إطار ما يعرف بعلم اللغويات Philology or Linguistics .

علاوة على ذلك يوجد مجالان دراسيان آخران ذوا أهمية كبيرة للباحث في مجال نشأة الكتابة ، وهما علم الأجناس أو الإثنولوجيا Ethnology والإثنوجرافيا Ethnography أو علم وصف الثقافات الفردية . وبالرغم من التداخل بين المصطلحين ، إلا أن مصطلح الاثنوجرافيا يعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد ، والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين ، خلال فترة زمنية محددة ، أما الاثنولوجيا فتهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الاثنولوجية بهدف الوصول الى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الإجتماعية الإنسانية ، من حيث أصولها وتطورها وتنوعها والإثنوجرافيا والإثنولوجيا مرتبطتان إذن وتكمل الواحدة الأخرى .

ولابد للباحث أيضاً أن يكون على إلمام كبير بعالم الدراسات اللغوية وأبجديات الكتابات الأثرية التي يقوم بدراستها لكي يمكنه التعرف على حروف الأبجديات وأسلوب كتابتها وبدايات الأحرف ونقاط الإتصال والإنفصال ، كما لابد له أن يكون دارساً نفسانياً لأن علم النفس هو أساس فهم الحياة الإنسانية بجوانبها المختلفة ، وهو أساس ثراء معرفتنا بالشروط التي تحكم السلوك الإنساني وكيف يفكر الإنسان ؟ وكيف يشعر ؟ وكيف يبدع شيئاً جديداً وكيف يتفاعل مع بيئته ومع الآخرين ، ومن خلال تفاعلات الإنسان مع البيئة ، تكون الأنشطة والمتروكات والآثار التي تدل على سلوك الإنسان

ومراحل تطوره من التفكير والإدراك والإنفعال والإبداع .. ولاشك أن الكتابة هي أهم إبداعات الإنسان منذ آدم عليه السلام وحتى يومنا هذا .

كما أنه من الضروري أن يكون الباحث ملماً بالتاريخ History لكونه علم دراسة الأحداث في الماضي التاريخي للإنسان ، أي منذ وجود نشأة الكتابة على الأرض الى الوقت الحاضر . ويقال أيضاً أن التاريخ يهتم بدراسة الحوادث الفريدة ذات النوعية الخاصة التي تشكل التطور العلمي بوصفه محصلة اكتشافات يصل اليها الإنسان ، وإذا كان التاريخ هو محور العلوم الإنسانية كلها فذلك لأنه العلم الذي يوضح كيف نشأ الإنسان متتبعاً تطوره على مدى الأيام والعصور ، وجهوده في تسخير الطبيعة لخدمته والخطوات التي بنى بها حضارته لبنة بعد أخرى ، وكيف كان ينهض بعد كبوة ويكبو بعد نهضة .

ولاشك أن مهمة المؤرخ الأمين تفوق في صعوبتها مهمة أي باحث آخر . فعالم الكيمياء أو الجيولوجيا أو الطب عليه أن يجرى تجاربه ويثبت مشاهداته ويقارن ويعلل ليصل إلى النتيجة التي يرضى عنها . أما المؤرخ فعليه أن يغربل الحقائق ويصفيها وينقيها ويميز بين ماهو واقعي وماهو مدسوس . فليس كل ماهو منقوش على الآثار أو مدون على البردى والرق والعظام وغيرها أو في بطون المخطوطات حقيقة خالصة ، وإنما فيه الحقيقي وفيه المزيف ، ومنه الصادق ومنه الكاذب . هنا تكمن صعوبة الباحث في الكتابات الأثرية ، إذ عليه أن يجمع المعلومات والوثائق الأثرية المتباينة عن الحدث الواحد . ويسجل الملاحظات المختلفة عن كل حدث مكتوب أو واقعة مدونة ، ثم يسلك طريقاً شاقاً من الفحص والنقد والمقارنة ، مجرداً نفسه تجريداً تاماً عن الهوى حتى يصل الى ما يؤمن بأنه أقرب الى اليقين ، مما يوجب على الباحث أيضاً الإلمام بأساليب جرائم تزييف المستندات والوثائق وجرائم تزييف العملة المعدنية والورقية ، ففي المجتمعات الحضارية تتمتع الكلمة المكتوبة أو المطبوعة بمكانة مرموقة ، فهي الوسيلة في كل المعاملات التي تجرى بين الأفراد والجماعات والشعوب وذلك يجعلها هدفاً لكل من تسول له نفسه تحقيق نفع أو الوصول الى مأرب غير شرعي . خاصة وأن جرائم تزييف المخطوطات والمستندات والوثائق التاريخية والعملات ، تجرى دوماً على المستويين المحلي والدولي . ولابد للباحث في علم الكتابة أن يكون ملماً بأساليب البحث والتحقيق وكشف أساليب التزوير والتزييف[1] .

من هنا فإن الكتابة بوجه عام هي أخطر وأقدم حدث تم في تاريخ البشرية ، وعليه

---

١) اساليب التزوير كثيرةوفي مقدمتها تقليد الخطوط والتوقيعات من أجل تحقيق نفع عن غير الطريق الشرعي ، راجع : Methods of Forensic sciene A. curry 1964.

فلابد وأن يكون الباحث مستوعباً لتاريخ الحضارة History of Civilization ومسار الحضارات الإنسانية منذ قامت وازدهرت ، وشغلت الفكر الإنساني على اختلاف أجناسه ، ومعرفة سر قيامها ونهضتها ، ومظاهر ازدهارها وأسباب اندثارها ، لأن تاريخ أي أمة ماهو إلا جزء من تاريخ العالم أو تاريخ الأرض Universal History ، فالتاريخ الانساني متجانس لأن وحدة الحضارة [1] هي الإنسان ، والإنسان هو الإنسان سواء في الشرق أو الغرب ، في القطب الشمالي المتجمد أو في الخط الاستوائي .

ولاشك أن هناك أربعة حضارات هامة كان لها أكثر الأبعاد المؤثرة في تاريخ الانسانية وفي وصول الانسان والعالم الى الحضارة الغربية الحديثة Western Civilization وهي الحضارة المصرية القديمة « الفرعونية » والحضارة الآشورية القديمة Assyrian Civilization ، أو حضارة مابين النهرين أو ما تعرف بحضارة العراق القديم ، والحضارة اليونانية أو الاغريقية القديمة أو الهللينية القديمة Greek Civilization والحضارة الإسلامية Islamic Civilization . ومن هنا يمكن القول أن مجال دراسة علم الكتابة وتاريخها بوجه عام مجال متسع يشمل علوماً كثيرة ومتعددة لما يشمله هذا العلم من جوانب فرعية تتطلب سنوات طويلة من أبحاث لملاحقة تلك الجوانب . مما يجعل دخول هذا الميدان أمراً شاقاً وعسيراً . بالإضافة إلى ذلك فإن دراسة الكتابة بوجه عام تقوم على دراسة فرعين رئيسيين من حيث طابع الكتابة وتطور الأنماط Graphology هما :

١ – علم الكتابة المحفورة Epigraphy

وهو العلم الذي يبحث في الكتابة القديمة المحفورة في ألواح الطين أو الحجارة أو الجرانيت أو العاج أو الخشب أو المعدن .. الخ) . وفك رموزها وتفسيرها .

وقد اتاحت دراسة الكتابة المحفورة خلال القرن الماضي الفرصة لعلماء دراسات الكتابات الأثرية إستكشاف الكثير من لبنات الحضارات القديمة كالمصرية القديمة والبابلية والأكادية والإغريقية والصينية والهندية وما إلى ذلك .

---

(١) الحضارة هي حصيلة الفكر والمعرفة من تشريع وفلسفة وفنون وتكنولوجيا ، كثير من المفكرين ينظرون الى الحضارة على أنها عقل مبلغ مبلَغ واذا كانت الكتابة أهم وسائل الاتصال الحضاري ، بل الوسيلة التي يمكن أن تتحدى الزمان والمكان فانها العملة الوحيدة للحضارة الانسانية . فحيث توجد الحضارة توجد القراءة والكتابة سواء أكان ذلك في الماضي البعيد أو الحاضر القريب « المؤلف » .

كما اتاحت هذه الدراسة إماطة اللثام عن نقاط ظلت غامضة في عالم المصريات Egyptologist وأيضاً في عالم الاشوريات فيما يتعلق بالكتابة الاسفينية « المسمارية » أو الأكادية المحفورة في اللوحات الطينية . كما تم اكتشاف الكثير من الكتابات الصينية .

٢ - علم الكتابة المكتوبة Paloeography

وهو العلم الذي يتناول النصوص القديمة المكتوبة بالمداد أو بالألوان والأحبار والاصباغ على البردى والرق والألواح مع حل رموزها وتفسيرها . كما يتناول هذا العلم في أبحاثه وسائل ومواد وآليات الكتابة المختلفة .

والواقع أنه من العسير جداً أن نضع حدوداً فاصلة واضحة المعالم بين هذين العلمين فإن الخط المحفور على الطين والجبس لا يكاد يختلف عن الخط المدون على البردى والرق خاصة إذا كانت تلك الكتابات قد تمت في نفس الزمان والمكان .

مما يجدر ذكره عند الحديث عن البحوث في تاريخ الكتابة العربية لابد وأن يتجه الباحث أو الدارس إلى مجموعة من العلوم التخصصية الأخرى التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالكتابة والتدوين والتاريخ هذه العلوم هي :

- علم دراسة النميات Numistic **والمسكوكات**

تندرج دراسة النقود تحت علم النميات وهو العلم الذي يبحث في النقود والأوزان والأنواط والأختام ويعبر لفظ المسكوكة عن معادن متعددة تدور كلها حول النقود التي تعاملت بها الشعوب العربية من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية ، فيقصد بها حيناً تلك النقوش التي تزين بها النقود على اختلاف أنواعها ، وأحياناً أخرى يعنى قالب السك التي يختم بها على العملة المتداولة والتي تضرب في دور السك ، والتي أصبحت وسيلة التعامل الرئيسية في العصور الوسطى بين مختلف شعوب العالم - تشهد بذلك تلك المجموعات من النقود العربية التي عثر عليها في المانيا وروسيا وبولندا وفنلندة (شكل ١ - أ ، ب) ولاشك أننا جميعاً نعلم أن النقود تلعب دوراً هاماً في حياة المجتمعات البشرية والأفراد إذا أمكن بموجبها معالجة أساليب التعامل بين الأفراد على المستويين المحلي والدولي، والتي ظلت تواجه التعامل بينهم زمناً طويلاً ، وذلك باتخاذ النقود كوسيط للمبادلة ووحدة أساسية للحساب ، ومن هذا يتبين مدى ما تضطلع به النقود من دور أساسي في النظام الاقتصادي . وقد انفردت النقود المعدنية بالقيام بهذا الدور وحدها حقبة طويلة من الزمن ، إلى أن ظهرت النقود الورقية في العصر الحديث ، وتعتبر النقود ضرورة اجتماعية من الطراز الأول إذ لم يعد يستغنى عنها أي مجتمع مهما كانت ديانته أو لغته أو نظمه

السياسية . بالاضافة الى أن العملات القديمة كانت من الوسائل الهامة لتسجيل الأحداث التاريخية وتخليد ذكرى الزعماء والقادة ، كما أنها تتضمن الألفاظ والألقاب والمسميات والتواريخ الدالة على الأحداث السياسية الهامة في حياة الشعوب .



شكل ١ – (أ) ، (ب) نموذج كتابة كوفية على دينار عباسي (كبر الى أربعة أمثال ونصف) ضرب في عهد آخر خلفاء بني العباس ، في بغداد – مدينة السلام – سنة ٦٤٠ هـ
(ب) فلس عربي بصورة عبد الملك بن مروان ضرب في حلب

● علم الأختام Sphrogistic

وهو العلم الذي يبحث في الأختام وماعليها من كتابات وقد بدأ هذا العلم في نيل ما يستحقه من العناية منذ عهد قريب حين بدأ تدريسه ضمن منهج الكتابات الأثرية في كلية الآثار وهو أيضاً أحد فروع علم النميات .

يؤكد لنا ليورنادو كوتريل في الموسوعة الأثرية العالمية ص ٣٨٢ وما بعدها أن الأختام في بدايتها كانت تحمل أشكالاً هندسية وصور طوطمية مرتبطة بالعقائد الدينية وأشكال الحيوانات . وبعد اختراع الكتابة أصبحت تحوى أسماء وكلمات ، ويرجع ظهور الأختام لاستخدامها كوسيلة توثيق واعتماد للمراسلات والعهود بين الملوك في مصر القديمة واستخدمت عند الآشوريين لتوثيق أملاك الأفراد ومستحقاتهم على ألواح الطين . كما استخدمت أيضاً كرمز لانتقال السلطة من حاكم لآخر ، فقد ذكر في التوراة بسفر لتكوين الإصحاح ٤١ : **قال فرعون ليوسف : انظر قد جعلتك على كل أرض مصر وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف .**

كما كانت الخواتم والأختام ضرورية كدلائل مادية تشير إلى انتقال السيادة من شخص إلى آخر ، كما حدث عندما أعطى الاسكندر المقدوني (٣٥٥ – ٣٢٣ ق.م) خاتمه وهو على فراش الموت للقائد بيرديكاس ، والأكثر من ذلك شيوعاً استخدام الخواتم للتصديق على الوثائق ، أو إعطاؤها للسفراء ووزراء الدولة من باب البرهان على تمتعهم بالثقة الرسمية والاعتماد الرسمي .

وكان بيرجوتيليس من اوائل النقاشين المعروفين بخدمة الاسكندر الأكبر والذي أنزله نفس منزلة مصوره أبلليس ومثاله ليسيبوس ، وكان بيرجوتيليس وحده هو الذي نقش خواتم الملك وأختامه وهو الذي كان يبتكر الرسومات الرمزية المعبرة عن القوة الملكية[١] .

وحذا القادة والحكام الرومان حذو الايرانيين والبابليين واليونانيين ، واستعملوا الأختام لتأكيد أوامرهم ، وربما كان يوليوس قيصر أول من عين حارساً لخاتمه الخاص وكان تعيين هذا الحارس بداية لموظفين من نفس النوع في الحكومات التالية حتى العصور الحديثة . وكان للامبراطور أغسطس قيصر ثلاثة أختام يحمل الأول منها صورة أبو الهول والثاني رأس الإسكندر المقدوني والثالث رأس أغسطس قيصر نفسه ، وهو من عمل ديسكوريديس وربما كان الأول مصري والثاني يوناني والثالث يوناني روماني وعاش الفنان ديسكوريديس في روما وكان أعظم حفار في العصر الأوغسطيني وخلفه أبناؤه الثلاثة نفس المهنة[٢] .

ولعلنا نذكر أن بعض الناس يلجأ ، وعلى وجه الخصوص هؤلاء الذين يجهلون القراءة والكتابة إلى استعمال قوالب أختام نقشت عليها اسماؤهم وتاريخ السنة التي نقش فيها الختم بديلاً عن توقيعاتهم . كذلك فإن لكل الهيئات العامة والشركات والمصالح والمؤسسات أو

---

(١) و (٢) جورج سارتون : تاريخ العلم الجزءان الثالث والرابع .

غير ذلك قوالب أو اختام تحتوي على اسم الجهة صاحبة الختم والتصميم أو الرمز الخاص بها ، وهذه الأختام تعطى صفة الرسمية على الأوراق التي توضع عليها كما تؤكد صحة العلاقة والنسب بين الورقة والجهة صاحبة الختم وتصنع الأختام عادة من النحاس أو المطاط ، وفي أغلب الحالات مستديرة الشكل أو بيضية وسطحها مستو .

وقد تناول أبو بكر الصولي (٢٥٥ - ٣٣٦ هـ) العالم الفقيه الأديب الكاتب المؤرخ موضوع الختم في ثنايا كلامه عن المراسلات ذاكراً كل ما يتصل بأوليات الموضوع منذ عهد النبي ﷺ حتى عهد بني العباس وكيفية ختم الرسائل المكتوبة بخاتمه التي كان يبعث بها النبي محمد ﷺ إلى ملوك الدول المحيطة يدعوهم فيها الى الاسلام وسوف نذكر ذلك في فصل لاحق .

• علم الوثائق Diplomatic

والمقصود بالوثائق من الوجهة التاريخية هو المعاهدات والاتفاقات التي تبرم بين الدول بعضها البعض بشأن الجوار والحماية والدفاع أو تبادل المنفعة والسلع . كما أن هناك الوثائق التاريخية الخاصة بالنواحي الدستورية والتشريعية للدولة . والوثائق : هي الأصول المكتوبة أو المطبوعة للتاريخ والتي تمثل حلقة الاتصال بين الواقعة التاريخية في الماضي وبين المؤرخ في الحاضر . ومن ثم فإنه اذا ضاعت الوثائق ضاع معها التاريخ واذا بقيت حفظت وحفظ التاريخ معها فلا تاريخ بدون وثائق .

• علم الشعارات Heraldic

ويختص هذا العلم بشرح وتفسير الشعارات الرمزية التي تتخذها الدول كما أن هناك شعارات الهيئات والشركات والمصالح والجامعات ودور العلم كشعارات دالة على النشاط والتكوين .

وعلى سبيل المثال فإن كل جامعة لها شعار خاص بها يطبع على الخطابات الرسمية وعلى أظرف المراسلة كما تطبع به الشهادات الدراسية . وترجع أهمية دراسة علم الشعارات لإبراز الناحية الرمزية بجانب أنه يمثل علامة مسجلة Trade mark ويعرف بها لكل جهة ولكل هيئة على حدة . ولا يحق لأي جهة أخرى تقليد هذا الشعار أو استخدامه في مكاتباتها أو طبعه على إنتاجها .

• علم الشكل الظاهري المنسوخ Morphology of hand writing

وهو العلم الذي يعنى بالشكل الظاهري للكتابة ويعنى بالملامح العامة لحروف الهجاء

وما يتصل بها من حيث الأقلام والأحبار ونوع الورق ، وما إلى ذلك من فوارق بين كاتب وآخر . والكتابة اليدوية هي تلك التكوينات الخطية التي تجرى بها يد الانسان وتشترك في اخراجها أصابع وعضلات اليد والذراع ، كما تقوم العين بدور هام فيها ، ويتم كل هذا تحت اشراف العقل المدرك للانسان . ومن جميع هذه الحركات العضلية تظهر الكتابة في صورة أحرف ومقاطع وألفاظ وعبارات تعبر عن معنى معين أو فكرة خاصة ، أي أن الكتابة اليدوية هى المحصلة النهائية لعمل يقوم به العقل أولاً في تكوين الأفكار وبلورة المعاني ، ثم تنقل الأعصاب هذه الأفكار والمعاني إلى العضلات المختصة لتظهر أخيراً على الهيئة التي نراها ونقرأها وندرك ما تحويه وما تعبر عنه . والكتابة اليدوية الطبيعية هي تلك الكتابة التي تصدر من الكاتب بصورة تلقائية وتجرى بها يده في حركات اعتادت عليها والتزمت بها ، فإذا ما تدخلت بعض العوامل في عملية الكتابة مثل محاولة التجويد والتحسين وكان من جراء ذلك أن أصبح للإرادة الواعية دور قيادي في توجيه اليد الكاتبة والسيطرة عليها وعلى حركاتها بصورة ترتب عليها أن تتجه أصابع هذه اليد عن سيرها الطبيعي ، وتسلك سبيلاً تغاير ما درجت عليه فإنه يطلق على الكتابة التي تنشأ عن هذا النحو : كتابة التحسين والتجويد أو الكتابة غير الطبيعية . وعليه فإن دارس الكتابة العربية لابد وأن يكون ملماً بمبادىء وأساسيات العلوم التي ذكرناها لكي يتمكن من الفحص والدراسة والوصول إلى رأي سديد .

الكتابة فيما قبل التاريخ Pre-Historic script or protoliterate :

إن مرحلة ما قبل التاريخ هي تلك المرحلة التي لم تخلف وراءها أي خبر مكتوب بمفهومنا المعاصر . ومن الحقائق التاريخية التي توصل العلماء إليها أنه منذ الأزمنة السحيقة ، ارتبطت الكتابة بالنقش والرسم والخربشة على جدران الكهوف ، وهي بقصد الأخبار أو الإعلام وتلك هي محاولات الانسان للتوصل الى وسيلة تمكنه من تتبع الأخبار وإيصالها للآخرين . ومهما يكن نصيب تلك الرسومات والنقوش من السذاجة والعفوية فلاشك أنها تعتبر السطور الأولى للكتابة ، التي لولا نشوءها لما كان للإنسان حضارة أو تاريخ . ولقد اهتدى الانسان إلى تدوين هذه الرسومات منذ أكثر من عشرين ألف سنة في قالب بدائي تمثل في رسومات ساذجة وبسيطة للمشاهدات والحيوانات والنباتات المحيطة به ، كان ينحتها على جدران كهوفه .

وكان هذا التدوين هو وسيلة الذيوع والانتشار . ولذا تعتبر الكتابة مطلع التاريخ البشري وما قبلها مجاهله . كما أن تلك الكتابة البسيطة هي أهم الأحداث في تاريخ الانسان

والحضارة . من هنا نستطيع القول أن نشأة اللغات سابق على نشأة الكتابات وحاجة الانسان الى معرفة اللغة سبقت حاجته الى الكتابة وطرق التدوين .

وليس من شك أن معرفة الكتابة ونشأتها خطوة هامة خطتها البشرية وهي تتحسس موقع أقدامها على درب الحياة الطويل ، وهي ظاهرة انسانية عامة قديمة العهد لجأ اليها الانسان منذ أن عرف انسانيته . وهي حدث يمكن أن يعتبر بداية لتاريخ المعرفة وتطور الفكر البشري . وقد مضت آلاف السنين كان البشر يتفاهمون فيها بالاشارة أو بالأصوات[١] أو بلغات غامضة لم يستدل أحد على بداية نشأتها ، وكانت تصل مجموعة من البشر قطنت في بقعة معينة على سطح الأرض أساليب وسمات للتفاهم الخاصة ،

إلى أن أمكن وبعد عشرات القرون التوصل إلى بدائيات الكتابة الرمزية والصورية والتي أخذت طريقها من خلال النطق[٢] والسمع .

كتابة الحضارة المصرية القديمة :

بدأ المصريون القدماء في تشييد احدى أقدم الحضارات في العالم على ضفاف نهر النيل في بداية الألف الخامس قبل الميلاد . ومع بداية عصر الأسرات سنة ٣٤٠٠ ق.م شهدت مصر الفرعونية قفزة حضارية هائلة تؤكدها أهرامات الجيزة الشامخة التي لا تزال احدى عجائب الدنيا السبع . ومر التاريخ المصري بعدة مراحل تخللتها فترات تدهور بسبب الحروب الأهلية والثورات وفي أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد بدأ الضعف يدب في أوصال الحضارة المصرية نتيجة لكثرة الحروب والغزوات ، وتوالى على مصر احتلال الأحباش ثم الآشوريين والفارسيين ، وبعد ذلك خضعت لحكم الإسكندر المقدوني إلى أن جاء الرومان سنة ٣٠ ق.م واستولوا عليها في عهد الامبراطور أغسطس قيصر مؤسس الامبراطورية الرومانية .

استخدم المصريون القدماء الكتابة الهيروغليفية لتدوين علومهم وأفكارهم على أوراق البردى وجدران المعابد والأهرامات ، وقد تطورت هذه الكتابة بعد ذلك إلى الكتابة

---

(١) الصوت زفير يصدر من الحنجرة بناء على تعليمات من المخ . وهذا الزفير لا معنى له إلا بالاستخدام وهذا الاستخدام يختلف من مجتمع الى مجتمع اذا ما زيد أو نقص أو علا أو خفت .. بجانب استخدام الأصوات مع الاشارة .

(٢) النطق هو أي شيء يقال يكون له معنى عند الآخرين ويتصف بامكانية التغير الدائم .

القبطية[1] وأول من اهتدى الى فك رموز الكتابة الهيروغليفية هو العالم الفرنسى شامبليون بعد بحث وتدقيق في كتابة حجر رشيد الذى عثر عليه أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٩ . وتدل دراسة الآثار والبرديات على أن قدماء المصريين احرزوا تقدماً ملموساً في علوم الفلك والحساب والطب والصيدلة والهندسة والزراعة وغيرها كما أنهم مهروا في الرسم والنحت والعمارة والتحنيط ، واتقنوا صناعة الحلي وصناعة الزجاج الملون وبرعوا في التعدين والتجارة والتطعيم بالصدف والعاج ، وكانوا أول من دبغ الجلود ونسج الملابس الكتانية بمهارة فائقة .

ويرى كثير من المختصين بهذه الدراسة أن قدماء المصريين كانوا أول من عرف الكتابة وسجلها على القبور والآثار . وبدأت الكتابة تأخذ طريقها عن شعوب الحضارات القديمة كالسامية والسومرية والآرامية والآشورية والكلدانية والفينيقية والعبرية وغيرها من الكتابات التي اختصت بها الشعوب القديمة . يقول المؤرخ جورج سارتون في كتابه تاريخ العلم :

أعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة وسواء أكانوا هم أول من اخترعها أم سبقهم في ذلك السومريون أو الصينيون فهذه مسألة موضع جدل ونظر ، ولكنهم على أي حال اخترعوها مستقلة عن غيرها ، وينبغي ألا ننسى أن اختراعاً كهذا بغض النظر عن موضع ظهوره ، لا يمكن تحديد زمنه بالضبط لأنه لا يظهر دفعة واحدة ولا في زمن معين . وأن ذلك الاختراع بدأ في مصر في عهد ما قبل التاريخ ، ويمكن أن يقال أنه وصل إلى مرتبة من الكمال قبل نهاية ذلك العصر ، لأن أقدم كتابة وصلت الينا ترجع إلى عصر الدولة القديمة[2] وقد عرف المصريون الحروف الهجائية منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد واقترنت معرفتهم لها باستخدامهم صفحات البردى والمداد والقلم والبوص ، وساعدهم ذلك على تهيئة مجتمع متميز عما عاصروه من المجتمعات القديمة تيسرت فيه عملية التعلم ، وتناقل المعارف ، وأصبح فيه لأهل الكتابة شأن كبير ، وذلك هو المجتمع الذي صورته المناظر والنقوش والألقاب والتماثيل واللوحات الجدارية منذ أوائل عصور الدولة القديمة . فمنذ ذلك الحين لا تكاد تخلو نقوش مقبرة أو مناظرها من شخصية تتخذ ضمن ألقابها لقب الكاتب ، أو ما يدور حوله . وقد يكون صاحب هذا اللقب من الكبراء ، فيكون وزيراً أو حاكم إقليم أو قائداً أو كاهناً عظيماً ، أو رئيساً لبيت المال أو طبيباً أو ما شابه ذلك ، كما أنه قد يكون من أواسط الناس فيكون من المشتغلين

---

(١) الأبجدية المصرية انتقلت الى الفينيقيين ثم الى اليونانيين . ثم خلطها المصريون الأقباط في القرن الثالث الميلادي باليونانية ونشروا اللغة القبطية .

(٢) جورج سارتون : تاريخ العلم جزء أول ص ٧٦ – دار المعارف ١٩٧٦ .

بالفنون ، أو من موظفي القصر أو من موظفي بيت المال وما سواه من إدارات الحكومة ، أو من المشرفين على الضياع ، أو يكون من صغار الطبقة الوسطى كموظفي الضياع وكتبة المعابد وكتبة الأسواق .

ومنذ أيام الدولة القديمة ، ظلت أحد الأوضاع الأثيرة لتماثيل الكبراء ما يمثلهم في سمة الكتاب وفي جلسة التربع التي كانوا يتخذونها ، وأقدم المعروف من هذه التماثيل ما يمثل « كاوعب » أكبر أبناء خوفو ، وأبناء أخيه « جدف رع » ثم كان من أشهر العظماء الذين أقبلوا عليها في العصور التالية للدولة القديمة « أمنحوتب بن حابو » ، « وحورمحب » من عصور الدولة الحديثة فمن الرسوم والألقاب والتماثيل يتضح أن الأخذ بنصيب من التعلم أي من ثقافة الكاتب كان يلازم القيام بأعمال ومناصب متباينة .

وأنه لم يكن هناك من حائل مفروض يحول بين الطبقات العادية التي يخرج منها صغار كتبة الحكومة وكتبة الضياع وكتبة الفنون وبين الأخذ بنصيب ما من التعلم .

وأن مدلول لقب الكاتب كان يشرف كبار الشخصيات أن يحفظوا به دائماً ، وحقيقة أن لقب الكاتب في مصر القديمة غالباً ما كان ينصرف إلى التعبير عن شاغل وظيفة كتابية ، وقد تلاحظ للباحثين أن من تماثيل الكبراء التي مثلتهم في جلسة الكاتب البسيط المتربع ما يمثلهم في سن متقدمة بلغوا فيها أرفع مناصبهم ، وذلك مما يرجح أن يكون هدف أصحابها هو التعبير عن فكرة تحصيلهم ثقافة الكاتب أكثر من التعبير عن وظيفة فعلية يتقلدونها ، ولا يخلو من دلالة في ذلك ما قدمناه به من أن أقدم تماثيل الكتبة المعروفة كانت لأمراء ، وأن من كتبة الدولة الحديثة ، من صوروا في مكاتبهم يجلسون على المقاعد المرتفعة ، دون جلسة التربع البسيطة التي اتخذها « ابن حابو » و « حورمحب » وذلك مما يزكي أن هذين الأخيرين قد استهدفا من جلسة الكاتب القديم مدلولها وليس وظيفتها وبهذا فليس ما يحول دون أن نعتبر أهمية لقب الكاتب لدى المصريين ، وسنجد أن ممن كانوا يتلقبون به المعلم وتلميذه على السواء ، كان يرادف في بعض أحواله لقب المثقف أو المتعلم ، ويمكن أن نستشهد هنا بما كان للقب « الكاتب » عند العرب من معنى واسع ، لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة وكان الكاتب عندهم عزيزاً وفيهم قليلاً[1] .

إن استنتاج هدف التعبير عن ثقافة الكاتب فيما يتعلق ببعض التماثيل التي اتخذت جلسة الكاتب لا ينفي أهدافاً أخرى الى جانبه . فمن هذه التماثيل ما جمع إلى جلسة الكاتب

(١) لسان العرب – الجزء الثاني ص ١٩٣ .

عمل القاريء حيث نشرت على فخذيه صحيفة من البردي كتبت عليها دعوات للقربان ، وكان منها ما وضع في معابد الشعائر الأخروية للملوك ، وذلك مما يدعو إلى احتمال رغبة أصحابها في أن يبعثوا على هذه الهيئة في خدمة ملوكهم في العالم الثاني ، كما كان حمل أدوات الكتابة في الرسوم والصور المنقوشة يعتبر من دلائل الشرف ويؤدي نفس الدلالة التي كان يؤديها تمثال الكاتب لصاحبه .

وتدل المتون الدينية من الدولة القديمة على أن الفراعنة لم يكونوا أقل اعتزازاً من رعاياهم المثقفين بإتخاذ سمة الكتاب ، ففي متون الأهرام ما يرجو للفرعون المتوفى أن يغدوا سكرتيراً للإله ، فيهما يعمل الملك على أن يزحزح الكاتب القديم للإله فيأمره بأن يمحو ما كتبه ويقصف قلمه ويمزق كتبه ، حتى يأخذ هو مكانه لنفسه . وفيهما كذلك يتلقب الملك كاتب كتاب الإله .

وهذه الصور جميعها التي تناولت أهل الكتابة والتي نطقت عنها ألقاب الدولة القديمة ومناظرها وتماثيلها ومتونها الدينية . هي بذاتها التي ظل الأدباء والمعلمون والحكماء المصريون يترجمون عنها في تمجيدهم للكتابة والكتاب خلال عصور الدوُلة الوسطى وعصور الدولة الحديثة .

والواقع على وجه الإجمال أنه ما من شعب قديم اله التعليم وأهله ، أو الكتابة والكتاب بإكبار وتمجيد أكثر من المصريين القدماء ، فقد جعلوا للكتابة ربة وهي « سشات » الآلهة الكاتبة ، وتوجوها بزهرة مورقة ؟ أو بنجمة ؟ ذات خمس شعب أو سبع شعب وجعلوا للكاتب رائداً سماوياً وهو « تحوتي » إله العلم والمعرفة . وافترضوا لأربابهم الكبار كتبة مقدسين في السماء يعملون في خدمتهم ، وتمنى فراعنتهم منزلة الكتاب في أخراهم ، ووصف بعضهم بأنه صاحب الكتاب المقدس ، العارف ، وظهر بعضهم في صورة من يحمل أدوات الكتابة ، اعترافاً منهم بأهمية الثقافة والمثقفين . وحيث كانت دوافع التعلم في مصر القديمة ثلاث :

١ - دافع تعلم الكتابة للانخراط في سلك الهيئة الحاكمة والانخراط في سلك الادارة والنفوذ فكان قولهم في ذلك : « إعمل على أن تكون كاتباً ، ينعم بدنك وتصبح كفك لينة وحتى تخرج في بزة بيضاء وتبجل ، وحتى أهل « البلاط يحيونك » .

٢ - دافع تعلم الكتابة لخدمة المطالب الدينية لاكتساب نصيب من العلم الدينى الشخصى .

٣ - دافع تعلم الكتابة تقديراً للعلم وكرامته وهؤلاء قلة على نحو قلتهم في كل مجتمع وكل زمان .

وقد وجد كل دافع من هذه الدوافع أنصاراً يستجيبون له ، وذلك على تباين في أعدادهم من عصر إلى عصر ، ولو أن ذلك لم يحل بطبيعة الحال دون أن يعمل المتعلم بدافعين معاً أو بالثلاثة دوافع جميعها . وثلاثة الدوافع في الحق كانت كفيلة بأن تجعل نسبة المتعلمين المصريين للكتابة نسبة عالية .

وقد كانت الكتابة المصرية رسماً وتصويراً في آن واحد ، ولذا فإن كلمة « سش » تعنى من يخط ويرسم الى جانب معنى يكتب . وكان الرسام يسمى « سش » أيضاً كما يسمى الكاتب . وثمة وجه شبه بين كاتب ورسام مصر القديمة وبين خطاط اليوم فهذا الأخير يفترض فيه أنه حسن الكتابة والرسم .

ويعتقد علماء الكتابات الأثرية أن قيام المعلمين (الخطاطين الرسامين) بتعليم الكتابة كان في أكثر الأحوال يتم في كل القرى حول طيبة الغربية المحدودة السكان . إلا أن غالبية النشاط التعليمي كان في طيبة الشرقية عاصمة البلاد في أغلب عصور الدولة الحديثة . ويستشهدون بذلك على الأعداد الوفيرة من الكسر واللخاف وقطع البردى التي وجدت في المعابد ولدى مداخل بعض القبور الملكية ، ويعزون استخدام الكسر واللخاف حيث يمكن للتلميذ أن يمسح ما عليها ويكتب سواه لعدة مرات ، حتى تتكسر وتصبح غير صالحة للاستعمال . وكان نشاط الخطاطين الرسامين في ذروة ازدهاره في منف والجيزة حيث وجدت لوحات كثيرة من الخشب عليها تمارين الكتابة والرسم ويتضح فيها تجويد الخط والرسم عن قصد مما يؤكد تعهد المعلمين للتلاميذ الناضجين في هذه الفترة التاريخية(١) .

(١) لوحظ أنه ما من مهنة تخلو من مهيمنين : فيما عدا الكتبة فهم أنفسهم المهيمنون « أعمل على أن تصبح كاتباً .. فذلك يعفيك من الكد وتتقي كل عمل يدوي ولا تخضع لرؤساء عديدين » .
راجع : د. عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة – الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦ ص ١٢٧ - ١٣١ .

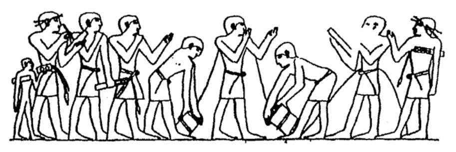


كاتب وتلميذة (صبية)
يرفع لوحة مدادة

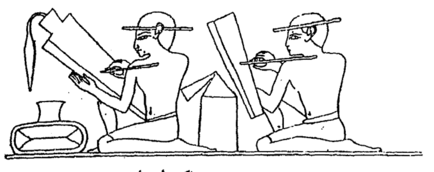
كاتب يتبعه تلميذ (صبي) ←
يحمل لوحة مدادة

كتبة وتلميذهم المساعد

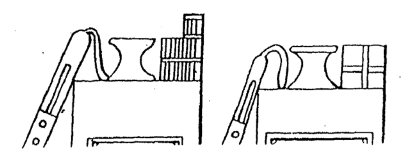
كاتب يملي على تلميذين



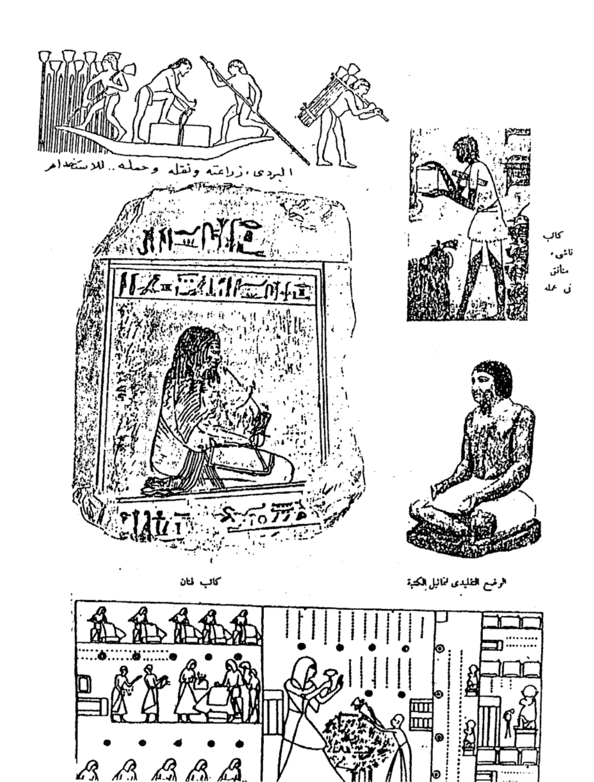
كتبة محاسبون وتلميذهم المساعد



من صور الكتبة أمام أدواتهم



مناضد الكتبة



البردى، زراعته ونقله وحمله.. للاستخدام

كاتب ناشيء متأنق في عمله

كاتب فنان

الوضع التقليدى لتماثيل الكتبة

الكاتب المحاسب واستلام المحاصيل الزراعية ...

الكتابات الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية :

يحدثنا التاريخ بأن بدايات نشأة الكتابة في تاريخ البشرية كان في مصر القديمة كما سبق أن ذكرنا وفي الحضارة السومرية بالعراق وعند الكنعانيين في فلسطين ، ومن هنا استقر رأي علماء الكتابات الأثرية على حقيقة هامة : هي أن الحضارتين المصرية والعراقية هما أقدم حضارات العالم وأهمها ، وأن ما ظهر من حضارات أو ثقافات أخرى كان أقل منهما شأناً واعتمد على إحداهما أو على كلتيهما معاً . وأن هاتين الحضارتين كانتا تلتقيان دوماً ، وإن كثر التساؤل بين علماء التاريخ على أيهما أقدم .. حضارة مصر .. حضارة وادي النيل أم حضارة العراق أو ما تعرف بحضارة مابين النهرين ؟ .

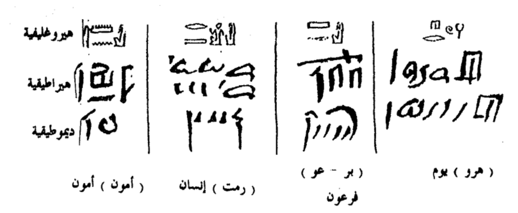
ولا مراء أن العالم القديم (قبل الميلاد بستة آلاف سنة) كان مسرحاً أرحب أفقاً وأكثر تنوعاً في المجتمعات الكائنة من العالم الحديث ، فقد قامت مجتمعات في اقاليم خصبة من آسيا وافريقيا في شمال ايران وجنوب بلاد العرب وفي وادي النيل . تشهد بذلك الآثار التي وجدت وإن كانت مصر وأرض الجزيرة العربية تنفردان بظهور المدن والمعابد . وفي ذلك التوقيت كان التاريخ المصري العظيم قد أخذ يبزغ وكانت الكتابة المصرية القديمة كتابة صورية مؤلفة من صور لأشياء مادية بعينها وصور ترمز لأشياء معنوية وصور ترمز إلى مقاطع كلمات ، ولم تتطور في مظهرها العام إلى أكثر من ذلك بالرغم من أنها تعد من أقدم الكتابات . بمعنى آخر بدأت الكتابة المصرية القديمة بإستعمال صور للتدليل على أشياء وأفكار ، ثم تطورت فكرة الصورة فأصبحت تمثل كلمة من كلمات اللغة ، ثم كلمات ذوات أصوات واحدة ، ثم استعملت رموزاً للدلالة على العلامات الصوتية الساكنة حتى صار لهم أربعة وعشرون حرفاً استعملوا بجانبها رموزاً أخرى . وقد تنوعت الكتابة المصرية القديمة فمنها الهيروغليفية[1] التي استعملت في النقوش وكانت خاصة بالكهان وخدمة الدين ومنها الهيراطيقية المختصرة ومنها الديموطيقية كما في شكل (٢) .

والمشكلة الأولى في اللغة الهيروغليفية تتمثل في صعوبة تعلم كتابتها ، فلم يكن من السهل أن يجيد المرء رسم تلك الصور الدقيقة التي تمثل الأشخاص والحيوانات والطيور والزواحف والأسماك والحشرات والأشجار والنباتات والسفن وقطع الأثاث والأسلحة والأدوات والأشياء الأخرى الكثيرة ، ولم يكن من السهل كذلك استخدام الرموز الكتابية استخداماً صحيحاً في التعبير بثلاث طرق مختلفة هي :

---

(١) كلمة هيروغليفي معناها النقش المقدس في اللغة اليونانية .

أسطر من الكتابة الهيروغليفية



شكل (٢) يبين اسلوب الكتابة المصرية القديمة بالأساليب الخطية الثلاثة الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية على ثلاثة أسطر متتالية

(١) رسم شيء يعبر عن مدلوله مثل صورة كوب لكلمة كوب .
(٢) رسم رمز يعبر عن الكلمة مثل خط متعرج لكلمة ماء .
(٣) رسم صورة يمثل نطقها معنى الكلمة أي رسم الصورة الصوتية للكلمة .

وكانت هذه الطرائق الثلاث المختلفة في التعبير تستخدم معاً وفي وقت واحد . وكان هذا الاسلوب في الكتابة ملائماً للنقش على التماثيل والمعابد والمسلات وما إليها .

والنوع الثاني للكتابات المصرية القديمة هو الكتابة الهيراطيقية وهى خط دارج كان يستعمل للكتابة على ورق البردى ، استخدمه عمال الدواوين وكتاب الدولة . وأما النوع الثالث للكتابة المصرية فهو الديموطيقية وهى مختصرة من الهيراطيقية وتستعمل في كتابة اللغة العامية وهي خاصة بعموم الكتبة من الشعب . أي أن ابتداع المصريين القدامى لنوعى الخط الديموطيقي والهيراطيقي لكونهما أسهل في الكتابة وأيسر في التداول والاستعمال .

وقد كتبوا هذه الأنواع من الكتابات بالقلم ، وكان يؤخذ من السماز الذي ينمو بكثرة في مصر في المستنقعات ، وكانت تؤخذ منه قطعة يتراوح طولها بين ١٦ ، ٢٣ سم وتبرى من أحد طرفيها كما تبرى أقلامنا اليوم . ثم استبدل السمار بالبوص في العصر اليوناني الروماني وظل مستعملاً حتى الوقت الحالي .

أما المادة التي كتبوا عليها بخلاف الكسر واللخاف والألواح الخشبية فهي البردى Papyrus[1] وهو نبات مائي كان ينمو قديماً في مستنقعات مصر السفلى وقد اهتدى الكهنة المصريون الى طريقة جعلوه بها من أهم المواد التي يكتب عليها في العصور القديمة ، والتي ظلت مستعملة في العصور الوسطى وقد كان يمر بعدة خطوات حتى يصبح صالحاً للكتابة عليه فتشق سيقانه إلى شرائح يوضع بعضها فوق بعض ، جانب منها يكون أفقياً والجانب الآخر يكون عمودياً وتضغط هذه الشرائح بعضها الى بعض ضغطاً شديداً ، ثم تصقل فيتكون من ذلك صفحات يكتب عليها وتلصق هذه الصفحات بعضها الى بعض في شكل طولي فينتج من ذلك شريط طويل يلف حول بعضه ويصبح أشبه ما يكون بالاسطوانة أو الملف Roll وهكذا كان شكل الكتاب في أول ظهوره وقد ظل بصورته هذه مدة طويلة . كما في شكل (٣) .

وكانت الصفحة الأولى من هذا الملف أو الكتاب تعمل بحيث تكون أقوى واسمك من الصفحات الأخرى التي تليها في اللصق لأنها كانت بمثابة الغلاف الخارجي لهذا الكتاب

---

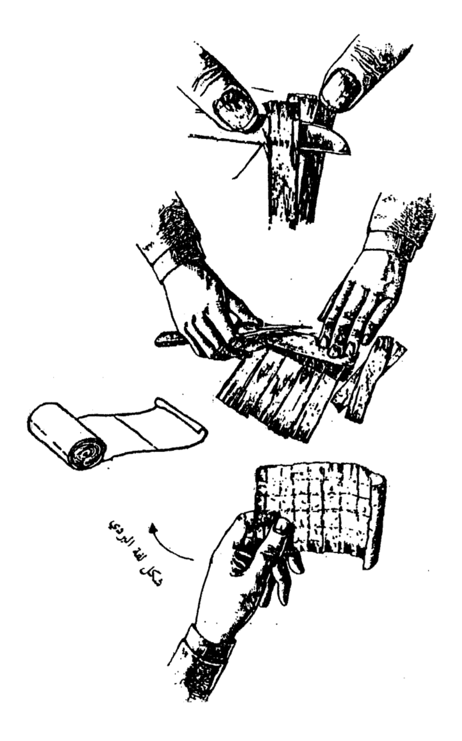
(١) اشتق اسم الورق بالانجليزية Paper من اسم نبات البردي Papyrus .

الأسطواني الشكل . هذا النوع من الورق البردي يعتمد كلية على ألياف النبات في صورتها الطبيعية ويختلف تماماً عن الورق الذي نستعمله الآن والذي يعتمد أساساً على التخلص من صورة الألياف الطبيعية . وقد كانت الحكومة تحتكر صناعة البردي وتشرف عليه إشرافاً دقيقاً ، وهي وحدها صاحبة الحق في الانتاج والبيع . كما اتخذ الفراعنة من جلود الحيوانات مادة للكتابة عليها ، فقد عرفوا كيف يعالجونها وكيف يدبغونها حتى تصير طيعة لهم في تدوين معارفهم عليها ، واستعمل الفراعنة الجلود في أغراض أخرى كثيرة فصنعوا منها الأساور ، وغطوا بها الوسائد وفرشوا بها أرضيات مركباتهم واتخذوا منها اطارات لعجلاتهم وصنعوا منها النعال ومقاعد الكراسي وعدة الخيل .

واستعمل الفراعنة أيضاً الرق Par في أغراض الكتابة والتدوين ، وقد اتخذوه من الأمعاء بعد أن فركوها بتراب الحجر الجيري حتى تصبح مصقولة صالحة للكتابة عليها .

واستخدام الجلد والرق في الكتابة لم يقض على استعمال البردى في هذا الغرض ، بل لقد ظل البردى متفوقاً عليهما في هذا المجال لأنه يمتاز عليهما بتوفر مادته ، واستقلالها عن غيرها ، فلا يستلزم الحصول عليه التضحية بالحيوان مثل الجلد والرق . والرق أغلى ثمناً من البردى ومن الجلد ، لذلك لجأ الناس الى استخدامه أكثر من مرة فكانوا يمحون النصوص القديمة ليكتبوا عليه نصوصاً جديدة . ولاشك أن هذا التصرف الذي دفعت اليه الرغبة في الاقتصاد قد أضاع علينا الكثير من النصوص القديمة التي كان يمكن أن تفيد في اعطائنا صورة أكثر وضوحاً عن الماضي لو أنها وصلت الينا .

ومع استعمال الرق والجلد تطور شكل الكتابة وتغير شكل الكتاب ، إذ أصبح صحائف تجمع بعضها الى بعض . ولم يعد في صورة الدرج أو الملف الاسطواني ، وقد كان من الطبيعي أن تظهر الحاجة الى غلاف يمسك هذه الصحائف حتى يحفظها من الضياع أو التلف وهكذا ظهر فن تغليف وتجليد الكتب ، وأخذ الكتاب شكله الذي هو عليه الآن ، إلا أنه كان أكبر حجماً نظراً لكونه مخطوطاً باليد ، وقد كان غلاف الكتاب في أول الأمر يصنع من برديات قديمة استنفذت أغراضها واستغنى عنها فألصقت بعضها ببعض حيث أصبحت ألواحاً سميكة أشبه ما تكون بالورق المقوى « الكرتون » . واستبدلت ألواح البردي هذه في بعض الأحيان بألواح من الخشب لنفس الغرض ، ومست يد الفنان هذه الألواح الخشبية فزينته بأشرطة من صفائح الذهب والفضة أو زينته بصفائح من هذين المعدنين ، وزينت هذه الكسوة المعدنية في بعض الأحيان بالأحجار الكريمة وقد ضاعت معظم هذه الأغلفة لطمع الناس في ذهبها أو فضتها وفي أحجارها الكريمة ، على أنه قد أفلتت من الضياع أمثلة نادرة من الأغلفة لا تزال معروضة في بعض



شكل (٣) يبين طريقة تصنيع لفائف البردي

المتاحف الأمريكية والانجليزية . كذلك استخدمت شرائح الجلد في تغليف الكتب وكانت هذه الخطوة هي بداية فن تجليد الكتاب بالجلد وهو مالم يتغير كثيراً منذ العصور القديمة .

حجر رشيد وحل رموز الكتابة المصرية القديمة

كان حل رموز الكتابة المصرية القديمة عملاً شيقاً في تاريخ الآثار والحضارة وتدور وقائع قصة فك رموز الكتابة المصرية على حجر رشيد[1] حيث عثر عليه صدفة أحد ضباط نابليون بونابرت عام ١٧٩٩ في الحملة الفرنسية على مصر بعد عام واحد من قدومها . أدرك الضابط الفرنسي المصاحب للعلماء في عمليات الحفر في رشيد أن للحجر قيمة تاريخية هامة ، فأرسله الى قيادته في القاهرة ، ومن الطريف أن الضابط الكبير في القاهرة الذي استلم الحجر كان مهتماً باللغات القديمة . وعندما فحص الوجه المستوى منه بلغاته الثلاثة الشديدة الوضوح في التقسيم ، والبالغة الغموض في المعنى آنذاك ، لم يستطيع أن يدرك شيئاً . ولكنه خمن أن الجزء العلوي يحوي كتابة هيروغليفية وأن الجزء الأوسط يحوي لغة أخرى . أما الجزء الأسفل فكان باللغة اليونانية القديمة التي يعرفها الضابط الكبير . وسأل نفسه سؤالاً : هل معنى هذا أن الحجر يحوي نصاً واحداً بثلاث كتابات مختلفة ؟ وبدأ العمل من فوره فترجم الجزء الأول إلى الفرنسية . وبعث الى باريس بواقعة الحصول على الحجر . فبعث نابليون من هناك – وكان قد عاد اليها من مصر – بعض الخبراء الى القاهرة لينقلوا نسخاً مما يحويه الحجر ، عن طريق ضغط ورق مقوى فوق النقوش الغائرة على سطحه فتصنع بذلك قوالب طبق الأصل من النقوش . وحدثت في تلك الأثناء مفاجأة جديدة ، هي تدخل الانجليز ضد الفرنسيين في مصر واستيلاء الانجليز على حجر رشيد فوصل الحجر الى المتحف البريطاني بلندن عام ١٨٠٢ ، وظل هناك سنيناً طويلة مستعصياً على الحل ، برغم وضوح مدلول النص اليوناني القديم الذي يتضمن عبارات ثناء وتمجيد موجهة الى الملك « بطليموس » الخامس . وهي نص قرار مجمع

---

(١) عرف حجر رشيد بهذا الاسم نسبة الى مدينة رشيد التي تقع في دلتا النيل على بعد أميال قليلة من المكان الذي عثر فيه على الحجر في حصن من الحصون القديمة عام ١٧٩٩ . وقد نقشت على هذا الحجر البازلتي الأسود كتابات هي عبارة عن مرسوم يرجع تاريخه الي سنة ١٩٦ ق.م يحدد عبارات التكريم التي يدعى بها لبطليموس الخامس في المعابد . ويحمل الحجر ثلاث صور مختلفة من نص واحد . الأولى تتكون من ١٤ سطراً مكتوبة بالخط الهيروغليفي المصري القديم والثانية من ٢٣ سطراً بالخط الديموطيقي . وهو خط النسخ العادي المستمد من الخط الهيروغليفي والذي يستخدم في شئون الحياة اليومية . أما الثالثة فتتكون من ٥٤ سطراً مكتوبة باللغة والحروف اليونانية انظر شكل (٤) راجع : Budge & Wallis: Easy lessons in Egyptian Heiroglyphics London 1942 pp. 1-6

الكهنة المصريين في منف بزيادة مظاهر الاجلال التي تقدم للملك بطليموس الخامس . ومنها أن تؤدي له صلوات خاصة وأن يقام له في كل معبد تمثال . وظل العلماء والباحثون يحاولون فك رموز حجر رشيد بمقابلة الكلمات اليونانية بنظيرتها الهيروغليفية ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة .



حجر رشيد مفتاح اللغة المصرية القديمة

شكل (٤) السطر الأخير من الكتابة الهيروغليفية المصرية على حجر رشيد

ثم استطاع بعض الباحثين بعد دراسة طويلة للنقوش المصرية القديمة ولعدد كثير من البرديات أن يميزوا بين الكتابات المختصرة التي عرفت بالهيراطيقية وبين الكتابة الأكثر اختصاراً والتي عرفت بالديموطيقية . وبذلك كشف الباحثون عن أول باب لحل لغز كتابة الحجر ثم استطاع « توماس يونج » الانجليزي أن ينجح في استنتاج عدد من الرموز الهيروغليفية . ولكن هذا الاستنتاج لم يتقدم خطوة عدة سنوات ، حتى جاء « شامبليون » الفرنسي الذي بدأ بالبحث عن اسم « بطليموس » الذي تكرر ذكره في النص اليوناني وعثر شامبليون على ضالته في صورة ثمانية رموز داخل مستطيل ، تقابل الحروف الثمانية لاسم بطليموس في هجائه القديم شكل (٥) . ثم أخذ يبحث عن أسماء ملكية أخرى لمقابلة رموزها بما تمثله من حروف . واتجه لاستكمال بحثه في مسلة مصرية قديمة فيها نقوش بالهيروغليفية واليونانية . وهناك وجد اسم « بطليموس » محاطاً بالاطار نفسه ، ولكن الأكثر أهمية لبحثه أنه وجد اسماً ملكياً آخر منقوشاً بالطريقة ذاتها ، أي داخل مستطيل . وطبقاً للنص اليوناني على المسلة كان الاسم هو « كليوباترا » وقارن « شامبليون » بين الاسمين فوجد أربعة رموز مكررة ، كل في مكانه الصحيح من هجاء الكلمة ، غير رمزين في آخر اسم الملكة . وبعد بحث شاق تبين له أن الهيروغليفية تضم رموزاً شارحة الى جانب تلك الرموز التي تقابل الأبجدية . وترجم الرمزين وهما الملكة المقدسة . وبعد هذا العناء توصل شامبليون إلى حل لغز الكتابة المصرية القديمة . وارتبط اسمه بحجر رشيد الذي فتح أوسع الأبواب لدراسة الحضارة المصرية القديمة . كان ذلك الحدث في الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، حيث اندفع الباحث الفرنسي الشاب المولع بالدراسات المصرية القديمة ، الى داخل الحجرة التي كان يعمل بها أخوه في المعهد الفرنسي الوطني في باريس ، وما كاد يصرخ قائلاً : « وجدتها » حتى خر مغشياً عليه ، وكان شامبليون ، الفقير المستنفد الطاقة من العلم والإجهاد قد توصل من توه إلى حل ألغاز الكتابة الهيروغليفية المصرية ، فلما أفاق بعد أيام من غشيته ، أعلن هذا النبأ الخطير في خطاب إلى مسيو « داسييه » سكرتير أكاديمية النقوش الخطية والآداب في باريس . وتأيدت كشوف شامبليون حين استطاع أن يتعرف على رسم « بطليموس » وبهذا فتح الباب للفهم الكامل للرموز الهيروغليفية التي كانت مفتاح التاريخ المصري القديم الذي ظل مجهولاً مدة ١٥٠٠ عام .

وقد ظلت الصور مصاحبة للرموز الهيروغليفية عند المصريين حتى بعد أن أصبحت الكتابة الهيروغليفية ذات مقاطع متميزة ، وأخذت رموزها قيمة صوتية محددة بصرف النظر عن معناها الأصلي . وقد بقيت الرموز الهيروغليفية ثلاثة آلاف عام أساساً للكتابة على الآثار نظراً لما تتحلى به من خصائص فنية .



شكل (٥)

وجد شامبليون اسم « بطليموس » محاطاً بإطار .. كما وجد اسماً ملكياً آخر منقوشاً بالطريقة ذاتها أي داخل إطار ، وطبقاً للنص اليوناني على المسلة كان هذا الاسم الثاني هو « كليوباترا » وقارن شامبليون بين الاسمين ، فوجد أربعة رموز مكررة فيهما وشيئاً فشيئاً توصل شامبليون أن المصريين القدامى كانوا يستخدمون في كتاباتهم الهيروغليفية رموزاً شارحة الى جانب تلك الرموز التي تقابل الحروف الأبجدية وعرف أول الرمزين في نهاية اسم الملكة يعنى الصفة « مقدس » أما ثاني الرمزين وهو على شكل بيضة فيعني « ملكة » وهكذا كانت مجموعة رموز الاسم داخل المستطيل تعني « كليوباترا الملكة المقدسة » .

مصر تحفظ تراث الإنسانية القديم بصناعة وتصدير ورق البردي :

عرفت مصر الفرعونية ومصر المعاصرة نبات البردي الذي منه اشتق اسم الورق في اللغات الأوروبية الحديثة . والبردي نبات كثير الانتشار في مصر حيث ينمو بكثرة على جانبي الترع والمصارف ، وفي المستنقعات التي يخلفها الفيضان . وحول ضفاف كل البحيرات المنتشرة في أنحاء مصر .

كان الفيضان يأتي الى مصر كل صيف متدفقاً مسرعاً ، فتغمر مياهه لفترة قصيرة ما على جانبي الضفتين من مستنقعات وبرك ، ثم لا تلبث هذه المياه حتى ترتد ، تاركة في مستنقعات الدلتا ادغال الحشائش والبوص بينها نباتات البردي التي كانت مرتعاً للحيوانات الصغيرة .

وفي العصور القديمة استفاد المصري من نبات البردي ، فتوصل بذلك الى احدى الصناعات الهامة التي تعتبر أعظم ما أسدته مصر للحضارة البشرية ، تلك هي صناعة الورق من سيقان البردي .. وساق البردي مثلثة الشكل تحتوي على لباب ليفي ذي عصارة لزجة ، ويختلف طول الساق مابين مترين وثلاثة أمتار ، وقطرها حوالي أربعة سنتيمترات .

ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي بدأ فيه المصريون صنع ورق البردي ، إلا أنه قد عثر على لفافة صغيرة غير مكتوبة في مقبرة من الأسرة الأولى ، كما توجد بالمتحف المصري وثائق صغيرة من البردي من كل من الأسرتين الخامسة والسادسة .

وعلى أية حال ، فعندما توصل المصريون الى الاستفادة من نبات البردي ، كان العمال يقتلعونه من المستنقعات من سيقانه ويربطونها حزماً لينقلوها إلى المخازن . فإذا كان الغرض من سيقان البردي هو صنع الورق ، ينزع الغلاف الخارجي من الساق ، ويقطع الجسم الرخو الداخلي الى شرائح رقيقة ، وتوضع هذه الشرائح جنباً الى جنب بحيث تغطي حواف القطع بعضها بعضاً ، ثم توضع طبقة ثانية فوق الطبقة الأولى في اتجاه متعامد عليها ، وبعد أن تغطى الطبقة العليا الطبقة السفلى تضغط الطبقتان معاً ، وتدق بمطارق من الخشب على سطح مستو ، وكانت لزوجة العصارة تكفي للصق الطبقتين معاً ، بعد اضافة قليل من الماء ، وفي بعض الأحيان كان الصانع يضع تحت هذه الشرائح وفوقها قطعاً من القماش لتمتص العصارة الزائدة من الشرائح ، وبعد أن تندمج الشرائح معاً تترك لتجف ، وبذلك تصبح صالحة للكتابة عليها ، ولما كانت الحاجة تستدعي باستمرار استعمال أكثر من قطعة واحدة لذلك كان العامل يلصق الصفحات معاً لعمل لفافة أو ملف طويل منها بعد تهذيب القطع الزائدة ، وقد بلغ طول بعض اللفات أحياناً حوالي ٤٥ متراً ، وعلى هذه الصورة من اللفائف كان البردي يخرج من المصنع ، ويقتطع المشتري من الملف أو اللفافة القدر الذي يحتاجه لتأدية غرضه . وكان يراعى عند عمل اللفافة أن تلصق أطراف الأفرخ بعضها بالبعض الآخر بحيث تكون الألياف الأفقية على جانب والألياف الرأسية على الجانب الآخر . وكان وجه الورقة الذي تكون فيه الألياف أفقية هو المخصص أصلاً للكتابة ، غير أنه كان من السهل كذلك أن يكتب على ظهر الورقة ، وقلما كان النص المدون على الوجه يستكمل في الظهر ، غير أنه كثيراً جداً ما كان البردي المستعمل يستخدم بعد الاستغناء عن النص المكتوب على الوجه ، إما لتدوين الخطابات الخاصة والحسابات والمسودات وصور الوثائق الرسمية والقانونية والمذكرات ، أو لنسخ المخطوطات الأدبية ، وخاصة المخطوطات التي كان الغرض منها أن تكون كتباً مدرسية ، ومن الطريف أن شكل اللفائف ما يزال حتى يومنا هذا يتمتع بتقدير خاص في المناسبات الهامة . مثل الوثائق الرسمية وتسليم الشهادات في الاحتفالات وما شابه ذلك

وكان هناك استثناء واحد من القاعدة التي تقضي بأن تجري ألياف جميع الأفرخ في نفس الاتجاه . فقد كان الفرخ الخارجي ، أي الفرخ الأول (Protokollon) يلصق بما يليه من الأفرخ مقلوباً ، فتكون الألياف الرأسية على الوجه ، والألياف الأفقية على الظهر . ويرجع السبب في ذلك الى أن الطرف الخارجي في أية لفافة طويلة يتعرض دائماً للشد ، فلو كانت الألياف على ظهر هذا الفرخ أفقية ، لإنفصم بعضها عن البعض الآخر وتفكك البردي ، وتلافياً لذلك كان الفرخ الأول يوضع بحيث تكون الألياف الأفقية على الظهر .

واعتبرت مصر مركزاً هاماً لهذه الصناعة الحيوية ، وأخذت تصدر جزءاً من انتاجها الى بلدان العالم القديم ، وظلت مصر محتفظة بهذه المكانة في صناعة الورق مدة طويلة ، كما تقدمت صناعة البردي تقدماً عظيماً في العهد اليوناني الروماني ، الذي كانت فيه أوراق البردي سلعة رئيسية في الصادرات المصرية . في هذا العهد كانت لفات البردي تدمغ في الصفحة الأولى بعبارة دينية مسيحية إثباتاً للاحتكار ومنعاً للتقليد .

على أن استعمال ورق البردي في مصر كان يوجه غالباً الى سد مطالب الجهاز الحكومي ، ثم الكتب الدينية ، وخاصة ما يسمى « بكتاب الموتى » وهو ملف من البردي يحتوي على بعض الأدعية والصلوات ، كان الناس يحرصون على وضعها مع الموتى لنفعهم في العالم للآخر ، وكانت هذه الصناعة من أروج الصناعات ، وخاصة في العصر المتأخر ، حيث كانت هذه الملفات تكتب وتهيأ بالصلوات وصور الآلهة ، ويترك اسم صاحبها خالياً حيث يكتب بعد شرائها ، وكان يستعمل في الكتابة على أوراق البردي هذه اللون الأسود أو الأحمر ، بحيث تكون الكتابة في أعمدة أفقية أو رأسية بواسطة فرشاة يغمسها الكاتب في المداد ، ويخط بها الخطاط الكتابة على البردي .

ومن أهم البرديات في التاريخ المصري القديم برديات الطب[1] التي كانت تحتوي على خليط من العلاج المنزلي الذي يقوم على معرفة خواص الأعشاب ، والسحر والعرافة في صورة تمائم وتعاويذ ، وملاحظات دقيقة عن وظائف الجسم . ولقد وجدت بردية جراحية هامة كتبت على الأرجح في القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وتتناول العظام المكسورة بصفة خاصة .

---

(١) أهم اللفائف التي كشف عنها حتى اليوم ثمان ، وقد اطلق عليها اسماء كاهون ، وأدوين سميث وايرز ، وهرست ، وبرلين ، وشستر ، وكارلز برج وهناك مخطوطات أخرى في مجموعات فردية ثم هناك من الأوراق التي لا تزال دفينة في أرض مصر . وكانت عملية نسخ اللفائف تتم على يد الكتاب المحترفين لا بواسطة الأطباء . راجع شفيق غربال وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني مجلد ١ ص ٥٢٤ .

كانت هناك عادة سائدة خلال بعض الفترات في مناطق معينة من مصر ، وهي أنهم كانوا يصنعون أغلفة المومياءات من الورق المقوى ، أي يلصقون من البردي (أو الكتان) بعضها بالبعض الآخر مما يقوي الورقة ويجعله متيناً ، ثم يشكلون هذا الورق المقوى بشكل المومياء ويكسبونها بالملاط المطلي بالألوان ، فاذا كسرت الأغلفة وفصلتِ الطبقات بعضها عن بعض ، وأزيل الطلاء والملاط ، فمن الممكن استخلاص البردي الذي نجده في بعض الأحيان كان قد استعمل للكتابة قبل وصوله الى أيدي صانعي أغلفة المومياءات .. وعن هذا الطريق وصلت المتاحف كثير من النصوص القيمة ، بعضها مؤلفات أدبية ، وبعضها الآخر وثائق تختلف في درجة أهميتها .

وكان من المألوف في العصر البيزنطي ، وربما كذلك في العصر الروماني ، أن يكتب على وجه الفرخ الأول من اللفافة (Protokollon) عنوان بإسم ولقب الموظف الذي كان إحتكار صناعة البردي يدخل في اختصاصه ، وبمضي الزمن أصبح الاسم (Protokollon) يطلق على هذا العنوان ثم صار يطلق فيما بعد على النص الذي يلي العنوان ، ومن هنا جاء استعمال كلمة (بروتوكول) وإن كان معناها في الأصل هو « الفرخ الأول » .

والى جانب صناعة الورق استعمل المصري القديم البردي في أغراض أخرى ، وأولها القوارب الصغيرة التي كانت تصنع من سيقان البردي المحزومة والمربوطة معاً على شكل قارب بسيط ، كذلك كان يستعمل البردي مثل بقية النباتات ذات الألياف في صنع الحبال ، وذلك بجدل الألياف معاً بعضها على بعض ، واستعملت العيدان القوية من البردي بمثابة أعمدة لحمل الأسقف الخفيفة المصنوعة من الحصير ، ولذلك كانت هذه العيدان تغرز في الطين ثم يمد عليها الحصير ، وكان الحصير يعد من متاع البيت المصري الذي لا يمكن الاستغناء عنه ، فاستخدم في تغطية الأرضية وبعض المقاعد والأرائك ، واستخدم كذلك ستائر للأبواب والنوافذ . إلا أن أهم ما بقي من قصة هذا النبات هو صناعة الورق .

بدأت مصر في القرن السابع قبل الميلاد في تصدير البردي إلى العالم اليوناني بسبب خفة ومتانة أوراقه وكان حملها إلى مسافات بعيدة أمراً ميسوراً سواء على هيئة أفرخ منفصلة أو لفافات طويلة ، وبذلك اتاحت لليونان استخدام أداة تلائم الكتابة أكثر من أي شيء استخدموه من قبل ، فأخذ عدد الكتب اليونانية في الازدياد ، وكان اليونان يطلقون على اللفافة المصنوعة من البردي اسم (Byblos) وقد كتبت هذه الكلمة فيما بعد (Bibpos) ومنها اشتقت كلمة (Bible) ومنه اشتقت اللغات الأوروبية الحديثة اسم بيبر (Paper) للورق ، كما كانوا يسمون مادة البردي خارتيس (Chartes) ومن الكلمة اليونانية اشتق

اللفظ اللاتيني (Charta) للدلالة على ورقة بردية ، ولهذا ما زال الايطاليون يسمون الورق (Carta) .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد بدأ اليونان يدونون تراثهم الأدبي منذ عصر هيوميروس على كميات ضخمة من لفافات البردي التي أخذت تتداولها الأيدي ، أو تباع في الأسواق .

وعندئذ ظهر هواة تكوين المكتبات ، التي لم تكن سوى أمكنة توضع فيها لفافات البردي ، ويقال أن « يوربيدس » Uropid كانت لديه أضخم مجموعة من لفافات البردي في عصره ، وعندما أنشأ أفلاطون Plato في القرن الرابع مدرسة للبحث الفلسفي في الأكاديمية[1] زودها بمكتبة ، وأنشأ أرسطو في مدرسته مكتبة أكبر من هذه .

وبعد وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م أصبح بطليموس ابن لاجوس أحد قادته المقدونيين ملكاً على مصر ، وبذلك صار ذلك الرجل اليوناني المثقف حاكماً على الدولة التي تمد باقي العالم بورق البردي ، وكانت صناعة البردي في مصر – على الأرجح – احتكاراً للملك في عهد خلفاء بطليموس الذين حملوا جميعاً اسم مؤسس الأسرة ، وبذلك صارت المادة اللازمة لصناعة الكتب في المنطقة التي سادتها الثقافة اليونانية تأتي من مصانع مصر وحدها .

ولما كان بطليموس أغنى رجل في العالم المعروف وقت ذلك ، علاوة على سيطرته على مورد البردي في العالم ، لذلك فقد دفعه طموحه إلى تأسيس أعظم مكتبات العالم ، وهي مكتبة الاسكندرية ، وألحق بهذه المكتبة معهداً يسمى Museum وكانت مباني المعهد ملحقة بالقصر المطل على البحر في الإسكندرية ، وللمعهد مدير يعينه ملك مصر ويحمل لقب « كاهن ربات الفنون » وكان العلماء والفلاسفة الإغريق يتوافدون على الإسكندرية من جميع أنحاء العالم ليتوفروا على البحث في المعهد يساعدهم على ذلك توافر المراجع والمؤلفات في المكتبة[2] . وكان هؤلاء العلماء يتقاضون مرتبات من الملك حتى عام ٣٠ ق.م ومن الحكومة الرومانية بعد هذا التاريخ .

---

(١) أقدم مدرسة فلسفية أسسها افلاطون في اثينا عام ٣٨٧ ق.م ، درس فيها الرياضيات والفلسفة وكتب على بابها من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا . قام على أمرها تلاميذه من بعد إلى أن أغلقها جستنيان عام ٢٥٧ م ، راجع المعجم الفلسفي د. ابراهيم مدكور وآخرون ص ١٩ .

(٢) إذا تتبعنا ظاهرة انشاء المكتبات في الحضارات القديمة نجد مكتبة الاسكندرية أشهر ما ذكره المؤرخون وأهم حدث علمي على الاطلاق في تاريخ الحضارة وتدوين العلم في العصور القديمة .

ويقال أن مكتبة الاسكندرية كانت تحتوي في أواخر عهد فيلادلفوس (عام ٢٨٥–٢٤٧ ق.م) على ٤٠٠,٠٠٠ لفافة ، مختلطة و « ٩٠,٠٠٠ لفافة » غير مختلطة والمقصود باللفافات المختلطة أنها كانت تحتوي على أكثر من مؤلف أدبي واحد ، وحوالي عام ٥٠ ق.م زاد عدد اللفافات إلى ٧٠٠,٠٠٠ لفافة ، وكانت هناك أيضاً مكتبة صغيرة يطلق عليها اسم « المكتبة الإبنة » ملحقة بالسرابيوم (معهد سيرابيس) في الحي الوطني بالإسكندرية ، وكانت تحتوي في عهد فيلادلفوس على ٤٢,٨٠٠ لفافة . ولقد اتضح أن هذا العدد الهائل من اللفافات المختلطة وغير المختلطة في المكتبة الكبيرة وفي مكتبة السرابيوم كان يزيد كثيراً عما يتطلبه تدوين كل المؤلفات الأدبية ، التي أنتجها العالم اليوناني حتى ذلك الحين ، مما يدل على أن جزءاً كبيراً من هذه اللفافات كان يحتوي على نسخ مكررة[١] .

وتتضارب الروايات التي ترددت عن المصير الذي آلت اليه مكتبة الاسكندرية . فهناك رواية ترددت منذ القرن الثاني المسيحي تقول أن المكتبة أحرقت عرضاً عندما أشعل قيصر النار في الاسطول المصري عام ٤٧ ق.م ، ولكن الاعتقاد السائد الآن هو أن الحريق التهم بعض المخازن المطلة على البحر ، التي كانت تمتلىء بلفافات البردي المعدة للتصدير ، ولم يلتهم المكتبة نفسها ، ومن المحتمل أن المكتبة الكبيرة اختفت قبل نهاية القرن الثالث الميلادي بسبب التبديد والإهمال أو بسبب الحرائق وحوادثها ، أما الفرية التي تزعم بأن عمرو بن العاص هو الذي أحرق مكتبة الاسكندرية عام ٦٤٢ م فقد ترددت في القرن الثالث عشر الميلادي ، ولقد استبعد العلماء المحدثون بصورة قاطعة هذا الزعم الخاطىء ، واعتبروه خرافة لا نصيب لها من الصحة وذلك لسبب بسيط هو أن المكتبة لم تكن موجودة أصلاً بالإسكندرية عندما غزا عمرو بن العاص مصر[٢] .

---

(١) رغم أنه كان للمعابد المصرية القديمة مكتبات ولكنها كانت للأغراض الدينية والتعليمية وكانت متصلة بالمحفوظات وشبيه بهذا النشاط المكتبي في الحضارة البابلية والآشورية في العراق القديم . وأشهر مكتبة في حضارة ما بين النهرين هي تلك المكتبة الملكية لآشور بانيبال (القرن السابع قبل الميلاد) حيث كان شغوفاً بالقلم والكتب .
د. أنور عبد الواحد : قصة الورق ص ٢٠ .
راجع أيضاً : د. مصطفى العبادي : مكتبة الاسكندرية القديمة ١٩٧١ الأنجلو ص ٤٦–٥٤ .

(٢) راجع د. نظمي لوقا : عمرو بن العاص أعلام العربية العدد ٩١ ١٩٧٠ ص ١٨٧ .

حضـارة مابين النهرين « العراق القديم »

نشأت حضارة مابين النهرين في وادي الرافدين دجلة والفرات (العراق حالياً) وكانت معاصرة لحضارة المطريين القدماء إبان ازدهارها على ضفاف النيل فقد أسسها السومريون الذين قدموا من المناطق الباردة في مرتفعات ايران والقوقاز والأناضول ثم حلوا حوالي عام ۳۰۰۰ ق.م بالقرب من مصبي دجلة والفرات ، إذ لم يكن للنهرين آنذاك مصب واحد كما هو الحال اليوم ، وينتمي السومريون الى العنصر « الآري » أو « الهندي الأوروبي » ولكن مملكتهم التي امتدت من البحر الأدنى (الخليج العربي حالياً) الى البحر الأعلى (البحر الأبيض المتوسط حالياً) لم تدم طويلاً ، فعندما تكاثر عدد الساميين المهاجرين من بلاد أمورو (سوريا حالياً) طمعوا في السيطرة على سهول الرافدين واستولوا في عام ۲۷۵۰ ق.م على مملكة السومرين ، وشادوا عاصمة لدولتهم سموها « أكاد » ولذلك عرفوا بإسم « الأكاديين » وانتقلت السيطرة بعد ذلك إلى البابليين الذين اتخذوا من « بابل » عاصمة لهم وبلغت حضارتهم أوج ازدهارها في عهد حمورابي[1] الذي أحسن تنظيم دولته وبسط نفوذها ليشمل بلاد « آشور » في الشمال وبلاد « أمورو » في الغرب . وبعد البابليين جاء « الآشوريين » وهم مزيج من شعوب سكنت شمالي بلاد « الرافدين » وغلب فيها العنصر السامي ، واقتصرت دولتهم في البدء على منطقة « كردستان » و « الموصل » الحاليتين ، وكانت عاصمتها مدينة « آشور » ثم مدينة « نينوي » وفي عهد « آشور ناصر بال » اتسعت رقعة الدولة الآشورية حتى ضمت آسيا الصغرى وفينيقيا وفلسطين وبلغ خطرها مصر . وفي عام ٦١٢ ق.م سقطت دولة

الآشوريين وانتقلت الحضارة في بلادها مابين النهرين الى الكلدانيين الذين قدموا أصلاً من أمورو وتمركزوا في بابل وأعادوا إليها مجدها القديم . لكن دولتهم لم تعمر طويلاً فقد احتلتها قورروش الفارسي في عام ٥٣٩ ق.م. وانهارت حضارة بلاد مابين النهرين بعد أن خلفت الكثير من الآثار الفكرية التي تزخر بها مكتبة ثور.بن بعل المعروف عند الأوروبيين بإسم « آشور بانيبال » والوثائق التي يعتمد عليها في دراسة تراث شعوب بلاد ما بين النهرين عبارة عن ألواح من الآجر (الطين المجفف) ، اكتشفت معظمها السير هنري لابارد عام ١٨٤٩ م وكانوا يكتبون عليها بما يشبه المسمار ثم يجففونها في الشمس أو النار حتى تقسو ، ولذلك عرفت كتابتهم بإسم الكتابة المسمارية أو الأسفينية Cuneiform

---

(١) حمورابي ملك بابل عام ١٧٠٠ ق.م وهو أكبر مشرع للنصوص القانونية في الدولة البابلية القديمة . راجع د. عبد الفتاح غنيمة : نحو فلسفة السياسة ، النظم والنظريات والمذاهب ١٩٨٨ ص ٣٣ .

script . وتشهد هذه الألواح على تفوق شعوب بلاد مابين النهرين وبراعتهم في عدد من فروع العلم والمعرفة . كما أن اتصالهم بالمصريين القدماء سواء عن طريق التجارة أو الغزوات ساعد على تبادل المعارف واقتباس الخبرات . ولاشك أن حضارة المصريين وحضارات السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين هي الأساس العلمي الرائد الذي قام عليه تطور الفكر البشري وأفادت منه كل حضارات العالم القديم بدرجات متفاوتة .

الفكر السومري القديم[١]

الفكر السومري يمثل حلقة أصيلة في تطور الفكر الإنساني ، فقد بدأ الإنسان السومري حياته في تلك المنطقة بإنشاء القرى وإقامة الحياة الزراعية والصناعية المستقرة فيها ، ولكنه سرعان ما واجه منذ البداية بيئة متغيرة لا تنعم بالإستقرار والطمأنينة ، بل تتصف بالتقلب والتغير المستمر . فاتجه الانسان السومري إلى البحث عن القوى الخفية الخيرة والشريرة التي اعتقد بتحكمها في عالمه ، واعتبر السماء مصدر الأمطار ذات أولوية خاصة في تفكيره ، وقد عبر عنها في لغته بلفظ آن An أو إله السماء ، كما اعتقد في وجود قوى أخرى مثل الهواء أو الشمس والقمر والنجوم والبحر والنهر . جعل لها آلهة تتحكم فيها وكانت الآلهة من وجهة نظره تأكل وتشرب وتتزوج وتنجب وتحارب وتقتل وغير ذلك من مختلف ظواهر التصرفات الانسانية البحتة ، وكان الإله إنليل إله الهواء والرياح والجو له صفتان خيره عندما يكون الجو صحواً وشريرة عندما تكون الزوابع والعواصف التي تهدد حياة الإنسان . وكان الإله إنكي إله الماء والأرض والعالم السفلي والحكمة ، وننحرساج هي إلهة الأمومة والإنجاب والجبل ، زوجة الإله آن إله السماء ، أما إله الشمس أوتو فهو في مرتبة ثالثة لكل الآلهة . وعشتار هي إلهة الحب والخصوبة . وكان الفكر السومري يعتمد على بعض القيم والمباديء الأساسية المستمدة من تجاربه :

١ - فالخلود للآلهة والإنسان ينعم بخدمتها وينفذ أوامرها وحياته تنتهي بنزوله الى العالم السفلي .

---

(١) إن تعرفنا على تاريخ العراق القديم حديث نسبياً ، فحتى أواخر القرن الثامن عشر لم نتجاوز معلوماتنا عن هذه البلاد ما ورد في بعض أسفار العهد القديم وروايات الكتاب الاغريق وما دونه الكاهن البابلي بروسوس Berossus الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد عن تاريخ بلاده منذ أقدم العصور حتى فتح الاسكندر وهو تاريخ يغلب عليه الطابع الأسطوري ، ولم تصلنا منه سوى فقرات نقلت عنه ولذلك لا يعتمد عليه بدرجة كبيرة

راجع د. محمود الأمين رحلة في العراق القديم بغداد ١٩٥٣/ص ٢٥٠.

وأيضاً د. السيد يعقوب الحضارات السامية القديمة - القاهرة ص ٦٣

٢ - دعا الفكر السومري الى العديد من القيم الخيرة كالعدالة والحرية والرحمة والصدق وقد سجلها في شكل أساطير تجتمع بين الحقيقة والخيال خاصة في أسطورة الطوفان أو الفيضان الكبير وفي أسطورة دلمون أو الفردوس والأخيرة تحكي زواج إنكي من ننحرساج .

ولم يكتف الانسان السومري بالتعبير بالكتابة المسمارية وإنما استخدم النحت والتصوير الجداري في معابده لكي يعبر عن بعض الصور التي يصعب الكتابة فيها خاصة في مجال الشخصيات الأسطورية الخيالية التي تجمع بين الأجسام البشرية وبين بعض الحيوانات أو الطيور أو الحشرات .

ولم يقتصر المعبد السومري على جانب العبادة وتأدية الطقوس ، بل لقد أصبح مركزاً لكافة العلوم والمعارف ، ولقد نشأ ذلك الجانب الثقافي كنتيجة طبيعية في اختراع الكتابة السومرية . فالواقع أن بداية التعبير بالرموز الصورية كان لحاجتهم الماسة الى التعبير بالرموز عن القوى الإلهية مما دفع ظهور اختراع الكتابة الصورية وكانوا يستخدمون بكل معبد عدد من الكتاب لتسليم ايصالات لمقدمي القرابين نظير ما قدموه ، وقد عبر النحت والحفر على بعض الأواني الحجرية واللوحات الجدارية عن الاجراءات المتبعة في ادائها ، فمقدم القربان ينبغي أن يكون مجرداً من ملابسه أثناء تقديم القرابين مع بعض الطقوس الأخرى[1] .)

وقد تميزت عمارة المعابد السومرية بطابع معماري يتفق مع تطور الفكر الديني . كانت الآلهة الكبرى آن وانليل وإنكي وننحرساج في المقدمة ، لذا كانت ترتفع عمارة المعابد فوق الأرض ببناء برج مستطيل من الآجر عرف بالزقورة يمكن الوصول اليه بواسطة ثلاثة أدوار ، كل دور منها من مائة درجة تصل في نهايتها العليا الى المعبد ، بحيث يكون ذلك السلم هو الرابطة بين السماء والأرض ، وفي العصر الآشوري زيدت الأبراج إلي سبعة طبقات بدلاً من ثلاثة وكانت الأدراج تدور تصاعدياً مع البناء . ومن أهم أجزاء المعبد الفجوة التي يوضع فيها تمثال الإله وحول مائدة القرابين . وكان الكهنة وحدهم الذين يسمح لهم باستقبال القرابين . شأنهم شأن الكهنة في كل العصور القديمة وحتى نهاية العصر الوسيط في أوروبا .

---

(١) راجع د. رشيد الناضوري : المدخل في دراسة بعض جوانب العطاء الفكري لانسان الشرق القديم دار الرشاد للطباعة ص ٥٣ وما بعدها .

اللوحات الطينية والكتابة السومرية في العراق القديم :

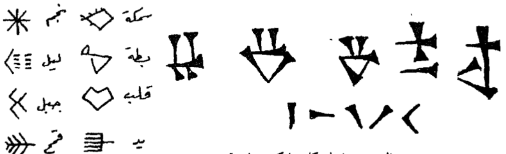
في سهل يمتد مسافته حوالي ألف كيلو متر من المنحدرات الجنوبية لهضبة أرمينيا حتى الخليج العربي ، قامت حضارات بلاد ما بين النهرين ، وكان هذا السهل ينقسم الى آشور في الشمال ، وأهم مدنها آشور ونينوي وبابل في الجنوب ، وأهم مدن الشمال هي بابل وأكاد ، ومن أهم مدن الجنوب سومر ونيبور ، وآداب ، ولجاش ، وفي هذا السهل قامت امبراطوريات بلاد مابين النهرين، مثل الامبراطورية الأكادية (٢٤٥٠ - ٢٢٧٠ ق.م) وامبراطورية أور (١٢٤٠ - ٢٠٣٠ ق.م) والامبراطورية العمورية (١٩٠٠ - ١٦٠٠ ق.م) والامبراطورية البابلية الحديثة - الكلدانية - (٦٢٥ - ٥٣٨ ق.م) ، والامبراطورية الآشورية (٩٣٣ - ٦٢٥ ق.م) .

ومن المعروف أن علاقة بلاد مابين النهرين كانت وطيدة ووثيقة مع البلدان المجاورة بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة ، وعلى ذلك فمن المؤكد أن أهلها كانوا يعرفون مواد الكتابة المستعملة في هذه البلدان ، ولاسيما ورق البردي ، ومع ذلك فمن الغريب أنه لم يعثر في بلاد مابين النهرين إلا على آثار نادرة من الورق أو الرق ، مما يرجح أن هذه المواد لم تستعمل إلا في أحوال قليلة ، وقد يرجع السبب في ذلك الى أنهم كانوا يهتمون كثيراً بالمستقبل ، فعملوا على تخليد أعمالهم بكتابتها على مواد يعتقدون أنها أبقى وأطول عمراً ، ورأوا أن الطين الجاف أصلح لهذه الغاية ، وأقل عرضة للتغير من الورق أو الرق أو الحجر ، فاستعملوه على نطاق واسع وسجلوا عليه أعمالهم وأحداثهم .

وكانت كتابة السومريين بأسلوب خطي يعرف باسم « الخط المسماري » أو الخط الإسفيني الذي سمى كذلك لأنه على شكل المسامير أو الأسافين[1] وكان الكاتب يرسم علاماته فوق سطح اللوحات الطينية ، وهي لا تزال طرية ، مستعملاً في ذلك قلماً يشبه « الأسفين » مثلثاً ومنشوري الشكل يمسك به مائلاً ، وهو يضغط على سطح اللوح بخفة ، فإذا ما انتهى الكاتب من تسجيل وثيقته جفف اللوح أو حرقه، وبذلك يسهل حفظه أجيالاً طويلة ، وفي بعض الأحيان كانت الألواح تدفن في مبان خاصة تشيد لذلك الغرض ، وذلك حتى لا يطلع عليها ابناؤهم وأعقابهم ، أما العقود التي كانت تكتب بين الأفراد فكانت تخط على الألواح الطينية وكانت تتم الكتابة بالمسمار على لوح الطين ويحرق فتصبح الكتابة غائرة فيه . ويصبح اللوح الطيني أخف وزناً وأقوى تحملاً . ثم تصان الألواح من التلف بتغليفها بطبقة طينية أخرى يكتبون عليها صورة ثانية مما كتب على الألواح المغلفة ، ثم يجففونها في الأفران حتى تتجمد وتتصلب ، فإذا تشوهت بعض

---

(١) راجع ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٢ الشرق الأدنى - ترجمة بدران ص ص ٣٤ - ٤٥



استخدم السومريون في كل ما كتبوه خمسة أشكال مسمارية ، وقد يبدو أن الأمر بسيط للغاية ولكنه في الحقيقة ليس كذلك ، فهذه الرموز تتدرج في أحجامها ، تتجمع في أشكال مختلفة أبعد ما تكون عن البساطة .

شكل (٦)

نموذج للكتابة السومرية في العراق القديم

نصوصها أزيلت الطبقة الخارجية للوقوف على حقيقة النص في الألواح الأصلية (شكل ٦) .

وقد نشأت مكتبات في حضارة مابين النهرين من كتب الألواح الطينية والفخارية كذلك ، واستعملوا أيضاً الألواح الطينية المبللة . وعرفوا تصفيف مخطوطاتهم ووثائقهم تصفيفاً موضوعياً ، بحيث كانت تحفظ كل مجموعة من نوع واحد في قدر كبير ، ثم ترتب هذه القدور فوق أرفف في ردهات كبيرة تلحق بالمعابد ، وكانت هذه الردهات تؤدي نفس الغرض الذي تؤديه المكتبات العامة في وقتنا الحاضر . ومما يؤسف له أن معظم هذه المكتبات قد فقدت وضاعت معالمها ومحتوياتها ، أيضاً حرص ملوك بابل على تسجيل ما قاموا به من أعمال شتى لإقرار النظام والعمل من أجل تشجيع العلوم والآداب فخصصوا لذلك جدران قصورهم من الداخل والخارج .

وحافظ الآشوريين على طريقة الكتابة التي تعلموها من البابليين ، فقد استخدموا هم أيضاً الخط الإسفيني في كتاباتهم ، إلا أنهم بسطوا الحروف ، وأدخلوا عليها بعض التعديلات ،

ويعتبر عهد « آشور - بني بعل » عام (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) أزهى عهود الحضارة الآشورية ، ولقد عثر المنقبون على مكتبة قصره ، ووجدوها زاخرة بعشرات الألوف من اللوحات الطينية التي تحوي قدراً عظيماً من الآثار الأدبية والعلمية الآشورية . وكان أفراد الرعية يرسلون إلى قصره رسائل مكتوبة على لوحات طينية وفيها أخبار صغيرة وكبيرة تحدث في الدولة ، ولقد عثر في مكتبة القصر على آلاف من هذه الرسائل ، بعضها باللغة الآشورية ، والبعض الآخر باللغة البابلية .

وعمل ملوك آشور على الاشادة بأعمالهم الحربية فحسب ، ولم تكن النقوش المنتشرة في قاعات القصور الملكية تحوي شيئاً غير تمجيد الأعمال العسكرية لأصحابها ، ومن هذه التسجيلات : الحوليات ، وهي سجل كامل لجميع الأحداث في تاريخ مرتب على حسب سنوات حكم الملك ، وتاريخ الحروب حيث يشرح الملك حركاته العسكرية والغزوات التي قام بها ، والتقارير التي يقدم فيها الملك إلى ألهة « آشور » تفصيل كل موقعة حربية ، وكانت هذه النقوش تحفر على جدران القصر الملكي أو على اسطوانات توضع في أساسيات المباني لحفظها على المدى الطويل .

الحضـارة الفينيقـية :

ينتمي الفينيقيون في الأصل الى قبائل سامية عرفت بالكنعانيين نزحت عن شبه الجزيرة العربية في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد ثم استقرت بجوار البحر المتوسط في منطقة ساحلية تدعى فينيقيا وتمتد من شمال رأس شمرا على الشاطيء السوري حتى جبل الكرمل في الجنوب وتحدها من الشرق سلسلة جبال لبنان الغربية ، ويجري فيها نهر العاصي ونهر الكلب ومن أشهر مدنها بيروت وصيدون وصور . وترجع أهمية فينيقيا إلى موقعها الجغرافي الفريد ، فكانت تعتبر الممر الطبيعي الوحيد بين قارات العالم القديم آسيا وافريقيا وأوروبا ، كما أن البحر المتوسط زاد من أهميتها لدول مصر وفارس واليونان ومابين النهرين ، بالإضافة إلى أنه كان المدى الحيوي الأوسع الذي يعزى إليه الفضل في إزدهار الحضارة الفينيقية واتساع نفوذها . من ناحية أخرى كان موقع فينيقيا الاستراتيجي يثير أطماع جيرانها المصريين والآشوريين والكلدانيين والفرس والاغريق . لذلك كان تاريخ فينيقيا بصورة عامة عبارة عن حقبات متقطعة من الولاء للدول الكبرى أو التمرد عليها أحياناً ، وقد تخلل هذه المراحل فترة إستقلال حقيقي بدأت مع الألف الأول قبل الميلاد نتيجة لغزوات قبائل « الفلسطو » التي قدمت أصلاً من جزيرة كريت وجزر بحر إيجه وانتشرت في بعض مناطق حوض المتوسط الشرقي ، وحاولت غزو مصر فصدها رمسيس الثالث وتمكنت من بعض مدن الساحل الفينيقي ، ولكن انتهى بها المطاف أخيراً إلى أرض فلسطين حيث استقرت وزال خطرها عن فينيقيا . وخلال فترة الاستقلال الذي لم يدم طويلاً (٩٨٠ ـ ٩٣٦ ق.م) امتد نفوذ الفينيقيين التجاري حتى شمل جميع أنحاء البحر المتوسط في الحوضين الشرقي والغربي .

وأهم انجازات الحضارة الفينيقية في عهد الاستقلال هو اكتشاف الأبجدية الفينيقيـة التي اقتبس الاغريق أصولها ثم أصبحت أصل جميع الأبجديات المعروفة في العالم . أما نشاط الفينيقيين في مجال العلوم والفنون فقد كان مقتصراً على ما اقتبسوه من خبرات ومعارف

الدول الكبرى التي اتصلوا بها سواء عن طريق التجارة والرحلات أو عن طريق الغزوات . ويسجل التاريخ للفينيقيين تفوقهم في الفلك والجغرافيا والرياضيات بفضل عقليتهم التجارية التي طبعوا عليها ، فدفعتهم الى ارتياد البحار والمحيطات والاستفادة من معارفهم الجغرافية والفلكية في تنشيط الملاحة والتجارة . وقد أطلق الاغريق اسم « الفينيقي » على النجم القطبي لأنهم أول من اهتدى بواسطته الى اتجاه الشمال ، وعرف باسم النجم الفينيقي ، كما أنهم مهروا في صناعة السفن وذاع صيت الأساطيل الفينيقية في أرجاء الامبراطوريات المجاورة .

الفينيقيون والأبجدية :

تعرف سكان سيناء على كتابة جيرانهم المصريين بحكم الجيرة والاحتكاك ، فلاحظوا أنهم كانوا يستعملون في كتاباتهم بعض الصور كرموز لمقاطع الكلمات فاختاروا منها أربعين رمزاً تناسب لغتهم واستعملوها في الكتابة ، ثم جاء الفينيقيون ليضعوا مرحلة أخرى من مراحل تطور الكتابة ، فلقد أعجبوا بالرموز التي وضعها سكان سيناء ، فاختاروا منها ٢٢ صورة اتخذوها حروفاً للأصوات المستعملة في لغتهم ، وأطلقوا على كل حرف إسماً يناسب الصورة التي استعير منها الحرف ، فأطلقوا مثلاً على الحرف الأول اسم « أليف » أو « ألف » وتعني عندهم رأس الثور وأطلقوا على الحرف الثاني اسم « بيت » ويعني في لغتهم ما يعنيه في العربية ، وبمرور الزمن تطورت أشكال الصور فأصبحت أجزاء من صور . وهكذا وضع الفينيقيون في القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد ٢٢ حرفاً مرتبة كالآتي : « أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت » وهو نفس الترتيب الذي استعمله العرب في ترتيب الجمل أو حساب الجمل ، وقد ثبت بالمقارنة بين ترتيب الحروف من جهة وبين أشكالها من جهة أخرى أن جميع الكتابات التي لها حروف أبجدية قد نقلت عن الهجاء الفينيقي ، ثم أدخل كل قوم عليها التغييرات التي تناسب أصواتهم . بعد ذلك حمل الفينيقيون هجاءهم إلى شواطيء البحر الأبيض المتوسط ، فأخذته عنهم الشعوب التي كانوا يتاجرون معها . أما في الشرق فقد أخذ الآراميون على عاتقهم نشر الحروف الهجائية الفينيقية بسبب سعة انتشار لغتهم فيما يعرف الآن بالشرق الأوسط وعن الهجاء الآرامي تفرعت عدة أبجديات أخرى تعرف بالأبجديات السامية في مقابل الأبجديات الغربية التي نقلها الغرب عن الفينيقيين مباشرة .

A B C D E F Z H Th I K L M N S O P Ts Q R Sh T

الأبجدية الفينيقية

الفينيقيون وعلاقتهم باختراع الكتابة :

الفينيقيون ، مثل الأكاديين والبابليين والعموريين والكنعانيين ، هم شعب سامي ، وبقدر ما يمكن اعتبار هؤلاء عرباً . فالفينيقيون عرب . هذا اذا أخذنا العرق أو العنصر أساساً للحديث . وهناك مجموعة من اللغات تسمى اللغات السامية تكلمتها هذه الشعوب فضلاً عن الأحباش مثلاً ، الذين لا يمتون إلى الشعوب الأخرى عرقياً ، ولكنهم ينتمون إلى المجموعة لغوياً .

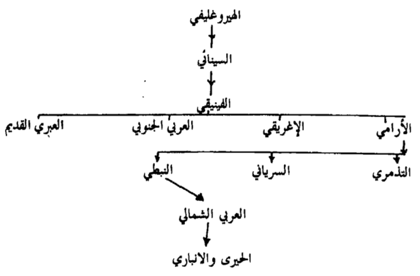
وقد خرجت الألفبائية الفينيقية من خلال رحلات التجارة بين الشعوب إلى ثلاث اتجاهات أذاعتها بعد تطويعها وتطويرها لتعبر عن أصوات شعوبها ، الاتجاه الأول إلى بلاد اليونان حيث احتضنوا الكتابة الفينيقية واشتقوا منها أبجديتهم بما كان لديهم من فكر فلسفي عقلي ووعي حضاري ، الاتجاه الثاني إلى جنوب شرق آسيا ، إيران والهند واندونيسيا ، والاتجاه الثالث إلى آسيا الوسطى حيث منغوليا ومنشوريا وغيرهما .

أما الكتابة الألفبائية أو الهجائية . وهي التي يعود اليها تقدم الحضارة البشرية فالذي نعرفه عنها ، أنها نتيجة مجهود مشترك ، وأقدم ما نعرفه ، مما يعتبر الأتجاه الصحيح نحو هذا النوع من الكتابة ، هي مجموعة من النقوش صغيرة العدد تعود الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، عثر عليها في سيناء ، ومن ثم فإنها تعرف بالنقوش السينائية ، وهي مزيج من الهيروغليفية وإشارات أخرى مختلفة عنها . وهناك نقوش متفرقة عثر عليها حتى عند الحيثيين وهي جميعها خطوات متتابعة في خط تطور الكتابة الألفبائية . ثم تأتي الخطوة النهائية على أيدي الفينيقيين في مطلع الألف الأول قبل الميلاد . فنجد عندهم الحروف وأسماءها وأشكالها . وهذه الأشكال كانت أصلاً منتزع بعضها من صور الحيوانات والبعض الآخر من أشياء أخرى .

وميزة الكتابة الألفبائية هي أنها تسمح بالحرية المطلقة لنقل الحروف من مكان إلى آخر ، وبذلك يمكن أن تكتب بها جميع الكلمات . ويرى الباحثون أن عمل الفينيقيين ، وهو التجارة أصلاً ، كان عاملاً أساسياً أثر في توصلهم نهائياً إلى إتقان هذا الاختراع . وبسبب احتكاكهم تجارياً بشعوب البحر المتوسط أخذ هؤلاء عنهم الحرف وطوروه حسب لغاتهم .

يرى بعض الباحثين أن الهجاء الفينيقي قد تفرع الى أربعة فروع هي الهجاء الآرامي والإعريقي والعربي الحنوبي والعبري القديم ، وقد تفرع الهجاء الآرامي بدوره إلى عدة

خطوط منها التدمري والسرياني والنبطي .. وقد اشتق من هذا الأخير الهجاء العربي الشمالي ، شكل (٧) في تلك الفترة كان الفرات والدجلة يفيضان في الخليج الفارسي بمصبين منفصلين وبنى السومريون أوائل مدنهم على الأرض المحصورة بينهما .



شكل (٧) يرى بعض الباحثين أن الهجاء الفينيقي تفرع إلى أربعة فروع من الهجاء الآرامي والإغريقي والعربي الجنوبي والعبري القديم . وقد تفرع الهجاء الآرامي الى التدمري والسرياني والنبطي ، وقد اشتق من الأخير الهجاء العربي .

اللغة الآرامية ما زالت حيـــة :

توجد فئات كبيرة في البلاد العربية تنطق باللغة الآرامية وهي مركزة في الجمهورية العراقية بالدرجة الأولى ، ثم في سوريا بالدرجة الثانية وإن كان ذلك أقل بكثير منه في العراق . وقبل أن نتطرق الى ذلك لابد أن ننظر في معنى اللغة الآرامية . فالآرامية لغة كانت شائعة في القرون الأولى من التاريخ الميلادي وكانت أصولها تعود إلى ما قبل ذلك . وكان مصدرها منطقة سوريا الكبرى أي بلاد الشام التي تضم سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، ثم توسعت بعد ذلك الى مناطق واسعة في الشرق الأوسط فشملت العراق أيضاً ، وامتدت حتى مصر . وهي تميز عادة بإضافة البلاد ، كأن تقول الآرامية الفلسطينية والآرامية المصرية ، أما الآرامية القديمة الرئيسية ، فكانت تدعى السريانية وهي أهم فرع بين اللغات الآرامية وأكثرها إنتاجاً أدبياً . ومعظم المؤلفات المنقولة عن السريان

كتب دينية واسعة تتعلق بالمسيحية والتصوف الديني المسيحي والعبادة وغير ذلك. وتنقسم اللغة السريانية إلى ضربين هامين. **أولاً : السريانية الشرقية** : وهذه هي السريانية الصحيحة القديمة وتنقل لنا نص اللغة السريانية القديمة وروحها أيضاً وهي شائعة كثيراً شمالي الجمهورية العراقية في المنطقة الحالية شمال الموصل وشمال شرقها ولاسيما في منطقة « القوش » و « دهوك ». وقد احتفظت هذه اللغة بالحروف السامية الأصلية ولم تشوهها ولا تزال حتى الآن كذلك في الصورة التي يتكلمها ابناؤها في العراق الشمالي وهم يستعملون في الكتابة خطاً سريانياً أنيقاً شبيهاً بالخط الكوفي العربي يعتمد على الخطوط المستقيمة عادة في مد الحروف ويدعى هذا الخط بالخط السرياني الشرقي أو الخط النسطوري نسبة الى الانتماء الديني.

ثانياً : السريانية الغربية : وهذه لغة سريانية انقرضت ماعدا في ثلاث قرى تقع شمال دمشق وهي معلولة وبخعة وجب عدين التي لا يزال سكانها يتكلمون نوعاً من الآرامية ولكنه ضاع معظم طبيعته الآرامية وأغرق بالكلمات العربية المستعارة والصيغ النحوية العربية. وهي منطقة صغيرة محدودة. كما فقدت هذه اللغة أصواتها الآرامية الأصلية وتأثرت كثيراً بالعبرانية في مراحل قديمة من تاريخها. فصارت تميل صوت الألف إلى الضمة الممالة الطويلة ولا تفرق بين الضمة الممالة الطويلة وبين الضمة السالمة الطويلة. أما السريانية الشرقية في العراق القديمة ولها حروف خاصة للتعبير عن جميع الأصوات مما يسهل فهمها واكتشاف علاقاتها بالعربية وغيرها من اللغات السامية.

كما أن السريانية الغربية قد درست تقريباً حتى في تلك القرى السورية الثلاث لتأثرها بالعربية كما قلنا. ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من أسماء المدن والقرى والجبال والأنهار في سوريا ولبنان والعراق وفلسطين والأردن هي أسماء آرامية قديمة قد تبدو أحياناً تشبه العربية وذلك للتشابه الطبيعي بين جميع اللغات العربية ولكنها آرامية في الحقيقة رغم ذلك التشابه. أما في العراق فإن اللغة الآرامية (السريانية) حية بل مليئة بالحياة ويتكلمها عشرات الألوف من العراقيين ولديهم دور طباعة كبيرة تنشر عشرات الكتب الدينية والثقافية واللغوية كما أن لهم صحفهم اليومية ومجلاتهم الأسبوعية بالسريانية.

تاريخ الحروف اللاتينية ومنشئها[1] :

بما أن السومريين، أي سكان العراق القدامى، هم الذين اخترعوا فن الكتابة فيجب

راجع : (1) Driver G.R.: Semetic Writing from pictograph to alphabet London 1976 pp. 2-9

اعتبارهم إذن واضعي العلامات التي تحولت فيما بعد إلى حروف . ذلك أن شعوب الشرق الأوسط في العالم القديم قد اقتبست الكتابة المسمارية . ورغم أن الكتابة المسمارية ذات منشأ سومري ووضعت لتسجيل الألفاظ باللغة السومرية فقد تبنتها الأقوام الأخرى كالأكادية والبابلية والآشورية في تسجيل الألفاظ بلغاتها هي ، وظل العالم القديم يستعمل الكتابة المسمارية مدة ثلاثة آلاف سنة رغم أنها تبدو وكأنها رموز غامضة بالنسبة إلينا اليوم . ولكن من الطبيعي أن يحتوي التطور الكتابة المسمارية أيضاً على مر القرون وهذا ما حدث فعلاً فنشأت عنها الحروف المعروفة في علم الآثار بالحروف السامية .

وهذه الحروف على نوعين وهما النوع السامي الشمالي والنوع السامي الجنوبي . أما النوع السامي الجنوبي فقد ضم الكتابة القديمة المستعملة في الجزيرة العربية كالكتابة الحميرية التي انتقلت من اليمن الى افريقية فأسست نواة الحروف الأثيوبية ، وأما النوع الثاني السامي الشمالي فقد كان على نوعين :

الحروف الفينيقية والحروف الآرامية ونشأت من الحروف الآرامية فروع عديدة حتى بلغ عددها المائتين ومنها العربية والعبرية والسريانية والمغولية والأرمنية والجورجية والهندية بأنواعها المختلفة .

وبعد قرون عديدة اقتبس الإغريق القدماء الحروف الفينيقية لأنهم كانوا في أوائل عهدهم تجاراً وبحارة مثل الفينيقيين ولكنهم طوروها تطويراً سريعاً حتى أصبحت الوسيلة المثلى للكتابة ، واصطلحوا على مجموعة الحروف هذه بلفظة مستمدة من الحرفين الأولين منها وهما ألفا وبيتا ALFA, BETA أي الألفباء ، ومازالت الشعوب قاطبة تستعمل هذه اللفظة وتطلقها على الحروف التي تكتب بها .

وعلى مر الزمان تطورت الحروف الإغريقية إلى نوعين رئيسيين : أحدهما الحروف السيرلكية (CYRILLIC) وهي التي تستعملها اليوم الشعوب السلافية كالروس والأكران والصرب والبلغار والثاني الحروف الأتروسكانية وهي الحروف التي استعملتها الإتروسك (ETRUSQUE) الذين نزحوا من الأناضول الى ايطاليا في القرن الثامن قبل الميلاد .

وكان الاتروسك شعباً قد بلغ مستوى عالياً من الحضارة فلما استحوذ الرومان على بلاد ايطاليا اقتبسوا ٢١ حرفاً من الألف باء الإتروسكانية وأضافوا إليها حرفين يونانيين هما حرفا Y, Z . وهكذا جاءت الى الوجود الألفباء اللاتينية والتي أصبحت وسيلة الكتابة لجميع اللغات الغربية بما فيها الحروف القوطية (GOTHIC) المستعملة حتى الآن لدى الشعوب الألمانية إذ ليست هذه الحروف في واقع الأمر سوى حروف لاتينية كثيرة الزخرف .

فك رموز الكتابة السومرية : بدأ الاهتمام الجدي بنشر ودراسة نقوش الكتابة المسمارية عام ١٧٧٨ على يد أحد الضباط الدانماركيين ويدعى س.نيبور ، إذ نشر العديد من النقوش ولاحظ أنها مكتوبة بثلاثة أشكال مختلفة من الكتابة المسمارية ، واستنتج أن كل نقش يتناول موضوعاً واحداً كرر ثلاث مرات بهذه الأشكال المختلفة والتي تمثل كتابة الأقسام الثلاثة الرئيسية في الامبراطورية السومرية القديمة .

ويلوح أن المدن السومرية كانت على وجه العموم مدناً مستقلة لها حاكم خاص وكهنة خصوصيون ، وقد حدث أن تسيدت احدى المدن باقي زميلاتها وفرضت عليها الجزية وقد عثر في نيبور احدى المدن السومرية على كتابة سحيقة جداً تذكر اسم امبراطورية مدينة اريكش السومرية ، وهي أول ما ذكر التاريخ من امبراطوريات وكان حاكمها كاهناً يدعى الألوهية ، ويمتد سلطانه من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر .

وكانت الكتابة عندهم في البداية مجرد طريقة مختزلة من التدوين بالأسلوب التصويري خاصة على العملة التي تسجل أحداث الصيد والحملات الحربية ، والأشكال الإنسانية في معظمها مرسومة بوضوح .. راجع شكل (٦) على أن المصور لم يكن يهتم في بعضها بالرأس والأطراف بل يكتفي بتصوير الإنسان بخط رأسي وخط آخر أفقي أو اثنين ومن ثم كان الانتقال من هذا التدوين بالتصوير الى كتابة تقليدية مركزة بالصور ، وما لبثت الحروف المخدوشة في الكتابة السومرية والتي كانت تكتب على الطين[١] أن أصبحت من البعد عما تمثله من صور ، بحيث لم يعد في الإمكان تمييزها . أما في مصر فكان الناس يكتبون فيها على الجدران ، وعلى قطع من نبات البردي ، والكتابة المصرية القديمة فيها من المشابهة بين الحروف وبين الصور التي نقلت عنها ، في حين أن الكتابة السومرية لا مشابهة بينها وبين الصور إلا أن تسميتها بالإسفينية لكونها مشابهة للمسمار أو الأسفين ، وذلك لأن أقلام الكتابة السومرية كانت تحدث خدوشاً على شكل الوتد أو الاسفين ، واللغة السومرية مكونة من مقاطع متراصة تعبر عن أفكار لا يستطاع نقلها بطريق الصور مباشرة (شكل ٦) وقد مرت الكتابتان السومرية والمصرية القديمة بتطورات وتعديلات تهيأت لشعوبها حتى أصبحت في النهاية كتابة أبجدية ، وجميع ما ظهر في العالم بعد ذلك من أبجديات ، مشتق من خليط الكتابات السومرية والمصرية القديمة وحدث بعد ذلك في الصين أن تطورت الكتابة التصويرية إلا أنها لم تبلغ مرحلة الأبجدية في نفس الوقت .

---

(١) طين تلك البلاد ناعم جداً ومنه اتخذوا ألواحاً يكتبون عليها . لذا بقيت كتاباتهم محفوظة إلى اليوم بالاضافة الى استخدامهم أسلوب التحميص أو حرق الألواح في الأفران .

يحكى أنه منذ – أكثر من قرن وعلى ضوء شمعة خافتة ، كان هناك رجل يقضي الليالي في محاولة لفك رموز لوحة طينية عليها كتابة مسمارية قديمة كان الرجل هو جورج فردريكش جروتفيند George Friedrich Grotefend ولم يكن يعرف من تلك الكتابة سوى معنى كلمة واحدة هي كلمة ملك ، وقد لاحظ جروتفيند . أن كلمة ملك تكررت ثلاث مرات في نفس اللوحة فأخذ يقارن الكلمات التي تسبقها ، ولاحظ أن اثنين منها كانتا متماثلين ، ولما كان يعرف أن عادة القدماء أن يتبعوا اسم الملك باسم أبيه ، فقد استنتج من ذلك أن اسم الأب واسم الابن قد ذكرا مرتين في نفس الجملة ، ولكنه لاحظ كذلك أن ثمة فارقاً بينهما : ففي الجملة الأولى لم يكن للأب لقب « ملك » وعلى ذلك أصبح واضحاً له أن اثنين فقط من بين الشخصيات الثلاث كانا ملكين ، وبهذه الاستنتاجات تمكن جروتفيند من خلال الجملة التي كان يحاول ترجمتها من أن تكون كالآتي :

س ملك ابن ص　　　　ع ملك ابن ف ملك

وبالرجوع إلى كتب التاريخ الفارسي القديم ، الواحد بعد الآخر ، عثر على اسمي داريوس Darius وأكرزكسيس Xerxes أما الشخص الذي كان أباً وجداً دون أن يكون هو نفسه ملكاً ، فكان يدعى هستاسب Hystaspe .

وعلى ذلك أمكنه ترجمة الجملة كالآتي :

داريوس ملك ابن هستاسب .. أكرزكسيس ملك ابن داريوس ملك .

وبعد أن فك الرموز الدالة على هذه الأسماء ، أمكن لجروتفيند أن يعرف مدلول عدد كبير من الحروف المسمارية ، وأصبح في استطاعته أن يفك رموز المزيد من الكلمات وسرعان ما أحاط بالهجائية بأكملها (شكل ٨) .

إن المحاولة التي قام بها جروتفيند ، كثيراً ما يكررها علماء الآثار وعلماء الكتابات القديمة ، الذين يكرسون حياتهم لكشف طلاسم الكتابة القديمة ، لذلك سيظل التاريخ يذكر جروتفيند .

S H A R S A   D A R H E U S

شكل (٨)

في اللغة الفارسية القديمة كان هجاء اسم دارا مختلفاً إذ كانوا ينطقونه دارهيوس وما لبث جروتفيند أن لاحظ أن أربعة من هذه الأحرف وردت في مجموعة أخرى بترتيب آخر . فنسخ الكلمة المسمارية ووضع تحت حروفها ما يقابلها . غير أن الحرف الأول من الكلمة بقى غير معروف فاستنتج أن ذلك الحرف المجهول هو الكاف أو الخاء . وبكل فخر تقدم جروتفيند باكتشافه الى اكاديمية العلوم .

صناعة الورق البرشمان « الرق » في برجموم :

بعد وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م قسم قواده امبراطوريته ونصبوا أنفسهم ملوكاً . وكان « سلوقس » من أعظم قواد الإسكندر شجاعة وإقداماً ، فجعلت بابل من نصيبه في حين أخذ بطليموس مصر ، تملك « أنتيجونوس » مقدونيا ، ولكن « سلوقس » لم يكتف ببابل بل ضم تحت لوائه عدة ممالك قديمة، منها سومر ، وفارس ، وآشور ، وسوريا وفينيقيا ، وآسيا الصغرى . واغتيل سلوقس عام ٢٨١ ق.م بعد أن أسس الامبراطورية السلوقية جاعلاً من سلوقية وانطاكية عاصمتين لملكه ، إلا أن دولته أخذت بعد موته في التفكك بسبب الاختلافات الجغرافية والخلافات العنصرية ، فاستولى « فلاتيروس » على تل برجموم (برغامة) الحصين المشرف على الساحل الغربي لآسيا الصغرى وأعلن استقلاله عن الدولة السلوقية ، وجعل ابن أخيه « أمنيز الأول » من برجموم مملكة مطلقة مستقلة ذات سيادة (عام ٢٦٤ ق.م) ، وبذلت الدولة الصغيرة الناشئة كل مافي وسعها لتشجيع الآداب والفنون ، وأخذت تنافس الاسكندرية بوصفها المركز الأول للحضارة في ذلك العصر ، وأنشئت في برجموم مكتبة جامعة لم يكن يفوقها في عدد مجلداتها وفي شهرة علمائها الواسعة سوى مكتبة الاسكندرية العظيمة ، وظلت كتب مكتبة برجموم تكتب على أوراق البردي المصري حتى خشى بطليموس الخامس « ايفانيس » (٢٠٤ - ١٨١ ق.م) على مكتبة الإسكندرية في منافسة مكتبة برجموم فحرم تصدير أوراق البردي من مصر ليمنع بذلك نمو مكتبة برجموم ، ورد « أمنير الثاني » على هذا العمل بأن شجع صناعة معالجة جلود الضأن والعجول والماعز لتكون مادة

للكتابة على نطاق واسع . وفي الواقع كانت الجلود تستعمل للكتابة في بلاد العالم القديم قبل ذلك بزمن بعيد ، بل ولقد استعملت في بعض الأحيان بجانب البردي للكتابة في مصر ذاتها ، إلا أنه سرعان ما أصبح الرق المصنوع في برجموم ينافس ورق البردي بوصفه أداة للتدوين ونقل الآداب ، وعلى ذلك أخذت مجموعة الكتب في مكتبة برجموم تنمو نمواً سريعاً برغم حرمانها من ورق البردي المصري ، حتى بلغ عدد تلك الكتب ، حين أهداها « أنطونيوس » إلى كليوباترا ليعوض بها الجزء الذي احترق من مكتبة الإسكندرية في أثناء الثورة على قيصر عام ٤٧ ق.م ، مائتى ألف ملف ، ومع ذلك فإن ورق البردي المصري ظل محتفظاً بمكانته الأولى كمادة لصناعة الكتب في العالم اليوناني – الروماني حتى أيام المسيحية .

ويسود الإعتقاد بأن الاسم الأوربي للرق ، وهوالبرشمان (Parchment) مشتق من اسم مدينة برجموم (Pergamum) وإن كان هناك رأي آخر يقول بأنه مأخوذ من كلمة (Pergamene) وهو نوع رقيق من الجلد .

وكانت أفضل مادة خام لهذا الرق هي جلود العجول والضأن الصغيرة ، وكان هذا الجلد يغسل ثم يدفن في حجر الطباشير للتخلص مما هو عالق به من شحم وقذارة ، وبعد ذلك يبسط على إطار ويترك ليجف ، ثم تحلق الشعيرات بوساطة السكاكين ، ويصقل الجلد للحصول على سطح بالغ النعومة يصلح تماماً لأغراض الكتابة .

وقد استخدم الجلد للكتابة عليه في أماكن عديدة من العالم القديم ، ولقد استخدمه الفراعنة والفرس والبابليون ، وكانت جلوذ الضأن والماعز والعجول تدبغ وتجفف ثم يكتب عليها ، ولم تكن صناعة الرق اختراعاً لدولة معينة مثل البردي ولكنه كان شائعاً في معظم حضارات العالم القديم .

وانتشر استعمال البرشمان أو الرق ببطء نسبي ، ومن المرجح أنه استعمل بديلاً نهائياً لورق البردي في عهد قسطنطين الأكبر ، واستخدمته أوربا الشمالية الغربية في أول الأمر لأغراض الكنيسة ، ثم لكتابة الوثائق القانونية العامة برغم أن القانون الروماني كان يحرم استعماله ، وكانت تستعمل في الأصل لكتابة الوثائق الطويلة أوراق مستطيلة من البرشمان تخاط معاً على صورة شرائط طويلة يمكن لفها بهيئة اسطوانية ، على نمط يشبه إلى حد كبير أوراق البردي التي كانت تلصق معاً بمادة عصارتها اللزجة ، ولكن بدأ في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد استخدام اسلوب هام آخر ، وهو طي قطعة مستطيلة كبيرة من البرشمان للحصول على مقاسات مختلفة للصفحات ثم تجليد الرقوق المطوية على هيئة كتاب ، وكلمة مجلد (Volume) مشتقة من الكلمة اللاتينية (Volumen) التي تعني لفة أو لفافة ،

مما يذكرنا بان السجلات الاولى كانت تفرد ليتمكن القارىء من تلاوة ما عليها من كتابة ، إلا أن الطريقة الجديدة ، طريقة الطي على هيئة كتاب ، كانت ألطف وأسهل ، وتجعل الوثائق أيسر تداولاً ، ويقال أن المسيحيين الأوائل هم الذين اخترعوها ، وكان الكتاب من القطع المتوسط الذي يحتوي على مائتى صفحة من البرشمان ، يتطلب جلود مالا يقل عن عشرة عجول ، وعلى ذلك فقد ظلت الكتابة ذاتها زمناً طويلاً أرخص بكثير من هذه المادة التي يكتب عليها وكان هذا هو السبب في أن انتشار الطباعة يتطلب بصفة أساسية توافر مادة رخيصة متاحة يمكن إجراء الطبع عليها .

الكتابة على الألواح الخشبية عند الرومان :

هناك مادة أخرى للكتابة استعملها الرومان ، وهي الألواح الخشبية واستعملت في ذلك طريقتان ، إحداهما كتابة الحروف مباشرة على الخشب بالقلم والمداد ، وفي هذه الحالة يطلى الخشب في الغالب بمادة بيضاء لتظهر الكتابة واضحة ، والثانية هي طريقة الألواح الخشبية المغطاة بالشمع ، وفي هذه الطريقة يسكب شمع منصهر على لوح خشبي ذي حواف بارزة فيتكون بعد تجمد الشمع سطح مستو تحفر عليه الكتابة بقلم معدني مدبب ، وكان الطرف الآخر للقلم مستوياً بحيث يمكن استعماله لطمس الشمع بعد انتهاء الغرض المطلوب من النص المحفور عليه ، ولقد تزايد الإقبال على الألواح الخشبية في المدارس ودور العلم لأنه كان من المتيسر الكتابة عليّها عدة مرات متكررة ، وفي الغالب كان يربط عدد منه معاً بالدوبار الذي يمرر من ثقوب بالحواف البارزة للألواح ، وكان لا يكسى من اللوحين الخارجيين (اللذين يمثلان الغلاف) سوى جانبيهما الداخليين ، فتبدو مجموعة الألواح الموصلة على هذا النحو شديدة الشبه بالكتاب الحديث على أن استعمال الألواح الخشبية لم يكن مقصوراً على المدارس ، إذ كانوا يستعملونها في كتابة المذكرات والحسابات ومسودات المؤلفات الأدبية والرسائل الخاصة ، وتحرير أنواع شتى من الوثائق القانونية ، وخاصة المستندات مثل الوصايا وشهادات الميلاد وما إلى ذلك ، واستخدم في الشئون القانونية لوحان موصول أحدهما بالآخر ، وكانت الوثيقة تكتب على صورتين إحداهما من الشمع الذي يكسو الجانب الداخلي ، والآخر على خشب الجانب الخارجي مباشرة بالقلم والمداد ، ثم يطوي الشهود اللوحين ، ويضعون عليهما الأختام ، ويوقع كل منهم بإسمه أمام ختمه على الخشب . فإذا طعن شخص ما في صحة النص الخارجي ، تفض الأختام لمضاهاة هذا النص الداخلي[1] .

---

(١) يعتبر هذا الحدث البداية التاريخية لعلم المضاهاة الحديث في قضايا التزييف والتزوير راجع : د. عبد الفتاح غنيمة : علم الكتابة العربية جـ ٣ - التزييف والتزوير ١٩٨٩

الحضـــارة الصـــينية :

تشغل بلاد الصين مساحة كبيرة بين بطاح سيبريا في الشمال وصحاري آسيا في الغرب وجبال هملايا ومتفرعاتها في الجنوب وبحر الصين في الشرق . والشعب الصيني ينتمي إلى الجنس الأصفر ويغلب عليه الطابع المغولي ولقد ساعد وجود أحواض نهرية خصبة ، مثل حوض « الهوانجهو » وحوض « اليانج – تسى – كسينانج » على تمركز الصينيين وتحقيق الكثير من الإنجازات الحضارية التي اسهمت في دفع حركة الفكر البشري منذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عندما اندمجت العائلات الإقطاعية في مملكتين كبيرتين تتنازعان السيطرة فيما بينهما بزعامة عائلة « تشين » في الشمال الغربي وعائلة« تشيو » في الجنوب . وفي عام ٢٢١ ق.م استطاع « تشى هوانج – تي » زعيم عائلة « تشين » أن يصبح أول امبراطور للصين ، وأمر ببناء سور الصين العظيم أحد عجائب الدنيا السبع وذلك لدرء أخطار المغول . وفي عهد « وو – تي » (١٤٠ – ٨٧ ق.م) أحد أباطرة أسرة « هان » التي حكمت الصين طوال أربعة قرون (٢٠٦ – ٢.٢٠ ق.م) اتسعت حدود البلاد لتشمل كوريا ومنشوريا وأنام والهند الصينية والتركستان .

وتمتاز الحضارة الصينية القديمة بأنها من صنع الصينيين أنفسهم ، ويذكر التاريخ أنهم لم يقتبسوا عن غيرهم إلا القليل حتى أنهم تمسكوا بمعتقداتهم وفلسفتهم الخاصة ، فتحزب الكثير منهم إما لتعاليم العقيدة أو لاعتناق البوذية(١) وأقبلوا على الدنيوية لإيمانهم بأن الإنسان يجب أن يوجه اهتمامه وطاقته للإستفادة من خيرات الحياة الدنيا ، ومن العبث أن يشغل باله بغاية سواها ، ولذلك نراهم لم يستجيبوا للديانة المسيحية التي وصلتهم في القرن السابع الميلادي على يد المبشرين النساطرة ، ولا لديانة الإسلام الذي وصلهم على يد الأتراك والمغول وظل تأثير الديانتين في الصين محدوداً .

وفي مجال العلوم والتكنولوجيا يعرف عن الصينيين أنهم أول من أعطى العالم فن صناعة الورق والحبر والعملة الورقية والبارود والبوصلة وآلة تسجيل الزلازل ، كما أنهم تفوقوا في الفنون الأخرى مثل الطلاء وحفر الخشب ونقش العاج وصناعة الحلي والتحف الفنية وغيرها ، بالإضافة إلى أنهم حققوا تقدماً ملموساً في علوم الطب والصيدلة والفلك والرياضيات .

---

(١) البوذية في صورتها الأولى لم تكن إلا نتيجة ملاحظة لبعض ظواهر التعاسة والشقاء في العالم ، ثم تأمل في أسباب هذا الشقاء والعناء ، ثم محاولة لوصف طريقة الخروج منه وتتلخص البوذية في تساؤل : لماذا يتألم الانسان ولماذا يبدو شقياً تعساً ، وما السبيل الى تخليصه من هذا الشقاء وتلك التعاسة .
راجع : د. محمد كمال جعفر : في الدين المقارن – دار المعارف ص ٢٤٦ .

الصين وإبتكار صناعة الورق :

يكاد يكون من المتفق عليه بين المؤرخين أن صناعة الورق ابتكرت في الصين خلال القرن الثاني بعد الميلاد ، وكان الصينيون قبل ذلك يكتبون على الحرير الغالي الثمن أو الغاب الثقيل الوزن ، فيروى التاريخ أن الفيلسوف مودى الذي ذاعت شهرته بعد وفاة كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٨ ق.م) احتاجٌ في رحلاته إلى ثلاث عربات نقل يحمل عليها معه الكتب المدونة على شوائح الغاب والتي كانت (أثمن مايملك من الدنيا) وكان « تشي هوانج تي » مؤسس أسرة تشين (٢٢١ - ٢٠٧ ق.م) يضطر إلى مراجعة ما يعادل مائة وعشرين رطلاً من الوثائق الحكومية في كل يوم ، ولكن غلاء مادة الكتابة هذه المصنوعة من الأقمشة الحريرية أو من بقاياها حد من استعمالها على نطاق واسع - ففكر آخرون في الإستعاضة عن الحرير بمواد أخرى في تكلفتها .

وفي عام ١٠٥ بعد الميلاد أبلغ رجل يدعي « تساي لون » Tsi - Lun الإمبراطور أنه اخترع مادة للكتابة عليها أقل من الحرير ثمناً وأخف من الغاب وزناً ، وكانت العجينة التي إستعملها « تساي لون » في صنع الورق مكونة من قشور الشجر والقنب والخرق البالية وشبك الصيادين . فعين الإمبراطور « تساي لون » هذا في منصب كبير ومنحه لقباً رفيعاً ، ولكن يبدو أنه تورط بعد ذلك مع الإمبراطورة في بعض الدسائس ، وافتضح أمره ، فذهب إلى منزله ، واغتسل ومشط شعره ، ولبس أحسن ملابسه ثم تجرع السم ومات .

وكانت الطريقة التي اخترعها « تساي لون » تتلخص في تقطيع المواد النباتية[1] الصالحة إلى قطع صغيره تنقع في ماء الجير مدة كافية إلى أن تصبح رخوة ، ثم تدق وهي مغمورة في السائل دقاً شديداً حتى تنفصل الألياف بعضها عن بعض ، وبعدئذ يصفى المحلول خلال منخل من الحرير ضيق المسام ، فينفذ المحلول من مسامه ويتبقى فوق المنخل طبقة رقيقة من الألياف السليلوزية تجفف فتتماسك ، ثم يصقل سطحها .

وسرعان ما انتشرت الصناعة الجديدة انتشاراً واسع النطاق ، واستطاع الصينيون أن يرتقوا بصناعة الورق ارتقاءاً كبيراً ، وذلك بإستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجيلاتين

---

(١) كان الصينيون يقطعون نبات (البامبو) البوص ويغمرونه في الماء لكي يعطن ثم يهرسونه بين قطعتين من الحجر فيتحول الى ألياف ويضعونها في حوض به ماء ، ويغمس شبكة من المعدن أو الحرير في الحوض مع الرج الجيد ثم ترفع إلى أعلى - فيصفى الماء من الثقوب تاركاً الألياف التي تتجاور وتتشابك مكونة نسيجاً رخواً . هذا النسيج يجفف فيحصلون على الورق الجاف .
راجع : د. عبد الفتاح غنيمة : صناعة الورق وأنواعه المعاصرة . ١٩٨٧ ، وأيضاً د. نعيم أديب صناعة الورق - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ ص ٦ .

مخلوطة بعجينة نشوية لتقوية الألياف ، كما تمكنوا من صنع ورق سريع الإمتصاص للحبر ، ومما هو جدير بالذكر أن الصين هي التي ابتكرت طريقة خلط الماء المصمغ بسناج المصابيح فأنتج الحبر الأسود الذي يعرف بإسم « الحبر الصيني » ، وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتوز الزئبق Mercuric Sulphide شائع الإستعمال في الصين ، وكان اختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة القديمة ، لأنه كان أصلح المواد للإستعمال في القوالب الخشبية ، ويمتاز بأن الكتابة به لا تكاد تمحي ، فلقد وجدت أكداس من الورق في آسيا الصغرى ظلت تحت الماء عطنة ولكن ما عليها من الكتابة ظل واضحاً يمكن قراءته .

ولما أخذ العرب عن الصينيين صناعة الورق في القرن الثامن الميلادي ، ثم أخذتها أوروبا عن العرب في القرن الثالث عشر ، كانت قد بلغت غاية الكمال . وهذا الموضوع سنفصله في فصل لاحق وبعد التمهيد بصفحات قلائل عن الكتابة العربية قبل ظهور الإسلام ومن ثم ظهور الإسلام وانتشار الثقافة الإسلامية وأهمية الكتابة والعلم في الإسلام .

الكتابة الصينية القديمة :

لا يزال حوالي ربع سكان العالم يستخدمون طريقة معينة من الكتابة كانت نشأتها في الصين منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة . والكتابة الصينية توضع في مرتبة خاصة بها فليس بها حروف أبجدية وكل حرف منها يمثل كلمة كاملة ، ولكل حرف فيها رمزه وصورته ومغزي فلسفي وفني خاص .

وكانت هذه الكتابة – رغم اجتيازها مراحل التطور – عاجزة عن أن تصبح استعارية ، ولكنها أصبحت عبارة عن تعبير انشائي لطريقة الإتصال .

وفي سنة ٢٢١ قبل الميلاد استأصل حكام امبراطورية « تشين » أسرة شو التي قامت على تعاليم المذهب الكونفوشيوسي[1].

---

(١) ظهرت في الصين في القرن السادس قبل الميلاد فلسفتان تهدف كل منهما الى الكشف عن سبيل للاصلاح الاجتماعي . فاتجه لاوتس الى الزهد في الدنيا واحتقار شأنها . بينما يرى كونفوشيوس أن تنظيم المجتمع هو أساس كل اصلاح منشود . وانتصرت فلسفة كونفوشيوس وسادت تعاليمه ومبادئه التي استمد جذورها من أعماق التراث الصيني ومن طبيعة العصر الذي عاش فيه وكان سلوكه الشخصي وكبحه لجماح نفسه من أسباب انتشار مذهبه وصار حاكماً للبلاد وشهدت الصين على يديه تقدما ملحوظا في المجالين الأخلاقي والعمراني على السواء .
راجع د. محمد ريتون . الصين والعرب عبر التاريخ دار المعارف ١٩٦٤ ص ٤٨ .

رجال ذلك العصر وأصبحت الكتابة وسيلة بسيطة للاتصال ولتسجيل الأفكار (راجع شكل ٩) .

وبالرغم من تمام تطورها فإنها لم تكن استعارية إلا لفترة محدودة .. وبكل بساطة نجد أنها تهتم بتناسق أهم ما ينبغي لها أن تعبر عنه .وفي الحقيقة ليس من المستطاع البت فيما

الكتابة الصينية

تتكون الكتابة الصينية هي الأخرى ، والى اليوم : من رموز

جبل يد رجل شمس

سنة 年
سنة 年
ربيع 春
أخرى 更
يعود 歸

بيت من الشعر من قصيدة صينية قديمة ترجع الى عصر تانج ، ونصه « سنة بعد سنة يعود الربيع » . وكل رمز يمثل كلمة .

الكتابة الصينية الأولى

سماء 天
نور 日月
جبل 山
عربة 車
طفل 兒

تطور بعض الرموز في الكتابة الصينية

شكل (٩) تطور الرموز الكتابية الصينية من الرسوم الأولى

إذا كانت استعارية الأصل منذ نشأتها لأنه لم يعثر على أية وثيقة تثبت ذلك ، ولكن أقدم دليل عثر عليه هو نقوش « عظمة الحكمة » التي يرجع تاريخها إلى ما يقرب من عام ١٤٠٠ قبل الميلاد . وكانت عظام الحيوانات ودرقات السلاحف تعلق على النار حتى تظهر الشقوق التي تؤول بواسطة المنجمين إلى علامات يقرؤوها . وفي ذلك الوقت كانت العلامات قد اتخذت شكلاً مستقيماً مختصراً ومن المحتمل أنه حتى القرن الثامن قبل الميلاد كان المستخدمون الوحيدون للكتابة هم الكتبة المعروفين في مجالات السحر .

وقد ابتكر السلطان الجديد « تشي هوانج تي » – الذي كان حاكماً مستبداً وقام بتوحيد الصين – طريقة للكتابة أسهل بكثير من تلك الطريقة التي استخدمت خلال فترة حكم « عائلة شو » وعرفت هذه الطريقة في الكتابة باسم « الختم الصغير » أو « هسيو تشوان » وكانت تحتوي على ثلاثة آلاف حرف وكانت مصممة في البداية لكي يستخدمها الطلاب وأطفال المدارس .

ولكن حروف الكتابة الصينية بطريقة الختم الصغير بزخارفها المتعرجة كانت ولاتزال صعبة لا تفي بالاحتياجات اليومية . وفي عهد « أسرة هان » التي امتد حكمها من عام ٢٠٦ قبل الميلاد إلى سنة ٢٢٠ ميلادية ، اخترع أحد مراقبي السجون طريقة للكتابة تسمى طريقة « لي شو » الرسمية لأنه قيل أنها تبسط الكتابة للعاملين في ادارة السجن ، وقد اشتقت الأشكال الرئيسية للحروف الشائعة من « لي شو » ، وعلى مر القرون طرأ على هذه الطريقة تغييرات أدت إلى جعل الاتجاه محدداً نحو أكبر قدر من التنظيم والأسلوب وكان لاختراع الورق في الصين في القرن الثاني الميلادي أثر كبير في تسهيل تقدم الكتابة .

وقد أدى تميز الكتابة بثروة من فن الرسم وبأشكالها المنسقة إلى ميلاد فن من نوع جديد هو علم الخط . وكتب أحد المؤلفين الصينيين الأول يقول : « إن المحادثة تعبر عما في العقل أما الكتابة فإنها تصوره » وكانت هذه هي القاعدة التي استرشد بها الخطاطون نحو هدفهم في سبيل تجميع خطوط كل حرف في مجموع كامل متوافق .

وقد استخدم كثير من الناس في الشرق الأقصى الحروف الصينية ككل أو جزئياً أو حوروها لينشئوا كتابة خاصة بهم . ويحتمل أن يكون اليابانيون قد استخدموها منذ ما يقرب من القرن الرابع الميلادي ولكن أول مثال عرف من الكتابة اليابانية يرجع تاريخه إلى سنة ٧١٢ ميلادية وهذا المثال هو « الكوجيكي » ويعتبر أكبر عمل ياباني عرفه التاريخ . وقد أدى التركيب المتعدد المقاطع في اللغة اليابانية إلى اضافة حروف مقطعية

(١) راجع : د. أحمد هبو : الأبجدية نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب سوريا اللاذقية – دار الحوار ١٩٨٤ ص ٤٨

وبعد ذلك بما يقرب من قرنين كان لتركيز قوة الحكومة وزيادة سلطتها أثره في التغيير الكبير للعالم الصيني . وانتقلت المعرفة واستخدام الكتابة إلى موظفي الحكومة والفنيين من للتعبير عن تصريف قواعد اللغة صوتياً . وكانت أول محاولة في هذا المضمار في القرن الثامن . وفي القرن التالي أخذ اليابانيون عن الحروف الصينية الكثير من المقاطع الصوتية للتصريف ، وهي « السوجانا » التي عرفت مؤخراً « بالهبراجانا » .

وقد ابتكر في نفس الفترة نموذج « كاتا كانا » للكتابة الذي تزداد فيه حدة الزوايا ولا يزال مستعملاً إلى الآن في النقل الحرفي للكلمات الأجنبية .

وقد حاول الكوريون أيضاً استخدام الحروف الصينية صوتياً وأدى هذا إلى ابتكار كتابة « الأبدو » التي لم يتبق منها سوى آثار قليلة ، ومن القرن الخامس عشر ابتكرت طريقة صوتية أبجدية كانت مناسبة لكل الأصوات في اللغة ، ولكن الكوريون كانوا قد اخترعوا من قبل في عام ٤٠٣ م – الطباعة بطريقة متحركة [١]

تدرج ظهور الكتابة : الصوت والكلام فاللغة فالكتابة :

من كل ما سبق ذكره عن الكتابة عند المصريين والعراقيين والصينيين تبين لعلماء الكتابات الأثرية أن الكتابة عند هؤلاء تدرجت في مراحل على النحو التالي :

١ – كتابة تصويرية Ideographic Script .

٢ – كتابة رمزية Monograms Script .

٣ – كتابة صوتية أو مقطعية Phonograms Script .

٤ – كتابة هجائية أو (الألفبائية) التي اخترعها الفينيقيون (سكان سواحل سوريا) . Alphabet .

الكتابة التصويرية :

كانت تقوم على تصوير الشيء نفسه فالعين ترسم عيناً والشجرة ترسم شجرة وهكذا وجملة « رجل مات في الخمسين » يرسم جسم إنسان فصلت رأسه وبجانبه خمس نقاط وأحسن النماذج لهذا النوع من الكتابة هما : الهيروغليفية القديمة والكتابة الأزتكية بالمكسيك .

الكتابة الرمزية :

هي اتخاذ رسم رمزي ليدل على شيء آخر خلاف مدلوله ، واشارات المرور خير مثال لهذا النوع من الكتابة الرمزية .. فمثلاً الدائرة أساساً تدل على شيء مستدير ، فإذا اتخذت لترمز إلى الأشياء الممنوعة كان ذلك من قبيل الرموز وكذلك الجمجمة فهي أصلاً تدل

(١) المرجع السابق ص ٢٣٢ وما بعدها .



بعض الأمثلة للكتابة المصرية القديمة « الرمزية »

على عظام الرأس ، فإذا اتخذت للدلالة على الخطورة المميتة كان ذلك من قبيل الرمز .. الخ .

الكتابة المقطعية « الصوتية » :

إن الحيوانات المختلفة تصدر أنماطاً صوتية معينة للتعبير عن أحوالها ، وطبيعة هذه الأصوات تختلف تماماً عن طبيعة الأصوات الكلامية عند الإنسان ، وذلك لأن أصوات الحيوان هي ردود فعل غريزية آلية للحالات المختلفة التي يتعرض لها كالخوف والجوع والطلب وغير ذلك ، والحيوان من صنف معين (الكلاب أو القطط أو .. الخ) يردد نفس هذه الأنماط الصوتية في نفس هذه الحالات في أي مكان في العالم ، وليس هناك مجال للتنوع الفردي أو الأساليب الذاتية بين الحيوان للتعبير عن حالاته الداخلية الخاصة ، فهي جميعاً مجرد إنعكاسات صوتية آلية للحالات المختلفة لا تختلف بين أفراد الصنف الواحد .

فالحيوان لا يستطيع أن يكون من الأنماط الصوتية العامة نمطاً خاصاً يعبّر به عن فرديته أو تجربته الذاتية ، أو مفهوم خاص . وقد فشلت كل التجارب في تعليم الحيوان شيئاً من لغة الإنسان أو ما يشبهها وحتى الببغاء الذي يمكنه تقليد إصدار جمل كاملة من لغة الإنسان ، لا يستطيع أن يردد إلا ما دُرِبَّ عليه – كل جملة على حدة ، حينما يتعرض للمثير نفسه الذي ارتبط عنده بتلك الجملة ، إلا أنه لاَ يسُتطيع تركيب جملة من الجمل المنفصلة التي درب عليها .

أما الطفل البشري فإنه يتعرض لسماع جمل مختلفة يصدرها الكبار ، فيكون قياساً عليها وباستخدام المفردات التي اختزنها في ذهنه جملة جديدة لم يسمعها من قبل ، وهنا الطفل لا يتعلم اللغة أو يكتسبها عن طريق التقليد والتكرار الآلي ، بل هو يستمع إلى عينات كثيرة من اللغة ينطقها الكبار فيختزن مع الزمن منها قياسات وقواعد ، تولد عنده ما ينطقه ، ويستخدم بدوره الألفاظ والجمل لكي يولد تعبيرات ذاتية خاصة به ، تعبر عن نفسه وأفكاره ومشاعره الخاصة ، مما يؤكد أن اللغة الإنسانية ليست مجرد أنماط ثابتة من السلوك الآلي الخارجي ، بل هي ظاهرة عقلانية ذهنية ، وهذه الصفة العقلانية الأساسية في اللغة الإنسانية هي ماتركز عليه أحدث النظريات اللغوية وهي مدرسة شويسكي Chewisky عالم اللغة الأمريكي .

والكتابة المقطعية (الصوتية) هي أرقى أنواع الكتابات القديمة التي مهدت للكتابة الهجائية الحديثة إذ أنها بدلاً من استعمال الحروف الهجائية التي يدل كل منها على صوت معين لجأت إلى رموز ورسوم يدل كل منها على كلمة كاملة أو مقطع منها : فمثلاً « بوها » تعني عبد الله .

وطبيعي أن نشأة هذه الكتابات في عصور بدائية أحاطها بكثير من التعقيد والغموض مما شجع كثيراً من المشتغلين بالطقوس الدينية في تلك العصور على استغلالها لمصالحهم الخاصة ، والمحافظة على أسرارها ، ولقد دفعت تلك التعقيدات إلى ظهور ميلاد جديد لطريقة جديدة تقوم على : رسم عدد محدود من حروف الهجاء يعبر كل منها عن أقصر مخرج لكل صوت من أصوات الكلام في هذه اللغة . وليس لتعبير عن جماد أو فكرة أو مقطع صوتي كما كان في الكتابات السابقة . فكان هذا الإختراع أبدع ما أنتجه الفكر البشري .

وهكذا .. كان اختراع الكتابة أو الوصول إليها أهمية كبيرة جداً في تطور الجماعات الإنسانية فكان من أثره أن أمكن تسجيل الإتفاقات والقوانين والوصايا ، وبذا أصبح في امكان الكاهن أو الحاكم أو الملك أن تذهب تعاليمه إلى أماكن بعيدة عن بصره وصوته ،

وأن يبقيا بعد موته . وذلك بفضل استخدام الأختام التي كانت تستعمل بكثرة في البلاد السومرية القديمة ، كان النبيل أو الملك أو التاجر أو القائد يتخذ خاتماً كبيراً يكون محفوراً حفراً فنياً جميلاً ليطبعه على أية وثيقة طينية يريد أن يصدق عليها ، ثم يجفف الطين بعد ذلك ويغدو مستديماً .. وإلى هذه الحقيقة يدين العالم بثروته العظيمة من المعارف القديمة المسترجعة من بطون الثرى . وهي التي هيأت السبيل لنمو دول أكبر من دول المدن القديمة ، وجعلت في الإمكان قيام احساس بالوعي التاريخي المتواصل .

كتابة الأرقام « الأوزان والمقاييس والأعداد » :

كانت بعض الشعوب في الأزمنة القديمة تستخدم الكلمات للدلالة على الأرقام ولكن عندما عجزوا عن إيجاد كلمة لكل رقم ، اضطروا للبحث عن طريقة أخرى فكان المصريون القدامى يرسمون خطوط قصيرة ثم يجمعونها .

وكان هناك في معظم البلدان المصرية عدد من الأنظمة للتعبير عن الاوزان يستخدم واحداً منها للبضائع الكبيرة الحجم ، بينما يستخدم آخر صغير أو أكثر للذهب والفضة ، لأن التجارة كانت تتبع نظام المقايضة والفرق في القيمة يؤدي بأوزان الذهب أو الفضة أو النحاس .

وكانت وحدات القياس مأخوذة عن الجسم الإنساني . فاستخدموا الباع والقيراط والكف (الشبر) والذراع والقدم كوحدات . وكانت الوحدات شيوعاً هي تلك القائمة على أساس الذراع . والباع أربعة أذرع وارتبطت هذه الوحدات ارتباطاً وثيقاً بتطور صناعتي ورق البردي وصناعة النسيج وتجارتهما . ومن أمثلة الكتابة بالأرقام لخفة صغيرة وجدت في منطقة الدير البحري كتبت فيها أيام الشهر متتالية بالأرقام على عامودين رأسيين : ولا يبعد أن تكون هذه اللخفة تستهدف تعليم كتابة الأعداد وعدد أيام الشهر .

وبقيت من المسائل المصرية الطريقة ، والتي جعلها كاتبها مقياساً للنشاط الذهني في عمليات الجمع والضرب مسألة نظرية ، افترض صاحبها أنه كان في حي ما سبعة بيوت ، وأنه تسللت إلى كل بيت من البيوت السبعة سبع قطط ، فافترست كل قطة سبعة فئران ، بعد أن قرض كل فأر سبع حقيات من الحبوب . وطلب كاتب المسألة حاصل جمع البيوت والقطط والفيران والسنابل ومكاييل الحبوب جميعها[1].

ويبدو أن السومريين كانوا قد طوروا كتابة الأرقام إلى أبعد من مرحلة الحساب البسيط باستخدام رموز . ولقد اختار الكتبة في بلاد ما بين النهرين الرقن ٦٠ وحدة لهم ،

(١) د. عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة - الدار القومية ١٩٦٦ ص ٢٩٧ .

كما أنهم أدخلوا نظام القيمة المكانية (الخانة) كما نستخدمه اليوم في الأعداد حيث توضح الخانة التي يظهر فيها العدد منذ الوهلة الأولى ما إذا كان يعبر عن الآحاد أو المئات .. إلخ

أما اليونانيون فكانوا يستخدمون الحروف الأولى من هجائيتهم ويتبعونها بما يشبه الشولة Apostrophe وكان الرومان يفعلون نفس الشيء فالأحرف X, V, I, كانت تدل على الأعداد ١ ، ٥ ، ١٠ ، وبتجميع الحروف بعد ذلك استطاعوا أن يكونوا أي عدد .

ثم أدخل العرب إلى الغرب الأرقام التي تستخدم الآن ، وتعرف بالأرقام العربية ، وهم أول من استخدم الصفر في الحساب . راجع شكل (١٠) .

ثم ابتكر الهنود فكرة الصفر ، وإن كان لم يستخدم على مدى واسع ، حتى أخذه عنهم العرب . وكان هذا الإبتكار نقطة تحول خطيرة في تاريخ علم الحساب إذ أصبح من الممكن إجراء أية عملية حسابية على الورق دون حاجة إلى وظيفة العداد وصورة هذه الأعداد هي ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٠ وهي مازالت تستخدم في بلدان الشرق ومنها مصرنا ، ويعتقد أنها من أصل هندي نقلت من كتاب السند هند ، وهي أكبر موسوعة هندية في الفلك والرياضيات وقد حملها إلى بغداد عالم فلكي هندي إسمه كانكاه ، وقام بترجمتها إلى العربية يعقوب بن طارق المتوفى عام ٧٩٦ م وإبراهيم الغزاري المتوفى عام ٧٧٧ م . وهناك البعض ذكر أنها عربية تماماً والبعض يقول أنها وصلت الإسكندرية قبل بغداد في القرن الخامس الميلادي ولكن بدون الصفر .

I II III IIII

أرقام مصرية

α' β' γ' δ'

أرقام يونانية

I II III IV

أرقام رومانية

لقد نشأت الكتابة والأعداد فى داخل المعابد ، وتدل الرموز الموجودة على ألواح الطين السومرية على وجود نظام للترقيم العددى عرف باسم النظام السداسى .

D =١٠ ، D = ٦ ، D = ٦٠

O =١٠ ، O = ١٠٠ ، O = ٦٠٠

A · —
B — · · ·
C — · — ·
D — · ·

رموز هجائية مورس

شكل (١٠)

والصورة الأخرى هي : 0, 9, 8, 7, 6, 5, 4, 3, 2, 1,

وكانت تسمى هذه بالرموز الغبارية نظراً لأنها كانت تكتب على سطح الرمال وهي التي تستخدم في المغرب العربي والكويت والخليج وسوريا والعراق والأردن وقد حاول أحد الشعراء أن يصف هذه الرموز في الأبيات التالية :

ألف وحاء ثم حج بعده عين وبعد العين عو ترسم
هاء وبعد الهاء شكل ظاهر يبدو كمخطاف إذ هو يرقم
صفران تامتها وقد ضما معاً والواو تاسعها بذلك تختم

حيث رقم الواحد يشبه الألف ، 2 تشبه الحروف ح ، 3 تشبه لفظ حج ، 4 تشبه حرف ع ، 5 تشبه كلمة عو ، 6 تشبه حرف الهاء العربية ، 7 تشبه المخطاف ، 8 تشبه صفرين فوق بعضهما ، 9 تشبه حرف الواو العربية .

وقد نقلت هذه الرموز إلى أوربا عن طريق كتاب للخوارزمي ترجمة أديلارد في عام ١١٢٠ م . وكانت قد وصلت قبل ذلك بواسطة المسافرين والتجار العرب إلى الأندلس منذ عام ٧١١ م ، ولكن انتشارها بدرجة كبيرة بعد ترجمتها إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر ، تلتها ترجمات كثيرة .

وبطبيعة الحال كانت هناك أشكال متعددة لتلك الرموز ولم تستقر بشكلها الحالي إلا بعد ظهور الطباعة .

إن اهتمام العرب بعلم الحساب وتطوير نظام العد ، كان قد سبقه تطور احتياجات الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي في المعاملات التجارية وفي مسح الأراضي وتحديد أنصبة المواريث والخراج ومواقيت الصلاة .

سر إتجاه الخط العربي من اليمين والخط اللاتيني من اليسار :

تشكل الحروف السامية أساس الألفبائيات الهجائية في جميع لغات الشرق القديم . واللغات الحية القائمة الآن ، وتختلف هذه الحروف إختلافاً أساسياً عن الحروف الهيروغليفية التي كتب بها المصريون القدماء وتختلف أيضاً عما كتبه الصينيون والتي هي إما صور الأشياء أو الكائنات الحية وإما رموز مستمدة من تلك الصور ، أما الحروف التي طورها الساميون وابتكروها فهي تعرض أصواتاً معينة تخرج من الفم أو الحنجرة أو كليهما معاً ، وهي تلك الأصوات التي تشكل الأساس في المخاطبة وبالتالي الكتابة ، فلقد طور الساميون تلك الحروف من الخط المسماري القديم الذي استعمله العراقيون القدماء الذين

اخترعوا فن الكتابة ، وهذه الحروف غدت أساس الألفباء في اللغات البابلية والآشورية والفينيقية والحميرية والآرامية وغيرها من لغات الأقوام السامية الأخرى ، وكذلك الحروف العربية التي تطورت مع الزمان حتى بلغت مرحلتها الحالية .

على أن هذه الحروف نفسها أصبحت أيضاً أساساً للألفباء الذي وضعه اليونانيون القدماء للغتهم . فإن حروف (ألفا ALPHA) و (بيتا BETA) و (جاما GAMMA) مثلاً وهي الحروف الثلاث الأولى في الألفباء اليوناني ، هي في الواقع محرفة من ألفاظ (ألف) و (باء) و (جيم) التي تكون الحروف الثلاث الأولى في ألفباء اللغات السامية عامة .

واقتبس اليونانيون باديء ذي بدء اثنين وعشرين حرفاً من الحروف السامية لوضع الألفباء اليوناني القديم . وذلك في وقت سابق للقرن التاسع قبل الميلاد . وكانت تلك الحروف تكتب آنئذ من اليمين إلى اليسار مثل الطريقة المستعملة في كتابة مختلف اللغات السامية . فإن الكتابات الأثرية التي عثر عليها علماء الآثار في عام ١٨٩٦ في تنقيبهم لجزيرة ثيرا THERA في بحر الإرخبيل والتي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد على أغلب الظن ، إتجه الخط من اليمين إلى اليسار . ولكننا نجد أن الخطوط اليونانية التي تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد صارت تتجه من اليسار إلى اليمين وعليه فإن عملية تحول الخط من اليسار إلى اليمين قد حصلت خلال هذه المرحلة الواقعة بين القرن التاسع والسادس قبل الميلاد .

وبما أن الرومانيين اقتبسوا معالم الحضارة برمتها من اليونانيين القدماء ، فإنهم أيضاً حذوا حذو اليونانيين في الكتابة من اليسار إلى اليمين وبما أن اللغة الرومانية القديمة (أي اللاتينية) هي التي كونت الأساس للغات الغربية عامة ، فقد اتبعت اللغات الغربية إتجاه اليسار إلى اليمين في الخط ، وعلى هذا يجب القول بأن الكتابة من اليمين إلى اليسار هي الأساس ، وأن الكتابة من اليسار إلى اليمين هي الفرع .

لماذا يستخدم معظم الناس يدهم اليمنى :

من بين كل عشرة أشخاص شخص واحد فقط يستخدم يده اليسرى في الكتابة وبقية النشاطات اليدوية . وقد انطبقت هذه القاعدة على البشر منذ مطلع التاريخ وما قبل التاريخ أيضاً . فما سبب هذا التفضيل لليد اليمنى على اليسرى ؟

ليس في الطبيعة تناظر تام مهما بدا ذلك لأعيننا فالكرة الأرضية التي تعيش عليها ليست متناظرة حول خط عمودي في مركزها كما هي الحال في كرة عادية

ولا الحيوانات أو النباتات متناظرة قلباً وقالباً . كذلك الإنسان الذي قد يبدو لأول وهلة وكأنه متناظر حول خط يقسمه إلى قسمين طولياً ، إلا أنه ليس كذلك ، فكثير منا يمشون على قدمين مختلفتين في القياس والشكل أحياناً وقلما يتشابه نصفا الوجه تماماً . ويعتقد الباحثون في أستراليا أن الإنسان الأيسر أي الذي يعتمد على يده اليمنى يرى الدنيا منحرفة قليلاً إلى جهة اليسار . أي أن هذه الجهة تبدو في مجال نظره أكبر مما هي عليه في الواقع . ويظهر ذلك جلياً في تجربة تبين أن المرء إذا طلب إليه تحديد منتصف رسم ما ، أشار إلى نقطة اليسار من المنتصف الحقيقي ، والسبب هو أن النصف الأيسر من الصورة يبدو لناظره أكبر من الحقيقة ومن أجل أن يعادل النصفين ينحرف قليلاً إلى اليسار والنتيجة أن النصف الأيسر يصبح في الواقع أصغر من الأيمن .

وفي الحالات التي يعاني أصحابها من عطب في جانب من الدماغ قد يسوء هذا الإنحراف الطبيعي في النظر إلى حد كبير . فقد يصل به الحال إلى حد لا يشعر معه بوجود القسم الثاني من دنياه بتاتاً فيترك الطعام في جانب من صحته مثلاً ويأكل فقط ما في الجانب الآخر . ولكن ما سبب هذا الإنحراف مهما كان ضئيلاً الذي نلحظه في الأشخاص الطبيعيين ؟

تبين التجارب التي أجراها العالم النفسي الدكتور جون برادشو في جامعة موناش MONASH بإستراليا أن هذا الإنحراف في الأفراد العاديين لا يتراءى في النظر فقط بل يتعداه إلى الملكات العقلية الأخرى . فالكلمات التي يتلقاها المرء عن يمينه يعيها إدراكه بسرعة أكبر مما يعي تلك التي تأتيه عن يساره . وعندما يسعى المرء أن يقدر ملمس أو حجم شيء دون النظر إليه فإن حكمه يكون أصوب وأسرع إذا كان الشيء إلى يمينه ما لو كان إلى يساره . وهذا بغض النظر عن أي اليدين اليمنى أم اليسرى هي التي قامت بالعمل .

ومن المعلوم أن نصفي الدماغ يؤديان وظائف مختلفة عن بعضهما . فالنصف الأيسر مثلاً مسؤول عن القضايا اللغوية . أما النصف الأيمن فيتعلق بإحساس المرء بمواقع الأشياء من حوله . ويعتقد الدكتور برادشو أن التطور البشري هو الذي دفع الدماغ إلى هذا التخصص في وظائفه بين اليمين واليسار . فعندما ارتقى الإنسان فأصبح يستعمل الأدوات كان من الضروري أن يسوي هذه المعدات لتناسب استعمال يد معينة دون الاخرى . فوقع احتياجه على اليد اليمنى بمحض الصدفة . ثم أن احتياجه للغة التفاهم مع أقرانه قد أدى إلى تركيز ذلك النصف من دماغه على الإهتمام باللغة ، ومن مغالطات الطبيعة أن نصف الدماغ الأيسر هو الذي يتحكم باليد اليمنى والعكس بالعكس . لذلك أصبح النصف الأيسر من الدماغ هو المسؤول عن قضايا ونشاط اليد اليمنى .

ولعل هذه المغالطة في طبيعة وظائف الدماغ والجسم قد أدت إلى هذا الإنحراف نحو اليسار في الإنسان الطبيعي

الفصل الثاني

بدايات الكتابة العربية قبل الاسلام

الفصل الثاني

بدايات الكتابة العربية قبل الاسلام

الحضارة العربية قبل الإسلام :

تقع بلاد العرب في الجنوب الغربي من آسيا ، وهي شبه جزيرة يحدها الخليج العربي من الشرق والمحيط الهندي من الجنوب والبحر الأحمر من الغرب وبادية الشام وبلاد الرافدين من الشمال . وهي بهذا الموقع تحتل مركزاً هاماً بالنسبة للمواصلات والمبادلات التجارية بين عالم المحيط الهندي وعالم حوض البحر المتوسط .

ويقسم الجغرافيون الجزيرة العربية بحسب طبيعتها إلى خمسة أقسام هي تهامة والحجاز ونجد واليمن والعروض (يشمل اليمامة وعمان والبحرين) ، وهذه الأقسام الخصبة تمتد على سواحل شبه الجزيرة بوجه عام ، ففي الجنوب الغربي بلاد اليمن التي أطلق عليها الأقدمون اسم « الأرض الخضراء » وفي الجنوب بلاد حضرموت التي اشتهرت بالبخور في الأزمان الغابرة ، وفي الشرق بلاد الإحساء الخصبة على الخليج العربي وفي الغرب تكثر المراعي ، أما في وسط الجزيرة العربية ، أي نجد واليمامة فقد كانت الأرض كافية لسد حاجة العرب من المنتجات الزراعية كالقمح والشعير وغيرهما .

ويقسم المؤرخون العرب إلى عرب بائدة : وهم الذين بادوا وانقطعت أخبارهم ولا يعرف عنهم سوى ما ورد في الكتب السماوية والشعر العربي مثل أخبار عاد وثمود ، وعرب باقية : ويتفرعون إلى فرعين هما العرب العاربة والعرب المستعربة . أما العرب العاربة (أي الصرحاء الخلص) فهم العرب الأصليون من شعب قحطان وموطنهم بلاد اليمن ، ومن أشهر قبائلهم جرهم ويعرب ، ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين هما كهلان وحمير . ومن أشهر بطون كهلان : الأزد وطيء وهمدان وكندة وأنمار ولخم ، ومن أشهر بطون حمير : قضاعة ومن فروع قضاعة ، جهينة وكلب وبنو نهد وجرم . وأما العرب المستعربة فيطلق على جمهور العرب من البدو والحضر الذين يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز إلى بادية الشام حين خالطهم أخيراً في مساكنهم عرب اليمن الذي تفرقوا في شتى أنحاء الجزيرة العربية بعد انهيار سد مأرب العظيم . والأصل في تسمية العرب المستعربة (أو المتعربة) يعود إلى أن جرهم من القحطانية نزحوا إلى مكة وسكنوا مع اسماعيل وأمه ، فتزوج منهم وتعلم هو وأبناؤه الإثنا عشر اللغة العربية ، وبذلك سموا العرب المستعربة . ويبدو أن اسماعيل كان يتكلم العبرانية

أو السريانية ، وأن بنى جرهم كانوا يتكلمون لغة عربية تختلف عن اللغة العربية المعروفة الآن بعض الاختلاف ، ثم امتزجت اللغتان فكانت منهما اللغة العربية التي يتكلمها أهل الحجاز عند نزول القرآن الكريم .

وعندما توزع العرب في شبه الجزيرة العربية وأصبحت واردات الجزيرة المحدودة غير كافية لإعالة أعدادهم المتزايدة ، بدأوا في الهَجْرةُ إلى الأقاليم المجاورة حيث تيسرت لهم سبل العيش في الأحواض النهرية وعند السواحل البحرية ، فكان منهم الأكاديون والبابليون والكلدانيون والآراميون والكنعانيون وغيرهم ، كما نزحت بعض الفئات إلى وادي النيل وتشكل من امتزاجها مع العناصر الافريقية الشعب المصري .

ويرى بعض المؤرخون أن بلاد العرب قبل الإسلام لم تعرف شكل الحكومة المركزية ، وإنما قامت فيها وحدات سياسية مستقلة على أسس قبلية تفاوت تنظيمها تبعاً لتباين اتساع نطاق نفوذها لكن هذا الرأي لا يمكن أن ينقص من شأن الممالك العربية التي ظهرت قبل الإسلام ، أو يضعف من قدرها واسهاماتها في تشييد البنيان الحضاري الذي بدأته البشرية منذ آلاف السنين .

ممالك جنوب الجزيرة العربية : قامت في بلاد اليمن عدة ممالك أشهرها :

(أ) **مملكة معين** التي قامت في منطقة الجوف بين نجران وحضرموت في الألف الثاني قبل الميلاد ، وقد عرفت أخبارها مما كتبه مؤرخو اليونان وعلماء الآثار الذين أجمعوا على أن هذه المملكة كانت على جانب عظيم من القوة والثروة ، وأن نفوذها امتد الى شمال جزيرة العرب . ويستدل مما وقف عليه الباحثون أن المعينيين اقتبسوا الأبجدية الفينيقية لسهولة استعمالها ودونوا بها لغتهم كذلك اقتضت طبيعة بلادهم أن يشتغلوا بالتجارة ، ويقيموا علاقات تجارية مع مصر ، فقد اشتهرت معين بتصدير أجود أنواع البخور والعطور إلى المعابد المصرية .

(ب) **مملكة قتبان** التي قامت عند الزاوية الجنوبية حول عدن وسيطرت على طرق التجارة الدولية عند « باب المندب » وكانت معاصرة لمملكة معين لكنها فقدت استقلالها في القرن الثاني قبل الميلاد واندمجت في مملكة سبأ .

(جـ) **مملكة سبأ** التي نشأت بين معين وقتبان وورثت عن المعينيين ملكهم ولغتهم ، وفي منتصف القرن السابع قبل الميلاد اتخذ السبئيون من « مأرب » عاصمة لهم ، وبنوا سد مأرب الشهير أحد عجائب الدنيا السبع وسدوداً أخرى بلغت ثمانين سداً وذلك

لحفظ مياه الأمطار والانتفاع بها وقت الحاجة ، وقد تيسر لأهالي مأرب أن يرووا أرضهم رياً منتظماً ويحولوها إلى جنات ورد ذكرها في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ (سورة سبأ ٣٤ : ١٥) . واستطاع السبئيون أن يصلوا بنفوذهم إلى ديار حضرموت وقتبان ، ويسيطروا على التجارة البحرية بين الهند ومصر ،

وكان لهم أسطول بحري في البحر الأحمر وقوافل برية تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين عبر الحجاز لنقل السلع التجارية ، وتنشيط التبادل التجاري مع البلاد الأخرى . ويتفق المؤرخون من العرب على أن تصدع سد مأرب هو السبب في زوال مملكة سبأ وتفرق أهلها في شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية ، فهاجر بنو غسان إلى حوران وبنو لخم إلى أرض الحيرة ، وقد جعل الغساسنة حادثة انهيار سد مأرب أو « العرم » كما كان يسمى بلسان السبئيين بداية يؤرخون بها حوادثهم . ووصف القرآن الكريم هذا الحدث بأنه عقاب أنزله الله بأهل سبأ فقال تعالى : ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ (سورة سبأ ٣٤ : ١٦ ، ١٧) .

(د) مملكة حمير ظهرت حوالي ١١٥ ق.م بين سبأ والبحر الأحمر ودامت أكثر من ستة قرون ، حيث حلت في البدء محل قتبان ثم استولت على سبأ واتخذت ريدان (ظفار حالياً) عاصمة . واشتهرت هذه المملكة باتساع نشاطها التجاري والاقتصادي ولذلك تمكنت من السيطرة على طرق المواصلات التجارية بحراً وبراً .

ومن أشهر ملوك حمير نذكر الملك شمريرعش الذي يروي عنه أنه غزا أرض العراق وأرض خراسان وفتح مدائنها وخرب مدينة الصغد وراء نهر جيحون وبنى على أنقاضها مدينة شمرقند (أو سمرقند) المسماة بأسمه . كما تذكر الروايات العربية أن ملك الحميريين أسعد أبو كرب غزا أذربيجان وهزم ملك الفرس ووصلت جيوشه الى بلاد الصين شرقاً والى القسطنطينية وروما غرباً . وآخر ملوك حمير هو يوسف ذو نواس الذي كان يدين بالمسيحية ثم تحول إلى اليهودية في أواخر أيامه وأخذ يضطهد المسيحيين ويبيدهم في خنادق أعدت لاحراقهم . ولما علم الامبراطور البيزنطي جوستينيانوس بذلك كتب إلى نجاشي الحبشة يطلب منه انقاذ المسيحيين في جزيرة العرب ، وتم ذلك على يد أرياط الحبشي الذي هزم الحميريين وحكم اليمن من قبل النجاشي ولكنه قتل في حرب مع أبرهة أحد قواد الحبشة وخلفه أبرهة على اليمن بموافقة النجاشي ، وقد جرح أبرهة في هذه المعركة وشجت شفته فلقب بالأشرم وكان من أول ما قام به أبرهة الأشرم أن عمد إلى نشر النصرانية

يزن أهل اليمن ، فبنى في صنعاء كنيسة كبيرة تعد من أفخم الكنائس التي بنيت في ذلك العصر ، واستعان بقيصر الروم الذي أرسل اليه الصناع وأمده بالفسيفساء والرخام ، وكان أبرهة يطمع في تحويل حجاج العرب إلى هذه الكنيسة بدلاً من الكعبة فغزا مكة عام ٥٧٠ م على رأس جيش عظيم سير أمامه الفيلة لهدم الكعبة . ولكن الله هزم أبرهة وجيشه ، ووصف القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ (سورة الفيل : ١-٥) .

وعرف ذلك العام الذي شهد تلك الحادثة التاريخية باسم عام الفيل ، وأصبح العرب يؤرخون به حوادثهم ويعتبرونه فاتحة عصر جديد زاد فيه احترامهم لبيت الله الحرام وتهيأت حياتهم لاستقبال الدعوة الإسلامية والعمل على نصرتها والإيمان بها ، وذلك لأنه لو أتيح لجيش أبرهة النصر لتغير وجه التاريخ وانتشر الدين المسيحي في بلاد العرب وانصرف الناس عن مكة إلى صنعاء وعندما مات أبرهة بعد عودته إلى اليمن بقليل خلفه ولداه يكسوم ومسروق فأساءا معاملة أهل اليمن ، وقامت على أثر ذلك حركة وطنية لتخليص البلاد من حكم الأحباش ، ولجأ سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى أنو شروان يستعينه على طرد الأحباش ، ولما تم له ذلك ملكه كسرى على اليمن ولاية اسمية ، وانتهى به الأمر بأن قتله رجل حبشي في عام ٥٧٥ م وتولى أمر اليمن من بعده وهرز الفارسي ، واستمرت سيطرة الفرس حتى الفتح الإسلامي حين اعتنق « باذان » آخر ولاتهم على اليمن دين الاسلام ودخل في طاعة الرسول محمد ﷺ .

ممالك شمال الجزيرة العربية :

استوطنت بعض القبائل العربية وكونت دويلات شبه مستقلة في الأراضي القريبة من حدود الدولتين الكبيرتين الفارسية والرومانية ، وأشهر هذه الدويلات .

١ - **مملكة الأنباط** : وقد كونها النبطيون في المنطقة الممتدة من نهر الفرات إلى البحر الأحمر بعد أن هاجروا من وسط شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد . ووصلت حدود هذه المملكة الى دمشق ، وكان أهلها يتكلمون لغة عربية شمالية ويكتبون بالخط الآرامي النبطي . الذي استخدمه عرب قريش في تدوين لغة القرآن الكريم . وظل النبطيون محافظين على استقلالهم طوال العهد الهلليني والعهد الروماني إلى أن هاجمهم الامبراطور « تراجان » وقضى على دولتهم عام ١٠٦ م . وللمملكة الأنباط منزلة خاصة عند الباحثين في نشأة وتاريخ الكتابة العربية .

(ب) **مملكة تدمر** التي امتدت رقعتها من الفرات الى الاسكندرية في عهد الملكة زنوبيا أو (الزباء) بعد أن خلفت زوجها الامبراطور أذينة بن السميدع عام ٢٦٨ م . ولكن انتصارات زنوبيا أثارت الرومان ضدها فحاربوها وانتصروا عليها وضموا أراضي تدمر إلى الامبراطورية الرومانية .

(جـ) **مملكة غسان** وقد أنشأها بطن من قبائل الأزد التي نزحت عن بلاد اليمن على أثر انهيار سد مأرب ، واستقرت بجوار بئر ماء اسمه غسان بالشام فنسب القوم اليه ، وأقاموا دولة لهم عرفت بدولة الغساسنة ، وتشمل المناطق الواقعة شرقي نهري العاصي والأردن ، وتمتد من شمال العراق إلى خليج العقبة . ومن أشهر ملوك الغساسنة الحارث بن جبلة الذي بسط نفوذه على كل العرب في الشام وتحالف مع الروم لمقاومة غارات الفرس والعرب على أطراف امبراطوريتهم . واستفاد الغساسنة من مخالطتهم الروم والفرس ، واطلعوا على الانجازات الحضارية في الدولتين الكبيرتين ، لكن حياتهم كانت غير مستقرة وسقطت دولتهم في عهد جبلة بن الأيهم آخر أمرائهم الذي اشترك مع الروم ضد المسلمين في موقعة اليرموك عام ٦٣٦ م وكان النصر فيها حليف المسلمين .

(د) **مملكة الحيرة** التي أسسها اللخميون (أو المناذرة) في القرن الثالث الميلادي في أراضي الحيرة على الفرات بالقرب من بابل . وكانت علاقة الحيرة بدولة الفرس كعلاقة غسان بدولة الروم ، فاستعان الفرس بالمناذرة على حرب الروم وجعلوا من الحيرة حاجزاً بين العراق وغارات العرب على حدودهم . واشتغل أهل الحيرة بالتجارة في أرجاء الجزيرة العربية واشتهروا بتعليم القراءة والكتابة ونشطوا في نشر مظاهر الحضارة الفارسية ونقل معارفها إلى العرب .

ومن أشهر ملوك الحيرة النعمان بن المنذر (٥٨٠ – ٦٠٢ م) الذي حاول أن يستقل عن الفرس فاستدعاه كسرى الثاني إلى عاصمة المدائن وخلعه عن العرش ، وأثار هذا السلوك غضب العرب فقاموا بالهجوم على الفرس وانتصروا عليهم في موقعة « ذي قار » ، ولكن كسرى فارس رأى في يوم « ذي قار » أن يوطد سلطانه في الحيرة بتعيين عمال من الفرس عليها ، غير أن المناذرة ما لبثوا أن استعادوا سلطانهم على الحيرة ، فتولى امارتها المنذر بن النعمان بن المنذر الذي لم يلبث غير ثمانية أشهر حتى قدم خالد بن الوليد بالفتح الإسلامي في عهد الخليفة أبي بكر الصديق .

وفي وسط الجزيرة العربية لم يكن هناك ما يمكن أن يسمى بالدولة العربية قبل الإسلام ، وإنما قامت بعض الكيانات القوية واشتهرت مكة ويثرب من بين مدن الحجاز

الذي حافظ على استقلاله منذ أقدم العصور ، فلم يعبث بحريته الملوك الفاتحون ، وكان من أثر ذلك أن ظهرت في أهل الحجاز طبائع مميزة جعلتهم مضرب الأمثال في الشهامة والشرف والكرم وعراقة الأصل . وقد أمر الله ابراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام ببناء البيت الحرام – أي الكعبة – في مكة ، فكان ابراهيم يبني واسماعيل يرفع له الحجارة حتى أتماها مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع ابرٰهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٢٧) وقامت حول الكعبة قبيلة قريش التي يرجع اليها الفضل في توثيق الروابط بين القبائل التي تفد إلى مكة للحج والتجارة . ومازال شأن هذه القبيلة يعلو بين القبائل حتى جاء عبد المطلب الذي خذل الله في عهده أبرهة الأشرم وأنقذ مكة والبيت الحرام من خطر الحبشة في عام الفيل . وأدى اشتغال القرشيين بالتجارة إلى اتساع معارفهم وأتاح لهم فرصة الاختلاط بشعوب مختلفة والاطلاع على الكثير من الانجازات الحضارية التي أحرزها العالم من حولهم ، كما أنهم تعاملوا مع شعوب أجنبية تتكلم بلغات تختلف عن لغتهم مما اضطرهم إلى تعلمها . وقد أسهم ذلك كله في صقل عقول رجالهم وساعد على إظهار مواهب الكثير منهم بعد ظهور الاسلام ، مما كان له أجل الأثر في اثراء تاريخ الحضارة الاسلامية سياسياً ودينياً وثقافياً وعلمياً واجتماعياً .

مملكة الأنبــاط

كان للنشاط التجاري في بلاد اليمن والحجاز أثر كبير في قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق في العصر السابق على ظهور الإسلام ، فقد كانت بادية الشام وجنوبي فلسطين مركزاً لهجرات متتابعة من جنوب الجزيرة العربية منذ أوائل التاريخ المسيحي ، ومن أقدم الشعوب العربية التي استقرت في جنوب فلسطين شعب الأنباط .

ومملكة الأنباط قامت في شمال الحجاز ، وتنسب إلى شعب من شعوب العرب يعرف عند اليونان باسم Nabataei أو النبط ، سكنوا في بادية الشام وجنوبي سورية في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً . ولم نعثر في المصادر العربية على أخبار عن الأنباط ، وانما وقفنا على أخبارهم من كتابات الاغريق ، ومن النتائج والكشوف التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية في البتراء وحوران .

ولقد اتخذ الأنباط اللغة الآرامية لغة للكتابة النبطية ، والخط النبطي على هذا النحو خط آرامي ، ولكنه متطور من الخط الآرامي القديم ، وقد عرف لذلك بالخط النبطي ، تمييزاً له عن بقية الخطوط الآرامية .

وتتميز بلاد الأنباط بأنها بلاد جبلية قفراء ، قليلة المياه ، تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة والشعب ، وقد انعكست هذه الطبيعة الوعرة على النبط ، فطبعتهم بطابعها ، ولذلك عرف الأنباط بشدة المراس والعنف ، كما عرفوا بميلهم إلى الغزو . وساعدتهم هذه البيئة الصخرية على مقاومة أعدائهم ، فصعب على هؤلاء قهرهم واخضاعهم لهم ، ولهذا السبب لم يتمكن الآشوريون أو الفرس أو الاغريق من قهر هذا الشعب . ولقد سمى الاغريق بلادهم للسبب نفسه باسم بلاد العرب الصخرية ، كما سميت عاصمتهم بالبتراء Petraea ، أي الصخرة ، والتسمية العربية مترجمة من اليونانية .

وتُعْرَف البتراء في المصادر العربية باسم الرقيم ، وهي تسمية عربية أطلقت على آثار هذه المدينة بعد ظهور الاسلام ، ولعلها كلمة معربة لاسم ثان لهذه المدينة كان الاغريق يعرفونها به وهو Arke ، فحرفها العرب ، وقالوا : الرقيم ، ولما كانت هذه الكلمة تعنى النقش القديم فقد زعم الأخباريون أنها المدينة التي أقام فيها أهل الكهف . واشتهرت أطلالها في العصر الأموي بوجه خاص ، وكان ينزلها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك . أما اليوم فالبتراء تعرف بوادي موسى أو بالبتراء وهو الاسم اليوناني المعرب

وأصبحت البتراء في القرن الأول قبل الميلاد أهم مراكز التجارة القادمة من جزيرة العرب ، وساعد موقع البتراء على ازدياد أهميتها كمحطة تجارية في ملتقى الطرق التجارية من العراق شرقاً واليمن جنوباً ، وسوريا وفلسطين شمالاً ، ومصر غرباً . وقد أثرى الأنباط ثراء فاحشاً بسبب انشغالهم بالتجارة .

وأول ملوك النبط الذين ورد ذكرهم في كتب التاريخ هو الملك أريتاس Aretas أو الحارث (١٦٩ ق.م – ١٤٦ ق.م) . وكان الأنباط في عهده في درجة كبيرة من القوة .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثاني الذي تولى مملكة الأنباط فيما بين ١١٠ ق.م و ٩٦ ق.م . ويعتبر الحارث الثالث النبطي (٨٧ – ٦٢ ق.م) أشهر ملوك الأنباط على الاطلاق ، فاسمه يقترن بفتوحات كبرى وانتصارات هيأت المجال للأنباط أن يوسعوا نطاق أملاكهم على حساب السلوقيين واليهود ، ولذلك يعتبر الحارث الثالث المؤسس الحقيقي لسلطة الأنباط .

وشهد الحارث الثالث استيلاء جيشه على دمشق في سنة ٦٤ ق.م . وقد أحبه أهل دمشق ولقبوه بلقب محب الهلينيين Philhellene ويستنتج من أسلوب البناء في البتراء أن الحارث كان مغرماً بالفن الهلليستي الشائع في سورية ، وقد تابعه خلفاؤه في هذا السبيل . وعثر على عملات نبطية نقش عليها اسم الحارث الثالث ، وهي عملات متأثرة ، بنظائرها التي ضربت بدمشق في أيام ديمتريوس الثالث .

وتولى مملكة الأنباط بعد الحارث ابنه الملك عبادة الثاني (٦٢ - ٤٧ ق.م) ، وفي أيام عبادة هذا امتد نفوذ الرومان على الشرق ، فاستولوا على آسيا الصغرى وسورية ومصر من الفرسان في حملة يوليوس قيصر على الاسكندرية في سنة ٤٧ ق.م . وفي عهد مالك الأول ، تمكن الرومان ، ويمثلهم أنطونيوس الذي عهدوا اليه بشؤون الشرق ، من اسقاط الأسرة المكابية اليهودية في بيت المقدس ، ووضعوا مكانها الأسرة الموالية لهم .

وفي عهد الملك النبطي عبادة الثالث (٣٠ ق.م - ٩ ق.م) اشترك الانباط في حملة عسكرية لغزو بلاد اليمن . وفي عهد مالك الثاني بن الحارث الرابع (٤٠ - ٧١ م) ، اشترك الأنباط بفرقة من الجيش عدتها ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة ، في سنة ٦٧ م ، لمهاجمة بيت المقدس[1] . وقد وصلت إلينا من عهده عملات فضية وبرونزية نقش عليها صورته وصورة شقيقة زوجته وأخته في آن واحد ، ومن الملاحظ أيضاً أن زوجات الأنباط بدأوا ينقشون صورهم وصور زوجاتهم منذ أيام عبادة الثالث ، ومن الملاحظ أيضاً أن زوجات الأنباط كن شقيقاتهم على عادة الفراعنة والبطالمة .

وآخر ملوك الأنباط هو الملك مالك الثالث (١٠١ - ١٠٦ م) ، وفي عهده قضى الأمبراطور الروماني تراجان على مملكة الأنباط بإرساله حملة بقيادة كورنيليوس بالما نائب تراجان في سورية إلى البتراء ، ومع ذلك فقد واصلت البتراء ازدهارها فترة من الزمن بعد سقوط دولة الأنباط ، وأصبحت في العصر الروماني مركزاً اقتصادياً هاماً . ولكنها أخذت تفقد مكانتها الاقتصادية تدريجياً وتتخلى عنها لتدمر . ثم انتشرت المسيحية في البتراء في القرن الثالث ، وأصبحت البتراء مركزاً أسقفياً ، وظلت مأهولة بالسكان حتى بداية العصر الاسلامي .

حضارة الأنباط وآثارهم :

حضارة الأنباط حضارة مركبة على حد قول الدكتور فيليب حتى[2] ، فهي عربية في لغتها آرامية في كتابتها ، سامية في ديانتها ، ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية ، ولكنها مع كل ذلك عربية في جورها ، فالأنباط عند مؤرخي اليونان والرومان عرب ، ويؤكد هذه الحقيقة أن أغلب الأسماء التي كانت شائعة عندهم تشبه الأسماء التي كان يستعملها عرب الجنوب وعرب الشمال في شبه الجزيرة ، ومن هذه الأسماء حارثة ومالك

---

(١) فيليب حتى ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢٦

وجديمة وكليب ووائل ومغيرة وقصى وعدى وعائذ وعمرو وعميرة ويعمر ومعن ووهب الله وعلى وحبيب وسعيد وجميلة وهاجر وشقيلة وهانيء وجدلة وعبد الملك وسعد الله وحميله وحوشب .

ومما لاشك فيه أن لغة الأنباط ذات لهجة عربية شمالية ، فكثير من الكلمات الواردة في النقوش النبطية المكتشفة عربية خالصة مثل قبر ، بل اننا نلاحظ في بعض النقوش أن عبارات بأكملها تكاد تكون عربية .

ومن حيث الديانة شارك الأنباط العرب في عبادة بعض الأصنام المعروفة في الحجاز في العصر الجاهلي مثل « ذي الشرى » ، المعروف عندهم « بدوشرى » وهو الاله الرئيسي عندهم ويعنى أنه صاحب أرض بهذا الاسم وهي منطقة جبلية حول البتراء . ويتمثل هذا الاله في صورة كتلة من الصخر أو عمود صخري ، وذو شرى هو اله الشمس . ومن آلهتهم اللات « الت » الهة القمر وهي أم الآلهة ، وقد تحولت إلى أثينا ، ومنها أيضاً مناة « منوتن » وهبل « هبلو » و « شيع القم » أي حامي القوم وهو اله القوافل ، ومنها العزى ، ومعظمها آلهة ورد ذكرها في القرآن الكريم . وبعض هذه الآلهة انتقلت عبادته إلى مكة على يدى عمرو بن لحى الخزاعي بعد عودته من البلقاء .

وحضارة الانباط تقوم أساساً على التجارة ، إذ أن البتراء كانت المركز التجاري والاقتصادي الرئيسي للطرق التجارية مابين غزة والبصرة ودمشق ، وقد امتد النشاط التجاري للأنباط إلى مناطق نائية ، فقد عثر على آثار تجارتهم في سلوقية والاسكندرية وورودس ومليتوس وديلوس وموانيء سورية ، بل ان بعض الآثار الكتابية عثر عليها مبعثرة عند مصب الفرات وكانت أهم السلع التي يقومون بالتجارة فيها العطور والطيوب اليمنية ، والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين ، والحناء العسقلاني ، واللآليء من الخليج العربي ، هذا بالاضافة إلى بعض المنتجات المحلية كزيت السمسم والذهب والفضة . ومن ناحية الصناعات كانت صناعة الأواني الفخارية أهم ما كانوا يشتغلون به من صناعات ، وكان فخارهم من الرقة ودقة الصناعة بحيث كان لا يقل في الجودة عن الخزف الصيني ، وكانت الجفان الفخارية تزدان بنقوش دقيقة تدهن باللون الأسود وتعبر القطع الخزفية التي أسفر عنها الكشف الأثري سواء كانت هذه القطع خاصة بالكؤوس أو الصحون عن تفوق في هذه الصناعة ، فهي من الرقة بحيث تشبه قشر البيض .

وقد تبقت من عمائر الانباط آثار كثيرة أهمها البناء المنقور في الصخر ، المعروف باسم الخزنة ومنها آثار المسرح الذي يفضي الى سهل فسيح تتناثر فيه الكهوف الطبيعية أو المحفورة في الصخر ، ولبعض هذه الكهوف واجهات منقوشة . ومن أهم آثار الانباط

أيضاً بناء يعرف بالدير ، وهو بناء ضخم يبلغ عرضه نحو ٥٠ متراً ويصل ارتفاعه حتى قمة الجرة إلى ٤٥ متراً ، ويزدان بواجهة من الطراز الهللنستى . وبداخل الدير قاعة فسيحة زود جدارها الخلفي بجوقة أقيم فيها نصب حجري يمثل الاله ذا شرى . ويرجع تاريخ بناء الدير إلى القرن الثالث الميلادي . كذلك تبقت آثار بناء يعرف بقصر البنت أو قصر بنت فرعون وهو بناء مشيد غير منقوز في الصخر لعله أقيم في العصر الروماني . ومن آثار البتراء آثار ضريح يقال له ضريح الجرة ، يزدان بواجهة من أروع ما تبقى من الآثار ذات الطابع الهللنستى ، وآثار ضريح القصر ، وآثار ضريح سكستوس المشيد في سنة ١٤٠ م[1] .

ومعظم آثار البتراء تدال على تأثر فن البناء النبطي بالفن الهللنستى ، أما النقوش الكتابية النبطية فقد عثر عليها في مناطق مختلفة ، ومعظم النقوش النبطية عثر عليها في مدينة الحجر وفي البتراء وفي منطقة حوران وفي سيناء ، الأمر الذي يدل على امتداد نفوذ الأنباط جنوباً في الجزيرة العربية حتى الحجر ، وغرباً حتى سيناء ، وشمالاً حتى حوران[2] .

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ص ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد : في تارخ العرب قبل الاسلام - بيروت دار النهضة العربية ١٩٧٦ ص ١٤٥ وما بعدها .

نشأة الكتابة العربية وحقيقة تطورها

كان للأنباط صلة وثيقة بعرب الجنوب ، حيث سكنوا مدين وما جاورها من الأنحاء الشمالية للبلاد العربية وأغاروا على الآراميين بين القرن الرابع والخامس ق.م وكونوا لهم ما سبق أن ذكرناه من مملكة عرفت بمملكة النبط وكان سلطانهم يمتد من دمشق شمالاً إلى جهة العلا والحجر من أرض الحجاز جنوباً ، وبقيت عاصمتهم البتراء مزدهرة مدة خمسة قرون ثم خضعوا لحكم الروم عام ١٠٥ م وأشتق النبط كتاباتهم من الكتابة الآرامية ، ثم استعار العرب الحجازيون خط كتاباتهم من آخر صورة من صور الكتابة النبطية فيما بين منتصف القرن الثالث وأخر القرن السادس الميلادي حيث تطورت إلى خط الكتابة العربية الذي نعرفه الآن ، وبهذا يكون الخط العربي قد نشأ في الشمال . يرى هذا الرأي بعض علماء العرب . منهم الأمام أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي الشهير بالبلاذرى في مؤلفه « كتاب فتوح البلدان » .

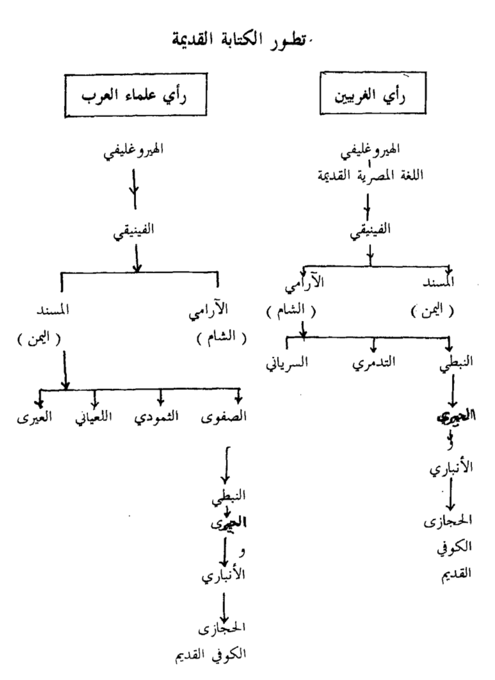
فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار ويكمل البلاذرى الراوية فيذكر أن بشر بن عبد الملك أخو أكبر بن عبد الملك كان يأتي الحيرة فيقيم بها ، فتعلم الكتابة من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه شعبان بن أمية وأبو قيس بن عبد مناف يكتب فسألاه أن يعلمهما الكتابة فعلمهما ثم آراهما طريقة الكتابة فكتبا . ثم أن الثلاثة أتو الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلم الكتابة منهم ، وفارقهم بشر ومضى الى ديار مصر فتعلم الكتابة منه عمرو بن زرارة ثم أتى بشر الشام فتعلم الكتابة منه ناس هناك وتعلم الكتابة من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طانجة فعلم رجالاً من أهل وادى القرى .

وكل ما يهمنا من هذه الراوية أنها تتفق مع الرأي القائل بأن الكتابة العربية الذي نعرفه نشأ في الشمال وهو آخر ما وصل اليه العلماء المحدثين في نشأة الكتابة العربية . وهناك فريق من العلماء على رأسهم المستشرق الألماني مورتز[١] والذي درس تطور الكتابة العربية على الآثار وفي نقوش المعابد والكتابات الأثرية والمخطوطات القديمة يرى أن العرب في اليمن هم الذين عرفوا الخط والكتابة بعد المصرين القدامى وانتقل المسند الحميرى الذي ينتسب إليهم إلى عرب الشمال وإلى الفينيقيين أنفسهم .

وقد دلت النقوش التي يرجع تاريخها إلى ما قبل الاسلام على أن العرب قد نقلوا عن الهجاء النبطي وقد كتبت تلك النقوش بحروف نبطية متأخرة .

والأسماء التي وردت فيها عربية مما يدل على أن الأنباط قوم من العرب ، ولكنهم عرب وقعوا تحت تأثير الثقافة والحضارة الآرامية . فجاء هجاؤهم آرامياً ، ولغتهم مزيجاً من العربية والآرامية ، وقد كانوا يسكنون المنطقة الممتدة من سيناء ومشارف الشام .

تطور الكتابة القديمة



نظريات نشأة الكتابة العربية

قبل أن نتكلم عن أصل الخط العربي الإسلامي يحسن بنا أن نعرض أولاً آراء علماء الكتابات الأثرية في نشأة الخط ونناقشها وندلل على قيمتها من الصحة والخطأ وننظر .. هل بحث العرب في ذلك بحثاً علمياً صحيحاً أم كانت الآراء مبنية على الحدس والتخمين وهل توصلوا إلى معرفة الأصل الذي اشتقت منة كتاباتهم أو كانوا يجهلون ذلك الأصل . تتلخص آراء علماء الكتابات الأثرية العرب في نشأة خط الكتابة العربية في أكثر من نظرية ورأي .

(١) **نظرية « التوقيف »** ان خط الكتابة العربية توقيف أي أنه ليس من صنع البشر بل ان الله سبحانه وتعالى قد علمه لآدم فكتب الكتب كلها فلما أصاب الأرض الطوفان والغرق وانحسرت عنها الماء وجد كل قوم الكتابة التي يكتب بها ، وكان من نصيب اسماعيل عليه السلام الكتاب العربي أو اللسان العربي .. وعلى ذلك يقول « ابن عباس » أن أول من وضع الكتاب العربي هو إسماعيل . وضعه على لفظه ونطقه ، وتوجد بعض الآيات القرآنية تذكر أن الخط توقيف وذلك لقول الله عز وجل ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . (سورة العلق) .

وتلك النظرية لا تحتاج إلى مناقشة وذلك لسذاجتها .. والظاهر أنها وضعت لتفسير هذه الآيات القرآنية وذلك للتوفيق بينها وبين النظرية العربية المشهورة التي تقول أن إسماعيل أبو العرب المستعربة هو أول من تكلم العربية التي تعلمها من العرب العاربة لذلك قالوا أن الله علم آدم الكتابة قبل موته فلما جاء الطوفان وجد كل قوم الكتابة التي يكتبون بها وتعلم إسماعيل أبو العرب الكتابة العربية فكتبها وتعلمها منه العرب المستعربة .

(٢) **النظرية « الحميرية »** شاع بين العرب كذلك أن خط كتاباتهم مشتق من الخط المسند الحميري ... وأصحاب هذا الرأي سواء القدماء أو المحدثين لا يستندون إلى دليل مادي فليست هناك علاقة ظاهرة بين خط حمير في اليمن والخط العربي الذي انتهى إلينا ، ويرجح أن يكون منشأ هذه النظرية أن اليمن قد فرضت سلطانها على بعض تلك الأمم الشمالية خلال حكم دولتي سبأ وحمير في القرنين الأول والثاني ق.م ، فلابد أن تكون قد فرضت على تلك الأمم ثقافتها كذلك كما قد يكون الباعث على اعتناق هذه النظرية

ما يعرف من أن مؤسسي الدولة السبأية في اليمن أصلهم من إقليم الجوف في شمال نجد والحجاز .

وهو الإقليم الذي كان الآشوريين يسمونه باسم « عريبي » وكانت تحكمه ملكات من بينهم ملكة سبأ ، لهذا لا يستبعد أن تكون هذه العلاقات السياسية وصلاتِ الهجرة بين جنوب بلاد العرب وشمالها سبباً في الاعتقاد الذي انتشر وثبت خطأه أن العرب الشماليون قد اشتقوا خطهم من الخط « المسند الحميري » ومن المعتقد أن النقوش الحميرية الجنوبية لم تتجاوز في رحلتها نحو الشمال في أثر سلطان اليمن السياسي بلاد مدين .. ويروي ابن خلدون في كلام له يتصل بهذه النظرية الجنوبية أن الخط بلغ في دول التتابعة باليمن مبلغاً غاية في الإحكام والجودة ، كما بلغت تلك الدولة مبلغاً عظيماً من الحضارة والترف .. ويذهب ابن خلدون إلى أن الخط انتقل من اليمن إلى الحيرة في عهد آل منذر وهم نسباء للتتابعة اليمنيين في العصبية والمجددين لملك العرب في العراق إلا أننا نجد أن ابن خلدون يعترف في موضع آخر من كلامه عن الخط العربي أن الخط المسند منفصل الحروف وهو على خلاف الخط العربي الذي انتهى إلى قريش[1].

(٣) **نظرية أهل الحيرة** : هي نظرية أخرى يذكرها عدد من المؤرخين وعلى رأسهم « البلاذري » الذي يرى أن ثلاثة من طيىء قد اجتمعوا وهؤلاء الثلاثة هم مرامر بن مره ، أسلم بن سدره ، عامر بن جدره ، قاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلم منهم قوم من أهل الانبار « العراق » ثم تعلم من هؤلاء نفر من أهل الحيرة فكان يأتي بشر بن عبد الملك إلى الحيرة فيقيم فيها بعض الوقت فتعلم الخط العربي من أهلها ثم أتى إلى مكة حين قطى بعض شأنه فعلم بعض الأفراد ومنهم سفيان بن أمية ، وأبو قيس ابن صناف ثم مضى بشر هذا إلى ديار « مضر » فتعلم الخط منه نفر أيضاً ثم رحل إلى الشام وعلم هناك بعض الناس . هذه النظرية تحاول أن تفسر كيف انتهت الكتابة من الحيرة إلى الحجاز ونحن نستنتج منها أن تكون الحيرة مركزاً من مراكز تعليم الخط العربي لأن خط العرب الشماليين انتهى في وقت من الأوقات إلى هذه التبعة وهو يرحل في رحلته الأولى من موطنه الأصلي « ديار النبط » إلى الحجاز عن طريق العراق الأوسط . فمن المقبول إذاً أن تكون الأنبار والحيرة قد تلقفت هذا الخط من بعض جهات الشام .. كذلك كله مستساغ ولكن لماذا يناط انتقال الخط العربي بشخصية بشر بن عبد الملك الذي نجعل منه

(١) د علي عبد الواحد عبد الرحمن بن خلدون ، أعلام العرب ، العدد ٤ ، ابريل ١٩٦٢ ص ٢٧١

الرواية جائلا كلف نفسه مشقة الانتقال إلى أرجاء الجزيرة العربية يعلم الخط وهو ذلك الرجل الأرستقراطي المترف الذي يتجول لهذا الغرض .

أما شمس الدين الأكفاني فيذكر في كتابه ارشاد القاصد أن الخط العربي ابتكار ، وأنه وليد عقل الانسان وتفكيره الذي يمتاز به عن سائر الحيوان .

ويؤكد ابن خلدون أن الخط العربي من جملة الصنائع ، وتتوقف إجادته على درجة التعليم ، وعلى قدر توافر العمران وانفساح الأعمال والتناهي في الكمالات ، ويعلل أمية البدو وضعف كتاباتهم لبدواتهم ، وأما تطور الخط في الأمصار فإنما يرجع إلى تطور العمران[1].

النبط يتكلمون العربية :

قلنا أن النبط قبائل عربية أغارت على بلاد آرامية فتحضرت تلك القبائل بحضارتهم واستعملت اللغة والكتابة الأرامية في النقوش وسائر الشئون العمرانية ولكنها ظلت تتكلم وتستعمل اللغة العربية في شئونها وأحاديثها اليومية . يضيف « تيودور الصقلي » أنه في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد كانت توجد في ناحية بترا قبائل عربية تعيش عيشة بدوية ولا تزرع ولا تحصد وهذا يدل على أن هذه القبائل عربية لأن العرب أمة بدوية تأنف من الاشتغال بالزراعة والمهن الأخرى وتحتقر من يزاولها . فلما أغارت هذه القبائل على الأقاليم الآرامية واستقرت وتحضرت بحضارتها نسيت بدويتها الأولى وأخذت تزاول المهن الأخرى التي تستلزمها الحضارة العمرانية كالزراعة ، فاطلق البدويون على هذه الجماعة المتحضرة اسم النبط لاستنباطهم ما يخرج من الأرض . كما أن هناك أسماء من الأسماء النبطية عربية الأصل مثل . حارثة ، خديجة ، وائل ، مغير ، قصي ، عدى ، عمر ، يعمر ، كعب ، سعد ، مسعود ، وقد ذكرنا الكثير من أسماء النبط من قبل .

يقول « ثمان » أن ٩٠٪ من الأسماء النبطية أسماء عربية والباقي أسماء آرامية لاتينية يونانية كما نجد في النقوش النبطية القديمة كلمات عربية تستعمل عوضاً عن الكلمات الآرامية مثل كلمة ولد استعملت بدلاً من كلمة بلداً الأرامية وكلمة ضريح بدلاً من كلمة قبر وكلمة جثة بدلاً من كلمة فترا . هذا بالاضافة لوجود أثر للنحو العربي للنقوش النبطية فمثلاً ترى أنهم يستعملون التاء في التأنيث كما في العربية تماماً ، كما نجد حرف الياء يلحق بالمضاف اليه كما في الكلمات المركبة ، مثل وهب الله تصبح اللهى وتيم الله باضافة الياء اليها تصبح (تيم اللهي) وهذه الياء نجدها في أغلب الكلمات النبطية المركبة وهي أما أن تكون عبارة عن اشباع للكسرة والجر أو أنهم كتبوها كما كتبوا (الواو) في نهاية

(١) د. على عبد الواحد : عبد الرحمن ابن خلدون - أعلام العرب ، العدد ٤ - ابريل ١٩٦٢ ص ٢٧٢

الأعلام المنونة لتساعدهم على صحة القراءة ، ولكن مهما يكن من شيء فهي تدل على أن كانوا يجرون المضاف اليه ، أي أنهم كانوا يتكلمون العربية قبيل القرن الأول للميلاد كما أن كل هده الدلائل تفيد بأن أصل النبط قبائل عربية هجرت البادية إلى الحضر واختلطت بسكانها وتثقفوا بالثقافة الآرامية في نقوشهم وسائر شئونهم العمرانية ذلك لأن الآرامية كانت في ذلك الزمان لغة العمران ولكنهم لم ينسوا لغتهم الأصلية « اللغة العربية » التي كانوا يتكلمون ويتخاطبون بها في حياتهم وأحاديثهم اليومية .

الكتـابة النبطـية

تنقسم الكتابات النبطية حسب الأماكن الموجودة بها إلى خمس أقسام :

١ – كتابات وجدت في العاصمة سلع أو « بترا » عاصمة النبط .

٢ – كتابات وجدت في البلاد المجاورة للحجاز كالعلا والحجر .

٣ – كتابات وجدت في بلاد حوران السورية .

٤ – كتابات وجدت في أودية سيناء .

٥ – كتابات وجدت في الممرات التجارية التي ارتادها تجار النبط ومروا بها وكتبوا على ألواح حجرية أو منقوشة على صخور الجبال .

وقد قسم العلماء تلك النقوش إلى قسمين :

القسم الأول : كتابات وجدت مكتوبة بالخط المتقن ومنقوشة بدقة على الصخور ويسميها العلماء المختصون Inscription أي النقوش المتقنة وقد وجد أكثرها في مدينة الحجر « مدائن صالح » وباقي النقوش وجدت ببلدة سلع وتلك نقوش جنائزية الطابع أي يكتب فيها اسم صاحب القبر وفي بعض الأحيان يذكر تاريخ النقش حسب التاريخ النبطي .

القسم الثاني : كتابات وجدت بخط قبيح أشبه بالخربشة منه بالكتابة ويطلق عليه الباحثون Graffiti أي الكتابات المخربشة وتدل على أن اليد الكاتبة ضعيفة لاتعرف أصول الكتابة وإنما تقلد وتحاكي بطريقة بدائية ، وقد وجدت تلك المخربشات في أودية سيناء وحوران وهي في الغالب كتابات فقيرة كتبت للتذكار أو من أجل التقرب للآلهه

تاريخ العثور على الكتابات النبطية
وتفسيرات العلماء في ذلك

١ — **كتابات بترا** : أول من زار تلك المدينة هو العالم جون « لويس برك هارت » وقد زارها سنة ١٨١٢ م وعثر على ثلاث نقوش ثم تلاه في الزيارة « جورج مارش » وقد قام برحلة أثرية في تلك المدينة فعثر على عدد عظيم من النقوش النبطية نقلها بورق الاستبناج ثم تلاه في الزيارة العالم « برونو » وختمت تلك الزيارات بزيارة « دالمن » سنة ١٩١٠ م وهؤلاء هم أشهر من قاموا برحلات إلى عاصمة النبط وعثروا على ٢٠٠ كتابة أغلبها من نوع المخربشات وحوالي سبعة من النقوش المتقنة .

٢ — **كتابات بلاد الحجاز** : أول من زار تلك الأنحاء هو « تشارلز دوتي » وقد نشر العالم الفرنسي « رينان » جهد ذلك العالم وهي « ٢٧ نقش » كما قام « هوبر » برحلة علمية إلى الحجر وقد وجد نقوش جديدة . وفي سنة ١٩٠٧ — ١٩١٠ م قاش « جيتش » بثلاث رحلات حيث عثر على نقوش مهمة عبارة عن « ٤٠ نقش منها ٣٦ مؤرخة والنقوش الأربعة الأخرى كتبت في عصر متأخر » .

٣ — **كتابات بلاد حوران** : وقد عثر ثلاثة من العلماء أحدهم فرنسي على تلك الكتابات ونشروها في كتاب صدر لهم في باريس .

٤ — **كتابات سيناء** : وهي الكتابات التي وجدت في شبه جزيرة سيناء وكان أول من عثر على نقوشها العالم « برك هارت » واستمرت الاكتشافات بعد ذلك حتى سنة ١٨٨٩ م وأغلب الكتابات السينائية من المخربشات وهي تقرب من « ٣٠٠٠ كتابة » .

٥ — **كتابات الممرات التجارية** : وجدت هذه الكتابات والنقوش في الممرات التجارية التي سار فيها تجار النبط وأغلب تلك النقوش مؤرخ .

وضحنا فيما سبق أن قبائل النبط أغارت على الحضر فتحضروا بحضارتهم واستعملوا اللغة والكتابة الآرامية في شئونهم العمرانية والآن نبحث تاريخ وتطور الكتابة النبطية وكيف أخذت تبتعد عن أصلها الآرامي حتى صارت تعرف باسم الكتابات النبطية ثم سنتتبع هذه الكتابات ونسير مع تطورها مؤرخين الأدوار التي مرت بها حتى نصل إلى

التطور الأخير التي أخذت فيها هذه الكتابات تفقد استقلالها وحريتها حتى صارت تعرف باسم الكتابة العربية .

لاشك أن النبط عندما اختلطوا بالآراميين وكتبوا حروفاً آرامية هي أقرب للخربشة منها إلى الكتابة المنتظمة وذلك لما وجدته الشعوب العربية من صعوبة في محاكاة الحروف وتقليدها كما أن الشعوب النبطية كتبت تلك الحروف بشيء من الاختلاف يكاد لا يطابق الأصل كل المطابقة ، ثم أتى جيل أخير بعدهم وتعلم هذه الكتابة في شيء من الصعوبة ، فكتب الحروف أكثر تحويراً من الأولى ، وأبعد قليلاً منها ، وهذا طبيعي لأن المنقول لا يشبه الأصل ، ولا يطابقة بل يختلف عنه خصوصاً إذا كان المقلد بعيداً عن الأصل جاهلا به . وهكذا أخذت تلك النقوش (تلك الخربشة) تبتعد عن الأصل الآرامي شيئاً فشيئاً حتى تميزت عنه ، وصارت تعرف بالكتابة العربية وهذا الدور أي دور الانتقال من الآرامية للنبطية نستطيع أن نتبينه من الخربشة القديمة التي كتبت عن القرن الأول قبل الميلاد وخصوصاً نقوش حوران لأنها قريبة من فلسطين حيث كان يستعمل القلم العربي الآرامي بل أنها كثيراً ما كانت تخرج من أيدي النبط لتخضع لسلطان اليهود كما حدث في سنة ٢٣ ق.م . أما الكتابة النبطية فتستطيع أن نتبينها ونتتبع تطورها من النقوش التي كتبت في القرنين الأول والثاني الميلادي خصوصاً نقوش مدائن صالح « الحجر » لأنها بعيدة عن النفوذ الآرامي وقريبة من البلاد العربية موطن النبط وبيئتهم الأولى ، ثم بعد ذلك تطورت حروف الكتابة النبطية تطوراً سريعاً حتى فقدت مسحتها النبطية وتصبغت بالصبغة العربية كما يظهر من النقوش التي كتبت في القرنين ٣ ، ٤ م وهذا ما نجده في النقوش السينائية خاصة المؤرخ منها بالاضافة لنقش « النمارة » . وفي القرنين ٥ ، ٦ م فنيت الكتابة النبطية تماماً وأندثرت ولكن روحها بعثت في كتابة أخرى هي الكتابة العربية الجاهلية كما نشاهد في زبد وحوران وهذا مجمل الكتابة النبطية وتطورها إلى العربية .

المرحلة الأولى : فمن نقوش حوران القديمة يوجد أقدم نقش نبطي وهو نقش السويداء الذي عثر عليه « الكونت دي فوجيه » وذلك في رحلته الأثرية إلى بلاد حوران ومنطوقة بالعربية « نصب خمرت الذي بناه لها ازين (ازينت) زوجها » . وهو سطر واحد .

المرحلة الثانية : وهي نقوش القرنين ١ ، ٢ م وتلك النقوش نستطيع بواسطتها تتبع تطور الخط النبطي وأن نتبين فيها الظواهر التي رأيناها في نقش السويداء ، وفي نقوش القرن الأول الميلادي نقش وجد بالعلا وهو مكتوب في السنة الأولى من حكم حارثة

الرابع ملك النبط الملقب بمحب أمته وهذا التاريخ من حكم حارثة يوازي السنة التاسعة قبل الميلاد . ومنطوقة بالعربية :

١ - هذا هو قبر أبن ٢ - مقيم بن مقميئل الذي بناه ٣ - له أبوه في شهر أيلول (من الشهور السريانية) ٤ - سنة«أ» لحارثة ملك النبط .

وهذا النص نستشف أنه شاهد قبر .

من نقوش القرن الثاني : نقش في مدائن صالح « الحجر » وقد كتب في سنة ٣٦ من حكم الملك ربئيل الثاني وهذا التاريخ يوازي سنة ١٠٧ م ومنطوقة بالعربية .

١ - سلام بجرة « بجرت » ابن بدر ٢ - في سنة ٣٦ لربئيل .

المرحلة الثالثة : نقوش القرنين ٣ ، ٤ م تلك النقوش وجد أغلبها في سيناء ولكن أهمها وجده « ديفوجيه » ببلدة أم الجمال من أعمال حوران بسوريا ، يليه نقش « العلا » ثم نقش « النمارة » .

المرحلة الرابعة والأخيرة :

النقوش النبطية المتأخرة :

(أ) نقش وجد في شبه جزيرة سيناء مؤرخ بسنة ١٠٦ م من سقوط سلع أو بترا . وهذا التاريخ يعادل سنة ٢١٠ م وقد وجد هذا النقش في وادي المكبث ومنطوقه بالعربية :

١ - ذكرى تيم الله ابن يعلى سنة مائة وستة .

٢ - الموافقة (لسنة) القياصرة الثلاثة .

وهذا النقش لتخليد ذكرى أحد الأفراد المعروفين أو المرموقين وهم تيم الله وهذا النقش يؤرخ سنة ١٠٦ من سقوط العاصمة النبطية التي توافق سنة ٢١٠ م وهو التاريخ العالمي الذي يوضح الأحداث بعضها ببعض .

(ب) نقش آخر وهو أيضاً من جزيرة سيناء وهو مؤرخ بسنة ١٢٦ من سقوط سلع توافق سنة ٢٣٠ م ومنطوقه بالعربية .

١ - سلام عمى ابن ٢ - شمراخ ٣ - سنة ١٢٦ .

وهو من النقوش المؤرخة التي ترجعه لسنة ٢٣٠ م وله أهميته في تطور النقوش النبطية للعربية .

(جـ) وجد نقش في شبه جزيرة سيناء أيضاً وهو مؤرخ بسنة ١٤٨ من سقوط سلع ، بما يعادل سنة ٢٥٣ م ومنطوقه بالعربية .

١ - سلام كلب بن عمرو ٢ - في سنة ١٤٨ ٣ - في سلام .

يبين النقش أن من كتبه يلقي التحية على كلب بعد توديعه بسلام وهذا النقش مؤرخ بسنة ١٤٨ الموازية لسنة ٢٥٣ م قبل سقوط سلع .

(د) نقش وجد في مدائن صالح (الحجر) مؤرخ بسنة ١٦٢ من سقوط سلع الموازية لسنة ٢٦٧ م ومنطوقه بالعربية .

١ - هذا هو القبر الذي صنعه كعب ابن ٢ - حارثه للقيض بنت عبد مناه آمه وهي
٣ - قد ماتت (هلكت) في الحجر ٤ - في سنة مائة وستين
٥ - واثنين في شهر تموز ولعن ٦ - رب العالمين من غير القبر .
٧ - هذا ومن يفتحه حاش (سوى) ٨ - ولدها ولعن من غير ما عليه

وهذا النقش أكثر من مهم لعدة أسباب :

أولا : ذكر التاريخ . **ثانياً** : ذكر لعاصمة الأنباط الجنوبية . **ثالثاً** : توضيح للعقائد الدينية التي تبين أن اللعنة تقع على من ينبش القبور ، ولكن هذا النص أباح لمن له صلة قربى (ابن المتوفية أن يفتح القبر لضرورة قصوى . **رابعاً** : خلاف هذا وضوح الأسماء العربية في هذا النقش وهذا يبين تسلسل الأسماء من النبطية للعربية . **خامساً** : وجود ومعرفة عقيدة التوحيد لدى الأنباط .

(هـ) نقش أم الجمال الأول وهو غير مؤرخ ولكن « ديفوجيه » يؤرخه سنة ٢٧٠ م ومنطوقه بالعربية :

١ - هذا هو قبر فهرا .
٢ - ابن سلى مربى جذيمة (جذيمت) .
٣ - ملك تنوخ .

في هذا النقش نجد اسمان عربيان (فهرا ، جذيمة) وهذا النقش له أهميته من حيث ظهور الاسماء العربية واستعمال ملوك العرب الكتابة النبطية في صورتها المتطورة وهذا يبين أنهم استعملوا تلك الكتابة وتركوا ما عداها مثل اللحيانية ، الثمودية ، الصفوية .

(و) نقش وجد في العلا ومؤرخ في سنة ٢٠١ من سقط سلع أي ما يوازي ٣٠٦ ، ٣٠٧ م ومنطوقة بالعربية :

١ - هذا هو القبر الذي بناه ٢ - يحيا بن شمعون على

٣ – سمعون أبيه الذي ٤ – مات في شهر سيوان ٥ – سنة ٢٠١ .

هذا النص جنائزي ذكر فيه اسم المتوفي وسنة وشهر وفاته ويبين النص بعض التقاليد التي تبين أنه كان يوجد فوق المنامات تراكيب حجرية أو شواهد قبور .

نقش النمارة :

ومن أقدم الكتابات النبطية نقش النمارة في شرقي حوران ويرجع إلى سنة ٢٣٨ م . ولقد أرخ به قبر امرىء القيس بن عمرو من ملوك الحيرة . والخط النبطي قريب من الخط الكوفي القديم ، والأمر الذي دعا كثير من العلماء إلى القول بأن هذا الخط مشتق من الخط النبطي ومنطوقة بالعربية :

١ – هذا هو قبر امرىء القيس ابن عمرو ملك العرب كلها الذي تتوج بالتاج .
٢ – وملك الأسديين ونزار وملوكهم وهرب محج بقوته وجاء .
٣ – إلى بزجي (تزجي) من صبح نجران مدينة عمرو وملك معد ونبان منية .
٤ – الشعوب واتخذ منهم جنداً للروم يبلغ ملك مبلغه .
٥ – من القوة هلك في ٢٢٣ من اليوم السابع من شهر بكسلول ويسعد الذي ولده .

نجد في هذا النص كلمات عربية كثيرة مثل جاء . هرب . كل الشعوب . كما نجد تراكيب عربية فصيحة مثل جملة « فلم يبلغ ملك مبلغه » كما يظهر أداة التعريف العربية « ال » في كلمة العرب والأسديين والشعوب وهذا إنما يدل على غلبة النفوذ العربي كما يدل على انتشار الكتابة النبطية بين العرب وحكامهم ويستشف من عبارة « اتخذ منهم جنداً للروم » مدى سيطرة بيزنطة على الأجزاء الشمالية من جزيرة العرب . أما بالنسبة لاسم امرىء القيس فيبين لنا أنه ملك من ملوك العرب . امتد نفوذه من الحيرة إلى بادية الشام وبالنسبة لأسماء الأسديين ونزار ومحج فهي أسماء القبائل العربية التي خضعت لسيطرته .

شكل نقش النمارة في شرق حوران ٢٣٨ م

ولقد أرّخ به قبر امرىء القيس بن عمرو من ملوك الحيرة ونصه :

هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي نال التاج وملك الأسديين ونزارا وملوكهم وهزم مذحجاً بقوته وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وملك معدا واستعمل قسم ابناءه على القبائل ، كلهم فرساناً للروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه في القوة ، هلك سنة ٣٢٣ يوم ٧ من كسلول ليسعد الذي ولده .

تطور الحروف بالنقوش النبطية المتأخرة

حرف (أ) : نجد هذا الحرف نقش سنة ٢١٠ م صورته وهو على شكل بيضاوي أو قريب من الاستدارة مع قصر الخط ولعل هذه الظاهرة الرجعية غير المتطورة تفسر بأن شبه جزيرة سيناء كانت ممرا تجاريا يرتاده سكان المناطق المختلفة فيجوز أن يكون كاتب هذا النقش قد أتى من مكان ظل فيه حرف الألف محافظاً على شكله القديم ولم يتطور فيه بالشكل الذي تطور فيه بالأماكن الأخرى . أما نقش سنة ٢٣٠ م فصورته **66** ونلاحظ أن الخط قد استعاد استطالته كما أن الضلع الأيمن قد ابتعد كثيراً عن نقطة التقابل . أما نقش سنة ٢٦٧ م فأصبحت صورته هكذا **66** فصغرت الاستدارة وأصبحت أكثر تهذيباً مع قصر الضلع . أما نقش سنة ٣٠٧ م فأصبحت صورته متقاربة بعض الشيء لحرف الألف من النقش السابق ولكن مع استقامته عمودياً مع الضلع وصغر الشكل البيضاوي **6** أما نقش سنة ٣٢٨ م فأصبحت صورته كالنقوش السابقة خاصة الأخير منها ولكن مع انحراف في الضلع هكذا **66** .

حرف الباء : **(ب)** : نجد هذا الحرف في نقش سنة ٢١٠ م صورته **ـ** وفي نقش سنة ٢٣٠ م استعمل بهذا الشكل أي أن ضلع العرضي أصابه بعض انحراف لأعلى . أما في نقش سنة ٢٥٣ م فأصبح هكذا **د** وفي سنة ٢٦٧ م أصبح هكذا**د** أي رجع قائمته للخلف قليلاً ، وفي نفس سنة ٢٧٠ م أصبح هكذا **ﻫ** أي أن قائمة أصبح قصيراً ، وفي

نقش ٣٠٧ م أصبح حرف الباء مقارباً قليلاً للنقش السابق مع انحراف الضلع العرضي لأعلى قليلاً ـ أما في نقش النمارة فأصبح أكثر ليونة ــ وامتداداً وهذا يبين اقترابه من الكتابة بالعربية ـب .

حرف الجيم : (ج) : نجد هذا الحرف في نقش سنة ٢٦٧ م مصوراً هكذا ـحـ وهو يشبه الجيم العربية . أما في نقش سنة ٢٧٠ م فصورته هكذا ـحـ أما في نقش سنة ٣٢٨ م فأصبح متطوراً التطور التام للجيم العربية وصورته هكذا ـحـ.

حرف الدال : (د) : نجد هذا الحرف في نقش سنة ٢١٠ م صورته هكذا ٦ أما في نقش سنة ٢٦٧ م فصورته هكذا ٧ أما في نقش سنة ٢٧٠ م فصورته هكذا ٧ مع قصر الساق وفي نقش سنة ٣٠٧ م أصبح هكذا ٧ أما في نقش سنة ٣٢٨ فأصبح صورته هكذا ﮐ.

حرف الهاء (هـ) هذا الحرف تجده في نقش سنة ٢١٠ م هكذا ‖ وفي نقش سنة ٢٦٧ م فله شكلان ∃ ∃ وفي نقش سنة ٢٧٠ م فصورته هكذا ﻙ وفي النقش الأخير سنة ٣٢٨ م فأصبحت صورته هكذا ـه

حرف الواو : (و) : نجد هذا الحرف في نقش سنة ٢٣٠ م مصوراً هكذا ٩ أما في نقش سنة ٢٥٣ م فأصبح قصير الساق ٩ مع اعتدالها ، وفي نقش سنة ٢٦٧ م أصبحت صورتها مختلفة بعض الشيء ٩ ، وفي نقش سنة ٢٧٠ م تطورت بعض الشيء ٩ الشكل الأول قصير الساق والرأس كاملة الاستدارة ، والشكل الثاني ساقها متماثلة الساق الأول ولكن الرأس منبعجة قليلاً والشكل الثالث الساق أكثر التصاقاً بالرأس مع انحراف للداخل . وفي نقش سنة ٣٠٧ م أصبحت صورتها هكذا ٩ ونلاحظ أن الشكل الأخير أقرب لكتابتنا العربية الحالية . أما في نقش النمارة سنة ٣٢٨ م فرجعت الساق منحرفة بعض الشيء مع قصرها ٩ .

حرف الزين : (ز) : نجد هذا الحرف في نقش سنة ٢٦٧ م مصوراً هكذا ﻟ وهي كالذال ولم يحدث به أي تغيير مطلقاً حتى نقش سنة ٣٢٨ م ولعلهم تعمدوا هذا الجمود ولم يحدث فيه أي تغيير حتى لا يختلط الأمر على من يقرأ ويخلط بينه وبين اللام والنون .

حرف الحاء : (ح) : نجد هذا الحرف أصبح شكله سنة ٢٣٠ م بهذا الشكل ـحـ وفي نقش سنة ٢٦٧ م قطع شوطاً كبيراً نحو التطور حتى صار يشبه الجيم وأصبح شكله ـد أما في نقش سنة ٣٢٧ م فأصبح شكل الحروف هكذا ـحـ فرجع بحاله القديم كما في نقوش القرن الأول الميلادي . أما في نقش سنة ٣٠٧ م فأصبح بهذا الشكل ـحـ قريباً من

شكل الحرف في نقش سنة ٢٦٧ م . وفي نقش النمارة نجده كشكله السابق وهذا يدل على أن حرف الحاء ظل ثابتاً ولم يتطور بل حافظ على وضعه القديم .

حرف الطاء : (ط) : هذا الحرف أصبح في نقش سنة ٢٥٣ م مصور هكذا مثل الكاف ، وفي الشكل القديم الذي ظهر في نقوش الفترة الأولى ق.م وهذا يرجع الى أن كاتب النقش أتى من ناحية ظلت فيها الطاء محافظة على شكلها القديم .

حرف الياء : (ى) : هذا الحرف نجده في نقوش سنة ٢١٠ م له شكلان الأول مستعمل في اوائل ووسط الكلمات وصورته هكذا أما الشكل الثاني فمستعمل في أواخر الكلمات ومصور هكذا ، وكذلك نجد شكلاً آخر للياء النهائية وهي تشبه الياء العربية المستعملة في أيامنا هذه ، أما في نقش سنة ٢٣٠ م فرجعة إلى الشكل الأول الذي يكتب في اوائل ووسط الكلمات ، وفي نقش سنة ٢٧٠ م فنجد أن الشكل في اوائل الكلمات أصبح كالياء العربية ولكن دون امتداد كأسي لها والشكل الثاني في آخر الكلمات أصبح هكذا ، أما في نقش النمارة فيشبه شكلها الأول الياء التي رأيناها في نقش سنة ٢٧٠ م وكذلك شكلها النهائي غير أننا نجد شكلاً آخر قريب من شكل نقش سنة ٢١٠ ، ولكن به انحراف إلى أعلى .

حرف الكاف : (ك) : نجد أن هذا الحرف في نقش سنة ٢٥٣ م مصوراً هكذا وفي نقش سنة ٢٦٧ م قريباً من الدال وفي نقش سنة ٢٧٠ م فرجعت لسيرتها الأولى مع ليونه في الجزء العلوي وهي تشبه الكاف العربية كما في نقش القاهرة ، ونقش النمارة نجد لها ثلاثة أشكال .

حرف اللام : (ل) : نجد أن هذا الحرف لم يتطور على ما كان عليه من النقوش في الفترات السابقة .

حرف الميم : (م) : نجد أن هذا الحرف في نقش سنة ٢١٠ مصوراً هكذا وفي نقش سنة ٢٣٠ م أصبح شكله وفي نقش سنة ٢٥٣ م أصبح شكله وفي نقش سنة ٢٧٠ م أصبح هكذا وفي نقش سنة ٣٠٧ م أصبح شكلان الشكل الأول يشبه الميم العربية والثاني مثل الأول ولكن قائمه بعكسه مع شبه استدارة كاملة ، أما في نقش النمارة فتطور وأصبح شكله .

حرف النون : (ن) : لم يتطور هذا الحرف عما كان عليه قبل ذلك ، والشكل الأول اذا كان في أواسط الكلمات أما الشكل الثاني ففي أواخر الكلمات .

حرف السين : (س) : في نقش سنة ٢١٠ م هكذا وفي نقش سنة ٣٠٧ م هكذا .

حرف العين : (ع) : نجد هذا الحرف في نقش سنة ٢١٠ م صورته هكذا وفي نقش سنة ٢٣٠ م أصبح هكذا أما في نقش سنة ٣٠٧ م أخذ شكله الطبيعي في النقوش العربية وخاصة إذا كان في اوائل الكلمات وأصبح هكذا أما في نقش النمارة فاختلف بعض الشيء وأصبح هكذا .

حرف الفاء : (ف) : في نقش سنة ٢٣٠ م أصبح شكل وهو يشبه حرف فاء القرن الأول الميلادي ، وفي نقش سنة ٢٦٧ م نجد صورته وفي ذلك يشبه أيضاً الفاء في القرن الأول الميلادي ، وفي نقش سنة ٢٧٠ م تطور وهو يشبه قاف الكوفة تماماً ، أما في نقش سنة ٣٠٧ م أصبح شكله قريب مما نكتبه الآن . أما في نقش النمارة فقريب من النقش السابق غير أن امتداده الأفقي ينحرف إلى أعلى قليلاً .

حرف الصاد : (ص) : في نقش سنة ٢٦٧ م نجد صورته وهو يشبه صاد القرن الأول والثاني الميلادي ولم يطرأ عليه أي تغيير .

حرف القاف : (ق) : هذا الحرف نجده في نقش سنة ٢١٠ م مصور هكذا وهذا الحرف يشبه قاف القرن الأول الميلادي ، أما في نقش سنة ٢٦٧ م تطور إلى هذا الشكل وفي نقش النمارة أصبح صورته وهو يشبه القاف الكوفية .

حرف الراء (ر) : في نقش سنة ٢١٠ م إلى سنة ٢٦٧ م نجد تشابه كامل ما بين الراءات في تلك النقوش فنجد شكل وفي نقش سنة ٢٧٠ م نجد صورته هكذا وفي نقش سنة ٣٠٧ م أصبح هكذا وفي نقش النمارة فكان صورته كالدال مع قصر الساق .

حرف الشين : (ش) : من نقش سنة ٢١٠ - ٢٦٧ م كان صورته هكذا ، وفي نقش سنة ٢٧٠ م أصبح صورته هكذا مع صغر الساق وتساوي الزوائد .وفي نقش سنة ٣٠٧ م مع الغاء الكأس وتساوي الزوائد . أما في نقش النمارة فتختلف بعض الشيء من حيث اتجاه القائم اذا انحرف ناحية اليسار قليلاً مع رجوع الكأس إلى ناحية الساق

حرف الثاء : (ث) : نجد هذا الحرف في نقش سنة ٢١٠ م له شكلان الأول ابتدائي تبدأ به الكلمة والثاني نهائي أي تنتهي به الكلمة ، أما في نقش سنة ٢٣٠ م نجد لها شكلاً واحداً بهذه الصورة وفي نقش سنة ٢٧٠ م نجده وفي نقش سنة ٣٠٧ م

نجده هكذا ى وهو يشبه الياء النبطية وقد راعى الكاتب هذا الشبه فخشى أن يلتبس الأمر على من يقرأ فأزاد فوق رأس الثاء قوس صغير ليفرق بين الثاء والياء ، ثم تطورت بهذا الشكل النهائي القريب من حرفنا العربي ں أما في النمارة فظل الوضع على ماهو عليه .

حرف اللام ألف : (لا) : هو حرف مركب نراه لأول مرة في نقش النمارة ، وصورته هكذا لا وهو يشبهُ اللام ألف العربية تماماً وهو مكون من حرفين اللام والألف .

مميزات الكتابة النبطية المتأخرة

تمتاز الكتابة النبطية المتأخرة بالميزات الآتية :

١ – الأربطة :

وهي وصل الكلمة الواحدة بأربطة تجمع بينها ، وتكوّن منها وحدة مستقلة بذاتها وتلك الأربطة بدأت ضعيفة في النقوش الأولى التي كتبت بعد ميلاد المسيح وزادت في النقوش المتأخرة حتى شملت كثير من الكلمات المتداولة المكونة من ثلاثة أحرف فأكثر مثل كلمة عبد ، كفر ، قبر ولكن بعض هذه الحروف لم تخضع لهذا الترابط ولم تقبل بهذا القيد الذي يصلها بالحروف التي تليها فظلت طوال فترة التطور الذي عاشت فيه مستقلة عن الحروف التي تليها معتزة بحريتها وهذه الحروف هي الألف ، الدال ، الراء ، الذال ، الواو .

طريقة الربط وأنواعه :

١ – **طريقة الاسناد** : وهي أن يسند الحرف على ساق الحرف الذي يليه مثل ٦ .

٢ – **طريقة الدمج أو الربط** : وهي أن يربط حرف بذيل الحرف الذي يليه ىسر .

٣ – **طريقة المزج** : وهي أن يمزج حرفين ببعض ويصبا في قالب واحد ليجعل منهما شكلاً واحداً وهذه الطريقة لا توجد إلا في حرف اللام ألف لا .

٤ – **طريقة النظم** : وهي أن ينظم أو تنظم الحروف لتجمع بينهما من أسفل

٢ – الفواصل :

وهي الحروف التي استعملها النبط في أواخر الكلمات لتكون فاصلاً بينها وبين الحرف التي تليها فكان يستعملون احدى الطرق الآتية :

(أ) أن يجعلوا الحرف الذي تبتدي به الكلمة من الحروف القديمة والحرف النهائي من الحروف المتطورة مثال : حرف الهاء 7 ، ومنظورة في النهاية ٦ .

(ب) أو أن يطلبوا ذيل الحروف النهائية كحرف الياء والتاء والفاء وهو ما نراه في الحروف العربية حالياً .

(جـ) طريقة الأعجام (النقط) لم تعرف الكتابة النبطية التنقيط (الأعجام) وهي في ذلك كالعربية تماماً في أول نشأتها ، فبعض الحروف النبطية تؤدي معنيين فمثلاً الياء تؤدي معنى الباء – والنون ، والدال تؤدي معنى الدال والذال – أما الحاء تؤدي منطوق الحاء والخاء – والطاء والعين تؤدي معنى العين والغين .

(د) إن تاء التأنيث الملحقة بالأسماء – تكتب مفتوحة كما كانت في اوائل الاسلام مثل ستت – حارثت – كليبت – جزيمت .

(هـ) ان الحركات الممدودة تحذف من تلك الكتابة كالألف فيكتبون حارثه – حرثه حرثت ، مالك تكتب ملك وهذه الميزة نراها في كتابة المصاحف وما زالت مكتوبة إلى الآن .

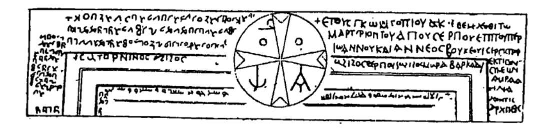
النقوش العربية القديمة

لم يعثر الباحثون إلا على نقشين فقط من النقوش العربية الجاهلية ، ونظراً للتشابه الذي يوجد بين هذين النقشين والنقش الاسلامي الأول فقد أدخلناه في دراستنا لمعرفة وفهم التطور الذي حدث في صورته النهائية .

١ – نقش زبد :

وجد في خربة بين قنسرين ونهر الفرات وهو مكتوب بثلاث لغات هي اليونانية والسريانية والعربية ويرجع تاريخه لحوالي سنة ٥١٢ م ، وقد اختلف العلماء في قراءة هذا النقش وفسره كل منهم تفسيراً يخالف تفسير الآخر وأهم القراءات هي قراءة لتسبرسكي وهي :

١ – بسم الاله سرحوبر .. مع فيموو .. برمر القيس



شكل ٤ - نقش زَبَد (تاريخه سنة ٥١٢ ب. م.)

٢ - وشر حوبر سعد وسترو و (شر) يجو

أما قراءة ليتمان فهي كالآتي :

١ - بنصر الإله شرحو برآمت منضو وظبى برموى القيس

٢ - وسر حوبر سعد وسترو وسريجو

إذاً فهما متفقان في قراءة السطر الثاني ولكن يختلفان في أغلب كلمات

السطر الأول ولكن يوجد لليتمان قراءة أخرىٰ نشرها الدكتور ويلفنسون وهي كالآتي :

(أ) (بنصر) الإله سرحو برآمت منفوو وهنيء برمري القيس (القسي) .

(ب) وسرحوبر سعد وستروسريحو .

١ - هذا النص يبين دعاء أو قسم لاله من الآلهة التي خضع لها العرب في الجاهلية أو دعاء بنصر الاله لأمرىء القيس الذي قاد بعض القبائل العربية فانتصر ، وهنيء ينصره ، وهذا ما تؤيده القراءة الثانية لليتمان .. بالنسبة للقراءات فالثانية للتيمان هي القريبة من الصواب على الأرجح .

٢ - يعتقد أن هذا النقش والأسماء التي وردت فيه أنها أسماء لأشخاص اشتركوا في بناء الكنيسة التي وجد فيها هذا النقش وأن الكلمة الأخيرة الغير منطوقة بهذا النقش هي نقش الكلمة ولكنها كتبت بالمعكوس .

٢ - نقش النمارة :

وجد هذا النقش في خرائب النمارة وهي من أعمال حوران وهو مؤرخ سنة ٢٣٨ م .

٣ – نقش حوران :

وجد هذا النقش على حجر فوق باب كنيسة حران اللجي في المنطقة الشمالية من جبل الدروز وهو مكتوب بالعربية واليونانية ويعود هذا النقش لسنة ٤٦٣ من سقوط سلع أي ما يقابل سنة ٥٦٨ م أي قبل الهجرة ب ٥٤ سنة وقد قرأه ليتمان قراءة صحيحة تامة بعد أن عجز المستشرقون عن ذلك بأكثر من نصف قرن ومنطوقه (نصه) بالعربية :

١ – ناشر حيل بن ظلمونيت ذا لمرطول .
٢ – سنت ٤٦٣ بعد مفسد .
٣ – خيبر .
٤ – بعم .

نقش حوران

وجد في المنطقة الشمالية من جبل الدروز يعود تاريخه الى سنة ٥٦٨ – ٥٦٩ م مكتوب على حجر فوق باب كنيسة . ونصه : أنا شرحبل بن (بر) ظلموا (ظالم) بنيت ذا – المرطول سنت (سنة) ٤٦٣ بعد مفسد

خيبر بعم (بعام)

هذا النقش قبل التاريخ الهجري بـ ٥٤ عام .

هذا النص يتكون من أربعة سطور السطرين الأخيرين كل منهما كلمة واحدة وبالنسبة لكلمة ظلمو يعتقد الدكتور (خليل نامي) أنها ظالم وكلمة سنت في السطر الثاني تأنيثه بالتاء المربوطة لتقريب ما نكتبه حالياً وكلمة بعم كتبها (بعام) ويعتقد المرحوم (يوسف أحمد) أن تلك الكتابة تكاد تكون كوفية لشدة قربها منها والتأمل في كتابة هذا النص والكتابتين قبلها لا يشك في أن الكتابة الكوفية اشتقت من الكتابة النبطية .

ان هذا النص به تاريخين الأول جعله الكاتب تاريخ عمومي كالتاريخ الميلادي والتاريخ الثاني فهو تاريخ محلي . وهو خراب منطقة خيبر نظراً لهجوم أحد أفراد الأمراء الفاسنة على تلك البقعة ؟! وتشريد أهلها ونظراً لوجود هذا النقش في منطقة الشام فاننا نعتقد أن من بني الكنيسة التي وجد بها هذا النقش إنما هم من عرب خيبر الذين نزحوا من تلك البقعة إلى منطقة جبل الدروز ببلاد الشام .

نقش القــاهرة :

نجد أن النقوش العربية المتأخرة متشابهة مع النقوش الاسلامية التي ظهرت بعد الهجرة الشريفة وهذا يرجع إلى الثقافة الواحدة التي لم تتغير بعد أو قبل الاسلام وينعكس ذلك أكثر فيما اكتشف من نقوش . ونص هذا النقش هو :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر .

٢ - لعبد الرحمن بن خيبر الحجْري اللهم اغفر له .

٣ - وادخله في رحمة منك واينا معه .

٤ - استغفر له اذا قرأ هذا الكتب .

٥ - وقل آمين وكتب هذا .

٦ - لكتب في جمدى الا .

٧ - حر من سنت احدى .

٨ - ثلين .

نقـش القــاهرة

صورة شاهد قبر عبد الرحمن بن خيبر . مؤرَّخ سنة ٣١ هـ . أي في زمن الخليفة عثمان . محفوظ في متحف الآثار الإسلامية بالقاهرة (نقلاً عن دليل متحف القاهرة - الشواهد القبورية . رقم ١)

هذا النقش موجود بدار الآثار العربية عثر عليه المرحوم حسن الهواري ضمن شواهد القبور موجودة بتلك الدار وهو منقوش على قطعة من الحجر الجيري مستطيلة الشكل مقاسها ٣٨ × ٧١ سم وهو مؤرخ بسنة ٣١ هـ ما يوازي ٦٥٣ م أما بالنسبة للتعليق

على قراءة هذا النص فنجد في السطر الثاني أن كلمة خير لها أكثر من قراءة هي (خير – جبر – جبار) ولكن المرجح أنها خيراً أو جبراً أو جباراً – أما التعليق على الكلمة الأخرى فهي الحجري من الممكن أن تكون الحجري أو الحجازي أما السطر الرابع فيوجد كلمة قرأ اذا أضيفت لها التاء فتكون قرآت وبالنسبة لكلمة كتب فهى الكتاب وكتب

بهذا الرسم لتأثيرها عما كان قديماً بالكتابة النبطية ونرى كلمة مماثلة لها في السطر السادس عوملت نفس المعاملة وبالنسبة لكلمة جمدي فهي جمادى ولكن كتبت تبعاً لمميزات الكتابة النبطية بحذف الألف الوسطى وفي السطر الثامن والأخير منطوق الكلمة ثلثين . ويفيد هذا النقش أن عبد الرحمن هذا من جند العرب الذين دافعوا عن أرض مصر خاصة في الأجزاء الجنوبية ومن ذلك نجد أن أغلب شواهد القبور قد أتيت من جنوب الوادي خاصة من أسوان والدليل على ذلك وجود الجبانات الكثيرة التي انتشرت هناك . وقد نقلت شواهد القبور التي كانت بتلك الجبانات إلى القاهرة وشونت وخزنت في متحف الفن الاسلامي بالاضافة الى أعداد كثيرة موجودة بخانقاه الناصر فرج بقرافة الشهداء .

تطور الحروف الأبجدية في النقوش العربية المبكرة

حرف الألف : تطور هذا الحرف تطوراً سريعاً يبدو لمن يراه أنه لا يمت بصلة للألف النبطية ، فأصبح خط مستقيم في نقش زيد وبه بعض الميل في نقش حران مع اعتداله بعض الشيء في نقش القاهرة .

حرف الباء : الباء في تلك النقوش هي نفس الباء النبطية والشكل النهائي الذي استعمل لهذا الحرف في نقش القاهرة رأيناه قبل ذلك في النقوش النبطية السابقة .

حرف الجيم : الجيم في هذه النقوش تشبه الجيم النبطية وخصوصاً في نقش زيد وكذلك كلمة الحجري في القاهرة وجمادة . كل تلك الحروف تشبه الجيم التي رأيناها في نقش ٢٦٧ م – ٣٧٠ م – ٣٢٨ م وفيها صارت إلى الشكل الموجود في كلمة جبر أو خير في نقش القاهرة .

حرف الدال : لهذا الحرف شكلان كالدال النبطية . الأول بدون زائدة والثاني بالزائدة ونجد أن كلها قد ظهرت في النقوش العربية المتأخرة كما هو في نقش القاهرة مع تهذيب في شكل الزائدة .

حرف الهاء : لها شكلان أيضاً شكل يستعمل في أوائل وأواسط الكلمات وصورته كما

في نقش القاهرة وهي تختلف عن الهاء النبطية الابتدائية التي رأيناها في نقوش سابقة . ولكن يجوز أن الصور السابقة تتطور تطور سريع لها وخصوصاً أنها ظهرت في نقوش طور سيناء بهذا الشكل ثم تطورت في نقوش القاهرة بالشكل الذي رسمناه من قبل . أما الشكل الثاني فيستعمل في أواخر الكلمات وكانت صورته الأولى ثم أصبحت صورته الأخيرة كما في نقش القاهرة . .

حرف الواو : هو مثل الواو النبطية تماماً خصوصاً واو نقش زيد أما في الشكل المقوس نجده متطوراً أيضاً عن النقوش النبطية وخاصة نقش سنة ١٥٠ م .

حرف الزين ز : لا نرى هذا الحرف في تلك النقوش ولكننا نجده في البرديات العربية المؤرخة سنة ٩١ هـ وصورته بهذا الشكل ر ونجد أن نقش الحرف في الخط الكوفي مصوراً بهذا الشكل (وهذان الشكلان لا نجدهما في النقوش النبطية وقد يجوز أن الزين الكوفية هي عبارة عن تقوس للحرف النبطي الذي كان عبارة عن خط مائل مجرداً من أي زوائد « ر » ومن الكوفية نشأت الزين الموجودة في البرديات الاسلامية .

حرف الحاء : هذا الحرف كما في كلمة الحجري نجد له انحراف كبير لأسفل خاصة الحرف الأخير بالجدول المرفق وإذا كان هذا الحرف الأخير وجد هكذا فنجد أشكال أخرى أكثر انبساطاً وخاصة في أوائل الحروف في نقش القاهرة ونقش حوران .

حرف الطاء : يشبه هذا الحرف الطاء النبطية ونجد شكله بوضعين قريبين من بعض وذلك في نقش حران في كلمتي ظلموا والمرطول .

حرف الياء : حرف الياء في هذه النقوش له شكلان كالياء النبطية شكل ابتدائي وصورته بهذا الشكل ى وهو على شكل الصورة التي رأيناها في نقش سنة ٣٠٧ غير أن الانحناء في رأس الحرف زال فصار الحرف مثل الياء والنون . وهذا نجده في نقش زيد بالجدول المرفق . أما الشكل في نقش حران فنجد أن هذا الحرف جاء في وسط الكلمات كما في (خيبر - شرحيل) أما في نقش القاهرة فنجده في كلمة (الرحيم وخير وأمين وثلثين) أما في أواخر الكلمات فقد ورد في كلمتي (الحجري - حمدى - احدى) .

حرف الكاف : هذا الحرف يشبه حرف الكاف الذي رأيناه في نقش سنة ٢٥٣ م غير أنه ضغط قليلاً فاستطال حجمه ک فأصبح كاف عربية صحيحة مثل الذي نستعمله في خط النسخ .

حرف اللام : هي نفس اللام النبطية مع بعض تعديل في اتجاهها وليس لها سلسلة تطور

حرف الميم : تشبه الميم التي رأيناها في نقش سنة ٣٠٧ م .

حرف النون : تشبه النون النبطية وليس لها سلسلة تطور .

حرف العين : العين التي في أوائل الكلمات تشبه العين النبطية تماماً فقد رأيناها ورأينا العين الوسطى والأخيرة كما في نقش ٢١٠ – ٢٦٧ – ٣٢٨ م ونجد أن قمة العين غير مغلقة بل تركت مفتوحة مثل عدد « ٧ » .

حرف الغين : تشبه الغين التي رأيناها في نقش سنة ٣٠٧ ، ٣٢٨ م. إذا كانت الغين الوسيطة بكل من نقش زيد وحران يعلو قمتها خط مستقيم فنجدها في نقش القاهرة مائلة الخط .

حرف القاف : هي نفس القاف النبطية غير أن ساقها قصير .

حرف الراء : مثل حرف الدال المحذوف الزائدة غير أنها لا تمتاز عنها بقصر الرأس وطول الذيل .

حرف الشين : تختلف عن السين والشين النبطية فقد رأينا أن السين في نقش النمارة يميل رأسه الى اليسار كأنه يحاول أن يتصل بالحرف الذي يليه من هذه الجهة وقد مال الحرف وأصبح كالعين الموصولة .

ولكن خشي أن يلتبس الأمر على القارىء وخلط بينها وبين العين فنقشت هكذا ـلـمـ ثم أصبحت كما نرى في الجدول المرفق ، وإذا كانت السين الابتدائية والوسيطة قد فقدت كأسها الأخير عند الدمج أو الربط فقد حوفظ عليه حينما يكتب لحرف نهائي في الكلمة .

حرف التاء : التاء التي في نقش زيد في كلمة (أمت) تشبه التاء التي في نقش سنة ٣٠٧ م ثم بسط شكلها وصارت كالباء والنون والياء ـــــ

حرف اللام ألف : «لا» : لام ألف نقش القاهرة تشبه لام ألف نقش النمارة ثم سهلت ورسمت بشكل أكثر حدة كما هو في نقش زيد .

نشأة الخط العربي في الموطن الأول بالجزيرة العربية

الواقع أن هذه المسألة من المسائل المعقدة التي يصعب على الباحث أن يبت فيها برأي قاطع لسببين :

١ – قلة النقوش العربية الجاهلية المؤرخة .

٢ – غموض تاريخ الخط العربي عند مؤرخي العرب وتضاربهم فيما رواه عنه التاريخ .

وهذان السببان يعترضان مؤرخ الخط العربي ويحولان بينه وبين الجزم برأي في هذه المسألة جزماً قاطعاً وقد اعتقد القدماء والمحدثون من العلماء بأن الخط العربي قد أتى من الحيرة . وهذا مالا نذهب اليه لأن الحيرة كانت قبل الإسلام مثقفة بالثقافة السريانية وتدين بالنصرانية فكان الخط السرياني هو الخط الرسمي في تلك الأنحاء حيث كان ترجمان المسيحيين وقلمهم الديني . لذلك نستبعد أن يكون الخط النبطي قد تطور في الحيرة النصرانية وهو لا يتمتع فيها بالسيطرة والنفوذ .

إذاً قول العلماء بأن الخط العربي قد أتى من الحيرة بعيد عن الحقيقة ولكن قد يكون هذا راجعاً في رأيهم إلى أن الخط الكوفي قد نمى وازدهر حتى بلغ الذروة وصارت له الغلبة على كل الخطوط العربية والاسلامية وكان هذا بالكوفة التي هي جزء من الحيرة . فظن المؤرخون أنه الأصل الذي تفرعت منه الخطوط العربية وانه نشأ من هذه الأنحاء قبل وجود الكوفة .

ولا يوجد في هذه الأنحاء في المدن القديمة ما يضارع الحيرة في الحضارة والعمران وخصوصاً في عهد المناذره التي تمتلىء بأخبارهم المصادر العربية القديمة . فاستنتج العلماء بأن الخط العربي نشأ في الحيرة ومنها انتقل إلى البلاد العربية الأخرى . ومهما يكن من شيء فان الخط العربي لم يولد في هذه الأنحاء النصرانية كما أنه لم ينشأ أيضاً ببلاد الغساسنة في أراضي الشام لأنهم كانوا كأقاربهم من أهل الحيرة يدينون بالنصرانية ويكتبون بالسريانية .

كذلك لم ينشأ في طور سيناء لأن الخط لا ينمو ولا يزدهر في أرض جرداء ولكنه ينشأ من حيث توجد الحضارة والعمران . أما هذه الكتابات التي اكتشفت في أوديتها فهي كتابات عرب القوافل التي يجتازونها من أرض الشام إلى مصر .

فنخلص بالنتيجة المنطقية لنشأة الخط العربي بأنه نشأ وولد ، ببلاد الحجاز بعد تطوره من الخطوط النبطية المتأخرة لأن الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة ، وأهل الحجاز كما

نعلم قوم تجارة ، فهي مورد رزقهم الوحيد منها يتعايشون لأن بلادهم أرض جرداء لا زرع فيها . ومما ساعدهم على ذلك أن بلادهم في مكان وسط بين اليمن وبلاد الشام فأخذوا يتعاملون مع سكان هاتين المنطقتين المتحضرتين .

وكان الحجاز في القرن الخامس الميلادي وهو القرن الذي انتقلت منه الكتابة وتطورت من الشكل النبطي إلى الشكل العربي كما أن السيادة الروحية والأدبية في ذلك القرن كانت لقبائل وسط الجزيرة العربية وكان الحج إلى مكة يقوي من تلك السيادة فكان العرب يأتون من أنحاء الجزيرة ليقوموا بالمراسم نحو الآلهة التي اختص بها وسط الجزيرة دون غيره ، وفي هذه المواسم كانت تقام أسواق أدبية وتجارية ليعرض فيها دروب الأدب وفنونه بجانب السلع التجارية . فنشأت حركة تجارية واسعة المدى شملت الجزيرة العربية وتنقلت في ارجائها . لذلك نعتقد أن الكتابة العربية قد ولدت في تلك المناطق التجارية ومنها انتقلت إلى البلاد العربية الأخرى فانتشرت فيها وفرضت على أهلها اللهجة الحجازية فتغلبت تلك اللهجة على ما عداها من اللهجات العربية الأخرى عن طريق تلك الأسواق المقدسة لمكانتها الدينية المختارة الرفيعة . وإذا تساءلنا هل كان أهل الحجاز يعرفون الخط النبطي وهل كانوا يستعملونه في شئونهم التجارية ، في الواقع أننا لا نجد أدلة تاريخية ثابتة على أن الخط النبطي كان مستعملاً في بلاد الحجاز وهذا نفسره فيما يلي :

١ - ان معظم النقوش القديمة قد ضاعت أو أصابها التلف لأن العرب القدماء كانوا لا يهتمون بالنقوش القديمة وخاصة التذكاري منها ولا يهتمون بها لدواعي سياسية ودينية .
٢ - أن أرض الحجاز مغلقة أمام الباحثين لأنها مكان مقدس لا يدخله إلا المسلمون ولا يجوز فيه البحث والتنقيب .

ولكن فضلاً عن افتقار الأدلة التاريخية فان وجود الكتابة النبطية على أبواب الحجاز (مدائن / صالح / العلا) في القرن الأول الميلادي يدل على أن بلاد الحجاز كانت تعرف الخط النبطي وتستخدمه في شئونها العمرانية بل أكثر الظن أن النبط عندما قويت شوكتهم توغلوا في الحجاز وبسطوا سلطانهم المادي والروحي على أرضه ، كما استولوا على المدن خاصة الشمالي منها ، وبالذات دمشق التي انتزعوها من أيدي الرومان . فانه ليس من المعقول أن بسط النبط سلطانهم على دمشق المنيعة ولا يبسطوا سلطانهم المادي والروحي على بلاد الحجاز لأن تلك المدن ليست في مناعة المدن الحصينة مثل دمشق .

لذلك نرجح أن النبط استولوا على الحجاز وفرضوا على أهله حضارتهم وثقافتهم . ومن تلك المظاهر الحضارية جانب ديني وهو اتخاذ الحجازيون الآلهة النبطية لهم مثل . اللات والعزى وهبل ومناة ، كما أخذوا يكتبون الكتابة النبطية . ومما يؤيد هذا القول أن

استرايون الجغرافي اليوناني يقسم العرب قسمين القسم الشمالي يسمى **Aribia Petrain** أي العرب « الصخرية » والقسم الجنوبي ويسمى **Aribia Flex** أي العرب اليمنية (السعيدة) وهذا يدل على ما نعتقد أن القسم الشمالي من بلاد العرب كان خاضعاً للنبط أما القسم الجنوبي فكان خاضعاً لليمن وتحت سيطرتهم .

كما يضيف استرايون هذا بأن النبط قد ساعدوا الرومان على غزو بلاد اليمن بالسماح للجيوش الرومانية من المرور في الأراضي النبطية .

ومهما يكن من الأمر فاننا نرجح أن بلاد الحجاز كانت تعرف الكتابة النبطية في شئونها التجارية ومنها انتقلت إلى البلاد الأخرى وانتشرت حتى صارت قلم الوثنيين العرب وكتابتهم القومية وذلك في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع م . وأخذت هذه الكتابة تتطور في بلاد الحجاز تبعاً للتجارة التي تحتاج إلى السرعة والإختصار . كما أن النهضة الأدبية التي قامت في تلك الأنحاء ساعدت على انتشار تلك الكتابة التي عرفت فيما بعد بالكتابة العربية وذلك في أوائل القرن ٥ م ، ومما يثبت ذلك أن الكتابة النبطية انتقلت إلى الكتابة العربية في بلاد الحجاز ومع وجود النقوش على حواف تلك المنطقة . وتتطورت عن غيرها من النقوش النبطية الأخرى التي وجدت في غيرها من الأماكن كسلع وحوران .

شكل يبين مقابلة الخطوط العربية القديمة بالخط النبطي المُتأخر

	الخط النبطي المُتأخر (١)	الخط النبطي المُتأخر (٢)	الخط العربي القديم (٣)	الخط العربي القديم (٤)
ا				
ب				
ج				
د				
هـ				
و				
ز				
ح				
ط				
ى ك				
ل				
م				
ن				
سامخ				
ع				
ف				
ص				
ق				
ر				
ش				
ت				
لا				

(١) نماذج من الخط النبطي المُتأخر (القرن الأول والثاني والثالث ب.م) مستخلصة من نقوش والحجر .

(٢) نماذج من حروف نقش النمارة من القرن الرابع ب.م .

(٣) نماذج من حروف نقشي : زبد وحران من القرن السادس ب.م .

(٤) نماذج من حروف عربية مستخلصة من نقوش عربية قديمة من القرن الأول للهجرة .

جهود العلماء لدراسة الكتابات الأثرية وتحليلها :

لكي أكتب عن جهود المحدثين يجب أن أذكر أن ما دفعني إلى الخوض في هذا المجال ، مجال الكتابات العربية هو ميلي الشديد خلال أكثر من ثلاثون عاماً متصلة لفن الخط العربي والزخرفة الإسلامية . حاولت أن أطرق مجال البحث في تاريخ الكتابة العربية قبيل الإسلام وبعد ظهوره ، لعلني أصل إلى ما طرأ على الكتابة الأثرية القديمة من تطور عبر حقب التاريخ الإسلامي من خلال ما وصل اليه السابقون في العلم من نماذج تتمثل في مختلف أنواع الكتابات دينية أو تاريخية .

ولقد فطن المستشرقون الى أهمية دراسة تطور الكتابات لارتباطها بالقيم الجمالية من أمثال ماكس فان برشم M.V. Berchem الذي جمع عدداً وافراً من النصوص العربية القديمة ضمنها كتابه جامع الكتابات العربية Corpus inscriptionum Arabicarum وقد عاونه تلميذه جاستون فييت G. Wiet والذي أتم الكتاب بعد موت أستاذه .

وجمع ليفي بروفنسال Levi Provencal عدداً كبيراً من النقوش العربية الأسبانية في كتاب أسماه النقوش العربية الأسبانية Inscriptions Arabes d'Espagne مرتبة ترتيباً زمنياً ومصدرة ومشروحة .

واشتغل بهذه الكتابات الأثرية وتحليلها العالم السويسرى سام فلوري منذ عام ١٩١٢ Flury . وأيضاً العالم الفرنسي Marcais وجان دافيد فيل J.D.Wiell . **اهتم فلوري في البداية** : بزخارف جامع الحاكم والجامع الأزهر حيث كانت الزخرفة النباتية المستخدمة في تجميل الأشرطة الكتابية همّه الأكبر ، وقد ذكر أنواع الوريقات النباتية وقارن بينها وبين زخارف العصر الفاطمي . وفي عام ١٩٣٠ بدأ فلوري في تناول الأشرطة الكتابية بالدراسة والتحليل ، فحظى الفن الكتابي على يديه بنصيب من العناية حيث وجه البحث العلمي ومؤرخي الفنون الى ضرورة التعمق في دراسة الأشرطة الكتابية وزخارفها يقول: لكي يفهم الانسان حق الفهم تركيب الزخرف الاسلامي ، يجب عليه أن يضم الى التحليل الزخرفي التحليل الأبجدي للكتابة ، لأن الكتابة والزخرفة ترتبطان أشد الارتباط ، كما يرى فلوري أن دراسة وتحليل الكتابة ضرورة لتوكيد النتائج التي يحصل عليها الانسان من دراسته للزخارف المتصلة بها .

ويعتبر فلوري أن فن الأشرطة الكتابية بلغ كمال نموه في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

واستخلص فلوري من دراسته وجود أسلوبين زخرفيين كتابيين شائقين في انحاء شرق العالم الإسلامي .. أحدهما الكوفي الذي تستقر الكتابة فيه على أرضية نباتية تتكون من

فرع نباتي متموج ، والثاني الكوفي المترابط ، أما الكوفي المورق فهو أقدم من هذين النوعين ، فقد عرفه شرق وغرب العالم الإسلامي على السواء .

ويرى فلوري أن الحروف الأبجدية الكوفية خضعت في تطورها لقوانين الزخرفة الإسلامية خضوعاً تاماً . وقد تناول في دراساته الكتابات الكوفية المضفرة (جنوب بحر قزوين مؤرخة ٤٠٧ هـ) فيقول أنها لم تظهر وتشيع إلا بعد قيام الدولة الأيوبية ، ويذكر أمثلة منها مكتوبة في المحراب الأفضل بالمسجد الطولوني والكتابة الموجودة بصحن الجامع الأقمر (٥١٩ هـ) ومشهد السيدة رقية وقبة أخوات يوسف في القاهرة .

ويؤكد فلوري أن أغنى دول العالم الإسلامي بالكتابات والزخارف الإسلامية هي مصر . وهي أصلح دولة لتتبع تطور الكتابات الكوفية بأنواعها على مختلف المواد ، على الحجر والخشب والجص وغير ذلك . وأن لكل عصر أسلوبه الزخرفي ، ومن ثم أسلوبه الكتابي الخالص وعليه يمكن للمؤرخ الباحث أن يؤرخ للكتابات والزخارف الغير مؤرخة .

ويقول فلوري إنه ليس هناك فن استخدام الكتابة في زخرفة المباني الدينية كالمساجد والمدنية كالمدارس والقصور والبيوت الاسلامية ، بل وكل ما يمكن أن تقع عليه العين بقدر ما استخدمها الفن الإسلامي ، وأنه ليس هناك خط أنسب للزخرفة من ذلك النوع المعروف بالكوفي الذي تتكون من قوائمه وانبساطاته أنواع من التصميمات الزخرفية التي تقوم بتجميل المساحات ، وهو يقرر أن شرق العالم الاسلامي انتج أنواعاً مختلفة من الكوفي المزخرف لم ينتج غرب العالم الإسلامي مثله . وقد حاول فلوري بكل اهتماماته أن يصل الى قاعدة كتابية للخط ثابتة لكل عصر ، يمكن الاعتماد عليها في تأريخ التحف بما عليها من اسلوب الكتابة ، والوسيلة الطبيعية للوصول الى ذلك هي الالتجاء الى الكتابات المؤرخة لنستخرج منها انماطاً نقيس بها الكتابات غير المؤرخة بطريق المقارنة بالأسلوب . وبذلك يستطيع الباحث في تاريخ الفن الإسلامي أن ينسب الأثر والكتابة والتحفة ذات الكتابة كلاً الى عصره .

واهتم العالم **مارسيه** في كتابه الفن اليدوي للمسلمين Manual d'Art Musulmän بتناول الكتابة الكوفية مع اعتبار أنها من أنواع الزخارف الاسلامية على مر العصور الإسلامية فيذكر الزخارف الكتابية الى جانب الزخارف النباتية والزخارف الهندسية ، ولم يتعرض مارسيه لتحليل الحروف مثل فلوري ، وانما اكتفى بوصفها وصفاً عاماً ، مشيراً إلى ماقد يكون بين بعضها والبعض الآخر من فوارق في الأسلوب أو تفاوت في درجة الإجادة والاتقان . عندما تناول كتابة القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في شمال

افريقية وصفها بأنها كانت من البساطة بحيث لم تبلغ أن تكون عنصراً زخرفياً . بعكس كتابات القرن الخامس الهجري (١١ ميلادي) التي أصبحت عاملاً زخرفياً بلغ أقصاه من الروعة والجمال . وحيث اختلطت الزخارف بالكتابات حتى يصعب على الانسان أن

يذكر عناصر الزخرفة دون أن يدخل فيها عنصرُ الكتابة وهو يعتقد أن هذا الأسلوب انتقل من شرق العالم الاسلامي إلى غربه ، لأن النضوج الذي انتهت إليه الكتابة في شرق العالم الاسلامي خير مثال لما بلغته الكتابة من الاتقان والتجويد الزخرفي .

وعندما يتطرق مارسيه إلى وصف الحروف فإنه يهتم بالحروف القائمة ذات الزخارف التي تلحق نهاياتها ويصف مافيها من توريق وتعقيد لتحلية وتجميل الكتابة ويخلص إلى أن كتابات مدينة الزهراء أكثر ازدهاراً وجمالاً من كتابات قرطبة وطليطلة . ويرى أنه منذ عصر خلافة قرطبة أخذت الكتابة الكوفية تلعب دوراً هاماً في الزخارف ، غير أنه يلاحظ أن الكتابة المستديرة بدأت تزاحم الكوفية وتغلبها على أمرها ، وكادت مهمة الكتابة الكوفية تقتصر على النصوص الدينية كما حدث في مصر العصر المملوكي . ويسوق مارسيه أمثلة من كتابات سرقسطة القصيرة القوائم والتي تترابط قوائمها في اشكال هندسية بارعة الجمال ، تكاد تطغي على عنصر الكتابة ، وتنتهي قوائمها بزخارف ورقية متماثلة وهذه الكتابة تثبت مهارة ومقدرة الفنان المسلم في الجمع بين الزخارف الخطية والهندسية والنباتية في تصميم واحد .

ويدلل مارسيه. على أهمية الفنون الاسلامية بعد انتهاء حكم العرب المسلمين في الأندلس إلى استمرار استخدام الكتابات الكوفية واستخدام أساليب الفن الاسلامي وتفضيله .

أما ليفي بروفنسال فقد اهتم : بالكتابات في شرق العالم الاسلامي ، وفي نظره أن الكتابات المؤرخة المثبتة في أماكنها خير ما يعين الباحثين على الدراسة المنظمة المنتجة في تقدم وتطور علم الكتابات . وقد جمع مارسيه الكثير من كتابات شواهد القبور من جهات مختلفة من أسبانيا العربية كقرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها مدللاً عن عادة اتخاذ الشواهد كتسجيل الوفاة في غرب العالم الاسلامي ، ثم تعرّض لطريقة رسم الكلمات منذ كانت للمغاربة طريقة تختلف عن طريقة المشارقة بعض الشيء في رسم الكلمات مؤكداً سبق دول المشرق إلى زخرفة الكتابة بالأوراق النباتية . وشيوع الكتابة المستديرة في الأندلس في القرن الثامن الهجري (١٤ م) .

واهتم جان دافيد فيل : بالأخشاب ذات الكتابات ، بدأ كلامه بالاشارة إلى بساطة

الكتابة الكوفية ، ثم تكلم عن تأثر الكتابة في العهد الطولوني بأسلوب الزخارف السامرية من حيث أسلوب الحفر بطريقة القطع المائل Slanting Cut .

وهو يصف الحروف الكوفية الطولونية على الأخشاب بالغلظ النسبي وبالقصر ، بحيث تبدو ذات مسحة من القوة والثقل ويستشهد بافريز الكتابة الذي يوجد في أسفل السقف بالجامع الطولوني ويعتبره أصدق النماذج للكتابة في عهد بن طولون . وأن هذا الأسلوب انقضى بانقضاء العصر .

ثم يصف كتابات الأخشيديين والفاطميين ويصفها بأنها كتابات عصور التجويد والتحسين حيث ارتقت الزخارف الخطية . وقد لاحظ جان دافيد أن ظاهرة التوريق الزخرفي قد بلغت كمالها في مصر في القرن السادس الهجري وأن بداياتها كانت مع بداية القرن الرابع الهجري . وأن القرنين الرابع والخامس الهجري شهد أنواعاً من الزخارف تفوق زخارف القرن الثالث بكثير وفي نهاية القرن السادس الهجري كانت نهاية الزخارف الكتابية حيث ساد بعد ذلك الخط النسخي الخال من الزخارف وهو في مصر يتفق مع نهاية الدول الفاطمية .

ولقد حاول المستشرقون التنبيه إلى أهمية هذا النوع من الدراسة بالنسبة للفنون الاسلامية ، لارتباط الكتابات ارتباطاً وثيقاً بالقيم الجمالية لهذا الفن ولمجاراة الفنان المسلم في اتجاهه إلى التجديد واتخاذه الخط أداة للتجميل والزخرف من جهة ، ولارتباطه بعلم النقوش Epigraphy التي تعتبر من المصادر الرئيسية للدراسات التاريخية من جهة ثانية .

وقد أدي الاهتمام بجمع الكتابات العربية الأثرية المختلفة إلى دراسة الخط العربي وتطوره . فظهر من أعلام الباحثين في هذا الاتجاه .

حسن الهواري : فقد قدّم جهداً مشكوراً بنشر بحثين تحليلين عن شاهدين من شواهد القبور ، هما أقدم شاهدين معروفين من العصر الاسلامي في مصر نشر الأول في عدد ابريل ١٩٣٠ من المجلة الأسيوية الملكية بعنوان **أقدم أثر إسلامي معروف** مؤرخ ٣١ هـ (٦٥٢ م) من خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه .

والثاني في عدد ابريل ١٩٣٢ من المجلة المذكورة بعنوان (**ثاني أثر إسلامي معروف**) مؤرخ ٧١ هـ (٦٩١ م) من خلافة عبد الملك بن مروان . درس في البحث الأول منهما علاقة هذا الشاهد المبكر بالكتابات العربية الجاهلية وأسماه نقش القاهرة (٣١ هـ باسم عبد الرحمن بن خير الحاجري) واعتبره رابع نقش حجري معروف ثم استخلص منه أبجدية خاصة .

وفي البحث الثاني يقارن الهواري بين كتابة شاهد ٧١ هـ ، وشاهد ٣١ هـ ويطلعنا على ما في هذا النقش المؤرخ ٧١ هـ من تحسين ظاهر .

ومن الأعلام الأجانب في هذا الأتجاه ايتين كومب E. Cambe الذي تولى تدريس الخط العربي في جامعة الاسكندرية في الفترة من (١٩٤٠ - ١٩٥٠) وأدولف جروهمان A. Grohmann .

وتبعهما فريق من الباحثين العرب نخص بالذكر منهم الأستاذ عبد الفتاح عبادة الذي كتب كتاباً بعنوان انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والغربي عام ١٩١٥ والدكتور خليل يحيى نامي الذي كتب بحثاً بعنوان (أصل الخط العربي وتاريخ تطوره قبل الاسلام) ونشرته مجلة كلية الآداب المجلد الثالث مايو ١٩٣٥ والدكتور إبراهيم جمعة الذي خصص بحثه للدكتوراه عام ١٩٤٣ لدراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة . مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات في بقاع أخرى من العالم الاسلامي من أجل تيسير قراءة النصوص التي يصادفها دارس الآثار الاسلامية مع المباني والتحف .

ومن الباحثين المعاصرين الدكتور محمد عبد العزيز محمود الذي قدم بحثاً عنوانه تطور الخط العربي في مصر في عصري الأيوبيين والمماليك عام ١٩٧٤ لنيل درجة الماجستير ، إذ يتميز هذان العصران بارتقاء الفنون الاسلامية وازدهار الحضارة الاسلامية إلى أوج عظمتها في كل من مصر والشام .

استعرض الباحث في بحثه مختلف أنواع النقوش الكتابية سواء المحفورة على الأخشاب والأحجار والتحف المعدنية أو المكتوبة في المصاحف أو المنسوجة في الأثواب ، واختار النماذج التي تحمل تواريخ ثابتة وأغلبها من الآثار المعمارية ، ثم قام بدراستها وتحليلها . وخرج من دراسته بنتيجة هامة هي وضوح ظاهرة التطور في حروف الكتابة الكوفية .

وانطلاق يد الخطاط المسلم حرّة في تلك الحروف ذات الطابع الهندسي والزخرفي بحيث نجح في ابتكار التكوينات المختلفة ، وتنفيذ التشكيلات المتباينة التي تضم السيقان المجدولة (المضفّرة) وتتمثل فيها مظاهر التناغم والانسجام الجمالي من تقابل وتماثل وتعاكس ، وأن مظاهر التطور التي أصابت الكتابة النسخية كانت أقل بكثير من مظاهرة في الكتابة الكوفية ، ولعل هذا يرجع إلى خضوع الكتابة النسخية لمعايير ضبطها بالنقط على النسبة الفاضلة والتزامها بها .



يتميز الحرف الهجائي العربي بمميزات الايجاز الشديد وتنوع الأشكال للحرف الواحد وقابلية الحرف للاستمداد والتمطيط (المرونة والطواعية)

الفصل الثالث

الكتابة العربية بعد ظهور الاسلام وازدهاره

الفصل الثالث

الكتابة العربية بعد ظهور الاسلام وازدهاره

الكتابة العربية قبيل الاسلام :

إن تأريخ حالة الكتابة العربية قبيل ظهور الاسلام اضطربت فيها روايات الأقدمين والمحدثين . بعضهم يذهب إلى انعدام الكتابة عند العرب في الجاهلية ، وأن الشعر قد جعل لهم عوضاً ، وانساق بعضهم وراء دعوى أمية العرب قبل الاسلام وندرة الكتابة بينهم ، فإذا وجد فيهم من يكتب ويقرأ ، فإنما هو نزيل هبط إليهم أو قادم من سفر بعد طول غياب في أرض أخرى ، أو آخذ عن هذين وهو نادر . ويؤكد البعض شيوع الأمية في شبه الجزيرة وأن العرب لم يكونوا أهل كتابة وقراءة[1] .

إلا أن نفي معرفة العرب للكتابة قبل الاسلام إلى حد الندرة إخلال بالمنهج العقلي السديد ، ورد للروايات والشواهد التي تؤكد أنه كان للكتابة العربية شأن قبل الاسلام سواء في قلب الجزيرة أم في أطرافها ، فلم تعد معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك ، فإن كثرة منهم في الحاضر وقلة في البادية كانت تقرأ وتكتب . وجاء في القرآن الكريم ما يفيد معرفة عرب الجاهلية قبيل الاسلام القراءة والكتابة ، فقد تكررت في كثير من الآيات مادة (كتب) وما في معناها ، وما أشتق منها في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة ، ومادة (قرأ) وما أشتق منها نحواً من ثمانين مرة[2] .

وردت كذلك مادة (خط) وأسماء وأدوات الكتابة : والقلم والصحف والقرطاس والرق[3] ولا تعقل مخاطبة القرآن الكريم قوماً بهذه الآيات لو لم يكونوا على علم وبصيرة بالقراءة والكتابة . والقرآن الكريم أصدق وثيقة تحدثنا عن حياة العرب في تلك الفترة .

إن الروايات العربية تؤكد تعدد الممارسة الكتابية سواء في مدن الحجاز أو في الحواضر العربية في أطراف الجزيرة ، رغم أن الحياة لم تكن بالغة التحضر بالنسبة لذلك العهد ، وأن دواعي الكتابة كانت محدودة – ولا تنكر الروايات أنهم حرروا أحياناً بعض العهود والمواثيق بينهم وبين القبائل المجاورة ، رغم أن ذلك كان في نطاق ضيق ، وبلدة مثل مكة

---

(١) د. ابراهيم أنيس : في اللهجات العربية ط ٣ القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥ ص ٣٣ .

(٢) د. الظاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ط ٢ . دار المعارف ١٩٧٠ جزء أول .

(٣) د. عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن . دار العلم ١٩٦٦ ص ٦٦ .

مقدسة وبها تجارة وتجار ، وعاصمة للثقافة وللحياة الدينية ، لابد أن يكون بين سكانها جماعة من المثقفين والباحثين في أمور الدين ومن القراء الكاتبين[1] .

وتشير الروايات أيضاً إلى أن ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العربي والكتاب العبراني وحين قاطعت قريش النبي - ﷺ - والمسلمين في بداية الدعوة بمكة كتبوا كتاباً بذلك ، وعلقوه في جوف الكعبة[2] ويحدثنا ابن حبيب في كتاب المنمق في أخبار قريش ط ١ « حيدر آباد » دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٤ - ص ٨٩ أن قريشاً كتبوا قبل الاسلام كتاباً وعلقوه في جوف الكعبة توثيقاً لأمر كان بينهم . ويحدثنا ابن النديم عن كتاب رآه في خزانة المأمون بخط عبد المطلب بن هشام ، فيه ذكر حقه على فلان بن فلان . وتشير كتب التاريخ إلى استخدام الكتابة في مكة في وقت مبكر ، ولعل فيما يرويه البلاذري عن عدد الكاتبين في مكة والمدينة حين ظهور الاسلام ما يضع الحقيقة التاريخية في موضعها الصحيح حين يقول : دخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب ، ويقول عن الكتابة في المدينة : أن الاسلام جاء وفيهم من يكتبون ، وعدد منهم أحد عشر كاتباً . فالكتابة في المدينة لا تختلف حالتها في مكة ، كما يتضح من قول البلاذري[3].

ولعل خير الأدلة على وجود الكتابة والكتاب ما قام به الصحابة الأجلاء من كتابة القرآن والحديث في فجر الاسلام عن لسان النبي ﷺ ، وما كتبه البعض عما يجري بين الناس من معاملات ، مايؤكد الحالة التي كانت عليها الكتابة العربية في الحجاز قبيل الاسلام ، لأن معظم الصحابة إنما نشأوا واكتسبوا خبراتهم الحياتية في الجاهلية .

وإذا تركنا الجزيرة العربية إلى أطرافها الشمالية نجد الروايات العربية الكثيرة المؤيدة لاستخدام الكتابة على نطاق واسع في البلدان الواقعة غرب العراق خاصة الحيرة والنبط والأنبار . ويبدو أن شهرة أهل الحيرة والنبط والأنبار وما جاورها بالكتابة قد استمرت حتى ظهور الاسلام . ومما يذكر أن خالد بن الوليد بعد أن فرغ من فتح بلدة الأنبار وأمن أهلها « رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها » وحين خرج خالد إلى عين التمر وجد صبياناً يتعلمون الكتابة . دلالة على انتشارها بين هؤلاء القوم . وهذا عبد الرحمن بن عوف يستكتب رجلاً من أهل الحيرة نصرانياً مصحفاً ، فأعطاه ستين درهماً[4] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى بيروت - ١٩٥٧ جزء أول ص ٢٠٨ .

(٢) البلاذري فتوح البلدان القاهرة ١٩٠١ ص ص ٤٧٧ - ٤٧٩ .

(٣) الطبرى التاريخ جـ ٣ ص ٣٧٥

(٤) أبو بكر بن أبي داود كتاب المصاحف القاهرة ١١٣٦ ص ١٣٣

ولم يقتصر انتشار الكتابة على أطراف العراق ، بل أن ذلك قد امتد إلى أطراف الشام فيروي البخاري أن ملك غسان أرسل إلى كعب بن مالك كتاباً يدعوه فيه أن يلحق به بعد ما كان من قصة تخلفه عن غزوة تبوك وجفاء المسلمين له ولصاحبيه[1] .

وعلى أية حال فان كل ما تقدم يشير إلى أن الكتابة العربية كانت معروفة بين عرب الجاهلية – سواء في وسط الجزيرة أم في أطرافها – بدرجة تكفي بعدم الأخذ بالآراء التي قيلت عن ندرة أو انعدام الكتابة بينهم – ويشير من جانب آخر إلى أن الكتابة العربية بذلك الاستخدام الواسع ، لابد أنها قد أخذت شكلاً في اتجاه واحد لتوحيد القواعد المتبعة في كتابة الحروف والكلمات وأن هذا الشكل هو النواة الأولى لاستقلال واستقرار الحروف العربية ، كما لا يسعنا سوى القول بأن رسم الحروف العربية آنذاك هو بداية التطور الفعلي والموضوعي لتقدم علم الكتابات العربية والاسلامية في مختلف الأقطار .

ومع كل ذلك فان الكتابة كانت تنتظر فرصة أخرى أعظم من كل الفرص . ألا وهي ظهور الدين الاسلامي الحنيف المعبر عن حضارة جديدة يقودها القرآن الكريم إلى أن يشاء الله.

ظهور الاسلام وانتشار الثقافة الاسلامية

ولد محمد بن عبد الله في مكة حوالي سنة ٥٧٠ ميلادية ، ونشأ يتيماً فقيراً إذ توفي أبوه عبد الله وهو لا يزال جنيناً في بطن أمه . كفله جده عبد المطلب وأحسن رعايته وتربيته ، حتى بلغ الثامنة ، ثم كفله بعد موته عمه أبو طالب وجعله كأحد بنيه ، وأسبغ عليه من عطفه وحمايته ما كان له أكبر الأثر في حياته . اشتهر بصدقه وأمانته ، فتزوجته وهو في الخامسة والعشرين السيدة خديجة ، إحدى ثريات قريش ، ونعم بالعيش معها واطمأن اليها ، وظل يذكرها طوال أيام حياته . وهي أول من آمن به إذ كذبه الناس ، وأول من أغدقت عليه من مالها إذ حرمه الناس . وفي الأربعين نزل عليه الوحي ، وبدأ يدعو للإسلام وخاض صراعاً عنيفاً انتصر في نهايته وتكونت دولة الاسلام وخضع العرب لأول بشير في تاريخهم استطاع أن يجمعهم تحت راية واحدة ، ويوجههم نحو هدف مشترك .

(١) البخاري : صحيح البخاري : محمد صبيح القاهرة جـ ٦ ص ٦ .

محمد في المفهوم الاسلامي هو النبي الذي أرسله الله ليبلغ الناس كافة دينه الحق – دين أنبيائه ورسله جميعاً ، وليقضي على الشرك – وليجعل كلمة الله هي العليا .

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (البقرة ١٣٦) .

هذا فيما يتعلق بالإيمان بالرسالات السابقة ، أما فيما يتعلق « بالله » فالإسلام يدعو إلى « إله » واحد : **﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾** (الاخلاص) . كذلك هو يدعو إلى مجتمع واحد **﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾** (سبأ/٢٨) .

محمد إذن بلغ الناس كافة رسالة ربه . أما من حيث علاقة المسلم بربه ، فالإسلام لا ينطوي على أي مبدأ يجعل أحداً حتى رسول الإسلام ذاته بين الله وعباده . فعلاقة الانسان بربه في الاسلام مباشرة وبغير واسطة . والانسان منذ مولده حتى وفاته في حضرة الله ، وتحت سمعه وبصره . إذن فالعقيدة مسألة شخصية والله وحده القادر على الحكم على عباده المؤمنين . ومن هنا لا يوجد في الاسلام رهبنة ولا قديسون ولا تقديس ولا أحد أياً كان بين المسلم وربه .

اعتنقت جميع القبائل العربية الدين الجديد وتوحدت لأول مرة في تاريخها الطويل الحافل بمختلف ضروب بطولات الفتح الاسلامي ، وكان من الواجبات الأولى التي حثهم عليها دينهم الجديد ، الجهاد في سبيل الله لنصرة الدين ونشره بكل وسائل الاتصال المعروفة لديهم آنذاك ، وهي التلقين بما حفظته الصدور وبما كتبته أيدي كتاب الاسلام الأوائل .

اجتاحت جحافل المسلمين جزءاً كبيراً من العالم المعروف في ذلك الوقت ، واستطاعت أن تؤسس في أقل من قرن من الزمان أكبر وأقوى دولة عرفتها القرون الوسطى ، استولى المسلمون على شاطيء الفرات في سنة ٦٣٣ م . وانتصروا على الروم في أجنادين في سنة ٦٣٤ م ودخلوا دمشق في سنة ٦٣٥ وحققوا نصر اليرموك الرائع في سنة ٦٣٦ م ، وانتصروا على الفرس في القادسية في سنة ٦٣٧ م ، وخضعت لهم سوريا في سنة ٦٣٨ وجميع فارس في سنة ٦٤٢ ومصر في سنة ٦٣٩ – ٦٤٢ وآذربيجان في سنة ٦٤٢ وأفغانستان في سنة ٦٦١ ، وتونس في سنة ٦٧٤ ، وبخاري في سنة ٦٧٤ ، والسند في سنة ٧٠٨ ، ومراكش في سنة ٧٠٨ ، وأسبانيا في سنة ٧١١ – ٧١٢ ، وسمرقند في سنة ٧١٢ . واستولوا في خلال القرنين الثامن والتاسع على معظم جزر البحر المتوسط ، وأصبحوا سادة الدنيا بلا منازع .

وهنا يجدر بنا أن نثير بعض التساؤلات . كيف كانت حال الشعوب التي فتحها المسلمون قبل الفتح وكيف صارت بعده ؟ هل كانت المبادىء التي حكمت هذه الشعوب بمقتضاها خطوة إلى الامام أم إلى الوراء ؟ هل حدث تطور وتقدم أم لا ؟ هل حققت الشعوب المغزوة رواجاً اقتصادياً ومزيداً من الحرية أم لا ؟ وهل حققت رواجاً ثقافياً ودينياً وعلمياً أم لا ؟ .

وسواء أكانت طبيعة هذه الحروب دينية بحتة أم اقتصادية أم مزيجاً من هذا وذاك فذلك أمر لا يعنينا كثيراً في هذا البحث . وانما يعنينا في المقام الأول الآثار الحضارية المترتبة على نقل واستساغة الثقافة الاسلامية المباشرة لهذه الانطلاقة العربية الاسلامية التي غيرت وجه التاريخ .

ونحن اذا نظرنا في صفحات هذا التاريخ نظرة موضوعية صرفة ، اذن لاستطعنا أن نستوضح حقيقتين هامتين جداً . أولاً أن الإسلام كان خطوة تقدم هامة وكبرى في التخفيف عن عاتق الشعوب ، الكثير ، بل الكثير جداً من القيود والظلامات التي فرضتها عليها الامبراطورية الرومانية . وثانياً أن الاسلام كان باعثاً على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون في حركة من أهم حركات تاريخ العلم .

ترك الاسلام لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) حريتهم الكاملة في أن يقيموا شعائرهم الدينية كيفما يريدون . وكانت كنيسة القسطنطينية تدعمها قوة الامبراطورية المادية والحربية ، قد أذاقت السوريين والمصريين وكل اتباع كنائس سوريا وأرمينيا ومصر ألواناً من الاضطهاد لأنهم تحدوا كنيسة القسطنطينية التي تشبثت بالاعتقاد بأن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين ، في حين اعتقدت كنائس مصر وسوريا وأرمينية بأنه ذو طبيعة واحدة لا ذو طبيعتين[1] .

والحقيقة المؤكدة هي أن اليهود والنصارى أصبحوا في الواقع تحت الحكم الإسلامي آمنين على أموالهم وأنفسهم وابنائهم وتمتعوا – بغض النظر عن بعض القيود التي فرضت عليهم – بكثير من الامتيازات التي لم يحلموا بها منذ قرون تحت الحكم الروماني . لذلك نجدهم وقد تنفسوا كثيراً من ريح الحرية فازدهروا ، وظهر كثير من الفلاسفة والعلماء النصارى واليهود ونالوا حظوة كبيرة في بلاد الخلفاء والآمراء المسلمين .

---

(١) القول بالطبيعة الواحدة يعني أن المسيح هو الله والانسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح . أما القول بالطبيعتين فيعنى أن المسيح إله حق وإنسان حق في نفس الوقت .. استغفر الله العظيم .

ومما يدلنا أبلغ دلالة على ترحيب الشعوب المغزوة بالفتح الإسلامي الذي خفف عن كاهلها كثيراً من أعباء الماضي ، ما جاء في فتوح البلدان للبلاذري من أنه « عندما جمع هرقل (العاهل الروماني) للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود وقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد ، فاغلقوا الأبواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا : ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد » .

اذن نستطيع القول مطمئنين بأن طابع التسامح الديني الذي كان سائداً في أنحاء العالم الاسلامي في عصر ازدهار الحضارة الاسلامية كان كبيراً جداً . ولنا أن نشير هنا إلى أقوال بعض كبار المؤرخين الذين أعجبوا أيما اعجاب بهذا التسامح الذي كان مثله في غير الدولة الاسلامية ضرباً من المستحيلات في ذلك العصر . يقول الأستاذ « سيديو » أن المذهب النسطوري المسيحي قد تغلغل وانتشر في الأجزاء الشرقية من آسيا تحت الحماية العسكرية الاسلامية . ويعجب الاستاذ « درير » من أن المسلمين لم يسمحوا للنساطرة بممارسة شعائرهم الدينية بحرية فحسب ، وانما عهدوا اليهم في بعض الأحيان بتثقيف أبناء العائلات الكبيرة ، ويضيف إلى ذلك قوله ان هذا الموقف تحرر مذهل إذا قورن بتعصب أوربا في ذلك الوقت ، وهو تحرر ، تطرف فيه هارون الرشيد لدرجة أنه جعل يوحنا بن ماسويه وهو نسطوري مسيحي مشرفاً على التعليم العام في عصره .

أما مجلس الخليفة المأمون فكان يتكون من ممثلين لجميع الطوائف التي تدين بملكه . ويذكر الأستاذ « دوزي » مبرهناً على حرية الفكر في ذلك العصر ، أي عصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، قصة نقلها عن أحد علماء الكلام العرب ، يروي فيها كيف أنه كان يحضر في بغداد دروساً كثيرة في الفلسفة يشترك فيها يهود وزنادقة ومجوس ومسلمون ونصارى ، وكيف أن الحضور كانوا يستمعون إلى كل منهم باحترام عظيم ، وأنه لم يكن ينبي لأي منهم أن يستند إلا أن الأدلة الصادرة عن العقل ، لا إلى الأدلة المستقاة من أي كتاب مقدس .

لا غرو إذن أن سمح الخلفاء والأمراء المسلمون للنصارى واليهود أن يتقلدوا مناصب الدولة كالمسلمين تماماً . ويدلل الأستاذ « جوستاف لوبون » على ذلك بقوله : إن أسبانيا

الاسلامية كانت الدولة الوحيدة في أوروبا التي تمتع فيها اليهود بحماية الدولة ورعايتها فازداد عددهم زيادة كبيرة . وفي ذلك تقول الموسوعة البريطانية أيضاً أن حكام طليطلة العرب كانوا يحمون الجالية اليهودية الكبيرة فازدهرت فيها وأينعت أعمالها التجارية والثقافية ، ولكنهم فقدوا كل شيء بل طردوا منها عندما انتهت دولة الاسلام في أسبانيا .

ولاشك أن طابع التسامح الإسلامي كان ذا أثر فعال هائل في حركة الأحياء العلمى والبناء الحضاري التي تولاها العرب بعد الفتح . ذلك أن علماء النساطرة كانوا قد لجأوا إلى فارس التي حمتهم من اضطهاد الروم . وسرعان ما ازدهرت تعاليمهم في المدرسة الفارسية في « جند يسابور » وكانوا يستعينون بشيء من الفلسفة اليونانية لبث تعاليمهم . كما لجأ العلماء والفلاسفة اليونان عندما أغلق الامبراطور جوستيان في سنة ٥٢٩ أكاديمية أفلاطون في أثينا ، وكانت آخر معقل من معاقل العلوم في العالم الروماني في ذلك الوقت ، الى فارس والتقت الثقافات المسيحية واليونانية والهندية والفارسية في هذه المدرسة التي اشتهرت شهرة واسعة . وعندما وقعت جند يسابور في قبضة العرب في القرن السابع ، لقى هؤلاء العلماء المسيحيون تسامحاً كبيراً وتشجيعاً عظيماً من الحكام المسلمين الذين استعانوا بهم في تشييد صرح الدولة العلمي والثقافي ، فظهر منهم كثير من الأطباء والعلماء والتراجمة[1] .

لم يخرج العرب في واقع الأمر من جزيرتهم إلى الأقطار المغزوة خالي الوفاض أو مجرد غازين فحسب ، وإنما خرجوا إلى رحاب هذا العالم الفسيح الذي فتحوه وهم يحملون ثروة هائلة من أدبهم الجاهلي تتمثل في لغة كاملة وخطابة وشعر وحكم وأمثال . وفوق ذلك ثروة هائلة من الأحكام الدينية والأخلاقية والاقتصادية والتشريعية المنظمة لمختلف شئون المجتمع والتي تضمنها القرآن والحديث . ولا عجب اذن أن كان للدين الجديد وتعاليمه الفضل كل الفضل في دفع الناس إلى تعلمه وتسابقهم للاستزادة منه والوقوف على حقائقه .

وان في تعاليم محمد لنورانية :

« الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج »

« أطلب العلم من المهد الى اللحد »

« طلب العلم فريضة على كل مسلم »

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »

---

(١) من مشاهير المترجمين في عهد الرشيد يوحنا بن مساويه ، وابن البطريق وحنين بن اسحق ، وعمر بن القرحان ، واسحق بن حنين وثابت بن قرة ، وكثير من أسرة بختيشوع .

« ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولمداد ما جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله » .

لقد رفع الاسلام الحنيف من قدر العلم والعلماء ، وحث على طلب العلم ثم أن معجزته كتاب هو القرآن الكريم ، ومن آياته ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ﴿ ورفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ومن أقوال الرسول ﷺ أيضاً : « غدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة » ، ثم « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » ، وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وقوله : « لا خير فيمن كان من أمتي ليس بعالم ولا متعلم » وقوله : « لا يزال طالب العلم عالماً حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل » .

ومن ثمة كان طبيعياً وضرورياً أن يظهر في أعقاب الاستقرار الاسلامي الكثير من الكتبة الذين يعلمون غيرهم القراءة والكتابة ومن ثم أنشئت المدارس اللازمة لتعليم القراءة بالقدر الكافي على الأقل للتمكن من الاطلاع على القرآن . وكان حفظ القرآن وتلاوته في جميع المناسبات هم الناس الأول وشاغلهم الذي لا يشغلهم عنه شيء . كذلك كان الخليفة يوصى ولاته بالعدل حسبما جاء في القرآن والسنة . واذن كان الاسلام ذاته في واقع الأمر أول حافز على ازدياد حركة القراءة والكتابة والنسخ لتعليم الناس مبادىء الدين الجديد . وأسلوب تعامل الانسان مع غيره من الناس . بعد ذلك تطور الأمر بطبيعة الحال ، ونشأت علوم جديدة مثل علوم التفسير والحديث واللغة والبلاغة والبيان . فلما اتسعت دائرة العلوم ، اتسع بطبيعة الحال مجال العلم والتدريس وشمل هذه العلوم أيضاً .

ورث العرب عن الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ثلاث مدارس ، هي مدرسة جنديسابور الزرداشتيه التي اختلطت فيها ثقافة اليونان وعلومهم بثقافة الهنود والفرس وعلومهم ، ثم مدرسة حران الوثنية ، وكانت مركزاً للتأثر الاغريقي منذ عصر الاسكندر المقدوني ثم مدرسة الاسكندرية المسيحية المتأخرة . على أن العرب لم يرثوا هذه المدارس فارغة ، وإنما ورثوها بالعلماء والفلاسفة والمترجمين الذي كانوا يعملون بها . ولما كان الاسلام ديناً واقعياً ، حض المسلمين على الاستزداة من العلم ولم يضع أي عقبات في هذا السبيل ، كان طبيعياً أن تستمر هذه المدارس وأن تنشأ مدارس جديدة وأن يستفيد المسلمون من هذه المدارس وهؤلاء العلماء ، في وضع حجر الأساس للحضارة العلمية الاسلامية .

لم يلبث العرب طويلاً بعد استقرارهم في الامبراطورية التي فتحوها حتى بدأت أنظارهم تتوجه إلى العلوم الدنيوية . وقد يكون الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموى

المتوفى سنة ٧٠٤ م ، هو أول أمير عربي أضاء شعلة العلم في الاسلام . ذلك أنه كان أول من عمل على ترجمة كتب القدماء في الطب والفلك والكيمياء كما يقول ابن النديم في كتابه الفهرست . ثم جاء العباسيون واهتم أبو جعفر المنصور منذ البداية بترجمة العلوم ، واتسعت الحركة اتساعاً كبيراً في عهدي هارون الرشيد وولده المأمون على الأخص .

أسس الرشيد بيت الحكمة أو مدرسة الترجمة التي أخذت في عصر المأمون صورة أكاديمية . وضع المأمون على رأسها يوحنا بن ماسويه فقامت المدرسة بأكبر مجهود في ترجمة العلوم والفلسفة والمعارف القديمة . وفي حدود منتصف القرن التاسع الميلادي أصبح تحت يد العرب مختلف علوم الأسبقين ومعارفهم .

اشتمل العلم اليوناني على علوم الأقدمين كالمصريين القدماء والبابليين ، زيادة على الانجازات التي حققها اليونان أنفسهم . وانحصرت العلوم حتى ذلك العصر في الطب والرياضيات والجغرافيا والفلك .. وكانت أهم الكتب التي اعتمد عليها العرب في بناء صرح حضارتهم العلمية كتب أبقراط وجالينوس[1] وديسقوريدوس اليونان في الطب مع بعض الكتب الهندية ، وكتاب المجسطي لبطليموس السكندري في الفلك وكتابه في الجغرافيا ، وكتب اقليدس وارشميدس[2] وأبولونيوس وديوفنطس اليونان في الرياضيات وكتاب « السندهند » في الفلك والرياضة ، وهو النسخة الهندية المنقحة من كتاب سدهانا لبراهماكوبتا الهندي . وهذه هي أهم الكتب العلمية التي تلقاها العرب من الدنيا القديمة عن طريق اليونان والهنود ، والتي كونت المادة العلمية التي بنوا عليها ثقافتهم العلمية .

والحق أن طريقة اكتساب المسلمين للعلوم واستيعابهم لها وقصر المدة التي استغرقوها ليصبحوا قادرين على تصحيح هذه العلوم واضافة جديد لم يسبقهم إليه أحد ، أمور كانت فريدة في التاريخ . بعد جيل واحد أو جيلين من دخولهم دنيا العلم ، تربعوا على عرشها وأصبحوا سادتها لا منازع لهم ويكفي أن نذكر في هذا المقام قولة الأستاذ جورج

(١) **جالينوس Galen** (١٢٩ – ١٩٩ م) الطبيب الأغريقي المعروف ولد في برجاموم بآسيا الصغرى وتعلم الطب في أزمير والاسكندرية وروما ، عمل طبيباً لبلاط قيصر الرومان ، وظل سلطان علمه قائماً في أوروبا حتى منتصف القرن الحادي عشر . وقد بحث جالينوس بين الظواهر الجسمية والظواهر النفسية ، راجع : تاريخ الطب عند العرب للمؤلف .

(٢) **أرشميدس Archimedes** هو عالم الفيزياء ، والهندسة اليوناني الشهير ولد بمدينة سيراكيوز بجزيرة صقلية في نحو عام ٢٨٧ ق.م . ثم تفرغ لدراسة العلم والرياضة . وهو الوحيد بين القدماء الذي خلف لنا شيئاً نافعاً في الميكانيكا والهيدروماتيكا (علم موازنة السوائل) ومن هذه الأخيرة نظرية ارشميدس المعروفة بنظرية الأواني المستطرقة .

سارتون : « حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر في القرون الوسطى . فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية ، التي كانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري كله ، حتى لقد كان ينبغي لأي كائن ، إذا ما أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها ، أن يتعلم اللغة العربية ، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها »[1] .

صحح المسلمون علوم الأقدمين بالقدر الذي سمح به علم عصرهم ، وأضافوا علوماً جديدة مثل الكيمياء والجبر في صورته الجديدة ، وعلم البصريات الهام ، وحساب المثلثات المسطحة والكروية ، والحساب الجديد الذي نقلوه عن الهنود وطوروه وجعلوه علماً ذائعاً . هذا فضلاً عن كثير من الاضافات الأخرى مما سيأتي ذكره فيما بعد . ولم يتأتى ذلك لهم إلا **بظهور فئة الكتاب والنساخ أو هؤلاء الذين يطلق عليهم كتبة ديوان الانشاء** .. بذلك كون المسلمون تراثاً علمياً جديداً مميز الطابع ، نستطيع بحق أن نصفه بالتراث العلمي الاسلامي[2] . الذي أصبح فيما بعد الأساس الذي ارتكزت عليه الحضارة الحديثة التي ترجع الى إسهام مقتضيات العقيدة الاسلامية بكتابة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في بادىء ظهور الاسلام بلغة عربية خالية من النقاط والتشكيل متفاوتة في أسلوب الكتابة متأثرة باللهجات العربية المختلفة الى أن تم كتابة المصحف الأمام في عهد عثمان وهذا ما سنفصله في الفصل التالي وبعد ذكرنا لأهمية الكتابة والعلم في الاسلام .

أهمية الكتابة والعلم في الاسلام

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم ﴾[3] .

---

(١) جورج سارتون : تاريخ العلم – دار المعارف .

(٢) كانت اضافات العلماء العرب في الطب والتشريح والكيمياء والمعادن والنبات والحيوان من أمثال جابر بن حيان وابن طفيل والزهراوى والرازي ، والخلدكي ، والخازن وابن النفيس والبغدادي والقزويني ، وداود ، وابن البيطار ، والادريسي ، والدينوري والصوري وابن حمزة ، وابن يونس والحافظ وابن خلدون ، وابن مسكويه وغيرهم وأن مؤلفاتهم لتعد بالمئات وبالألوف ، كما أن مؤلفات بعضهم ظلت المراجع المعتمدة في أوروبا حتى القرن السابع عشر . لقد سبق العلماء العرب الى كثير من النظريات والآراء وانها لتنسب في الوقت الحاضر الى علماء النهضة الأوروبية دون اشارة الى هؤلاء الرواد .

(٣) سورة الفلق آية ١ .

هذه أول آيات بينات نزلت على سيدنا محمد الرسول الأمين . تنبئه بالرسالة وتحمله مسئوليتها ، تصدع أول كلماتها بالقراءة وهي مفتاح التعليم ، وتنطق آياتها بتعليم الله عز وجل لعباده مالم يعلموا ، وتذكر القلم وسيلة الكتابة وحفظ العلم ونقله ، وآلة التدوين بما يجول في الخواطر .

لقد استرعى الله عز وجل انتباهنا إلى أهمية العلم ، في أولى آيات القرآن الكريم ، لأنه سبيل الى التحرر من العبودية لغير الله ، والطريق القويمة إلى معرفة الله عز وجل ومعرفة شرعه وحسن تطبيقه والعمل به .

وحسبنا أن تنوه الآيات الأولى من دستور الاسلام بالعلم لندرك اهتمام هذا الدين الحنيف به ، ولو أنا تأملنا فيما ورد في القرآن الكريم من آيات تتناول العلم وفضله وسبله ، وما يلحق به ، وما ورد في السنة في هذا الباب ، لوقفنا على مكانة العلم في الاسلام ، وأدركنا اهتمامه الكبير به ، ومن خلال الآيات التي تحث على العلم والتعليم وتشجع طلاب العلم ، وترفع من شأن العلماء ، ومحاربة الجهل ، والظلام[1] ، تريد للانسانية نور العلم والمعرفة بدلاً من ظلام الجهل والغفلة – ومن هنا خاطب الاسلام العقول والقلوب ، وجعل العقل مدار التكليف ، وبه ميز الله عز وجل الانسان عن سائر مخلوقاته – من هذا قوله عز وجل : ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾[2]. وقوله عز وجل : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلى العالمون**[3] ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **هل يستوى الأعمى والبصير أفلا يتفكرون**[4] ﴾ ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**[5] ﴾ .

وإنا لنجد دعوة القرآن الكريم إلى العلم والرفع من شأنه مبثوثة في كثير من آياته قال تعالى : ﴿ **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[6].

(١) محمد عجاج الخطيب : لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص ١٣ .
(٢) سورة الزخرف آية ٣ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٤٣ .
(٤) سورة الأنعام آية ٥٠ .
(٥) سورة النحل آية ٤٤ .
(٦) سورة الزمر آية ٩

ورفع مكانة العلماء في قوله عز وجل : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات[١] ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾[٢] .

وترى من خلال آيات القرآن الكريم ما للعلم والعلماء من أهمية كبيرة في الدعوة الى الله والتحرر من عبودية ما سواه .

وقد خاطب الاسلام في الانسان عقله وحواسه وجوارحه ، التي تنفذ به إلى المعرفة والتعليم[٣] ، فاسترعى انتباهه إلى مفاتيح العلوم بالنظر والمشاهدة والتأمل والاعتبار ، وغير ذلك مما يدفع به إلى ذروة المعرفة والوقوف على الحقيقة الكبرى لهذا الكون .

وقد حض الرسول عليه الصلاة والسلام على طلب العلم ، وبين منزلة العلماء فقال : ﴿ من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ﴾[٤] ، وجعل طلب العلم الشرعي الذي يحتاج اليه كل مسلم ليقيم أمور دينه فريضة على كل مسلم بنص قوله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[٥] .

ولم يترك الرسول ﷺ طريقة من طرق التعليم والتبليغ والتوصيل والاعلام في ذلك العصر إلا سلكها في سبيل نشر الاسلام وتبليغه – فكان يعقد مجالس العلم بنفسه ، وبعث الرسل ويرسل الكتب ويوجه الأمراء والقضاة والمعلمين ليفقهوا الناس بالدين – فكان ﷺ خير مبلغ .

ومنزلة العلماء المعلمين من أرفع المنازل في الاسلام بنص قول الرسول ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء »[٦] ، ومن هنا حث الاسلام على احترام أهل العلم ، على لسان سيدنا محمد ﷺ فقال : « ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه »[٧] .

---

(١) سورة المجادلة آية ١١ .
(٢) سورة يوسف آية ٧٦ .
(٣) محمد عجاج الخطيب : لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص ١٦ .
(٤) أخرجه الامام أحمد عن أبي هريرة مسند أحمد جـ ١٢ ص ١٨٠ حديث ٧١٩٣ .
(٥) أخرجه ابن ماجه عن أنس – سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٥ .
(٦) مجمع الزوائد ص ١٢١ جـ ١ .
(٧) مجمع الزوائد ص ١٢٧ جـ ١ .

هكذا يتبين لنا حرص الشريعة الاسلامية على العلم والتعليم ، وقد مارس الرسول ﷺ ذلك بنفسه ، وشجع على طلب العلم ، وأوصى بطلابه ، وبين ما للمشاركة فيه من أجر حتى بلغ التشجيع العلمي أوجهه ، وفتح باب العلم للجميع ليس بينه وبين أحد حاجز أو مانع ، وأبلغ من هذا كله ، أن الرسول ﷺ حذر العلماء من أن يتساهلوا في أداء واجبهم وتعليم الجاهلين وأنذرهم بالعقاب ، وحذر الجاهلين من البقاء على جهلهم[1] ، وحثهم على طلب العلم .

أهمية الكتابة عند المسلمين :

إن أغلى ما يعبر الانسان عن فكره وأحاسيسه هو الكلام بمجموع ألفاظ مفرداته وجمله ، وهو الوسيلة الأولى للخطاب ونشر العلم وكسب المعرفة ، والانسان في خطابه وعباراته المنطوقة أقوى على التعبير عما يريد ، وأفصح من محاولته ذلك بأي وسيلة أخرى . ويلي العبارة المنطوقة في الافصاح عن الفكر ، العبارة المكتوبة .

ومن ثم كان للكتابة عند الأمم جميعاً أثر بعيد ، وكان لها الفضل الكبير في حفظ تراث الأمم السابقة في دواوين العلم – وقد ازدادت أهمية الكتابة وآثارها في العصر الحاضر ، وتطورت وسائل الطباعة تطوراً سريعاً يناسب روح العصر ، ويفي بحاجته[2] .

ولقد كتب القلقشندي كتاباً ضخماً في أربعة عشر جزءاً عن الكتابة أسماه « صبح الأعشى في صناعة الانشا » (سنذكر الكثير عنه فيما بعد) وهو قاموس زاخر بالفوائد الرائعة فيما يتعلق بهذه الصناعة من جميع نواحيها .. ويقول الكاتب في فضل الكتابة[3] ، ان أعظم شاهد لجليل قدرها وأقوى مثل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها اليه جل جلاله واعتبرها من وافر كرمه .

---

(١) محمد عجاج الخطيب : لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص ٢١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الانشا ص ٤٤ .

ثم قال بأن الله سبحانه وتعالى وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلت قدرته ﴿ وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾[1] .

ويقول القلقشندى :

ليس بين الصناعات ما يلحق بصناعة الكِتابة ولا يكسب ما تكسبه من الفوائد مع الحصول على الرفاهية والتنزه عن دناءة المكاسب ، ثم مع توصل اليه من مشاركة الملوك والرؤساء . وكفى بهذه الصناعة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه .

وقد اشتغل بالكتابة علية البشر ، ومنهم من صاروا أنبياء أو خلفاء ، ومن هؤلاء يوسف الذي كان يكتب للعزيز بمصر - وهارون ويوشع ابن نون وكانا يكتبان لموسى ، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكانوا يكتبون للرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم أصبحوا بعده خلفاء الواحد بعد الآخر .

وقد تنبه قوم بالكتابة بعد الخمول ، وصاروا إلى الرتب العلية والمنازل السنية ، منهم « سرجون » الذي كان رومياً خاملاً فرعته الكتابة ، حتى اتصلَ بمعاوية وكتب له ولابنه يزيد ولمروان بن الحكم ، ومنهم عبد الحميد بن يحيى الذي اشتهر باسم الكاتب الأول حتى غمر اللقب نسبه - وشرف بضاعته واشتهر بها[2] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : « أو أثارة من علم » أنه الخط كما تقدم الكلام عليه ، ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام فقال : ريح لا يبقى . قال : فما قيده ؟ قال : الكتابة .

وقال عبد الله بن العباس : الخط لسان اليد . وقال النظام : الخط أصل الروح له جسدانية في سائر الأعمال إلى ما يجرى هذا المجرى .

وقال ابراهيم بن محمد الشيباني : الخط لسان اليد وبهجة الضمير وسفير العقول ، ووصى الفكر ، وسلاح المعرفة ، وأنس الأخوان عند الفرقة ، ومحادثهم على بعد المسافة ، ومستودع السر وديوان الأمور[1] .

---

(١) سورة الانفطار آية ١٠ .

(٢) القلقشندي . صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٩ ، ٤٢ .

(٣) القلقشندى . صبح الأعشى في صناعة الأنشا جـ ٣ ص ١ ، ٢

ولو لم يكن من شرف الكتابة الا أن الله تعالى أنزلها على آدم أو هود عليهما السلام كما تقدم ذكره - وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورة[١] : وأنزل الألواح على موسى عليه السلام مكتوبة لكان فيه كفاية .

ففي الآيات الكريمة الآتية قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ﴾[٢] .

﴿ « بل يريد كل امريء منهم أن يؤتي صحفا منشرة ﴾[٣] .

﴿ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ﴾[٥] .

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾[٦] .

هذا وفي الكتابة حفظ الحقوق ومنع تمرد ذوي العقوق ، بما يسطر عليهم من الشهادات التي تقع في السجلات والمكاتبات بين الناس لحوائجهم من المسافات البعيدة التي لا ينضبط مثل ذلك لحامل رسالة ، ولا يناله الحاضر بمشافهة وان حفظه ، وزادت بلاغته ولذلك قيل : الكتابة أفضل من اللفظ - لأن اللفظ المنطوق يفهم الحاضر فقط واللفظ المكتوب يفهم الحاضر والغائب[٦] .

تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد ظهور الاسلام :

لم يقدر للحروف العربية أن تتطور تطوراً كافياً جعل شكلها مقارباً للشكل الذي نعرفه الآن إلا مع ظهور الاسلام وبعده ، وقد مرت الحروف العربية التي كانت في الأصل نبطية متفرعة من الهجاء الفينيقي في سلسلة من التطور جعلتها تتخلص شيئاً فشيئاً من العيوب التى ورثتها عن الحروف التي نقلت منها . وكان حذق العرب للكتابة في الجاهلية حدثاً هاماً في تاريخ الفكر لم يظهر أثره إلا بظهور الاسلام ، وقد عرف الكتابة أهل الذمة ونقلها عنهم الصحابة من كتابة الوحي . وفي الواقع كان للكتابة أثر بالغ في نقل الاسلام ،

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٣

(٢) سورة النجم آية ٣٦ .

(٣) سورة المدثر آية ٥٢ .

(٤) سورة البينة آية ٢ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٥٤ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣ .

ولا عجب في هذا فهي الوسيلة إلى تعلم العربية وحفظ القرآن وتعاليم السنة النبوية وتدوين الأحاديث الشريفة والتفسير ، هذا بالاضافة إلى خدمة الدولة وأولى الأمر .

ومن أبرز مظاهر التطور التى أدخلت على الهجاء العربي ، زيادة حروف الروادف وابتكار التنقيط والأعجام والحركات والضوابط والهمزة .

وفي عصر النبوة كان كتبة الوحي يكتبونَ بذلك الخط العربي الذي تحددت صورته ولكنه لم يستطع أن يتخلص من بعض مظاهر الخط النبطي ولم تصل الينا أمثلة من هذا الخط الحجازي الذي كان مستعملاً أيام النبي صلوات الله عليه في مكة والمدينة المنورة ، وأغلب الظن أنه تحددت لهذا الخط منذ ذلك الوقت صورتان .

صورة لينة يميل فيها الى التدوير وكانت تستعمل في التدوين السريع وصورة جافة يميل إلى التربيع ، وكانت تستعمل في كتابة الشئون الهامة التي يراعى في كتابتها التأني والتؤدة ، والراجح أن كتاب الوحي كانوا يكتبون القرآن فور نزوله على النبي ﷺ بالخط اللين لأنه أطوع لهم وأيسر عليهم حتى يلاحقوا النبي وهو يتلو الآية ، وكانوا عندما يعودون إلى دورهم ويستقرون في مجلسهم يعيدون كتابة ما دونوه بالخط اللين في حضرة النبي صلوات الله عليه – بالخط الجاف تعظيماً لكلمات الله وتقديراً لها .

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يدرك قيمة الكتابة ، ويقدر أثرها ولذلك كان يطلق الأسير في غزوة بدر اذا علم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة ، كما كان أقرب الناس إلى نفس الرسول كتاب الوحي . بظهور الاسلام أخذ شأن الكتابة العربية في الازدهار ، ولم يلبث العرب أن انتشروا في كثير من أجزاء العالم المتحضر في ذلك الوقت ، وامتد نفوذ العرب والمسلمين في نحو قرن من الزمان من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن ثم أصبحت اللغة العربية ذات قيمة سياسية إلى جانب اهميتها الدينية والأدبية ، وتبع ذلك بطبيعة الحال التمكين في هذه الأقطار للكتابة العربية التي لم يقتصر نفوذها على اللغة العربية ، بل امتد نطاقها فصارت تكتب بها لغات أخرى مثل الفارسية والأردية .. وهكذا نجد أن العرب نقلوا إلى الأقطار الاسلامية بدايات الخط العربي كما نقلوا اليها اللغة العربية والاسلام سواء بسواء . ويستشف من الأخبار التي وصلتنا أن العرب كانوا يصنعون الكتابة في مرتبة أعلى من الحفظ ، وكانت القصيدة التي تحوز تقديرهم فيما قبل الاسلام تكتب بماء الذهب وتعلق في الكعبة اجلالاً لشأنها ولذلك سميت هذه القصائد بالمعلقات . وتأكدت نزعة تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد الاسلام ، ولقد عبر ذو الرمة عن ذلك حين قال لعيسى بن عمر : أكتب شعري فالكتاب اعجب إلى من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة « قد تعب في طلبها يوماً أو ليلة فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس » .

التطور الموضوعي للكتابة العربية

كتابة القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ

ليس جديدا القول بأن بزوغ شمس الاسلام كان ايذاناً بنهضة كتابية عظيمة تتمثل في حرص المصطفى عليه الصلاة والسلام على تعلم الصحابة الكتابة وعلى تدوين القرآن الكريم منذ فجر الاسلام .

لقد كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فلم يكن هناك بد من أن يلقن القرآن الكريم تلقيناً ، فأنزله الله عليه أقرب إلى الحفظ في الصدور وأبعد عن النسيان ، فكانت تنزل عليه الآيات القرآنية بين وقت وآخر ، تتابع أحياناً وتبطيء أحياناً أخرى ، يقول الله تعالى في سورة الفرقان :

﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ .

واستغرق نزول القرآن بضعة وعشرين عاماً ولقد حرص النبي ﷺ منذ اللحظة الأولى على حفظه وتحفيظه لأتباعه ، كما حرص في الوقت نفسه تدوينه فور نزوله ، وكان هذا التدوين يتم تحت اشرافه ، وهكذا أصبح للقرآن صورتان واضحتان :
صورة صوتية عندما يتلى وصورة مكتوبة ، والصورة الأولى تتجلى في تلقي القرآن بالمشافهة من جبريل ، اذ كان النبي يقرأ ما ينزل عليه والصحابة حوله يسمعون بآذانهم ما يقرأه النبي ، فيعرفون عن طريق السماع حقيقة النظم القرآني ويقفون على أسلوب أدائه ، وتكررت القراءة ، وتكرر التلقي عن النبي ، فالرسول الكريم حافظ القرآن والصحابة الآخذون عنه كانوا يحفظونه كذلك ، ثم تتكرر قراءة القرآن خلال الصلوات . فيزداد حفظ القرآن في الصدور .

ولم تكن اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم قد تهيأت لها السيطرة اللغوية حينئذ ، بل كانت متعددة اللهجات نظراً لاتساع شبه الجزيرة العربية واختلاف البيئات فيها ، الأمر الذي جعل التباين في نطق الألسن وفي التعبير بالصوت .

ولما كان من العسير على الصحابة أن يحفظوا القرآن بغير اللهجة التي يتكلمون بها ، فقد أجاز لهم النبي تلاوته باللهجات التي درجوا عليها ، وأقرأهم بهذه اللهجات أو بعبارة أخرى بهذه القراءات وفقاً لما تستطيعه ألسنتهم عند النطق

وقد كان من الطبيعي أن يترتب على هذه اللهجات المختلفة ظهور شيء من الخلاف بين

العرب في قراءة القرآن عندما كان واحد منهم يقرأ بلهجة أو حرف على حد تعبير رجال القراءات ، لم يقرأ به أخ له فيفزع لذلك ، ويسارع إلى الرسول يسأله الحقيقة في هذه القراءة التي سمعها من أخيه ، فيطمئن النبي خاطره ويقول له : « كلاكما على صواب » وهكذا نجد بين قراءات الصحابة اختلافات في الأداء والنطق وفي وجوه القراءة ، ناشيء عن أن كلاً منهم تلقى عن النبي باللهجة التى اعتادها لسانه[١] .

هذه هي الصورة الصوتية للقرآن الكريم عندما يتلى ، يحفظه النبي وأصحابه عن ظهر قلب ومن أشهر هؤلاء عثمان بن عفان وأبي بن كعب وزيد بن ثابت[١] .

أنزل الكتاب على رسول الاسلام ﷺ ونقل الى الناس عبر الشفاه ، إذ أن النبي الأمي تلقى كلام الله على لسان الوحي جبريل ، فحفظه ونقله بدوره إلى أمته عن طريق تلاوته مقطعاً بعد مقطع ، وآية بعد آية ، وسورة بعد سورة ، وجاءت لحظات الصمت العجيب لتفصل بين الآية والآية ، وكأنه قصد بها أن تُبرز اعجاز القرآن الذي يتدفق كلامه في معزوفة صوتية : آية تلو آية . ووقفة بعد وقفة ، وسورة إثر سورة ، نعم إن الرسول عليه السلام نقل كلام الله شفاهة إلى قومه فتناقلوه فيما بينهم إلى أن دونه كتاب وخطاطون يتقنون فن الكتابة كما يتقنون فن حفظ الكلام المنزّل .

وبذلك يحول القرآن طابع جذوره الشفهية العميقة ، إذ يبقى الى الأبد قرآناً يتلى ، وهو الذي منح الكلمة المكتوبة في العالم العربي الاسلامى وثيقة النبل والأصالة .

أما الصورة المكتوبة فان التدوين والكتابة لم تكن من الأمور الشائعة بين العرب في ذلك العصر ، فقد كانت الأمية طاغية عليهم ، والكاتبون قلة ، ولكن حرص النبي ﷺ على حفظ كلمات الله قد دفعه إلى العمل على تدوينها فور نزولها ، فاتخذ كتبة يكتبون آيات القرآن أولاً بأول ، ويلازمون النبي حيثما ذهب وأنى أقام ، لكي يؤدوا هذا العمل الذي تفرغوا له ، لا يشغلهم عنه شاغل ، وقد تمت هذه الكتابة بين كتاب من قريش في مكة ، وكتاب من الأنصار في المدينة ، ولم يكن في رسم الحروف فروق واضحة كما كان الحال في القراءة الشفوية ومن أشهر هؤلاء الكتاب معاوية بن أبي سفيان في مكة ، وزيد بن ثابت في المدينة[٢] .

---

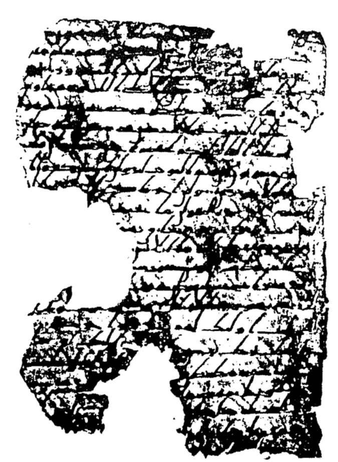
(١) د. عبد الصبور شاهين - تاريخ القرآن - القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن جزء أول .

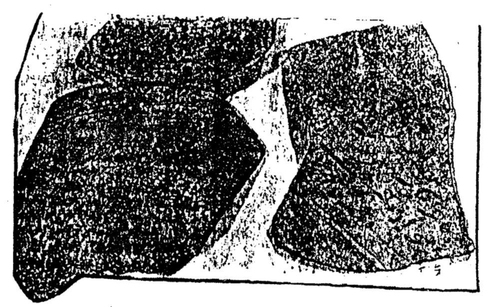
وسجلت آيات الكتاب على مواد متباينة متعددة ، فقد أختلفت في أحجامها كما اختلفت في مادتها ، فكانت قطعا كبيرة وصغيرة من العظم ومن الخشب ومن الفخار ومن الحجر ومن جريد النخل ومن جلود الحيوان ومن الكتان ومن الرق . وقد كانت جلود الحيوانات عامة مما يكتب عليه بعد أن تربع وتعالج بالطرق المختلفة لتصلح لهذا الغرض ، ثم رأى الانسان أن المعدة والأمعاء في بعض الحيوانات مثل الماعز والعجل والغزلان لا تحتاج إلى جهد في اعدادها للكتابة مثل الجلود ففصلت واستخدمت بكثرة في الكتابة .

وهكذا أصبح للقرآن الكريم وسيلة الكتابة إلى جانب صدور الحفاظ التي استوعبته وحيث خطته يد الكتبة في مكة والمدينة على المواد سالفة الذكر بدليل تلك الصحيفة التي كانت تقرأ فيها أخت عمر بن الخطاب مع زوجها آيات القرآن من سورة طه .. عندما دخل عليها عمر .. مع بداية قصة اسلامه .. ولقد كتبت هذه الآيات القرآنية في مكة والمدينة بالخط العربي في صورته الأولى التي استقامت له بعد أن أستقل في كيانه عن الخط النبطي الذي ولد منه ، والواقع أننا يجب أن نفرق بين نوعين من الخط العربي ، مما كان مستعملاً في تلك الفترة من تاريخ العرب والاسلام . الخط اللين الذي يميل إلى الاستدارة والمتميز بالطواعية والمرونة عند كتابته ، والمستخدم في الكتابات المعتادة . والخط الجاف المتميز بالزوايا والتربيع والمسمى بذي الحواف والذي عرف فيما بعد بالخط الكوفي ، حيث كان يتطلب وقتاً كافياً للكتابة به ، لما يتمتع به من جلال وجدية وفخامة خاصة عند كتبة الوحي للقرآن الكريم فور نزوله بالأسلوب اللين لسهولته وطواعيته ، فإذا ما استقروا في الديار ، كتبوه بأسلوب التأني والتؤدة . تفخيماً وتكريماً وتعظيماً لكلمات الله عز وجل .

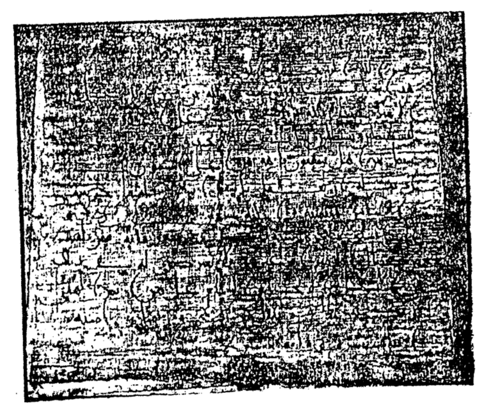
ويمكن أن نشهد الصورة الأولى للكتابات القرآنية فيما وصل الينا من نصوص قرآنية كتبت في العصور الأولى للاسلام وهي موزعة بين المكتبات العامة ، والمتاحف والمجموعات الخاصة . شكل (١/٣ ، ٢ ، ٣ ، ٤) .



شكل (٣-١) كتابة على الرق وهو جلد الأمعاء للماعز والخراف من القرن الأول للهجرة - راجع
د. محمد عبد العزيز مرزوق القرآن الكريم دار الشعب ١٩٦١



شكل ٣ ٢) كتابة قرانية على الحجارة وأخرى على الفخار من القرن الأول للهجرة



شكل (٣ - ٣) كتابة قرآنية على البردي من القرن الأول للهجرة راجع : المرجع السابق .



شكل (٣ - ٤) كتابة على عظمة كتف جمل .. من القرن الأول للهجرة .

والتأمل في هذه النصوص ، يكشف لنا في وضوح عن مظاهر لا نعرفها اليوم في كتابتنا العربية ففيها حروف يعبر كل واحد منها عن صوتين مختلفين لا صوت واحد مثل حرف الدال فقد يكون (د) أو (ذ) ومثل حرف الراء فقد يكون (ر) أو (ز) ومثل حرف السين فقد يكون (س) أو (ش) ومثل حرف الصاد فقد يكون (ص) أو (ض) ومثل حرف الطاء فقد يكون (ط) أو (ظ) ومثل حرف العين فقد يكون (ع) أو (غ) ومثل حرف الفاء فقد يكون (ف) أو (ق)

ومنها حروف يعبر الواحد منها عن عدة أصوات مختلفة مثل حرف الباء فقد يكون (ب) أو (ت) أو (ث) أو (ن) أو (ي) ومثل حرف الجيم فقد يكون (ج) أو (ح) أو (خ) .

ومنها كلمات رسمت بطريقة لا يتفق فيها المنطوق مع المكتوب مثل كلمة اشياعكم وكلمة جنات ، فهي قد دونت وكتبت (أشيعكم) و (جنت) .

وهناك كلمات كثيرة في المصحف الشريف يضيق المقام عن ذكرها يختلف فيها المكتوب عن المنطوق نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (الحياة – الصلاة – الزكاة – النجاه – مشكاة) فقد كتبت الألف الوسطى فيها واو فصارت (الحيوة – الصلوة – الزكوة – مشكوة) .

وفيها كلمات مجزأة بين سطرين أول الكلمة في آخر السطر وآخر الكلمة في السطر الذي يليه وهكذا تحددت معالم صورة المصحف الشريف كما نعرفه اليوم مقسماً إلى ثلاثين جزءاً .

هذه هي الصورة المكتوبة للقرآن الكريم في عهد النبي ﷺ ، حروف يعبر الواحد منها عن صورتين أو أكثر ، وكلمات ترسم بطريقة لا يتفق فيها المنطوق مع المكتوب ، وكلمة مجزأة بين سطرين ، وهكذا .

وإذا نحن تذكرنا أن النبي صلوات الله عليه قد أجاز للصحابة رضوان الله عليهم أن يقرءوا القرآن بلهجائهم التي درجوا عليها وأنه قد أقرأهم بهذه اللهجات وفقاً لما تستطيعه ألسنتهم ، إذا نحن تذكرنا ذلك ، رأينا أن هذه الصورة المكتوبة التي تم وصفها ، كانت محققة لما ينطق به العرب ، ومحققة أيضاً لما أراده النبي ﷺ – من تسهيل قراءة القرآن وفهمه للعرب جميعاً على اختلاف لهجاتهم .

وتم نزول القرآن ، وتولى النبي ﷺ بنفسه ترتيب آياته فعين موضعها من بعضها البعض ، وحدد مكانها في السور المختلفة طبقاً لما تلقاه من الوحي . أما ترتيب السور فقد

ترك شأنه في أول الأمر إلى الصحابة أنفسهم ، فنسخ كل صحابي منهم القرآن على النحو الذي رآه ، فمنهم من رتب السور على أساس التنزيل مثل الامام على كرم الله وجهه . فقد كانت نسخة القرآن التى عنده تبدأ بسورة اقرأ تليها سورة المدثر تليها سورة (ق) ، تليها سورة المزمل ، وهكذا بحسب نزول الآيات .

وكانت نسخة القرآن التي عند الصحابي الجليل ابن مسعود ، تبدأ بسورة البقرة ثم تليها سورة النساء ثم تليها سورة آل عمران .

وكانت نسخة القرآن التي عند الصحابي الجليل أبي ابن كعب ، تبدأ بسورة الفاتحة ثم تليها سورة البقرة ، ثم تليها سورة النساء . ثم تليها سورة آل عمران ، ثم تليها سورة الأنعام .

وأغلب الآراء ترجيحاً أن النبي صلوات الله عليه بعد أن تم نزول القرآن عليه رأى ترتيب السور على النحو الذي بين أيدينا اليوم : أي يبدأ بطوال السور ثم أوساطها ثم قصارها ، وطبيعي أن يستجيب الصحابة لهذا الرأي فيعيدون النظر في ترتيب نسخ القرآن التي لديهم على النحو الذي رآه النبي .

وانتقل الرسول الى الرفيق الأعلى وقد انتظم عقد القرآن في مائة وأربع عشرة سورة سميت كل سورة منها بالكلمة التي تبدأ بها ، أو بكلمة وردت فيها ، أو بموضوع بارز فيها ، أو بقصة تدور حولها ، وبعض السور عرف له أكثر من اسم : مثل سورة الفاتحة التي تعرف أيضاً بسورة أم الكتاب أو السبع المثاني أو الحمد ، وسورة التوبة التي تعرف أيضاً بسورة براءة ، وسورة الابراء التي تعرف أيضاً بسورة بنى اسرائيل وسورة السجدة التي تعرف أيضاً بسورة الملائكة وسورة المؤمن التي تعرف أيضاً بسورة « غافر » وسورة محمد ﷺ التي تعرف أيضاً بسورة القتال ، وسورة الملك التي تعرف أيضاً بسورة تبارك ، وسورة النبأ التى تعرف أيضاً بسورة « عم »[1] ولعله من المناسب هنا أن نذكر أن ترتيب الآيات والسور في القرآن لم يكن موضوعياً أو زمنياً ، بل انفرد هذا الكتاب السماوي بترتيب خاص به ، فقد قصد به أن يكون كتاب هداية نفسية وخلقية واجتماعية تتناسب مع دوام الدعوة الاسلامية وانتشارها واستمرارها إلى آخر الدهر ، كما تتناسب أيضاً مع ختم هذه الدعوة لرسالات السماء إلى الأرض ، فهو يمس دائماً الأصول الكبرى والأسس العامة .

---

(١) محمد على الأشقر : لمحات من تاريخ القرآن ، طبعة النجف الأشرف بالعراق ، وأيضاً أمين الخولي : بحث عن القرآن ، دائره معارف الشعب ١٩٦١ .

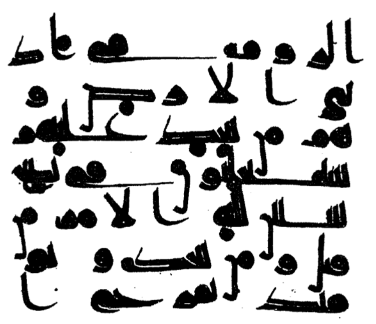
ولقد ظهرت كلمة مصحف أول ما ظهرت في هذا الوقت وقد كان سالم بن معقل المتوفى سنة ١٢ هـ هو أول من أطلق هذه الكلمة على القرآن الكريم بعد أن جمع القرآن في صحف وضعت بين دفتين . بحيث يحفظ محتوى الكتاب وييسر الانتفاع به ، ويصونه في تماسك وجمال .

وقد أوضح السيوطي في كتابه الاتقان في علوم القرآن : أن القوم اختلفوا فيما يسمونه ، وقال بعضهم سموه السفر ، وقال آخرون تلك تسمية اليهود وكرهوه ، وقال آخرون : رأيت مثله في الحبشة سمي المصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف . وهكذا ذاعت كلمة المصحف للدلالة على الكتاب المدون به القرآن الكريم . وهكذا تحددت معالم صورة المصحف الشريف كما نعرفه اليوم . أما تقسيمه إلى أحزاب وأجزاء وأخماس وأعشار فهي محدثة على حد قول الامام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين — باب ظاهر آداب التلاوة من الجزء الأول) وقد كان ذو النورين — عثمان ابن عفان — حريصاً على تلاوة القرآن الكريم جميعه كل أسبوع . فكان يبدأ ليلة الجمعة بقراءة سورة البقرة حتى نهاية سورة المائدة ، ويبدأ ليلة السبت في قراءة سورة الأنعام حتى نهاية سورة هود ويبدأ ليلة الأحد بقراءة سورة يوسف حتى نهاية سورة مريم ، ويبدأ ليلة الاثنين بقراءة سورة طه حتى نهاية سورة طسم ، ويبدأ ليلة الثلاثاء بقراءة سورة العنكبوت حتى نهاية سورة « ص » ويبدأ ليلة الأربعاء سورة الزمر حتى نهاية سورة الرحمن ويختم ليلة الخميس ما بقي من سور القرآن الكريم . وقد كان هذا التقسيم أساساً لما عرف بأحزاب المصحف وهي سبعة على عدد أيام الأسبوع .

ويلاحظ أن المصحف الشريف مقسم إلى ثلاثين جزءاً وأن كل سورة قد قسمت الى خميسات أي خمس آيات وعشيرات أي عشر آيات .

وقد ميزت الأحزاب ، والأجزاء والخميسات والعشيرات بعلامات خاصة عند كتابة المصحف لعب الفن الجميل فيها دوراً واضحاً يرجع ذلك الى تمجيد وتعظيم المسلمين لهذا الكتاب الكريم فهو في الحقيقة عمل فني متكامل ، تسهم فيه طوائف شتى من الفنانين ، تفرغ كل طائفة فيها جهدها في أن تجعل منه تحفة فنية ، يسر العين ويشيع الغبطة والانشراح في النفس ويفتح قلوب المؤمنين لهديه ، فيقبلون على التلاوة فيه آناء الليل والنهار .

ورقة من المصحف المنسوب الى الامام علي ، المحفوظ في خزانة الامام الرضا بمشهد .



ورقة من مصحف بخط كوفي من أواخر القرن الثاني للهجرة ، منقوط نقط إعراب (محفوظ في لينينغراد بمكتبة معهد الدراسات الشرقية ، رقم ٣٢٢) .

أسباب جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر رضي الله عنه

لما قام بأمر المسلمين بعد الرسول ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمبايعة الصحابة له . حدث في عهده ما نبه إلى وجوب جمعُ القرآن في مكتوب واحد خشية عليه من الضياع والتفرق . خصوصاً بعد نشوب الحرب بينه وبين أهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب وغيرهم . وكان من أكبر الملاحم التي أشتبك فيها جموع المسلمين بجموع المرتدين موقعة اليمامة المشهورة . وسببها - أنه لما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتولى أبو بكر الخلافة ، أظهر مسيلمة الكذاب إلى ابي بكر ما كان سبب هلاكه . فجهز اليه أبو بكر فئة من المسلمين ذات بأس شديد وأمر عليها سيف الله خالد بن الوليد . فسارت إليه ، فلما التقت الفئتان واشتعلت نار الحرب بينهما وتأخر الفتح . ومات من المسلمين ألف ومائتان ، وكان منهم سبعمائة من حملة القرآن الكريم . ثار البراء بن مالك مع من سلم من المسلمين على مسيلمة الكذاب وجيشه وجاء نصر الله فانهزموا وتبعهم المسلمون حتى ادخلوهم حديقة . فأغلق أصحاب مسيلمة بابهم عليهم . فحمل البراء بن مالك وألقى بنفسه عليهم حتى صار معهم في الحديقة وفتح بابها للمسلمين فدخلوا وقتلوا مسيلمة وأصحابه ومات من المشركين زهاء عشرة آلاف فسميت حديقة الموت .

وقد هال ذلك المسلمين وعز الأمر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فدخل على ابي بكر رضي الله عنه وأخبره الخبر وبين له ما يخشاه من ضياع القرآن إذا كثر القتل في قراءة الصحابة واقترح عليه جمع القرآن . فتردد أبو بكر أولاً . لأن ذلك أمر محدث لم تكن له سابقة في عهد الرسول ﷺ . وكان أبو بكر أحرص الناس على اتباع الرسول . ومجانبة كل ما لم يفعله .

ولكن بعد نقاش طويل مع عمر رضي الله عنه . اقتنع بصواب رأي عمر . وتجلى له وجه المصلحة فيه . وعلم أن ذلك الجمع ، وإن لم يفعله الرسول ، من أكبر وسائل حفظ القرآن الكريم وصيانته من الضياع ، فأقدم على رأي عمر مراعاة لتلك المصلحة . وكان موفقا غاية التوفيق .

ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجال الصحابة وهو زيد بن ثابت فأرسل إلى زيد بن ثابت بعد استشارة عمر يدعوه إلى كتابة القرآن وجمعه في مكان واحد . وإنما آثر الصديق زيداً رضي الله عنهما بهذه المنقبة مع أن في الصحابة من هو أكبر سناً وأقدم إسلاماً . وأكثر فضائل ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال . إذ كان من حفاظ القرآن . ومن كتاب الوحي لرسول

الله ﷺ ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ ، فيها بيان مانسخ وما لم ينسخ من القرآن وكان فوق ذلك معروفاً بشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه . فاجتمع فيه من المزايا ما لم يجتمع لغيره من أكابر الصحابة . فلذلك اختاره أبو بكر لهذه المهمة العظمى ولما شرع زيد في جمع القرآن اعتمد على مصدرين : الأول ، ما كان مكتوباً بحضرة النبي ﷺ ، الثاني ما كان محفوظا في صدور الحفاظ ، وكان يستوثق في الأخذ من المكتوب غاية التوثق حتى يتقن أنه مما كتب بين يدى رسول الله ﷺ ، وأنه مما ثبت في العرضة الأخيرة . وأنه لم تنسخ تلاوته . ولذلك لم يكن يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان . أنه كتب أمام الرسول ﷺ ، يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود ، قال : قدم عمر فقال من تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به .

وشرع زيد في ذلك ، وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ويعاونونه . فكان يتتبع القرآن ويجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ويتحرى أن يكون جمعه مما كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، تحريا دقيقاً حتى أتم جمعه في صحف ، وإنما كان زيد يتتبع المكتوب في هذه الأشياء مع حفظه للقرآن كله . مبالغة في الضبط وزيادة في الاحتياط حتى تكون الكتابة معاضدة مؤازرة للحفظ .

وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل اليمامة (أي عقب استشهاد القراء في واقعة اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ابو بكر رضي الله عنه : أن عمَر اتاني فقال ان القتل قد استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن واني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن . واني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ . قال عمر هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني . حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد : قال ابو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال . ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن . قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ قال : هو والله خير فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم .. حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند ابي بكر حتى توفاه الله . ثم عند عمر طيلة حياته ثم حفصة بنت عمر وقد قوبلت هذه الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة .

وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن باشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة واجماع الأمة عليه دون نكير . وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الاشراف ، ولعمر في الاقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والاقرار ، وقد راعى زيد في كتابة هذه الصحف أن تكون مشتملة على ما ثبتت قرآنيته بطريق التواتر ، واستقر في العرضة الأخيرة ، ولم تنسخ تلاوته ، وأن تكون مرتبة الآيات والسور جميعها ومقتضى كلام العلماء ومنهم الامام الداني والامام الشاطبي في العقلية والامام ابن الجزري في كتابه المنجد أن الصحف المذكورة كتبت مشتملة على الأحرف السبعة[1] والتي نزل القرآن بها والتي وردت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن رسول الله ﷺ .

وكان جمعه في عهد الصديق رضي الله عنه من أجل مناقبه ، وأفضل مزاياه ، لأنه ضمن للمسلمين حفظ كتابهم من التفرق والضياع . وقد قال الامام على كرم الله وجهه « أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمه الله . فأبو بكر هو أول من جمع كتاب الله » اخرجه ابن ابي داود في كتابه المصاحف بإسناد حسن .

أسباب جمع القرآن وكتابته في عهد عثمان رضي الله عنه

ظلت الصحف التي جمع فيها القرآن في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق مدة خلافته ثم أنتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة أبيها وبقيت عندها إلى أن طلبها الخليفة الثالث عثمان بن عفان في صدر خلافته ، ففي عهده اتسعت الفتوحات ، وامتد العمران . وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار ونبتت ناشئة جديدة في حاجة إلى دراسة القرآن . وطال عهد الناس بالرسول ﷺ . وبالوحي والتنزيل . وكان كل اقليم من أقاليم الاسلام يأخذون بقراءة من اشتهر عندهم من الصحابة . فأهل الشام يقرءون بقراءه أبي بن كعب وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود . وغيرهم يقرأ بقراءة ابي موسى الأشعري . لذا كان بينهم اختلاف في وجوه القراءة ومنشأ هذا الاختلاف انزال القرآن على سبعة أحرف كما ثبت

---

(١) كثرت الأقوال في تفسير النزول على سبعة أحرف كثرة لخطها المفسرون أنفسهم وعلقوا عليها . والذي يعنينا هنا من هذه الأحرف السبعة أنها ليست القراءات السبع المشهورة بهذا العدد وأن هذه الأحرف إنما هي لهجات مختلفة في اللغة العربية ، وكان إقراءالرسول عليه السلام القرآن لأصحاب هذه اللهجات لما تستطيعه ألسنتهم . فاختلف الاقراء باختلاف لهجاتهم اقتضته الضرورة تيسيراً على أصحاب اللهجات المختلفة وتسهيلاً لهم ، راجع د. عبد الصبور شاهين - تاريخ القرآن ١٩٦٦ .

ذلك عن رسول الله ﷺ بالأحاديث المتواترة ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال : « سمعت هشام ابن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة أي أقاتله - فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه - أي جمعت رداءه على لبته - فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ . قال أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت كذبت فان رسول لله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت اني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ . فقال رسول الله ﷺ كذا أنزلت . ثم قال إقرأ يا عمر فقرأت القراءة التي أقرأني فقال ﷺ كذلك أنزلت ، ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

وكان هذا الخلاف مدعاة إلى فتح باب الفرقة والشقاق بين المسلمين في قراءة القرآن العظيم خصوصاً بعد هؤلاء المختلفين عن النبوة . وعدم وجود الرسول بينهم يطمئنون إلى حكمه ويأخذون جميعاً برأيه . واستفحل الداء ، وكادت أن تكون فتنة في الأرض وفساد كبير ، وكانت الأمصار النائية عن المدينة والحجاز أشد خلافاً ونزاعاً . أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار البعيدة ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها حتى يتحاكموا إليها عند الاختلاف إنما كان كل صحابي في اقليم يقرئهم بما يعرف من الحروف التي نزل القرآن بها . ولم يكن بينهم مصحف جامع يرجعون إليه . وفي السنة الثانية أو الثالثة على اختلاف الروايات من خلافة عثمان رضي الله عنه ، سنة خمس وعشرين من الهجرة ، كان حذيفة بن اليمان مأموراً بغزو الري وهي مدينة مشهورة بالعراق . فرأى كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة . ورأى أن كلا من جماعات المسلمين يزعم أن قراءته أفضل من قراءة غيره ، فاستعظم ذلك حذيفة وأكبره . وفزع إلى الخليفة عثمان وأخبره الذي رأى وقال له : أدرك الناس قبل أن يختلفوا في القرآن ، الذي هو أصل الشريعة ودعامة الدين كما اختلف اليهود والنصارى في كتبهم .

فلهذه الأسباب والأحداث أدرك عثمان رضي الله عنه بثاقب نظره أن وراء هذا الاختلاف فتنة ففكر في علاجها . قبل أن يستفحل خطرها : فجمع أعلام الصحابة وذوي الرأي منهم وكان عددهم اثنى عشر ألفا للبحث عن علاج هذه الفتنة ووضع حد لهذا الاختلاف فأجمعوا رأيهم على نسخ مصاحف يرسل لكم اقليم مصحف منها يكون مرجعاً للناس عند الاختلاف . وعلى احراق ما عداها من المصاحف . ومنها مصاحف كانت لبعض الصحابة وهي مصحف عبد الله بن مسعود ومصحف أبي بن كعب

ومصحف عائشة ومصحف الامام علي . ومصحف سالم مولى حذيفة بن اليمان وغيرها . أصبحت كلها مغسولة بالماء أو محرقة بالنار وبعدئذ طهر الجو الاسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع . وبذلك يستأصل الخلاف في كتاب الله العزيز . وبعث عثمان إلى حفصة أم المؤمنين[1] وأستحضر من عندها الصحف التي كتبت في عهد ابي بكر الصديق رضي الله عنه . وأحضر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . وأمرهم أن ينسخوها في المصاحف وشرط عليهم أن يكون النسخ على لسان قريش أي على مصطلح كتابتهم كما نص على ذلك جماعة من المحققين .

وجعل الرئيس عليهم زيد بن ثابت لعدالته وحسن سيرته . ولكونه كان كاتب الوحي المداوم عليه بين يدي النبي ﷺ ، ولا عتماد أبي بكر وعمر عليه في كتابة الصحف في خلافة الصديق قيل ، وقد انضم لمساعدتهم جماعة منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأبي بن كعب ، وأنس بن مالك ، وابان بن سعيد ، ومالك بن عامر جد الامام مالك وابن أنس وكثير بن مفلح ، فنسخوها في المصاحف بالتحرير التام . وكان نسخ هذه المصاحف باشراف الخليفة عثمان ، وأعلام الصحابة من المهاجرين والأنصار .

وكانوا لا يكتبون في هذه المصاحف شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة جميعاً ويتحققوا أنه قرآن ، وأنه لم تنسخ تلاوته . وأنه استقر في العرضة الأخيرة فلم يكتبوا ما نسخت تلاوته ، ولا ما لم يكن في العرضة الأخيرة . وقد كتبوا مصاحف متعددة وكان قصد الخليفة عثمان ارسال ما وقع عليه اجماع الصحابة إلى الأقطار الاسلامية ، وهي متعددة . وكتبوا هذه المصاحف خالية من النقط والشكل لتكون مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم .

فالكلمة التي اشتملت على أكثر قراءة وخلوها من النقط والشكل يجعلها محتملة لما اشتملت عليه من القراءات . تكتب برسم واحد في جميع المصاحف وذلك نحو « فتثبتوا » و « ننشرها » و « هيت لك » و « أف » وهكذا . أما الكلمات التي تضمنت قراءتين أو أكثر ، وتجريدها من النقط والشكل لا يجعلها محتملة لما ورد فيها من القراءات . لا تكتب برسم واحد في جميع المصاحف بل ترسم في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة الأخرى نحو « ووصى بها ابراهيم » بالبقرة فقد رسمت في بعض المصاحف بواوين قبل الصاد وفي بعضها باثبات همزة الواوين ففي قراءة « ووصى » وفي قراءة

---

(١) حفصة ابنة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عرفت في عصرها باتقانها للقراءة والكتابة هذا خلاف بنوتها للخليفة وزوجيتها للرسول ﷺ

« وأوصى » « ونحو » وسارعوا إلى مغفرة من ربكم « بآل عمران رسم في بعض المصاحف بواو قبل السين وفي بعضها بحذف الواو . ونحو تجرى تحتها الأنهار ، بالتوبة في الموضع الأخير منها رسمت في المصحف المكي بزيادة من قبل تحتها وفي بقية المصاحف بحذفها ونحو « فان الله هو الغني الحميد كتب في بعض المصاحف باثبات ضمير الفصل « وهو » وفي بعضها بحذفها . والذي دعا الصحابة إلى سلوك هذا المنهج في كتابة المصاحف أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته التي نزل بها القرآن الكريم فكانت هذه الطريقة أدنى بالاحاطة بالوجوه التي نزل عليها القرآن الكريم . فلا يقال أنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته لأنها منقولة نقلاً متواتراً عن رسول الله ﷺ . ومن هنا يتضح أن اختلاف القراء الذي أفزع حذيفة وعثمان رضي الله عنهما وكان سبباً في كتابة المصاحف إنما كان في أحرف وقراءات تلقاها قراؤهم قبل العرضة[1] الأخيرة ثم نسخت بهذه العرضة ولكن نسخها لم يبلغ هؤلاء القراء .

ولما أتموا نسخ الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة أم المؤمنين وأرسل إلى كل أفق من الآفاق الاسلامية مصحفاً مما نسخوا . وأمر بما سواه من صحف أو مصاحف أن يحرق سداً لباب الشر وحملاً للمسلمين على أن يجعلوا هذه المصاحف مرجعهم الوحيد وأصلهم المعتمد ، فرضى الله عن ذي النورين عثمان . فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه . وحافظ على القرآن الكريم وجمع كلمة الأمة وأغلق باب الفتنة ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنعه إلى اليوم وما بعد اليوم . ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن رسم الحروف التي كتب بها مصحف عثمان كان يمثل البداية الأولى لتكوين حروف الهجاء العربية واستقلالها ، وأن رسم هذه الحروف بلغ في التطور مبلغاً كبيراً مع ازدهار الحضارة الاسلامية في مختلف الاقطار التي دخلها الاسلام .

---

(١) العرضة : أن يقرأ واحد ويقابل عليه الآخر للمراجعة . وقد ورد في حديث عائشة وفاطمة رضي الله عنهما من أن جبريل كان يعارض النبي ﷺ القرآن في كل سنة في شهر رمضان مرة واحدة وفي السنة الأخيرة من حياته عارضه مرتين فأحس الرسول ﷺ بدنو أجله ، وبأن القرآن بعد العرضه الأخيرة كتبه ريد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو الدرداء ومعاذ وغيرهم من كبار الصحابه

راجع د محمود غنيم حفنى ناصف أعلام العرب العدد ١٩٦٥/٤٧ ص ٧٣

نسخ المصاحف بعد عهد الخلفاء الراشدين

ما كاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه يرسل المصاحف إلى الأقطار الاسلامية حتى أقبلت عليها الأمة الاسلامية من كل صوب وحدب . وحتى اجتمعت عليها الكلمة في الشرق والغرب . وحتى نسخَتْ على غرارها الآلاف المؤلفة من المصاحف المقدسة في كل جيل وقبيل . وكانت خالية من النقط والشكل . ولم يكن الشكل والاعجام معروفاً عندهم وأخذت يد التحسين تتناول المصاحف بألوان شتى ، وضروب متنوعة . فهناك تحسينات مادية ترجع إلى النسخ والتجليد والتذهيب ونحو ذلك وهذه فيها بعض التيسيرات والترغيب والتشويق إلى القرآن الكريم . وهناك تحسينات معنوية وجوهرية ترجع إلى تقريب النطق بالحروف . وتمييز الكلمات بوضع النقط والشكل لتحقيق الفروق بين الحروف المتشابهات . وفي هذا نسوق الحديث . والمعروف أن المصحف العثماني حتى عام ٣١ هـ /٦٥١ م لم يكن منقوطاً ولا مشكولاً . لإبقاء الكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات الصحيحة المتواترة عن النبي ﷺ ، وضبط المصاحف بالشكل لم يحدث على المشهور إلا في عهد أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان . ففي عهده اتسعت رقعة الاسلام ، واختلط العرب بالعجم ، وكادت ألسنة الأعاجم أن تطغي على اللغة الفصحي وفشا اللحن . وشق على الناس التمييز بين حروف المصحف وكلماته وخشي أمير المؤمنين أن يفضي ذلك إلى اللحن والتحريف في كتاب الله تعالى فعمل هو وأمراء المؤمنين من بعده على تلافي ذلك . وأحدثوا من الوسائل ما يكفل صيانة الكتاب العزيز من اللحن وحفظه من التحريف .

تطور الكتابة العربية بالنقط والشكل :

كانت الطريقة لاصلاح اللحن هي تعديل شكل الحروف ، والمقصود بالشكل أو التشكيل هو ضبط الكلمة بالحركات ، لتؤدي المعنى المقصود منها وفقا للغة العرب الصحيحة .

وكان أول من وضع مباديء التشكيل في الكلمات هم السريان ، وذلك عندما دخلوا في المسيحية ، ونقلوا الكتب المقدسة إلى لغتهم ، ورأوا أن بعض الناس يلحنون في قراءتها فخافوا أن ينشأ عن ذلك تحريف في اللفظ قد يغير المعنى ويؤدي إلى الكفر والزندقة . فاخترع الأسقف الزهاوي الملقب بمفسر الكتب والمتوفي عام ٤٦٠ م مباديء التشكيل وكان ذلك بالنقط فاقتدى العرب بالسريان في اتخاذ الحركات بالنقط الكبيرة والصغيرة ثم استبدلوها بالحركات المستقلة .

للنقط معنيان : الأول ما يعرض للحرف من حركة أو سكون أو شد أو نحو ذلك ، ويسمى هذا النقط الاعراب . والثاني : ما يدل على ذات الحرف ويبين المعجم منه والمهمل كالنقطة الموضوعة الباء من أسفل . وعلى الجيم كذلك . والنقطتين على التاء من أعلاها والثلاث نقط على الثاء من أعلى ، والثلاث نقط الموضوعة على الشين والنقطتين تحت الياء .

فنقطة الباء قد ميزتها عما يشاركها في رسمها من التاء والثاء والياء ونقطة الجيم قد ميزتها عن الحاء والخاء ويسمى هذا النقط نقط الأعجام . والشكل هو ما يعرض للحرف من حركات كالفتح والكسر والضم والسكون ونحو ذلك ، ويرادفه الضبط والذي جنح اليه المحققون من العلماء بأن المخترع الأول للنقط بمعناه الأول المرادف للشكل والضبط هو **أبو الأسود الدؤلي** وهو أول من ابتدع علم النحو ووضع أساس الشكل لأحرف العربية . وليس من المستبعد أنه استعان بطريقة السريان في وضع النقط إذ كان كثير المخالطة لهم . وربما درس وتعلم على أيدي أساتذة منهم .

فقد ذكر الامام الداني قال : كتب معاوية رضي الله عنه إلى زياد عامله بالبصره يطلب عبيد الله ابنه . فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن . فرده إلى زياد . وكتب اليه كتاباً يلومه فيه ويقول : أمثل عبيد الله يضيع ، فبعث زياد إلى أبي الأسود الدؤلي ، فقال : يا أبا الأسود إن الأعاجم قد أفسدوا اللغة العربية فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله تعالى ، فأبى ذلك أبو الأسود وكره اجابة زياد إلى ما سأل . فوجه زياد رجلاً . فقال له أقعد في طريق أبي الأسود فإذا مر بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن . ففعل ذلك ، فلما مر به أبو الأسود . رفع الرجل صوته فقال « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام « ورسوله » فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله . ثم رجع من فوره إلى زياد فقال : يا هذا اجبتك إلى ما سألت . ورأيت أن أبدأ باعراب القرآن فابعث إلي ثلاثين رجلاً . فأحضرهم زياد . فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختار منهم حتى اختار رجلاً من عبد القيس ، فقال له خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد الذي كتب به فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف فإذا اضممتها فانقط النقطة إلى جانب الحرف وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله فإذا أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين ، ويريد بالغنة التنوين لأنه يخرج من الخيشوم . فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره .

وللحديث شكل آخر أورده الامام أبو بكر الانباري المتوفي سنة ٣٢٨ هجرية في كتابة ايضاح الوقف والابتداء بسنده عن الامام عاصم ابن أبي النجود الكوفي أحد القراء

السبعة . قال ويروي أن أبا الأسود هو الذي طلب من زياد ، فقد جاء إلى زياد بالبصرة وقال اني أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم افتأذن لي أن أضع للعرب كلاماً يعرفون أو يقيمون به كلامهم ، قال لا ، فجاء رجل إلى زياد فقال أصلح الله الأمير . توفي أبانا وترك بنونا . فقال زياد : توفي أبانا وترك بنونا ؟ ادعوا إلى أبا الأسود فقال ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم . غير أن نظام النقط للدلالة على حركة الحروف أصبح يختلط أمره بنظام النقط التي استخدمت للأعجام ، ففي مخطوطات القرآن الكريم القديمة نجد أن النقط للحركات كانت تكتب بحبر يختلف لوناً عن الحبر المستعمل في كتابة الكلمات ، وكانوا أولاً يكتبونها بالحبر الأحمر – ثم شاع بعد ذلك اللون الأصفر فالأخضر أما نقطة الأعجام فكانت تكتب بالحبر الذي يستعمله الكاتب في نسخه ما ينسخ .

وعلى كل حال كان أبو الأسود الدؤلي صاحب الفضل في اختراع هذه الطريقة التي من شأنها أن تعلم الناس القراءة الصحيحة لكتاب الله تعالى . لأنه أول من وضع قواعد للنقط المرادف للشكل وقد كتب هذا النقط كما قلنا بمداد يخالف لون المداد المكتوب به المصحف . ويؤخذ مما تقدم أن من وضع النقط بمعناه الأول هو أبو الأسود الدؤلي وأنه لم يتعرض لنقط الأعجام وانما تعرض لنقط الاعراب وعنه أخذ العلماء من بعده وأدخلوا عليه الاصلاح الثاني وهو أعجام الحروف (وضع النقط في الحروف) بعد الاصلاح الأول بحوالي ٢٠ سنة في عهد عبد الملك بن مروان وعلى يد واليه الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان ولياً على العراق . فقد دعا الحجاج الكتاب ومنهم نصر بن عاصم الليثي المتوفي سنة ٨٩ هـ ويحيى بين يعمر العدواني قاضي خراسان المتوفي سنة ١٢٩ هـ لوضع الأعجام بمعنى النقط . ونقطت الحروف بنفس مواد الكتابة باعتبار أن النقط جزء من الحرف نفسه . وظلت نقط الاعراب تكتب بحبر مخالف لحبر الكتابة ، كما رأيا أن أعجام الحروف يستلزم اعادة ترتيب الحروف الهجائية بحيث ترتب الحروف المتماثلة وتتتابع .

وأصبحت كالتالي أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ى .

وظل الحال على ما هو عليه من عدم التفرقة بين علامات الاعراب ونقاط الاعجام إلا الاختلاف في لون الحبر طوال عهد الدولة الأموية . حتى فكر العرب في عصر الدولة العباسية في تبسيط الكتابة وابعادها عن اللبس والتعقيد في وقت تعذرت فيه الأقلام

والأحبار . حتى ظهور **إمام النحو الخليل بن أحمد البصري المعروف بالفراهيدي**(١) والمتوفي سنة ١٧٤ هـ وعنى بهذا الأمر وكان أوسع الناس علماً باللغة العربية ، فتناول نقط أبي الأسود فحور فيها وعدل صورها ، وأدخل تحسينات كثيرة عليها ، حيث أبدل نقط الشكل التي وضعها أبو الأسود بثماني علامات (الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة والمدة والصلة والهمزة) . قال الامام الداني في كتابه المحكم في نقط المصاحف قال أبو الحسن بن كيسان : الشكل في الكتب من عمل الخليل بن أحمد وهو مأخوذ من صور الحروف فالضمة واو صغيرة فوق الحرف لئلا تلتبس بالواو المكتوبة والكسرة تحت الحرف والفتحة ألف مبطوطة فوق الحرف والشدة رأس شين (س) والسكون رأس خاء دائرة (ه) لأن السكون علامة الخفة والهمزة رأس عين (ء) وكلها حروف صغيرة أو أبعاض حروف بينها وبين مدلولاتها مناسبة ظاهرة . وبهذا العمل الجليل يمكن القول بأن مشكلة الاعراب قد حلت وصار القاريء في المصحف الشريف في مأمن من الوقوع في الخطأ في الأداء القرآني . لكن مازالت أمام القاريء صعوبات وهي التمييز بين الحروف المشابهة في الخط والشكل لكنها مختلفة في النطق كنقط الباء والتاء والثاء والجيم والخاء والدال والزال .. إلخ . أي تنقيط الحروف وهو المسمى بنقط الاعجام .

وبهذه الطريقة أمكن أن يجمع الكاتب بين الكتابة والاعجام والشكل بلون واحد . واستعمل الخليل بن أحمد الفراهيدي هذه الطريقة في كتب اللغة والأدب دون القرآن حرصاً على كرامة أبي الأسود واتباعه واتقاء لتهمة البدعة في الدين . إلا أنه بهذه الواسطة تمكن العرب من المحافظة على لغتهم العربية من لحن الأعاجم بالاضافة إلى أن التشكيل يعطي للنمط العربي إضافة جمالية بجانب الانضباط في القراءة . وقد رغب العرب بعد ذلك في الشكل بعد ما كانوا يكرهون إضافة أي شيء على خطهم العربي .

وعلى هذا النحو يمكن القول بأن ترتيب الحروف العربية قبل الاسلام كان يتبع النظام التالي :

أ ب ج د هـ و ز ح ط ى ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت ث خ ذ ض ظ غ .

---

(١) ولد في البصرة عام ١٠٠ هـ وتعلم الحديث والنحو والقراءات عن ائمة العرب الفراهيدي من كبار علماء اللغة وكان على معرفة بالحساب والموسيقى وقد ساعده المامه بالنغم على استنباط علم العروض لما بين الايقاع في الأنغام وتقطيع الأجزاء من شبه فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر ، حتى أصبحت أبحر الشعر اليوم تعرف بأوزان الخليل ومن مؤلفاته كتاب « العين » ووافته المنية عام ١٧٤ هـ دون اتمامه ، وله كتاب « النغم » وكتاب « العروض » وكتاب الشواهد وكتاب النقط والشكل وكتاب الايقاع .

ثم رتبت الحروف ترتيبها الحالي وفقاً لتنقيطها عند أهل المشرق كما رتبها أهل المغرب كما يلي :

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و لا ى .

وكما اختلفت المشارقة والمغاربة في ترتيب الحروف اختلفوا في تنقيط الفاء والكاف فأهل المشرق العرب ينقطون الفاء بنقطة واحدة من أعلاها ، بينما ينقطها أهل المغرب العربي بواحدة من أسفلها أما القاف فأهل المشرق نقطوها من أعلى باثنتين وأهل المغرب من أعلاها بواحدة .

وقد قال سعيد بن حميد من سلك طريقاً بلا اعلام ضل ، ومن قرأ خطاً بلا أعجام زل[1]. والحق أن كتابة القرآن الكريم بخط عربي وتلاوته في المصاحف والتعبد بذلك أدى إلى اعزاز شأن الخط العربي واجلاله ، ذلك أنه صار يرتبط في أذهان المسلمين بالقرآن والتلاوة والتعبد ومن ثم لم يقف اعجاب المسلمين بالخط عند حد ما فيه من قيمة جمالية ، بل صار يتصل أيضاً بالعاطفة الدينية وهكذا صار المسلمون ينظرون إلى الخط نظرة إكبار وتقدير ويتذوقونه بمتعة روحية يصعب وصفها .

ومن أسباب العناية بالخط العربي أنه كان الوسيلة الأساسية للعلم والتعليم عند المسلمين وأشاد الاسلام بالعلم ، وحث على إنمائه ونشره ، وقرن الله سبحانه وتعالى بين العلم والكتابة ونسبهما إلى نفسه في أول الآيات نزولاً على النبي ﷺ حين قال : ﴿ اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾ ، كما أقسم عز وجل بالقلم والكتابة في قوله : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ ووصف سبحانه ملائكته بالكتابة فقال ﴿ كراماً كاتبين ﴾ وضرب النبي للمسلمين المثل في العناية بالكتابة حين أمر باطلاق سراح الأسير إذا علم الكتابة لعشرة من صبيان المسلمين .

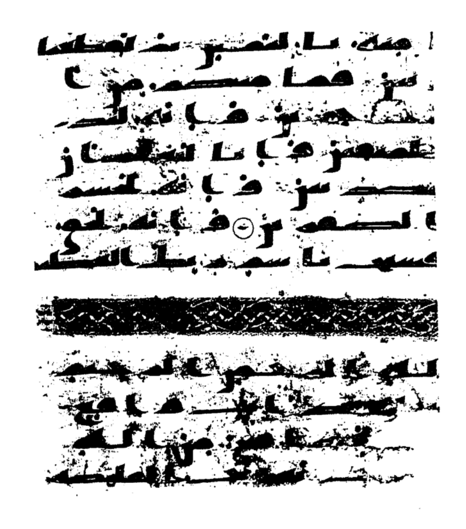
ومن ثم أخذ المسلمون يكتبون نسخاً أخرى للمصحف محققة بأمانة تامة . وكتبوا تلك النسخ المنقولة بأنواع الخطوط التي كانت دارجة وقتئذ في مكة والمدينة ، واستعملوا بعد ذلك الخط الكوفي ومعظم الخطوط الفنية التي تطورت عند المسلمين .

وأخذ الخط العربي يتطور ونشأت له أنواع معروفة في المراكز الرئيسية للدولة الاسلامية وخاصة في مكة والمدينة والحيرة والكوفة والبصرة . ومنذ أول عهده كان تطوره يتبع اتجاهين يمكن وصفهما بصورة عامة « بالمقور والمدور » من جهة « و بالمبسوط والمستقيم » من جهة أخرى . فالخطوط المعروفة بالمائل والمشق وجميع أنواع

---

(١) سهيلة الجبوري · الخط العربي وتطوره ص ٦١ .

الكوفي تعتبر خطوطاً من النوع الأخير أي « المقور والمدور » جميع الخطوط التي في حروفها تدوير واضح . وتذكر بعض المراجع العربية أسماء كثيرة للخطوط المقورة ولكن تعدد هذه الأسماء لا يدل بالفعل على كثرة الأنواع المصنفة والأرجح أن هذه الأسماء تنطبق على عدد من الخطوط المتماثلة التي تتشابه معظم مزاياها . ومع ان بعض الخطوط المقورة تطورت خلال العهد الأموي الذي دام الى سنة ١٣٣/٧٥٠ م فإن معظمها لم يصل إلى درجة الكمال إلا خلال العهد العباسي الذي امتد من سنة ١٣٣ هـ/١٢٥٨ م . ورغم أن جميع كبار الخطاطين من المسلمين يعتبرون سيدنا على بن ابي طالب رضي الله عنه أول من طبق فن الكتابة الجميلة بشكل منهجي ويعترفون بفضله في ذلك .



ورقة من مصحف منقوط بطريقة أبي الأسوَد الدؤَلي (نقلاً عن مجموعة موريتز)

نموذج من كوفي الحجاز (مكة) في القرن الثالث الهجري

حفـني ناصف ورسم المصحف المعاصر

لعلك لا تعرف أيها القاريء الكريم أن قُرَّاء القرآن الكريم في أي مكان على وجه الأرض مدينون لحفني ناصف[1] بضبط المصحف الشريف ، ورسمه بالصورة التي هو عليها الآن ، لهذا الموضوع قصة طويلة تبتديء بكتابة عثمان بن عفان للمصحف ، وتنتهي بتجديد هذه الكتابة على يد حفني بعد أن كاد ينطمس الرسم العثماني ، وبعد أن كثرت فيه الأخطاء والتحريفات بتوالي طبعه على مر الأيام ، حتى خيف على أقدس كتاب عرفته الانسانية .

أما هذه القصة الطويلة فقد تولى حفني بلورتها في مقال ألم فيه بأطراف الموضوع ، وسرد فيه مبررات التمسك بالرسم العثماني ، ودافع عنه ما وسعه الدفاع بكل ما أوتي من حجة واقناع وهذا المقال نشرته مجلة المقتطف في عدد يولية سنة ١٩٣٣ أي بعد وفاة حفني ناصف بنحو أربعة عشر عاماً . وقد قدمت المجلة هذا المقال بما نصه :

« كانت وزارة المعارف قد عهدت الى المغفور له حفني بك ناصف بتصحيح الأغلاط الاملائية التي وقعت في رسم المصحف بتكرار طبعه ، فقام بمراجعة المصحف ، وابتدع قواعد خاصة بالاملاء الذي كتب به في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وقد صحح وفقاً لهذه القواعد نحو مائتي غلطة املائية ، وطبع المصحف الجديد ، فجاء خالياً من الخطأ ، وقد وضع حفني بك كتاباً في قواعد رسم المصحف ، لكنه لم يطبع بعد ، وكتب له مقدمة شائقة ننشرها فيما يلي » .

وكم كان بودنا أن نسجل هذا المقال بنصه ، غير أن ضرورة الايجاز تضطرنا الى تلخيصه :

---

(١) (حفني ناصف) ١٨٥٥ - ١٩١٩ شخص متعدد الجوانب مختلف المواهب درس في الأزهر عشر سنوات فقه الشافعية والنحو والصرف وعلوم البيان والبلاغة والبديع والعروض والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث ، كما تعلم باجتهاده الكيمياء والفلك وكان يجيد الألعاب الرياضية والسباحة والغطس وكان خبيراً في أمور الموسيقى والتلحين ، ومن أوائل المنادين بإحياء التراث القديم والى تحرير الكتابة العربية من المحسنات البديعية . واشتغل بالقضاء والمحاكم وكان فناناً من رأسه الى قدمه ، كتب في العلوم التجارية والطبوغرافيا والطب والجراحة ، وعندما تقرأ له ، لا تشعر معه أنه غريب عما يتناوله من فنون ، ومن أهم أعماله المجيدة رسم المصحف ، وقد اختار حفني ناصف لمساعدته في هذا العمل الشيخين أحمد الاسكندراني ومصطفى العناني وكلاهما كان خطاطاً مجيداً .

١ بدأ حفني مقاله بما ورد في حديث عائشة وفاطمة رضي الله عنهما من أن جبريل كان يعارض النبي(١) ﷺ القرآن في كل سنة في شهر رمضان مرة واحدة ، وفي السنة الأخيرة من حياته عارضه مرتين ، فأحس بدنو أجله وبأن القرآن بعد العرضة الأخيرة كتبه زيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو الدرداء ومعاذ وغيرهم من كبار الصحابة ، فلما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ألحق الكاتبون منازل أخيراً بما عندهم .

٢ - لما ولي أبو بكر الخلافة قام بحرب المرتدين ومانعي الزكاة ، فاستحر القتل في القراء ، حتى خيف على القرآن الضياع فكلف أبو بكر الصديق زيد بن ثابت جمع القرآن من صدور الرجال ، ومن الأضلاع والرقاع والعسب ، حتى تم له جمعه وكتابته من جديد ، كتابة فيها اشارات الى أوجه القراءة التي أذن بها الرسول ، وأقرأ بها وفود القبائل : من فك وادغام وامالة وتفخيم واشمام ومد وقصر وتغليظ وترقيق : طبقاً للحديث الشريف : « ان هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » قيل : انها لغات قريش وكنانة وأسد وهذيل وبني تميم وضبة وقيس ، وهم الذين انتهت اليهم الفصاحة ، وسلمت لغاتهم من الدخل وبذلك تم جمع القرآن كله على هذا الوجه في مصحف واحد ظل وديعة عند أبي بكر ، حتى مات ، فانتقل الى عمر ، ثم أودع عند حفصة ابنته بعد وفاته .

٣ - في عهد عثمان تفشى الاختلاف في قراءة القرآن ، حتى كان بعضهم يقول للآخر : « قراءتي خير من قراءتك » فيجيبه الآخر بمثل ذلك ، ولما نما هذا الى عثمان وجد أن الأمر بلغ حداً لا يحسن السكوت عليه ، فبعث من فوره الى حفصة في طلب مالديها من الصحف ، ثم عهد بها من جديد الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن هشام وطلب اليهم استنساخ أربع نسخ من المصحف ، فأرسل واحداً الى الكوفة ، والثاني الى البصرة ، والثالث الى الشام ، وأمسك الرابع عنده ، ثم كتب بعد ذلك نقلاً عن النسخة التي لديه نسخا أخرى بعث بها الى مكة والمدينة واليمن والبحرين . وأمر عثمان باحراق ماعدا ذلك من الصحف القديمة اكتفاء بما استنسخه من المصاحف ويظهر أن مصاحف عثمان كانت خالية من الاشارات الدالة على القراءات كما يظهر أن بين بعضها البعض شيئاً من الاختلاف باختلاف لغات الأقاليم ، غير أن هذا الاختلاف لا يمس الجوهر ، وانما يتصل بما سمح به من تعدد القراءات ، على أن عثمان لم يكتف بارسال المصاحف الى الأقاليم ، بل كان يشفع كل مصحف بقارىء

(١) تعارضه أن يقرأ واحد ويقابل عليه الآخر

٤ - كانت مصاحف عثمان خالية من النقط والشكل ، وأول من وضع الشكل أبو الأسود الدؤلي ، وأول من وضع النقط عاصم الليثي بأمر من الحجاج الثقفي ، ثم أحدث الخليل بن أحمد الفراهيدي تعديلاً في شكل الشكل يزيده وضوحا .

٥ - استطرد حفني من سرد هذه الأدوار الى أن المحافظة على الرسم العثماني أمر واجب اتباعه صيانة للقرآن الكريم من العبث واحتج برأي مالك في ذلك حينما سئل : هل يجوز كتابة المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : « الا الكتبة الأولى » ثم أورد بعد ذلك مايفيد أن سائر الأئمة يتفقون مع مالك في الرأي وعرض لمن خالفوا هذا الرأي ، فسفه رأي بن خلدون في جواز كتابة المصحف بالاملاء الحديث ، كما سفه رأي فريق من علماء الأزهر يذهبون مذهب ابن خلدون ، وختم مقاله بقوله : « ولا يبعد اذا سلم كلام هؤلاء العلماء أن يذهب

غيرهم الى استحسان كتب المصحف بالحروف اللاتينية ، وآخرون الى اختصاره ، وآخرون الى ارجاعه الى اللغة العامية ليعم نفعه ، الى غير ذلك من الآراء « فماذا بعد الحق الا الضلال » .

الى هنا ينتهي موجز مقال حفنى الذي أشارت المقتطف الى أنه مقدمة كتاب وضعه في هذا الصدد . ومن ذلك يفهم أن الأمر لم يكن من السهولة بمكان ، وما ظنك بهذه القواعد : قواعد الرسم العثماني التي يقتضي استنباطها تأليف كتاب قائم بذاته ؟ ولقد استغرق هذا العمل من حفنى زهاء سبع سنوات . واذا عرفنا هذا كله لا نكون مبالغين اذا قلنا : أن هذا العمل من جانب حفنى ناصف يعد أهم الأعمال في حياته .

على أن لنا تعقيبات على ما ورد في مقال حفنى ناصف وما ضمنه أياه من آرائه في هذا الموضوع ، فهو يرى أن كتابة المصحف بالاملاء الحديث تجر الى الدعوة الى كتابته بالحروف اللاتينية أو الى اختصاره . أو الى ارجاعه الى اللغة العامية ، ونحن نقول له : ان هذا قياس مع الفارق . فاختصار القرآن مسخ وتشويه ونطقه بالعامية أبلغ في باب المسخ والتشويه ، وكلاهما يتعلق بجوهر القرآن . أما كتابة المصحف بالاملاء الحديث فانما تتعلق بالشكل لا بالجوهر : أعنى أنها لا تحدث تغييراً في سلامة القراءة بل ربما كانت أدعى الى هذه السلامة . ان قداسة القرآن تنصب على كلامه لا على رسم حروفه ، فالأول من صنع الله ، والثاني من صنع البشر ، واذا صح ذلك فما أخال رسم القرآن بالحروف اللاتينية يجد من المنصفين كبير حرج ، بل لهم أن يقولوا بوجوبه لا بجوازه فقط اذا لاحظنا أن القرآن أس الاسلام ، وان الاسلام دين البرية كلها ، لا دين العرب وحدهم . وما دمنا مكلفين أن نبث الدعوة الاسلامية في مختلف الأمم فعلينا أن نكتب لهم ما ندعو اليه

بالخط الذي يستطيعون قراءته به ، أما تكليف العالم أجمع أن تعلم الحروف العربية فهو تكليف بالمحال .

وأرى هذا الحديث يجرنا من حيث نريد أو لا نريد الى الحديث عن ترجمة معانى القرآن . فان ما قلناه عن كتابته بالحروف اللاتينية ينطبق على ترجمة معانيه الى غير العربية ، ولست أدري لم يجوز لنا تفسير القرآن ولا تجوز لنا ترجمة معانيه ؟ ان التفسير استبدال كلام بآخر يؤدى معناه ، والترجمة الجيدة لمعانيه عن طريق المتخصصين لا تخرج عن ذلك ، وكلاهما فيه نقل العبارة الربانية الى العبارة الانسانية .

وعلى أي حال فمجال القول في هذا الموضوع ذو سعة ، وهو موضع خلاف مستحر بين طوائف العلماء أنفسهم ، وسواء رضينا أو أبينا فإن القرآن ، أو سوراً منه على الأقل تكتب بالحروف اللاتينية ، وتترجم الى غير العربية ، أفما كان الأجدر بنا أن يكون ذلك تحت أشراف كبار علماء وفقهاء المسلمين بدل أن يتولاه من لا يوثق به ، يؤتمن عليه ؟ أخشى أن نكون بالنسبة لهذا الموضوع كالنعامة التي تغمض عينها عن الخطر عندما تراه .

وفي المقال نقطة تستدعى أن نقف عندها قليلاً ، ونعني بها ماورد فيه من أن المصحف العثماني الأصيل كان خالياً من الشكل والاعجام الى أن جاء أبو الأسود الدؤلي وغيره ، فتلافوا هذا النقص ، وقد كان ذلك كله قبل عهد الأئمة الأربعة ، فجدير بنا أن نتساءل عن رأي هؤلاء الأئمة ، وعلى رأسهم مالك صاحب « الكتبة الأولى » في هذا العمل ، فان حظروه فلماذا لم يستنكروه ؟ وان أباحوه فلماذا يباح لغيرنا مالا يباح لنا ؟ .

ونظراً لأهمية الموضوع رجعنا الى ابن خلدون ، لنتعرف رأيه الذي أشار اليه حفني في مقاله اشارة خاطفة ، فوجدناه يقول : « كان الخط العربي لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية في الاحكام والاتقان والاجادة ، ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش ، وبعدهم عن الصنائع . وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير محكمة في الاجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف رسومهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ ، وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحيه من كتاب الله تعالى كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً ، ويقع رسمه خطأ أو صوابا ، وأين نسبة ذلك من الصحابة رضوان الله عليهم فيما كتبوه ؟ فاتبع ذلك ، وأثبت رسماً ، ونبه علماء الرسم الى مواضعه ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل ، بل لكلها وجه .. الخ » .

على أن ابن خلدون قد أسهب في هذا الموضوع ، وقد أشار - في تهكم - الى تلك العلل التي يعللون بها مخالفة الرسم العثماني لأصول الرسم : من أمثال قولهم : ان زيادة « لا » في « لا أذبحنه » اشاره الى أن الذبح لم يحدث ، وقولهم : ان زيادة الياء في « والسماء بنيناها بأييد » للدلالة على كمال القدرة الربانية .

ومن عجيب ما اطلعت عليه في تلك التعليلات قول بعضهم ان هذه المخالفة تعجز أهل الكتاب عن قراءة القرآن على وجهه الصحيح ونحن نقول : ان هذا الكلام واضح البطلان لسببين (الأول) أن القرآن نفسه يخاطب أهل الكتاب في غير موطن « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم .. الخ » فكيف يخاطبهم بكلام لا يتمكنون من قراءته عند كتابته ؟ (والثاني) أن هذه المخالفة لا تعجز أهل الكتاب وحدهم عن قراءة القرآن ، بل تعجز أوسع المسلمين ثقافة عن قراءته مالم يكن وراءه مقريء كالشيخ محمود الحصري يهديه الى الصواب ، وكيف يستطيع غير رجال الدين من الأطباء والمهندسين أن يقرءوا القرآن قراءة سليمة وفيه مثل هذا الخلاف ؟ .

الكلمة بالرسم العثماني	الكلمة بالرسم الحديث
يبدؤا	يبدأ
يصلح	ياصالح
لشايء	لشيء
الئن	الآن
أنبؤا	أنباء
العلمؤا	العلماء

وبعد ، فنحن نحب عثمان ، ولكن الحق أحب الينا من عثمان ، فليسمح لنا حفني أن نخالفه في هذا الرأي ، وليس معنى هذا أننا ننقص من قيمة عمله ، وما بذله فيه من مجهود جبار ، وحسبه أنه كلف عملاً ، فأتمه على خير وجه .

ولقد استغرق هذا العمل من حفني زهاء سبع سنوات ، وكان ختام أعماله المجيدة في خدمة الاسلام واللغة ، وتشاء العناية السماوية أن يصحح آخر « بروفة » لرسم المصحف وهو على فراش الموت ، قبل أن يلفظ نفسه الأخير بساعات : أعني قبل يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩١٩ ، وهو تاريخ انتقاله الى العالم العلوي ، رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) راجع : د. محمود غنيم / حفنى ناصف - العدد ٤٧ أعلام العرب ١٩٦٥

أثر الحرف الهجائي العربي في وحدة الكلمة ووظيفة الكتابة

شرفت حروف الهجاء العربي بتدوين القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين وهي تلك الحروف الجميلة ، التي تباري في تجويدها وتحسينها المسلمون على مر العصور والقرون حتى بلغ من الروعة والجمال ، مبلغاً جعل غير الناطقين بالعربية يقيمون له المعارض والمتاحف إحساساً منهم بجماله . وشعروا بروعته حتى وإن لم يفقهوا ما في هذه الخطوط واللوحات من معان سامية : إننا إن سطرنا الحروف ن ، ص ، ق ، .. فانما نكتب كتابة قرآنية بحرف عربي زاد شرفاً على شرف ، وعزاً على عز كلما نسخ مصحف شريف وكلما طبع قرآن كريم لهذا تبنت الأمم الاسلامية مثل السعودية ومصر والعراق والأردن ودول الخليج ودول المشرق العربي والمغرب العربي حروف الهجاء العربي واتخذت منها لغة رسمية فزاع وأنتشر ، وكتبت دول كثيرة لغاتها به تبركاً وتقرباً من لغة القرآن الكريم حتى انتشر من الصين إلى الأطلسي ، ومن أصقاع سيبريا إلى أواسط أفريقيا . لقد كتبت بحروف الهجاء العربي لغات الشعوب التركية ، كما كتبت بها لغات الشعوب الفارسية وكتبت بها اللغات الأوردية والماليزية والأندونيسية والتاميليه والعديد من لغات الهند والعديد من اللغات الافريقية كالسواحيلية والهوسا واليوربا وغيرها ، بل كتب المسلمون في يوغسلافيا لغتهم البوسنية بحروف الهجاء العربية كما كتبت الأسبانية بالحروف العربية أيضا وسميت « الخميادو » . وتوجد كتابات بولندية وصينية بالحروف العربية .



خريطة انتشار الخط العربي

لقد ارتبط ازدهار حروف الهجاء العربية بالقرآن الكريم – وكلما ازداد المسلمون عزاً سمت حروف الهجاء العربية إلى عنان السماء وكأن هذه الحروف هي طلائع المسلمين لتعريب الأمم بعد دخولها الاسلام .

وجاءت عصور ترك فيها المسلمين دينهم ، فتفرقت بهم السبل وتمزقت وحدتهم وطمع فيهم عدوهم وفقدت الشخصية الاسلامية هيبتها ، وقلد المسلمون كل وارد عليهم من مباديء وثقافات . واهتموا بلغات الآخرين أكثر من اهتمامهم بلغتهم وأصبحوا تابعين مقلدين بعد أن كانوا سادة وموجهين . وتعثرت حروف الهجاء العربي لغة القرآن مع تعثر علوم المسلمين وفنونهم . ووجد العدو الفرصة سانحة تمزيق أمة الاسلام .. أمة الضاد ، وعلم أن أنكى ما يحارب به المسلمون هو لغتهم وبالتالي الحروف العربية أداة هذه اللغة ، لقد دخلوا علينا بالنصح كي تتطور ، فأشاروا باستعمال الحروف اللاتينية كي نلحق بركب التحضر والمتحضرين وأفهمونا أن سبب التخلف هو اللغة العربية بحروفها الصعبة ، وانخدع كثيرون بهذه الدعوى الخبيثة ، فتركوا لغتهم ليسيروا في الركب الموعود ولحقوا بعدوهم مقلدين ، فكتبوا بالحروف اللاتينية قاطعين علاقتهم بتراثهم الطويل ، وتساقطت الدول الاسلامية دولة بعد دولة فإذا بأندونيسيا وماليزيا وتركيا تكتب بالحروف اللاتينية – أما الدول الافريقية المقهورة فقد فرض عليها لغة المستعمر لأرضها وفرضت الحروف الروسية « سيريلك » في أواسط آسيا على أحفاد البخاري والخوارزمي والبيروني وسيبويه .

وهكذا نجح أعداء الاسلام في تغريب الملايين من المسلمين عن كتابهم الكريم وذلك فقط بتغيير ثمانية وعشرين حرفاً هجائياً .

أما الدول التي تقبل بتغيير حروف هجائها العربية وتمسكت بها فقد دس عليها العدو طرقاً أخرى للتغريب عن عربية القرآن ، وذلك بابتكار وسائل توصف بأنها حديثة لتعليم هذه اللغة العربية الصعبة التي تربطهم بقرآنهم ، ولتبعدهم عن طرقهم التقليدية التي أثبتت جدواها وفاعليتها وحافظت على فصاحتهم وصانت لسانهم آلاف السنين[1] .

لقد فشلت أغلب هذه الأساليب المستوردة والموصوفة بالحداثة في انجاب أعلام كالأعلام الذين خرجتهم مدرسة القرآن عبر القرون ، ونحن لا نكاد نذكر اسماً من أسماء

---

(١) سهيلة الجبورى : الخط العربي وتطوره ص ٦١ .

هؤلاء الأعلام من مفكرين وأدباء وفلاسفة ومؤرخين وعلماء ومفسرين ومحققين إلا ونجد أن حفظ القرآن الكريم في بدء تعليمهم كان أساساً وتمهيداً لابراز نضجهم ، كنا نجد الأطفال يحفظون كتاب الله العزيز كاملاً بتجويده وهم دون العاشرة على أكثر تقدير ، بينما نجد أن أطفال الأساليب الحديثة والمعاصرة في المدارس يجدون العنت في المطالعة والقراءة والكتابة ويبلغ الواحد منهم بدايات الجامعة وهو يتعثر لا يكاد أن يتقن قراءة أسطر معدودة . هذا مسخ وتشوية للغة العربية وكأنها لغة صعب زوالها رغم أن أصحاب هذه الأساليب المستوردة يعرفون ما للحرف الهجائي العربي من مميزات أساسية نوجزها فيما يلي :

١ – **الايجاز الشديد** : وذلك لقابليته للاتصال بعضه ببعض سواء أكان مكتوباً أو مطبوعاً والحرف العربي بطبيعته اختزالي .

٢ – **تنوع الأشكال للحرف الواحد** : ليس أدل على ماتحمله أشكال الحروف العربية من بذور الخصب والابتكار والتنوع من أن هذه الحروف كتبت بآلاف الهيئات ، بل أن حرف الهاء وحده ورد له مئات الأشكال المختلفة – كما أن لأشكال الحروف العربية حيوية بفضل ما فيها من الموافقة والمرونة والمطاوعة مما هيىء لها فرص التطور والزخرفة بطرق وأساليب شتى .

٣ – **قابلية الحرف للاستمداد والتمطيط** : تمتاز الحروف العربية بالطواعية والمرونة الدائمة بالاضافة إلى ما فيها من اختلاف في الوصل والفصل .

٤ – **جمال ورشاقة حروف الهجاء العربي وتباين أشكاله وتعددها** : مما يساعد الفنان الخطاط على اختيار شكل الحرف الذي يناسبه عند الكتابة حسب المقام . ويمكن للقاريء الكريم أن يلاحظ بنفسه مدى ايجاز الحرف العربي الشديد من الجملة المكتوبة بالحرف العربي وما يقابلها بالحرف اللاتيني وبالبنط نفسه : « وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

Wa sala allah-u aid sayedina muhammaden wa aia alhi wasahbihi wa sallam.

هنا نستطيع أن نتبين ايجاز الحرف العربي كتابة وطباعة وهو غير إيجاز اللغة بلاغة وغير ايجاز الشكل والاعراب ، والعربية معروفة ببلاغتها في الايجاز ، روى المستشرق رتير H. Ritter أستاذ اللغات الشرقية في جامعة استانبول وهو من المخضرمين الذين حاضروا قبل وبعد الحركة الكمالية ، فقال : « أن الطلبة قبل الانقلاب كانوا يكتبون ما أتلو عليهم من محاضرات بسرعة فائقة لأن الحرف العربي اختزالي بطبعه ، أما اليوم فهم لا يفتأون

يطلبون اعادة العبارات مراراً وهم معذورون فيما يطلبون ، لأن الكتابة اللاتينية لا اختزال فيها ثم أضاف قائلاً : ان الكتابة العربية أسهل كتابات العالم وأوضحها ، فمن العبث اجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل وتوضيح الواضح .

أما قابلية الحرف العربي للتمديد والاستطالة فللحرف العربي من خصائص المطاطية ما يناسب كل مقام ويتفق مع كل مسافة ومساحة بحيث يمكن التحكم في كتابته حسب الأحوال وهو في هذا يختلف عن حروف أخرى جامدة وكأنها قدت من خشب تكتب كاملة سواء اتصلت أو انفصلت لا يتغير شكلها يتغير موقعها .

وأما تنوع أشكاله فهي ميزة تفوق فيها على غيره فلكل صورة من صور الحرف موقع واستعمال تدعو اليه الحاجة اختزالية كانت أم جمالية عند الكتابة . وبهذا نجد أن ما اعتبره الآخرون نقيصة هو في الحقيقة ميزة . وتميزت الحروف العربية على غيرها من الحروف الهجائية بأن هناك حروفاً متشابهة الرسم بحيث يمكن اختزال صور هذه الرموز إلى تسعة عشر حرفاً أو رمزاً فقط بدلاً من ثمانية وعشرين حرفاً ، بما معناه اذا علمت الطفل صورة الياء فانه يمكنه أن يكتب التاء والثاء بهذا الرمز الواحد نفسه بتغيير طفيف في عدد ومواقع النقاط وهذا يتكرر عدة مرات في الأبجدية مما يجعل عدد الرموز أساسياً هي كل الأدوات التي يتعين عليه أن يتعلمها ليكتب ويقرأ هذه اللغة الفصيحة ، وتتفتح له أبواب كنوزها وتراثها العريض – تسعة عشراً رمزاً لأفصح لغات العالم لغة الضاد .. لغة القرآن الكريم .

فهل هناك أيسر من ذلك ؟؟ إن الحرف العربي هو حرف يقترب من الطبيعة في انسانيته ورشاقة حروفه وفي تكويناته اللانهائية وفي ليونته وطواعيته للكتابة الجميلة ، ليس فقط للكتابة الموجزة بل والفائقة الجمال أيضاً .

ان الراحة النفسية التي يجدها المتأمل للوحة خطية بحروف اللغة العربية تشبه الراحة التي يشعر بها الانسان عندما يتأمل الطبيعة الجميلة من حوله . والنماذج والأشكال القليلة تبين بوضوح مدى طواعية واختزال وجمال هذه الحروف . والخط العربي ضرب من ضروب الفنون التشكيلية التي لها دور مهم في بلورة الانفعالات والارتقاء بالرؤية الجمالية ، وغاية الفن تهذيب النفس والارتقاء السامي بغرائز الانسان وتنمية المعرفة الحسية وربط النشيء والشباب بأصول الحضارة وعراقتها ، وبما خلفه الانسان من تراث فني ، وهو انطباعي قبل أن يكون تعبيري ، وتأليف موسيقي منغم بايقاعات قبل أن يكون عملاً وصفياً . وهذا الفن يستطيع أن يعبر عن أرفع وأعمق مايهز قلب الانسان ويزيد ارهاصات أحاسيسه ويرتقي بشعوره وفيض تأملاته .

الخط العربي في بداية العصر الاسلامي – من مشهد قبر من سنة ٣١ هـ

ثلاثة نماذج من الخط العربي للبسملة من القرنين الثاني والثالث الهجري



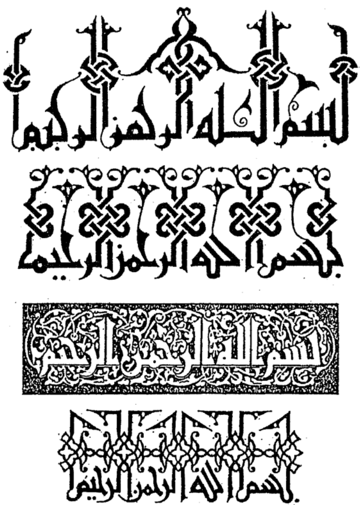
نموذج بسملة من أحد النقوش في العصر العباسي مؤرخ ٣ ي هـ

نموذج للبسملة من شاهد قبر مؤرخ ٢٤٣ هـ ٨٥٧ م

نموذج بسملة من نقش على الرخام من عصر المتوكل مؤرخ ٢٤٦ هـ

بعض نماذج البسملة كما كتبت في القرون الثلاثة الهجرية الأولى . وهي على قلتها إلا أنها تظهر مدى رشاقة وليونة وطواعية وجمال الحروف العربية .

ولاشك أن الفنان الخطاط يحاول دوماً بلوغ الموضوعية عن طريق ابراز ذاتيته فيما يكتب ويخط . ولكتابة الحروف العربية ميزات جمالية تتجلى فيها عبقرية الفنان الكاتب كلما كانت يده تلك اليد القوية الطيعة المرنة . القوية بأعصابها الطيعة في اتجاهاتها ، المرنة في بداياتها ونهاياتها . كما أن لتلك الحروف قابلية ابتكارية تنبع من داخل الفنان وتكسب الكتابة الحياة وتمنحها الجمال والبهجة . أضف إلى كل ذلك أن لتلك الحروف حرية شديدة ناشئة عن مطاوعتها واستدارتها وانبثاقها جميعاً عن أصل هندسي واحد وثابت ، وقواعد حسابية ورياضية معروفة فأصل الحروف العربية « الألف » التي هي خط مستقيم جعلوه قطر الدائرة أما بقية الحروف فهي أجزاء من الدائرة المحيطة بهذا القطر منسوبة إليه ، لو أعيدت الحروف إلى التسطيح والاعتدال وأزيلت تقوساتها وانحناءاتها لكانت كلها من الألف بنسبة معينة ثابتة . ولكل حرف من الحروف العربية هندسته الخاصة



كتابة بسملة بخط كوفي مشغول بالزخرف الهندسي من الطراز المملوكي الجركسي في مصر

لكل حرف هندسة خاصة ، ونسب فاضلة وقواعد أصيلة ، بحيث تترابط الحروف في تكوينات مختلفة ، يرجع ذلك إلى درجة التجويد .

عرفت بالنسبة الفاضلة أو بقاعدة أفضل النسب . والتي ذكرت بموسوعة اخوان الصفا وخلان الوفا خلال القرن الخامس الهجري بالبصرة .

وللخط العربي شأن كبير في الزخرفة الاسلامية ، وهو أبرز عناصر الفنون الاسلامية على وجه الاطلاق ، فالخط العربي هو الدليل الناطق للغة العربية ، لغة القرآن الكريم وقد بلغت العناية والاهتمام به على يد الفنان المسلم درجة عالية من الرقي الجمالي مما أعطاه أبعاداً لا نهائية من الابداع الفني . يرجع ذلك إلى التنافس على تجويده وتحسينه مما أعطاه صورة ألبسته حللاً زانته بهجة وجمالاً ، وارتقى وتغير شكله ، لذا أصبح فناً من الفنون الاسلامية بالاضافة إلى كونه مظهراً قومياً وتراثاً حضارياً ، كما يعد من أسمى وأرفع الفنون ، وما ظاهرة استخدام الخط العربي في التكوينات التشكيلية والزخرفة المستوحاة من تراثنا القديم المسجل في العمارة الاسلامية ، بالمساجد والجوامع والقصور والمدارس وغيرها إلا تأكيد على أصالة هذا التراث الحضاري وايجابيته الدائمة في ارساء المبادىء والعطاء لنهضتنا الفنية ، للربط بين ماضينا وحاضرنا وتطلعنا نحو مستقبل زاهر أفضل .

كيف يتصدر الخط العربي بجمالياته قمة الفنون الاسلامية :

تعتبر الفنون الاسلامية من أعظم الفنون التي انتجتها الحضارات الكبرى – نشأت شأنها شأن كثير من مظاهر الحضارة الاسلامية – على أساس قويم من العروبة والاسلام وتطورت على يد الشعوب التي اعتنقت الاسلام ، وظلت رغم تطورها وتنوعها محتفظة بالروح العربية الاسلامية حيث كان الاسلام صاحب الفضل الأول في أصالتها ووحدتها . وأول فن عند المسلمين ، العمارة الدينية أو المسجد الذي يعتبر أهم معالم الفنون وتعمير المسجد من أفضل القربات إلى الله حيث يقول سبحانه وتعالى :

﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى إلا الله . فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ (سورة التوبة الآية ١٣) .

ويقول المصطفى ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة » .

ولم تقتصر وظيفة المسجد على الصلاة وإنما كان مركزاً للحكم والادارة والدعوة والشورى ومحلاً للقضاء والافتاء وللعلم والإعلام وغير ذلك من أمور الدين والدولة . ومن ثم علت منزلة المسجد عند المسلمين .

وفي مباني المساجد تطورت اساليب التخطيط المعماري والتصميم الهندسي بالإضافة إلى

العناصر المعمارية التي انتقلت إلى سائر أنواع المباني الاسلامية من قصور ومدارس وقلاع وغير ذلك ، فضلاً عن الأساليب الزخرفية من هندسية وكتابية وبنائية .

ولأسباب عناية المسلمين بالمساجد والرغبة في تجميلها ازدهرت الفنون الزخرفية والتطبيقية الاسلامية . اذ تطورت فنون المعادن المتمثلة في الثريات والشماعد والأباريق والأبواب والشبابيك ، وتطورت الصناعات الخشبية المتمثلة في المنابر والكراسي وتغطية الجدران والحوائط . وتطورت فنون الزجاج للعناية بمصابيح الاضاءة والمشكاوات وزجاج النوافذ ، وارتقت فنون السجاد بفضل الاهتمام بفرش أرضية المساجد .

وإلى جانب المسجد كان فن كتابة المصاحف ، وقد بدأت العناية الشكلية بالمصحف الشريف بعد نسخ المصاحف المحققة والمعتمدة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه . وكانت هذه العناية من أهم الأسباب التي أدت إلى ازدهار عدد من الفنون الاسلامية من جهة ، وتطوير انماط من الزخارف الاسلامية من جهة أخرى .

ومن الفنون التي تقدمت وازدهرت بفضل الحرص على صيانة المصاحف هي تجليد هذه المصاحف بالجلد ، واستخدام شتى الأساليب الصناعية من ترصيع وتذهيب وتلوين وضغط وتخريم وتجميل الغلاف بأنمطة من الزخارف النباتية الهندسية البديعة ، وازدهر فنون التذهيب والتي وصلت الى درجة رفيعة من الجمال والاتقان حتى صارت نماذج يحتذيها المزخرفون في سائر الفنون الاسلامية .

غير أن أهم الفنون التي كان للمصحف الشريف فضل كبير في تجويدها هو الخط العربي .

ويعتبر الخط العربي أحد الفروع الاساسية للفنون الاسلامية وذلك بالاضافة الى المسجد والمصحف الشريف، وقد ظل في الوقت نفسه أهم العوامل المحققة لوحدة الفنون الاسلامية على اختلاف العصور والأقطار .

والخط ضرورة من ضرورات الحياة تساعد على التعلم والبحث والاستقضاء ، إنه ميزة الانسان عن غيره من الأحياء . ولكونه ضرب من ضروب الفنون التشكيلية ، والتي لها دور هام في بلورة الانفعالات والارتقاء بالرؤية الجمالية ، وغايته تهذيب الغرائز وتنمية المعرفة والرؤية الحسية وفن الخط يستطيع أن يعبر عن أرفع وأعمق ما يهز قلب الانسان . وللكتابة العربية وحروفها ميزة جمالية تتجلى في تلك العبقرية المفكرة وتلك اليد الطيعة المرنة ، والقدرة والقابلية كالإبتكار والابداع مما يمنح الحروف جمالاً وبهجة ، فللخط شأن كبير في الزخرفة بلغت العناية به على يد افنان المسلم درجات عليا أدت إلى التنافس

المحمود لتحسينه وتجويده مما أعطاه صورة ألبسته حلة زانته بهجة وجمالاً . وارتقى وتغير شكله ، لذا أصبح فن الفنون الاسلامية ومظهرها المعبر عنها .

ولاشك أن جمال الخط موهبة ترفع من أقدار الكتاب عند الناس والحكام ووسيلة إلى بلوغ أرفع المناصب كما كان في ديوان الانشاء أو الرسائل .

يقول القدامى : إذا كان الانسان وسيماً حسن الهيئة ، كان في العيون أعظم وفي النفوس أفخم ، وإذا كان على غير ذلك سئمته النفوس . وكرهته القلوب ، كذلك الخط إذا كان حسن الوصف ، مليح الرصف ، مفتح العيون ، أملس المتون ، كثير الائتلاف ، قليل الاختلاف ، هشت اليه النفوس واشتهته الأرواح ، حتى ان الانسان ليقرؤه وان كان فيه كلام دنيء ، ومعنى رديء مستذيداً منه ولو كثر من غير سآمة تلحقه ، واذا كان الخط قبيحاً مجته الأفهام ، ولفظته العيون ، وسئم قارئه وإن كان فيه من الحكمة عجائبها ، ومن الألفاظ غرائبها[1] .

لذلك فإن للخط الجميل قواعد تتخذ أساساً لتعلمه ، وأصلاً تبنى على أساسه الحروف . وقانوناً يرجع اليه كاتب الخط حتى لا يتجاوزه ولا يقصد دونه ، ويقيس على خطوطه[2] .

ومثال ذلك أن يخط الكاتب ألفاً بأي قلم شاء ويجعل سمكه الذي هو عرضه مناسباً لطوله وهو الثمن ليكون الطول مثل العرض ثماني مرات . ثم يجعل الفرجار على وسط الألف ويرسم دائرة تحيط بالألف ، هذه الطريقة توصل الكاتب إلى معرفة مقادير الحروف على النسب الفاضلة ولا يحتاج في مقاييسه ما يقصده في شيء يخرج عن الألف والدائرة التي تحيط به[3] .

وباستعراض المعايير التي توجبها القوانين في هندسة الحروف والنسبة الفاضلة لوجدنا أنها بلغت الدقة في كل قياس كل حرف مع شرح اتجاهات السير الكاتبة مع سير القلم في حالات الانكباب والاستلقاء والانسطاح والتقويس والانتصاب والاشباع والإرسال ليكتسب الحرف بذلك السمة الجمالية ويزداد حسناً واتقاناً .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٤ .
(٢) رسائل اخوان الصفا : جـ ١ ص ١٦٣ الرسالة الخامسة .
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥

وبفضل المعايير الموضوعة لهندسة الحروف زاد الاهتمام بتحسين وتجويد الخط والتفنن فيه ، واستطاع الفنان العربي أن يوجد من الحروف الهجائية العربية عنصراً هاماً من عناصر الزخرفة .

ولعل أول باب أنفتح لاظهار الفن والجمال في الخط العربي ، كان في كتابة والقرآن الكريم ، عنى به الكتاب مثلما عنوا بتجويد القراءة والترتيل .

وكان هذا الكتاب ايضاً العامل الرئيسي الذي جعل للخط العربي مكان الصدارة في الفنون الاسلامية عامة وفي العمارة والتحف خاصة . وتجاوز علو مكانته في عالم الزخرفة إلى مرتبة لم يخط بها من قبل الخط الزخرفي في أي لغة أخرى(١).

وبفضل المواهب وملكات التحسين والتجويد عند الكتاب المسلمين تطورت الفنون الزخرفية وارتفعت القيم الجمالية وازداد الاحساس الجمالي والادراك الجمالي للانتاج المتزايد والمتطور على مر العصور الاسلامية .

وتنوعت الكتابات والزخارف الهندسية تنوعاً كبيراً إلى حد أن الباحث في هذا المجال ، لا يستعصى عليه أن يجد في هذه الكتابات الزخرفية أي شكل من الأشكال الهندسية بسيطاً أو مركباً ، متداخلاً أو متشابكاً مقسماً أو معقداً

ولاشك أن الفنان العربي ينفرد بخياله الهندسي الخصب الذي ينصب على الكتلة فيقسمها ويجزئها ويحولها إلى خطوط ومنحنيات تتكرر وتتعاقب وتتبادل وتمتد إلى مالا نهاية حتى لا يكاد الناظر إليها يحدد بدايتها أو نهايتها(٢).

وكانت الحروف العربية منبعجة ومفرطحة ومتباينة الأشكال حتى كان يظن أنها أبعد حروف الكتابة في جميع اللغات عن المظهر الزخرفي ورغم ذلك وعلى النقيض فقد أصبحت الحروف العربية أداة للزخرفة والتنمية والتجميل واستطاع الخطاطون أن يضعوا بها قواعداً وأصولاً روعي فيها أن تؤدي إلى الاستحسان في العين بما فيها من مرونة وطواعية وأصبح حُسن الحروف العربية المجودة شبيهاً بحُسن الأصوات العذبة عند النطق أو الغناء بالألفاظ . ولقد افتتن الخطاطون العرب بالزخرفة الكتابية فاتخذوها أداة لإحداث التأثير

---

(١) أحمد فكري : الفنون الاسلامية - الخط والكتابة ص ١٩٠ من كتاب محيط الفنون - القاهرة دار المعارف ١٩٧٠ .

(٢) أحمد فكري : عوامل الوقت في الآثار الاسلامية بالبلاد العربية ص ٢٧٢ - مطبوعات الجامعة العربية - القاهرة ١٩٦١ .

الجمالي ، واصبحت هذه الزخارف المتنوعة سواء على الجدران أو على التحف تتضمن وتمثل كل معاني الجمال . ولم تلبث أن تطورت وتنوعت ثم تداخلت معها الفروع النباتية المزهرة فتشعبت وتعقدت وتعانقت وطغت عليها الزخارف حتى أصبح النظر يضطرب حائراً بين آيات الابداع وتنوع المظاهر والمعاني[1] وأصبحت الكتابة على الأرضيات الزخرفية خير الأدلة القاطعة على الوحدة العربية للفنون الاسلامية .

اللغة العربية تحتضن التراث الانساني :

واكبت اللغة العربية الفصحى حركة النهضة العلمية وانتشرت مع انتشار الاسلام في جميع أنحاء العالم . فقد جاء القرآن الكريم باللغة العربية ليسموا بها ويكرمها على أقرانها . وظهر في الدولة الاسلامية أصحاب اللسانين الذين يجيدون اللغة العربية ولغاتهم المحلية إجادة تامة ، ومن ثم حملوا لواء الاسلام إلى جميع أهل الأرض ، ونشروا مباديء الدين الحنيف وتعاليمه إلى جميع الأجناس بمختلف اللغات ، فكان موسى بن سيار الأسواري – على سبيل المثال – يوصف بأنه من أعاجيب الدنيا لما اشتهر به من فصاحة وطلاقة في التحدث باللغة العربية واللغة الفارسية ، يقعد العرب من على يمينه والفرس من على شماله ويقرأ الآية من كتاب الله فيفسرها للعرب بالعربية ثم يتجه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية فلا يدري بأن لسان هو أفصح .

وأخذت الشعوب تتكلم باللغة الجديدة التي أصبحت لغة عالمية بفضل القرآن الكريم الذي ضمن سلامتها وحفظ التفاهم بها ، وكان من نتائج ذلك أن فتحت اللغة العربية صدرها لتراث الانسانية وحفظت ما تركه الأقدمون .. وكان العلماء المسلمون من الموالى يفضلون كتابة مؤلفاتهم بها ، حتى أن أبا الريحان البيروني – الذي اتقن عدة لغات اجنبية – كتب كل مؤلفاته التي تربو على المائة باللغة العربية ، وقال أن الهجو بالعربية أحب اليه من المدح بالفارسية .. ووصف البعض كتابه التفهيم لأوائل صناعة التنجيم بأن اسلوبه سلسل خال من الالتواء ، يخرج منه القاريء بثروتين : أدبية وعلمية ، ويشعر بلذتين لذة الأسلوب العلمي ولذة المادة العلمية . كما امتدح البعض أسلوب الخوارزمي في كتابه الجبر والمقابلة ، ووصفوه بأنه أسلوب أخاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد ، ينم عن أدب رفيع وإحاطة بدقائق اللغة . أيضا تمتعت اللغة بميزة خاصة عند الأجانب الذين نقلوا علوم العرب وترجموها فأشادوا بسهولة دراستها والتكلم بها وقراءة مؤلفات رجالها ، حتى أن روجرز بيكون الذي يعتبر من أعظم من درسوا علوم العرب وحملوها إلى الأجيال الأوربية

---

(١) د السيد عبد العزيز سالم : القيم الجمالية في فن العمارة الاسلامية ص ١٣

التالية ، كان يعجب ممن يريد أن يبحث في الفلسفة وهو لا يعرف اللغة العربية ، كما أنه اعترف بأن الكتب الاسلامية العربية كانت مصدر العلوم في عصره واحتكرت المؤلفات العلمية كلغة عالمية ، فلا تكاد تنشر إلا بها ، وأن كتابات ارسطو لم تفهم ولم تلق رواجاً في الغرب حتى أوضحتها كتابات ابن سينا وابن رشد والكندي وغيرهم .

الترجمة والتأليف في صدر الاسلام :

كانت عناية المسلمين في صدر الاسلام - خاصة أيام الأمويين - تقتصر على علوم الدين واللغة التي عرفت باسم العلوم النقلية تمييزاً لها عن العلوم العقلية التي وجه المسلمون نشاطاتهم الفكرية إليها في العصر العباسي ، بعد ان استقرت أمور الحكم وقلت الحروب والفتوحات وكثرت الأموال والثروات وراجت التجارة ونشطت الرحلات وبدأت الاتصالات الثقافية مع أمم ذات حضارات قديمة ، وكان طبيعياً أن تبدأ الحركة العلمية في العصر الاسلامي بنقل معارف السابقين فانكب العلماء على ترجمة المؤلفات اليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والهندية وغيرها .

وكانت عملية الترجمة تعتمد في دقتها وأمانتها على تمكن المترجمين من اللغة العربية واتقانهم للغات الأجنبية التي ينقلون منها ، وممن اشتهروا بالترجمة آل ماسرجويه وكانوا يهودا ، وآل بختيشوع وآل حنين بن اسحق وكانوا نصارى ، وآل ثابت بن قرة وكانوا صابئة . ومن أشهر الكتب القديمة التي ترجمت إلى اللغة العربية وأثرت تأثيراً عظيماً في علماء العرب والمسلمين كتاب « أصول الهندسة » لاقليدس وكتاب « المجسطي » لبطليموس وكتاب « السند هانتا » أو « السندهند » وكان العلماء يقبلون على الكتب المترجمة بحب وشراهة ويستوعبوا كل ما فيها ، ثم يبدأوا في تنقيحها وترتيب علومها وشرحها والتعليق عليها وحذف مالا تستسيغه عقولهم واضافة ما توصلوا اليه من تجاربهم وخبراتهم .

وهناك من يعيب على العرب ترجمتهم لعلوم السابقين ويقلل من أهمية الزيادات التي أضافوها إلى تلك العلوم ، والرد على هؤلاء لنسوقه من استقراء تاريخ الحضارات في العصور المختلفة ، وخاصة في عصر النهضة الأوربية الحديثة التي بدأت باحياء تراثها وتراث الأمم المتحضرة المتصلة بها ، وهو نفس الشيء الذي نسعى إليه الآن ، وتسعى اليه كل شعوب العالم التي تحرص على جمع تاريخ العلم وتواصل البحث والتنقيب في تراث الأقدمين ، فليس من حسن التدبير أن توجد معرفة علمية في مكان ما ويحرم أناس أنفسهم منها وينصرفوا عنا . والتوسع في النقل والترجمة كان فضلاً عن ذلك حفاظاً لتراث

الانسانية ، ولو لم ينقل إلى اللغة العربية في العصر الاسلامي لكان قد اندثر تماماً أو لتأخر تقدم البشرية عدة قرون . وأما أن الزيادات التي أضافها علماء العرب والمسلمين كانت محدودة إذا ما قيست بالمستوى الذي وصلت اليه المعرفة في الحضارات الأوربية الحديثة حتى اليوم ، فهذا صحيح وطبيعي ، ولكن ما أحدثته حركة الترجمة والمناقشة والاستزادة في العلوم في العصور الاسلامية كان يمثل بالمقياس العالمي المعاصر نهضة كبرى في حينها وموردأ ميسراً للمعرفة بالنسبة لكل الشعوب والدول التي تلتها ولما اتسعت رقعة الدول الاسلامية نتيجة للفتوحات ، واختلط العرب بالأمم التي مرت بتجارب حضارية مختلفة عبر عصور التاريخ ، نتج عن ذلك الاتصال ظهور حضارة اسلامية راقية بلغت ذروتها في العصر العباسي أولاً والعصر الأندلسي بعد ذلك ، وانتقلت الحركة العلمية من طور الترجمة واستيعاب العلوم القديمة إلى مرحلة التأليف العلمي والابتكار الأصيل واجراء التجارب ، والبحوث ، واستخلاص النتائج والقوانين على أساس المنهج العلمي الغزير الذي تميزت به هذه الحقبة من العصر الذهبي للحضارة الاسلامية ، كما يصعب انصاف علماء هذه الفترة بالتعرض لتراجمهم أو اسهاماتهم ومؤلفاتهم ولو بصورة اجمالية ، فيمكن للمهتمين بمزيد من التفاصيل أن يرجعوا لكتب التراجم التي تزخر بها المكتبات العربية حيث يجدوا للأطباء تراجمهم وللأدباء والأعيان معاجمهم وللعلماء والفقهاء طبقاتهم وسيرهم ، وهناك بجانب هذا التوزيع العلمي توزيع آخر زمني مثل كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، والكواكب السائرة في تراجم علماء المائة العاشرة ، وخلاصة الأثر في تراجم علماء القرن الحادي عشر ، وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر وغيرها . كما توجد كتب أخرى تحوي اشارات قيمة عن علماء تلك العصور ، مثل كتب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وأخبار الحكماء للقفطي ، وعيون الأنباء لابن أصيبعة ، والفهرست لابن النديم وغيرها . ويعترف المستشرقون أن مجموعة كتب التراجم لعلماء المسلمين تدعوا إلى الدهشة والاعجاب لكثرتها ودقتها وما جمعته من مادة رائعة ، وأن علماء الغرب في العصور الوسطى ليس لديهم ما يقارن بنتائج معاصريهم في عصر النهضة الاسلامية . وان أمهات الكتب والمراجع الموجودة في مختلف مكتبات العالم والتي اعتمدت عليها جامعات أوربا حتى عهد قريب لتشهد على أهمية التراث العلمي للحضارة الاسلامية وأثره في وضع أصول العلوم الحديثة التي ننعم اليوم بثمارها ، وتبني عليها البشرية آمال المستقبل في الخير والسعادة والرفاهية والرخاء . ومن بين هذه الكتب والرسائل العلمية التي صنعها علماء الحضارة الاسلامية نذكر « الحاوي » لأبي بكر الرازي لصفات أشتات النبات والجبر والمقابلة « للخوارزمي » و« القانون المسعودي »

---

1. Growtner: The Social Relations of Science. London 1954.

للبيروني و« الافادة والاعتبار » للبغدادي و « كتاب النبات » للدينوري وغير هذا كثير جداً ، وسوف نتعرض لهذه المؤلفات بشيء من التفصيل خلال سلسلة تبسيط العلوم البيولوجية والفلكية والجيولوجية والطبيعية والرياضية لايضاح المنهج العلمي في التأليف والبحث عند علماء العرب والمسلمين .

وقد ركز العرب في القرنين الثاني والثالث من الهجرة على ترجمة العلوم من طب وهندسة وفلك وزراعة وتاريخ وجغرافية وفلسفة ومنطق ما إلى ذلك ولم يهتموا بترجمة الشعر الأعجمي ، يرجع ذلك الى استغنائهم بما عندهم من الشعر العربي والاكتفاء بشاعريتهم فقد أقتضت الحاجة ضرورة ترجمة العلوم المختلفة لخدمة أهدافهم العلمية — أما الشعر الأعجمي مهما كان قدره ومهما كانت قوته وبلاغته ، لم يكن لتألفة الأذن العربية بعد سماع شعر أعلام الشعر العربي وفضلاً عن ذلك كان النقلة والمترجمون كما ذكرنا أكثرهم من نصارى النساطرة والحرانيين والسريانيين واليعاقبة ، ولم تكن لديهم ميول أدبية فقد كان اشتغالهم بالطب والتنجيم أكثر ، وعقولهم به أعلق ، ونفوسهم بها ألصق ، ولم تكن العربية لغة سليمة لهم ، ولا صحيحة عندهم .

نشـأة المكتـبات

كانت الكتب قبل اختراع الطباعة غالية الثمن ، لا يقتنيها إلا الأغنياء ، لأنها كانت مخطوطات باهظة التكاليف ، لذلك لجأ القادرون من محبي العلم إلى إنشاء المكتبات ، يجمعون فيها الكتب ، ويفتحون أبوابها للراغبين ، كما فعل البطالمة في مكتبة الاسكندرية وحيث كانت نواة لجامعتها . وكما فعل العباسيون في انشاء بيت الحكمة في بغداد ، وكذلك فعل الفاطميون بانشاء دار الحكمة في القاهرة . ولقد اتفق المؤرخون على أن هذه المكتبات كانت تؤدي ما تؤديه معاهد العلم والجامعات والجمعيات العلمية في الوقت الحاضر .

يقول ياقوت في معجمه : كان « بكركر » بالقرب من بغداد ضيعة لعلى بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال « على بن يحيى » ومن هذا النوع « دار العلم » التي أنشأها بالموصل أبو القاسم جعفر بن محمد على بن حمدان الموصلي ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم ، وقفاً على طالب علم لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب العلم ، وكان معسر أعطاه ورقاً وأقلاماً .

ويتكلم المقدسي عن مدينة رام هرمز متحدثاً عن داري كتب هامتين فيقول وبها دار كتب كالتي بالبصرة ، والداران جميعاً ، إتخذهما ابن سوار وفيهما اجراء على من قصدهما ، ولزوم القراءة والنسخ الا أن خزانة البصرة أكبر وأكثر كتباً ، وفيها شيخ يدرس عليه . وكذلك كانت خزانة سابور بن أردشير المتوفي سنة ٤١٦ هـ ، ملتقى للباحثين وكثيراً ما كان يجتمع بها جملة من العلماء الذين يتباحثون ويتناظرون .

وقد اهتم المسلمون بأبنية المكتبات العامة ، التي كانت تعد لاستقبال الجماهير ، وكان الأبنية مزودة بحجرات متعددة ، تربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب وبعض الأروقة كان يخصص للاطلاع ، كما كانت تخصص بعض الحجرات للنسخ ، وبعضها لحلقات البحث والدراسة ، وخصصت ببعض المكتبات حجرات للموسيقى يلجأ اليها المطالعون للسماع والترفيه وتجديد النشاط ، وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثاً فخماً مريحاً ، وقد فرشت الأرض بالبسط ، أما مدخل المكتبة فقد كانت له ستارة سميكة تحول دون دخول الهواء البارد في الشتاء إلى الحجرات .

ويقول المقريزي ما معناه ان دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستائر ويعمل بها خدامون فراشون وغيرهم لخدمة المكتبة والقراء . وكان البناء المخصص لمكتبة الفاطميين عظيماً جداً ، اذ كانت خزائن الكتب في سائر العلوم حوالي أربعين خزانة ، تسع الواحدة نحو ١٨٠٠٠ كتاب وكانت الرفوف مفتوحة ، والكتب في متناول الجميع ، وكل شخص يستطيع أن يحصل بنفسه على الكتاب الذي يريده ما تيسر له ذلك ، فإذا ضل الطريق اليه استعان بأحد المناولين .

وكانت لهذه المكتبات فهارس منظمة ، يقول ابن سينا : انه اطلع على مكتبة السامانيين في بخاري واختار بضعة كتب وطلب أن يطلع عليها ، فأحضرت إليه في الحال . ويقول انه رأى من الكتب ما لم يقع اسمه قط لكثير من الناس ، وما كان رآه من قبل ولا رآه من بعد .

كذلك وصف المقدسي ، والبيهقي ، وابن الجوزي . والحسن بن سهل فهرس المكتبات العامة والخاصة مثل خزانة الحكمة ببغداد ، ومكتبة عضد الدولة ومكتبة الصاحب بن عباد ، ومكتبة المدرسة النظامية . وفي الاندلس ، كان لمكتبة الحكم فهارس غاية في الدقة والنظام ، ويقول المقري ، ان الفهرس الخاص بدواوين الشعر وجدها ، كان يقع في أربعة وأربعين جزءاً ، وكذلك كان لمكتبة الفاطميين في القاهرة - دار الحكمة - فهرس كبير .

وكانت استعارة الكتب مباحة ، وان وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وحسن سيره ، وكانت مكتبة القاهرة تعير كتباً للساكنين في القاهرة فقط وأحياناً يطلب إلى المستعير أن يدفع ضمانا ، مع اعفاء العلماء وأفاضل الناس من دفع الضمان أو التأمين . وقد مدح ياقوت المشرفين على مكتبة « مرو » إذ سمحوا له أن يستعير مائتي مجلد دون أن يدفع ضماناً ، وكان يحدد وقت لكي يعيد المستعير الكتاب بحيث يلتزم برده دون تجاوز الوقت يقول « ابن خلدون » : لا يجوز اعارة الكتاب اعارة خارجية ، إلا إذا كان المستعير شخصاً موثوقاً به وأميناً ، على أن يدفع ضماناً هاماً ، وأن يرد الكتاب في مدة لا تتجاوز الشهرين ، كان يتولى أمور هذه المكتبات علماء ممتازون مثل سهل بن هارون وكان أميناً لبيت الحكمة وعلي بن يحيى المنجم وكان أميناً لمكتبة الفتح بن خاقان وعلي بن محمد الشابشتي وكان أميناً لدار الحكمة بالقاهرة وابن مسكويه وكان أميناً لمكتبة ابن العميد .

وقد لعبت الترجمة دوراً كبيراً في هذه النهضة العلمية العارمة في تلك العصور الاسلامية الزاهرة وقد كانت النهضة أول الأمر قاصرة على الدراسات الدينية واللغوية ، ثم كان المترجمون ، حلقة اتصال بين العرب وهذه العلوم . فهم نقلة علوم اليونان والسريان . والأقباط والفرس والهنود إلى اللغة العربية . وقد أسهب ابن النديم في الفهرست وابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء في ذكر المترجمين وأحوالهم .

ويقول كرد على ان خالد بن يزيد سنة ٨٥ هـ كان أول من عرفت له مكتبة في الاسلام ويقول ابن النديم انه عنى باخراج كتب القدماء وأول من ترجمت له كتب الطب وكتب النجوم وكتب الكيمياء . أحضر جماعة من فلاسفة اليونان وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ، وهم أول نقلة في الاسلام من لغة إلى لغة . ويذكر « بن النديم » مترجماً اسمه اصطفن القديم ويقول : انه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية . وقد بلغ عهد الترجمة أوجه في بيت الحكمة ، ومن مشاهير المترجمين في عهد الرشيد أبو سهل الفضل نوبخت ، ويوحنا بن مساوية وابن البطريق وحنين بن اسحق ، وعمر بن القرحان ، واسحق ابن حنين ، وثابت بن قرة وكثير من أسرة بختيشوع .

وكان بالمكتبات العامة والخاصة المترجمون والنساخ ، فيؤتي بالكتب للنساخ لينقلوا صوراً منها تزود بها المكتبة ، وإذا ضن مؤلف الكتاب أو صاحبه باعارته لبضعة أيام للنساخ خوفا عليه ، انتقل النساخ اليه ، ليقوموا بعملية الكتابة تحت اشرافه ، وكذلك عين في دار الحكمة بالقاهرة عدد من النساخ ، ليزودوا خزانة الكتب بما عسى ألا يكون موجوداً فيها ، وقد روى أنه كان بمكتبة « بني عامر » بطرابلس الشام . مائة وثمانون ناسخاً . يتبادلون العمل ليلاً ونهاراً بحيث لا ينقطع النسخ . ولا يقل الذين يؤدون عملهم فعلاً عن ثلاثين ناسخاً في أية ساعة من ساعات النهار والليل . وقد اهتم المشرفون على

المكتبات العامة وأصحاب المكتبات الخاصة ، بتجليد الكتب ، ويشيد المؤرخون ارنولدا وجرومان وسارتون بالعناية بتجليد الكتب عند المسلمين ، كما يتناول هؤلاء المؤرخون موضوع الانفاق على هذه المكتبات . وأنه كانت لها أوقاف خاصة .

(١) بيت الحكمة ببغداد

أنشأها هارون الرشيدي ، ووصل النشاط فيها ذروته في عهد المأمون حيث نشطت الترجمة لنقل العلوم من اللغات الأجنبية ، وقد حوى بيت الحكمة كتباً وضعت في الأصل بلغات مختلفة ، ومن أهمها الكتب اليونانية والفارسية والهندسية والقبطية والآرامية . ويقول ابن أبي أصبيعة : ان الرشيد كلف يوحنا بن ماسويه بترجمة الكتب القديمة ، مما وجدها في أنقرة ، وعمورية وسائر بلاد الروم حين غزاها المسلمون . ويحدثنا ابن نباته أن المأمون عين سهل ابن هارون أميناً على خزانة الحكمة حيث كان بها الكثير من كتب الفلاسفة التي نقلت إلى المأمون من جزيرة قبرص . وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان فأرسلت اليه وقد اغتبط بها المأمون ويروي ابن النديم أن مجموعة كتب جاءت من القسطنطينية إلى خزانة الحكمة طلبها المأمون من ملك الروم . فأرسلها أيضا اليه . صنفت هذه الكتب اليونانية التي وردت بيت الحكمة ، حسب موضوعاتها واختير لها المترجمون ، ممن لهم خبرة علمية بالموضوع ، الذي يترجمون عنه بالاضافة إلى اجادتهم للغتين اليونانية والعربية . ويعتبر « بيت الحكمة » أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الاسلامي ولعله أول جمعية علمية ، أو جامعة اسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس كما كان يلجأ اليها طلاب العلم والمعرفة ، فكان بذلك مركزاً علمياً شمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها . ويعتبر عصر المأمون أزهى عصور بيت الحكمة ، فقد كان المأمون مثال الخليفة العالم ، يهب العلم وقته ورعايته ، كما يهب العلماء عطفه وعنايته ، وقد أهمل المعتصم شأن هذا البيت العظيم ، وتوالت الأحداث بعد ذلك ، كما زاد في الاقلال من شأنه ، ولكنه ظل يقاوم إلى أن داهم التتار بغداد ، وقتل « هولاكو » المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فانتهى مع الأسف هذا العهد العظيم واندثرت خزانة الكتب ، وعفيت آثارها .

ويمكن القول أن مكتبة بيت الحكمة كانت مسرحاً لأكبر حركة ترجمة شهدها التاريخ العربي ، بمعنى أنها كانت مؤسسة للترجمة والنشر .

(٢) دار الحكمة بالقاهرة

وفي عهد الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ ، حملت اليها الكتب من خزائن القصور ، وحمل اليها من خزائن الحاكم من الكتب ، مالم يكن مثله ، مجتمعاً لأحد الملوك قط . وأجريت الأرزاق على من فيها من العلماء والفقهاء والأطباء . يقول المقريزي : وأبيح دخولها لسائر الناس ، فوفدوا إليها على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر للقراءة ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم . كما أباح الحاكم المناظرة بين المترددين إلى دار الحكمة فيعقدون الاجتماعات والمناظرات . وظلت دار الحكمة مزدهرة ، حتى أوائل القرن السادس الهجري[١].

وكان الخلفاء الفاطميون مولعين بجمع كل ما يعثرون عليه من نسخ أي كتاب ، وقد نهبت هذه المكتبة في عهد المستنصر حيث قام الغوغاء بالسلب والحرق والقاء كثير من كتبها في النيل ، وعندما سقطت الدولة الفاطمية وخلفتها الدولة الأيوبية ، شارك بعضهم مع الأسف الشديد في القضاء على هذا الأثر العظيم .

وثمة عدد من المكتبات الخاصة تي كانت في قصور الملوك والأمراء . الذين كانوا يتفاخرون بها ويدعون العلماء لارتيادها مثل : مكتبة الناصر لدين الله والذي رعى العلم فأحسن رعايته . ومكتبة المعتصم بالله ، وكذلك مكتبة الفتح بن خاقان – ومكتبة حنين ابن اسحق ومكتبة ابن الخشاب ومكتبة الموفق بن المطران . ومكتبة القفطي . ومكتبة المبشر بن فاتك وكان حاذقا لعلوم الهيئة والرياضة والطب . ومكتبة افرائيم الزقان وكان من أطباء مصر المشهورين ومكتبة عماد الدين الأصفهاني .

كان اهتمام الفاطميين بالكتب والمكتبات شديداً باعتبارها أداة لنشر دعوتهم ، ولهذا أنشأ المعز لدين الله الجامع الأزهر ليكون مدرسة تعلم الناس ، وأنشأ العزيز مكتبته الضخمة بمساعدة وزيره يعقوب بن كلس .

---

(١) د. عبد الحليم منتصر : محاضرات في العلوم عند العرب سجل العرب .

(٣) مكتبة الأمويين في الأندلس

أنشأها الحكم المستنصر الذي ولى الحكم من سنة ٣٥٠ الى سنة ٣٦٦ هـ والذى جمع من أنواع الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك قبله ، حيث جلب إليها كثير من المصنفات من الأمصار والأقاليم والنواحي ، وأنفق في شراء المخطوطات والكتب من الأموال ما ضاقت به خزينة المال حتى يقال أن عدد الكتب وصل الى ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف مجلد[١] ، وقد روى ابن خلدون أن هذه المكتبة كان لها أربعة وأربعون فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين ليس غير ، وأن الحكم المستنصر كان يرسل التجار ويعطيهم الأموال لشراء الكتب ، حتى جمع بمكتبته مالا يعد ولا يحصى ، كما جمع العمال الخدمة في التجليد ، كما كان لديه الكثير من النساخ وأهل الاملاء وفقهاء الضبط والاجادة في الصياغة الاملائية .

والمكتبات الثلاث بيت الحكمة العباسى ببغداد ، ودار حكمة الفاطميين بالقاهرة ومكتبة الأمويين في قرطبة كان لها الفضل الأكبر في حفظ التراث الاسلامى والتراث الانسانى القديم بعد أن ترجمه العرب الى اللغة العربية ولم تكن هذه المكتبات هى النوع الوحيد الذي عرفه المسلمون من أنواع المكتبات ، فقد وجدت مكتبات المساجد حيث اتخذه المسلمون مكاناً للتعليم بجميع مراحله ، وقد انتشرت مكتبات المساجد في كل العواصم العربية مثل بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة وطليطلة[٢] .

---

(١) المقرى : نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١٨٦١ .

(٢) ابن النديم : الفهرست - القاهرة - المكتبة التجارية ١٣٤٨ هـ .

الفصل الرابع

صناعة الورق ومهنة الكتابة عند المسلمين

الفصل الرابع

صناعة الورق ومهنة الكتابة عند المسلمين

حرص العرب على الحفظ والتدوين :

كان اعتماد العرب في الجاهلية على الحفظ والرواية في تناقل الشعر والأخبار ، وكانت صدور الرواة منهم تعي القصائد الطوال وأخبار العرب السابقين فيتناقلونها في أسواقهم الأدبية وفي مجتمعاتهم كلما التقوا أو تعارفوا ، إلا أنه من الثابت أن العرب عرفوا الكتابة قبل الاسلام ، فلقد دونوا أخبارهم وأحداثهم على الأحجار والصخور ، وكانت نقوشهم عليها هي التي ألقت الضوء على التاريخ العربي القديم ، وكانت هذه النقوش في الغالب تتعلق بالأحداث الجسام والتواريخ الهامة ، أما في الحياة العادية ، فقد كانوا يكتبون على مواد أسهل تداولاً وأيسر حملاً ، مثل جريد النخل وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع من الشاة والابل ، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم .

ولقد توارث العرب بعد ظهور الاسلام هذه المواد للكتابة عليها ، فنحن نعرف أن بعض الصحابة كانوا يكتبون ما ينزل من القرآن الكريم على الرسول عليه الصلاة والسلام على ما أتفق لهم يومئذ من السعف (جريد النخل) . حيث كانوا يكشفون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض ، والكرانيف ، وهي أصول السعف الغلاظ ، واللخاف (واحدها لخفة) وهي حجارة بيض عريضة ، والرقاع وإحداها رقعة وهي الخرق ، وقطع الأديم أو الرق ، وهو جلد الحيوان الطبيعي منه والمدبوغ ، وعظام أكتاف الإبل وأضلاعها،وكان الرق أرقى هذه المواد ، تكتب عليه العهود والمواثيق وكل ما يعتز به العرب ويبتغون الحفاظ عليه ، ويطلق العرب كلمة الرق على الصحيفة البيضاء ، وعلى ما يكتب فيه وهو جلد رقيق ، ومنه قوله تعالى : ﴿**وفي ورق منشور**﴾ . وقال الفراء : الرق الصحائف التي تخرج إلى آدم يوم القيامة فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله ، قال الأزهري : وما قاله الفراء يدل على أن المكتوب يسمى رقاً أيضاً .

ولقد بعث الرسول عليه الصلاة والسلام « وهناك قلة من العرب تقرأ وتكتب » ، إلا أن العرب لم يكونوا يهتمون بالقراءة في حد ذاتها قبل ظهور الاسلام ، رغم أن الكتب - مع ذلك - كانت معروفة وخاصة بين أصحاب الديانات السابقة مثل اليهودية والمسيحية ، ولم يجد عليه السلام وسيلة لنشر العلم في الناس إلا أن يكثر فيهم سواد من

يقرأ ويكتب ، وأن يحملهم على تعلم الكتابة ، ولعلنا نعلم أن الأسرى من العرب وغيرهم إذا تصادف فيهم أناساً يقرءون ويكتبون ، ولم يكن لأحدهم مال يفتدي به نفسه ، يأمره أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة ، وبهذه الطريقة انتشرت الكتابة في قريش وغيرها ، وكان عليه السلام يقول : **قيدوا العلم بالكتابة** ، وفي رواية بالكتاب ، ومن المعروف أن كتاب النبي ﷺ إلى كسرى كان مكتوباً على الأديم . وكتبت المصاحف على جلود النعاج والخراف والماعز والظباء إلى أن استعمل الورق ، وكلما انتشرت الكتابة زادت أدوات التدوين وكثر عدد الكتاب والقراء والحفاظ والأدباء والرواة واللغويين .

ولقد كثر التدوين منذ أوائل عهد الصحابة ، وقوى في أيام التابعين ، فألف زهير بن ثابت كتاباً في علم الفرائض ، والف عبد الله ابن عمر كتب الحديث ، وألف كتاب « في القضاء على عهد بن عباس » . وعن هشام بن عروة قال : حرق أبي يوم الجرة كتب فقه كانت له ، قال فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندي أحب إلى من أن يكون لي مثل أهلي ومالي .. ووقعة الجرة كانت سنة ثلاث وستين هـ ، فأكد ذلك أن التدوين وقع من قبل حتى كان لعمر مثل هذه الكتب في الفقه ، ويروي أن **عبد الحكم الجمحي** فتح نادياً في مكة جعل فيه دفاتر من كل علم في النصف الأول من القرن الأول الهجري .

وكان العرب قد عرفوا البردي المصري منذ أيام الجاهلية ، وليس من شك في أن عمرو بن العاص رآه فيما رأى من منتجات مصر عندما كان يتاجر فيها قبل ظهور الاسلام ، كذلك كانت اللفائف المصنوعة من البردي معروفة للمسلمين قبل فتحهم لمصر ، فلما تم الفتح العربي على يد عمرو بن العاص يسر ذلك للمسلمين حصولهم على ورق البردي ، الذي كان وقتئذ من أهم منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، وكانت لفائف البردي تصنع في مدن مصرية عدة ، منها بورة ، وهي على ساحل البحر بالقرب من دمياط ، وفي مدينة أخينو ، وهي على ساحل البحر غربي فرع رشيد ، ويقال لها وسيمة . وكان صناع الورق ، كغيرهم من الصناع في مصر ، من المصريين أنفسهم وكانت أغلبيتهم ، أو كلهم في أول عهد الفتح من الأقباط وإلى أواخر القرن الهجري الأول وأوائل الثامن الميلادي ، كانت صيغة الطابع الذي يطبع على الورق هي « الأب والابن والروح القدس » ، ومع أن هذه الصيغة استبدلت فيما بعد بما يتفق والدين الاسلامي ، إلا أن الوراقين ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة .

وظلت مصر تحتكر صناعة ورق البردي فترة طويلة بعد الفتح الاسلامي ، فلما نقل المسلمون صناعة الورق من البوص والخرق عن الصين ، أصبح هذا الورق الجديد أيسر منالاً وأقل ثمناً من البردي المصري . ولقد أنشأ العرب هذه الصناعة في أول الأمر في مدينة

سمرقند ، ثم نقلوها إلى بغداد ، وبذلك قل الطلب على ورق البردي . ويذكر المؤرخون أن صناعة ورق البردي للكتابة انتهت في مصر بالاجمال حوالي القرن الرابع الهجري .

وليس من شك أن نقل العرب لصناعة الورق إلى البقاع الاسلامية من أعظم وأهم أحداث التاريخ ، وسنرى كيف تم للعرب هذه الخطوة الحاسمة التي أثرت في مجرى التاريخ بصفة عامة ، ونقلت الحضارة القديمة إلى أوربا بعد ذلك بصفة خاصة .

العرب ينقلون صناعة الورق إلى سمرقند :

لم تكد دعائم الاسلام تستقر وترسخ في آسيا الصغرى حتى اندفعت كتائب من العرب الباسلين إلى بلاد ما وراء نهر جيحون عبر الطريق التي سلكها الاسكندر المقدوني من قبل ويقصد المؤرخون العرب غالباً بعبارة ما وراء النهر « البلاد التي فيما وراء نهر جيحون وعند شاطئه الأيمن » ، وتمتد هذه الطريق الوحيدة بين شرقي آسيا وغربيها في نطاق من المرعى الباردة تتخلله على مسافات مناسبة واحات غنية تسقيها عيون من الماء العذب الغزير وهذا النطاق بين صحار ملحة لا يسهل السير فيها بجيوش كبيرة ، وعلى هذه الطريق سارت الجيوش العربية المنظمة حتى نهر جيحون ، فعبرته واستولت على بخاري وسمرقند — وتابعت سيرها الى حدود الصين .

ويمكن التعبير عن إقليم ما وراء النهر بلفظ واحد هو بخاري ، الذي يطلق على الاقليم كله ، كما يطلق على مدينة بخاري التي كانت حاضرة الاقليم في كثير من العهود الاسلامية ، وتشير أقدم الكتب الجغرافية الخاصة ببلاد ما وراء النهر إلى أن هذه المدينة تعد أعظم مدن العالم الاسلامي كله ، ولقد أشاد الرحالة العرب القدامى بذكر بساتين بخاري الفسيحة وما كان يزينها من أشجار الفاكهة القليلة بعددها ، الممتازة بثمارها ، ولم تكن بخاري مدينة فخمة تمتاز بخصائصها الطبيعية العظيمة فحسب ، بل كانت كذلك سوقاً رئيسية تلتقي فيها تجارة الصين وآسيا الصغرى ، فضلاً عما كان بها من مصانع كبيرة للحرير والديباج والمنسوجات القطنية ، وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية ، وكانت كذلك مركزاً مهماً للصيرفة يستبدل فيها سكان آسيا الشرقية والغربية عملاتهم بوساطة أهلها المهرة في أمور النقد والاقتصاد .

وكانت ولاية (الصغد) من أهم ولايات إقليم ما وراء النهر ، وحاضرتها سمرقند ، وكانت أعظم المدن فيها وراء نهر جيحون طوال فترة غزوات العرب عام (٤٦ - ٩٦ هـ ، ٦٦٦ - ٧١٤ م) للاقاليم وابان حكم العرب لهم (٩٦ - ٢٦١ هـ) (٧١٤ - ٨٧٤ م) الذي تلاه حكم السامانيين (٢٦١ - ٢٩٥ هـ) (٨٧٤ - ٩٠٧ م) حيث أخذت تفقد أهميتها ، في حين بلغت مدينة بخاري أوج مجدها .

وتشير الكتب الجغرافية إلى ما كانت تشتهر به مدينة سمرقند من جمال مناظرها الطبيعية ، ولما كانت سمرقند ترتفع في موقعها عن مدينة بخاري ، فقد امتازت كذلك بمناخها الصحي الطيب ، وكان يجري من تحتها ماء غزير في قنوات وجداول عدة ، تنحدر اليها من الجبال التي تجاورها صوب السهل الممتد ، وكانت القنوات الرئيسية تجلب الخصب إلى هذا السهل المتسع ، ولم تكن سمرقند تقع رأساً على الطريق الرئيسية الموصلة إلى الهند وانما على جانب غير بعيد منه ، ولما كانت القوافل تسلك على الدوام طريق بخاري وغيرها ، لهذا لم تكن سمرقند قط سوقاً للتجارة الداخلية ، وانما اشتهرت بوصفها مدينة المسرات ، كما عرف أهلها بالوسامة والنظافة والتواضع والكرم .

تلك كانت حالة مدينتي اقليم ما وراء نهر الجيحون عندما بدأ العرب في فتوحاتهم ابتداء من عام ٤٦ هـ (٦٦٦ م) ، ففي ذلك العام سير زياد بن أبي سفيان القائد المقدام ربيع بن الحارث من العراق ، ومازال يمضي إلى غايته حتى خفقت راياته المظفرة فوق « بلخ » ، ولما كانت هذه المدينة على الدوام باب ما وراء النهر الجنوبي ، فلا عجب أن تستهوى هؤلاء العرب لما عرف عن هذه البلاد من الثراء فيغزوها ، فاقتحموا هذه البلاد حتى ضفاف نهر جيحون ، وأدى ما حملوه من كنوز هذه البلاد الوافرة وما صادفوه من نجاح إلى أن يبعث معاوية بعبيد الله بن زياد على رأس حملة جديدة منظمة ، ووفقاً لخطة مرسومة إلى بخاري ، ولكن عبيد الله لم يتمكن من اخضاع مدينة بخاري وحمل المسلمون معهم عند رجوعهم الكنوز والأسلحة والثياب وأدوات الذهب والفضة ، وكان من بين ذلك نعال لملكتهم « خاتون » مرصعة بالأحجار الكريمة قومت بعشرين ألف درهم ، ولم يكد يمر ثلاث سنوات على ذلك حتى انطلق العرب بقيادة سعيد بن عثمان ، وجدوا في مهاجمة مدينة بخاري حتى تم لهم فتحها ، اتجه عبيد الله بجيوشه إلى بلاد الصغد قاصداً مدينتي الصغد وسمرقند .

وما كاد العرب يعودون إلى ديارهم حتى كانت بخاري قد استطاعت أن تتخلص من الحكم العربي ، فاضطر مسلم بن زياد أن يسير بالجند إلى نهر جيحون من جديد وظلت الحرب سجالاً بين أهل بخاري وبين العرب حتى أمر الحجاج بن يوسف في عام ٨٦ هـ (٧٠٤ م) القائد المظفر قتيبة بن مسلم بفتح بلاد ما وراء النهر ، على أن يمضي في فتح هذا الاقليم ونشر الاسلام فيه ، وشن قتيبة بن مسلم سلسلة من الحملات الناجحة ، أخضع فيها على التوالي بخاري وسمرقند ، ولم يصبر قتيبة حتى تستقر الأمور في بخاري فانطلق صوب الشرق ، فغزا فرغانه عام ٩٥ هـ (٧١١ م) ومضى قدماً في فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الشرقية للامبراطورية الصينية .

واختار الخليفة سليمان . يزيد بن المهلب عام ٩٧ هـ (٧١٥ م) مكان قتيبة ، وما ان ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز حتى عهد خلع يزيد إلى قائده مسلمه ، حتى مات عمر ١٠١ هـ (٧١٩ م) ، وطال الصراع بين يزيد ومسلمة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك حتى غلب ابن المهلب على أمره وقتل ، واتخذ مسلمة مكانه فعهد بحكم بخاري وسمرقند إلى سعيد بن عمر ، ولقد تلت ذلك فترة من الصراع والقتال بين العرب والترك ببلاد ما وراء النهر ، حتى عهد بحكومة خراسان إلى نصر بن سيار ، وكان شديد المراس قوي الشكيمة ، فعمد إلى اخضاع الترك في تلك البلاد اخضاعاً تاماً ، وظل نصر بن سيار في منصبه حتى خلعه أبو مسلم عام ١٢١ هـ (٧٤٦ م) حين سقطت الدولة الأموية ، نشبت ثورة في بخاري إبان حكم أبي مسلم في خراسان فبعث من فوره اليها بالقائد **زياد بن صالح** على رأس عشرة آلاف من الجند لقى بهم العصاة بظاهر المدينة في معركة استمرت سبعة وثلاثين يوماً وأنزل فيها بالثوار خسارة جسيمة ، ثم استمر في سيره إلى سمرقند حيث تم له فتحها .

ونقف هنا وقفة اجلال وتدبر ، ذلك ان « زياد بن صالح » هو الذي أدخل صناعة الورق في سمرقند ، ونقلها العرب منها إلى بغداد ، ومن المرجح أن أهل سمرقند لم يعرفوا صناعة الورق قبل زياد بن صالح ، فلقد رأينا أن هذه المدينة لم تكن من قبل مدينة صناعة ، بل كانت (مدينة مسرات) ، ولم يعرف عنها صناعات تذكر ، بل أجمع المؤرخون والجغرافيون القدامى على أنها كانت مدينة استشفاء وتطبب ، ويشير الجغرافيون إلى حصنها الذي كان يحوطه سور قوي ، ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن سمرقند (مدينة عظيمة) يقال أن لها اثنى عشر باباً ، بين كل بابين فرسخ ، وهي من حديد ، وداخلها مدينة أخرى لها أربعة أبواب ، ولا يكاد يذكر شيئاً عن الصناعة فيها .

ويذكر صاحب كتاب المسالك والممالك أنه وقع من الصين إلى سمرقند فيمن أسرهم زياد بن صالح من اتخذ صنعة الكواغيد بها ، ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة حتى صارت تجارة لأهل سمرقند ، فعم خيرها وانتشرت في الآفاق .

كما جاء في كتاب آثار البلاد وأخبار العباد للعالم الرحالة القزويني في سياق حديثه عن سمرقند أيضاً عبارات تكاد تتفق تماماً مع تلك التي ذكرها الثعالبي ، فالمؤلفان العربيان يعتمدان على بعض المصادر القديمة في ذكر كيفية انتقال هذه الصناعة من الصين إلى سمرقند وكيف أن صناعة الورق نمت وازدهرت حتى أصبحت بعد ذلك تجارة رائجة لأهالي تلك المدينة .

ويقول ابن النديم في الفهرست « أما الورق الخراساني فيعمل من الغاب والكتان ،

ويقال أنه حدث في أيام بني أمية ، وقيل في الدولة العباسية ، وقيل أنه قديم العمل ، وقيل أنه حديث ، وقيل أن صناعاً من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني » .

ويقول أستاذنا العلامة حسن عبد الوهاب[1]: « وأول ظهور الكاغد في الاسلام كان في سمرقند صنعه هناك أسرى من الصين أسرهم الأمير زياد بن صالح في وقعة أطلخ سنة ١٣٤ هـ ، فاتخذوه له من خرق الكتان والقنب على ما كان جارياً في بلادهم ، فقلدهم الناس من ذلك الحين وكثر صنعه في بقاع متعددة من بلاد الاسلام ، ومنها دخل إلى أوروبا واشتهر » .

ويقول « ى . هل » في كتابه (الحضارة العربية) : أقر الاسلام فضل العمل والكسب من ذات اليد ، وترتب على ذلك أنه حيثما وجد المسلمون شيئاً جديداً اجتهدوا في أن يتعلموه ويصنعوه بأنفسهم ، ومن أمثلة ذلك أنه تصادف أن سمعوا بفن صناعة الورق الصينى ، فاستحوذ ذلك على خيالهم ، ولم يلبثوا أن أنشئوا في السنوات الأولى من العصر العباسي مصنعاً للورق في سمرقند ، يحتمل أن عماله كانوا من الصينيين ، ولكن ما كاد العرب يتعلمون هذه الصناعة حتى بدءوا تجارب لانتاجه من الكتان والخرق » .

وجاء في الموسوعة البريطانية : « يرجع مختلف الكتاب صناعة الورق الى القرن الثاني بعد الميلاد ، وعلى العموم فمهما كان عمر هذه الصناعة موغلاً في القدم في شرق آسيا ، فان الورق لم يصبح في متناول العالم إلا في منتصف القرن الثامن الميلادي . استولى العرب على سمرقند في أوائل القرن الثامن ، وفي سنة ٧٥١ م هاجمهم الصينيون ، فصد الحاكم العربي هذا الهجوم ، ويقال بأنه في أثناء مطاردته للصينيين أسر عدداً منهم كانوا مهرة في صناعة الورق ، ومن ثم فانهم أطلعوا سادتهم الجدد على سر هذه الصناعة وعندئذ بدأت صناعة الورق العربية التى انتشرت بعد ذلك بسرعة في جميع البلاد العربية » .

وتذكر الدكتورة « سيجريد هونكه » في كتابها (شمس الله على الغرب) « وحدث أن أنزل العرب عام ٧٥١ م عدداً كبيراً من أسرى الحرب الصينيين في مدينة سمرقند وخيروا الأسرى بين العتق والرق ، وجعلوا ثمن العتق مباشرة حرفة من الحرف ، فاتضح أن عدداً كبيراً من أولئك الأسرى الصينيين يجيدون صناعة الورق ، فأعتقهم المسلمون وشيدوا لهم المصانع الضرورية ، ومع مضي الزمن تقدمت هذه الصناعة باستخدام الكتان

(١) حسن عبد الوهاب : من الأعلام القلائل في مجال الدراسات الأثرية الاسلامية ومن مؤلفاته الآثار المنقولة والمنتحلة في العمارة الاسلامية ، وتاريخ المساجد الأثرية (١٩٤٦) ومساجد ومعاهد ١٩٦٠ والمعالم الأثرية في البلاد العربية (١٩٧٢) ونشأة المساجد ورسالتها .

والقطن في صناعة الورق الأبيض الناعم الجميل الذي وجد سوقا رائجة في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، وبخاصة في عاصمة الدولة العباسية بغداد ، فالورق صفحة من صفحات الفخار للعروبة والمسلمين » .

وليس يعنينا هنا أن نتعرض بالتفصيل لهذه الفترة أو الفترات التي تلتها من تاريخ بخارى ، ولكن الذي يعنينا هو أن صناعة الورق قامت وازدهرت على أيدي المسلمين في مدينة سمرقند أيام ولاية أبي مسلم لخراسان ، وأنه هو الذي بعث بزياد بن صالح إلى بخاري لأخماد الفتن التي شبت بها ، فقام بذلك خير قيام ، ولكنه أدى للانسانية ما هو أهم وأبقى وأخلد بادخاله صناعة الورق إلى سمرقند ، ذلك أن هذه الخطوة هي التي مهدت بعد ذلك لاقامة مصانع الورق في بغداد ، ثم انتشارها في دمشق وطرابلس والشام وفلسطين ومصر وتونس ومراكش وصقلية واسبانيا .

وقامت الدولة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦ هـ) (٧٥٠ - ١٢٥٨ م) ، وصناعة الورق (الكواغيد) مزدهرة في سمرقند ، وكان التجار ينقلونه إلى بغداد وإلى مختلف المدن الاسلامية فيتهافت عليه رجال الدواوين والعلماء والنساخ والطلاب وكل صاحب قلم ، وراجت كواغيد سمرقند رواجاً عظيماً في الدولة الاسلامية حتى عطلت ، كما يقول الثعالبي قراطيس مصر « البردى » والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها :

وابو مسلم الذي بعث بزياد الى بخارى كان أكبر عضد للعباسيين ، إذ صار زعيماً لنشر الدعوة العباسية في خراسان ، ومازال يستحث الهمم حتى تمكن من نشر العلم العباسى في مرو عاصمة خراسان ، ثم تقدم غرباً سنة ٧٤٩ م واستولى على العراق ، ثم تقابل جيش العباسيين مع جيش الأمويين عند نهر (الزاب الأكبر) قرب الموصل وتم للعباسيين النصر ، ثم واصلوا تقدمهم إلى دمشق واستولوا عليها ، وبمقتل مروان الثاني الأموى انتقلت الخلافة لبنى العباس ، ولكن أبا جعفر المنصور عام (١٣٦ – ١٥٨ هـ) عام (٥٧٤ – ٧٧٢ م) – المؤسس الحقيقي للدولة العباسية – قتل أبا مسلم الخراساني حين عظم نفوذه وظهر عزمه على العصيان ، وكان المنصور قد تولى الخلافة بعد أن عهد اليه من بعده أخوه العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين ، ولقد عرف المنصور بميله الى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه . فلما تولى الخلافة أدرك أهمية ورق سمرقند وكثرة الحاجة اليه في مختلف الدواوين والمعاهد العلمية ، ورأى تهافت العلماء والكتبة والنساخ والتجار وغيرهم عليه ، فأمر بالتوسع في صناعة الورق تمشياً مع سياسته الاقتصادية ، وذلك حتى يستغنى عن البردى المصري المرتفع التكاليف ، بل ولقد أصدر مرسوماً يحرم استخدام البردي في الأعمال الحكومية لغلو ثمنه ، وطالب الكتبة وغيرهم باستخدام ورق سمرقند الرخيص .

انتشار مصانع الورق في العالم الاسلامي

وإذا كان العرب قد توسعوا في استعمال ورق سمرقند توسعاً عظيماً في عهد أبي جعفر المنصور ، فلقد نقلت صناعته نقلاً فعلياً إلى بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) (٧٨٧ – ٨٠٨ م) ، ولقد وصلت بغداد في عهده إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها ، ففاقت عمارتها كل عمارة عرفت قبلها ، وشيد المهندسون العرب القصور الفخمة ، بحيث صارت قصور البرامكة بالجانب الشرقي تطاول قصور الخلافة بالجانب الغربي ، وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام ، وأصبحت ثروة الدولة عظيمة تتداولها الأيدي ، فتروج التجارة وتقضي الحاجات وتكثر المدينة ، وصارت بغداد قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الاسلامية لدراسة العلوم الدينية والعربية على اختلافها ، فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين . ذلك إلى جانب العلوم الأخرى كالطب والحكمة والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق والفلك والموسيقى . وعثر في زمن الرشيد على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له ، فترجمت له ، وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرون عليهم من أرزاق وعطايا .

ويرجع الفضل إلى البرامكة في ادخال صناعة الورق إلى بغداد في عهد الرشيد . فقد أنشيء أول مصنع للورق في بغداد باشارة من الفضل بن يحيى البرمكي الذي كان وزيراً على خراسان في سنة ٧٩٤ م ، ثم تعرف على ورق سمرقند ، وقد أمر أخوه جعفر وزير هارون باحلال الورق محل الرق في المكاتبات الرسمية ، وأقامت بعض البلاد الاسلامية الأخرى مصانع للورق على غرار مصانع سمرقند فأقيم مصنع في تهامة لصناعة الورق من الألياف النباتية ، وفي عهد المقدسي كان ما تنتجه مصانع سمرقند يعتبر أجود أنواع الورق ، ولكن في القرن التالي – الحادي عشر الميلادي – كانت بعض المصانع في البلاد السورية كطرابلس تنتج أصنافاً قد تفوق في جودتها ذلك الورق ، وقد سلكت الصناعة سبيلها في آخر القرن التاسع من آسيا إلى دلتا مصر حيث ظلت عدة مدن لمدة طويلة تورد إلى العالم اليوناني الأوراق اللازمة للكتابة والتي كانت تسمى بالقراطيس ، ورويداً رويداً انتشرت مصانع الورق في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، فكان الورق ينتج في العراق واليمن وفارس والشام ومصر والمغرب – ثم في صقلية والاندلس .

ولقد وجد خطابان عربيان مكتوبان على ورق مصنوع من الخرق البالية ، ويرجع

تاريخهما إلى حوالي عام ٨٠٠ ميلادية ، وهو من صنع بغداد . ونجح العرب في انتاج أنواع جديدة من الورق ، مثل ورق الحرير ، وورق الكتابة والورق المقوي وغير المقوي ، والورق الناعم والخشن ، والورق الأبيض والملون ، وكان العرب يطلقون على الورق المصنوع من الكتان والقنب اسم « الكاغد » ويبدو أنه لفظ صيني معرب دخل العربية عن طريق فارس .

وتحتفظ مكتبة جامعة ليدن بألمانيا بكتاب عربي مكتوب على الورق ، وهو كتاب « غريب الحديث » لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والكتاب مؤرخ في ذي القعدة سنة ٢٥٢ هـ (عام ٨٦٦ م) ، ومن المرجح أنه أحد أقدم المؤلفات المكتوبة على الورق في التاريخ ، ويحتفظ المتحف البريطاني بكتاب مؤرخ في سنة ٩٦٠ ميلادية لطبيب عربي في تغذية مختلف أعضاء الجسم ، وهو أقدم كتاب مكتوب على الورق يحتفظ به المتحف البريطاني .

ولقد اعتبر الورق العربي من أشهر الصناعات التي عرفها العالم ، ومن أشهر أنواعه الكاغد السليماني نسبة إلى سليمان ناظر بيت المال بخراسان على عهد الخليفة هارون الرشيد ، والجعفري المنسوب إلى جعفر البرمكي الوزير العباسي ، والطلحي المنسوب إلى طلحة بن طاهر ثاني أمراء بني طاهر ، والنوحي نسبة إلى نوح الأول من بني سامان .

صناعة الورق في صقلية :

أتم مسلموا افريقية ، وكان أكثرهم من البربر مع إخوانهم العرب ، فتح صقلية بدخوله « بالرم » بعد وقائع دامية لبضع سنين (٢١٢ – ٢١٧ هـ) . ولم يقتصر العرب على فتح صقلية ، فقد استولوا كذلك على جنوب ايطاليا وبلغوا في تقدمهم ضواحي روما ، ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن وعدهم الباب يوحنا الثامن بدفع الجزية لهم ، واستولى العرب على مدينة برنديزي الواقعة على شاطيء البحر الأدرياتي ومدينة تارانت ، وصارت لهم السيادة المطلقة في البحر الأبيض المتوسط بفتحهم صقلية وأهم جزر ايطاليا وكورسيكا ومالطة .

ونشطت صقلية نتيجة اهتمام المسلمين بمختلف أنشطة العمل بها ، وضمت عدة معاهد علمية عامرة بإشراف الأساتذة المسلمون ، استغل العرب الثروات الطبيعية بالجزيرة ، فتفوقوا في التعدين وفي صناعات الكتان والحرير وصباغة الأقمشة .

ومن مفاخر الصناعة الاسلامية في صقلية صناعة الورق من الخرق القطنية ، وعرفت أوروبا هذه الصناعة فأخذوا يستوردون الورق من صقلية ليحل محل الرقائق الجلدية المرتفعة الثمن :

ازدهار صناعة الورق في الأندلس :

استطاع عبد الرحمن بن معاوية ، أحد أفراد بني أمية وحفيد عاشر الخلفاء الأمويين الهرب من المذبحة التي قام بها أبو العباس للتخلص من أبناء البيت الأموي ، وبعد مرحلة طويلة عبر عبد الرحمن البحر إلى شاطىء الأندلس ، وهناك انضم اليه أنصار بني أمية ، ثم استولى عبد الرحمن على قرطبة عاصمة ولاية الأندلس سنة ١٤١ هـ (٧٥٦ م) ، وأعلن نفسه أميراً على امارة الأندلس ، ثم وطد دعائم ملكه حتى بدت دولته عند وفاته سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) وطيدة الأركان ، وعاشت بعده قرنين وثلاثة أرباع القرن من الزمان .

على أن اسبانيا الاسلامية دخلت في القرن الحادي عشر الميلادي دوراً طويلاً من التفكك الداخلي بين أجزائها على يد ملوك مسلمين أطلق عليهم التاريخ اسم ملوك الطوائف ، ومازال هؤلاء الملوك يتناحرون فيما بينهم حتى قضى عليهم الاسبانيون المسيحيون ، وزال سلطان المسلمين نهائياً من اسبانيا في عام ١٤٩٢ م .

ولقد ازدهرت الصناعات في اسبانيا على عهد المسلمين ازدهاراً عظيماً إذ نقلوا صناعة دبغ الجلود والحرير اليها ، كما شجعوا الصناعات الوطنية مثل صناعة الزجاج والنحاس والخزف ، واستثمر المسلمون مناجم الحديد والرصاص بالقرب من قرطبة ، ونشطت على اثرها صناعة السلاح ، وغدت مدن اسبانيا عامرة بالمنتجات الصناعية التي أقبل التجار على شرائها والمتاجرة فيها بأنحاء العالم . **على أن نقل صناعة الورق إلى أسبانيا هو أعظم مفاخر المسلمين الأندلسيين** ، وهي الصناعة التي يشهد المؤرخون من الغرب والشرق على السواء بأنها حفظت للانسانية تراثها الخالد ، وكانت من الأسباب المباشرة للنهضة الأوربية .

وفي الواقع ، لقد نشأ عن كثرة المكتبات العامة والخاصة في الأندلس أيام سلطان العرب أن أضطروا الى اقامة هذه الصناعة بها في أول الأمر ، نقلاً عن مصانع الشرق العربي ، ثم الى زيادة مصانع الورق في مختلف ارجاء الأندلس ، وتمكنوا من صنعه باتقان عظيم من القنب والكتان الموجودين بوفرة عظيمة في الحقول ، وكانت هذه المصانع منتشرة بالذات في قرطبة وطليطلة وبلنسية .

وكان من الطبيعي أن تقام مصانع الورق في قرطبة عاصمة الأندلس ، والمؤرخون من المسلمين ومن الأوروبين مجمعون على ما بلغته قرطبة في ذلك العهد من العظمة والأزدهار فقد كانت فيها العلوم والمعارف والصنائع والفنون ، وكانت تبلغ في طولها ثلاثين كيلو متراً وبلغت قصورها من العظمة والبهاء مالم تبلغه قصور الخلافة الشرقية في دمشق

وبغداد ، وأفاض زوار قرطبة ببهائها ، فقال أحدهم : « ان المسافر يستطيع أن يسير عشرة أميال في طرقها على ضوء المصابيح » . وتعددت ضواحي قرطبة حتى بلغت سبعاً وعشرين ضاحية ، لكل ضاحية جوامعها وأسواقها وحماماتها ، وزارت راهبة ألمانية مدينة قرطبة ، فوصفتها بأنها « جوهرة العالم » .

كذلك كان طبيعياً أن تقوم صناعة الورق في طليطلة ، ويتحدث الجغرافيون العرب حديثاً طويلاً عن طليطلة ، وما كان أيام المسلمين من بساتين وحدائق وخيرات وافرة ، كما يتحدثون عن مناجم الحديد والنحاس ومصانع الورق القريبة منها .

على أن المسلمين أقاموا في ضواحي بلنسية أكبر وأحسن مصانع للورق ، ولقد قال فيه الرحالة الجغرافي الشهير الادريسي أنه لا يوجد في العالم ورق يضارعه في الجودة .

ولقد حكم المسلمون بلنسية منذ الفتح خمسة قرون وربع القرن ، سطعت خلالها في شرقي الأندلس ، وتزعمت قواعده ، وأدت أعظم دور في أحداثه ، ولبثت فترات طويلة مثوى الثورة الوطنية الأندلسية ، وكانت أعظم مركز للعلوم والآداب .

شغف العرب بالكتب :

أدى انتشار الورق في الرقعة العربية إلى شغف العرب بالكتب شغفاً عظيماً ، واقبالهم عليها اقبالاً أذهل الأمم الغربية إلى وقتنا الحاضر ، ولا نستطيع هنا سوى أن نسوق بعض أمثلة لهذا الشغف الذي ملك عليهم أفئدتهم وعقولهم ، فحفظوا لنا هذا التراث العريق الذي لايزال أكثره مخطوطاً رهين المتاحف والمكتبات العامة .

فلقد أسس العباسييون مكتبة في دار الحكمة ببغداد ، نمت وازدهرت وتزايد الأقبال عليها بصورة منقطعة النظير ، كما انتشرت المكتبات في كل مكان ، ويحدثنا رحالة زار بغداد عام ٨٩١ م عن وجود مائة مكتبة عامة بها ، كما شرعت كل مكتبة في توسعة مكتبتها ليستعين بها كل طالب علم سواء أكان مستعيراً أم مطلعاً بداخلها ، كما كان في كل مكتبة المترجمون والنساخ في قاعاتهم الخاصة ، بالاضافة إلى قاعة كبرى عامة للندوات والمناقشات .

وفي حين نجد الدول المنتصرة تطلب من الدولة المهزومة تسليمها الأسلحة والذخيرة كشرط أساسي لعقد معاهدة صلح ، نجد أن هارون الرشيد بعد انتصاراته في عمورية وأنقرة يطالب بتسليمه المخطوطات اليونانية ، ولم يكن شيء يجتذب مودة الأمراء العرب مثل الحصول على المخطوطات القديمة ، وعن طريق هذه المخطوطات يستطيع مراسلها أن يتخذهم حلفاءه في حروبه ضد خصومه ، كذلك كان الأمراء مشغوفين بالحصول على

المترجمين الذين يترجمون لهم هذه المخطوطات ، وكانوا يدفعون الأموال الطائلة للعلماء والوسطاء الذين يتجولون في بلاد اليونان والأناضول وغيرها للحصول على كل ما بقى من التراث العقلي القديم . أما هؤلاء الوسطاء فقد كانوا يعثرون في بعض الأحيان على المخطوطات في أماكن غريبة مهجورة تأوى اليها الفيران والعناكب ، فعثر أحدهم على مخطوطة خاصة بآلات القتال بين حجرين مطبقين عليها وأكوام من الأحجار في قاعة سفلى بمنزل من منازل الاسكندرية ، واكتشف محمد بن اسحق في الأناضول على مسيرة ثلاثة أيام من بيزنطة مكتبة عظيمة في معبد كبير قديم له باب لم ير مثله حجماً ، ويتركب من مصراعين من حديد .

ولم تخزن المخطوطات التي أنقذها العرب في المتاحف والمخازن ، بل بعثت بعثاً جديداً ، اذ ترجمت إلى اللغة العربية لغة القرآن الكريم ، وأصبحت من الجذور الثابتة للثقافة العربية كما عملت على نموها وازدهارها ، وبذلك ازدهرت المكتبات العربية ازدهاراً عظيماً ، فامتلكت مدينة النجف – وهي مدينة صغيرة نسبياً – أربعين ألف مجلد ، وسجلت مكتبة مدينة الري أسماء كتبها في فهرس يقع في عشرة مجلدات كبيرة ، وكان في كل مسجد مكتبة ، وكل مستشفى يستقبل زواره في قاعته الكبرى الغنية بالكتب ، ويحرص على شراء جميع ما يظهر من الكتب اشباعاً لحاجة الطلاب والباحثين ، ونجد في جنوب بلاد العرب أميراً عالماً يمتلك مكتبة بها مائة ألف مجلد ، وشاهد ابن سينا في مكتبة قصر سلطان بخاري كتباً لا يعرف الكثيرون أسماءها ولم يرها ابن سينا من قبل ولا من بعد . وكان في مكتبة الفاطميين بالقاهرة زهاء مليون وستمائة ألف مجلد وكلها في حالة جيدة ، ومن بينها ستة آلاف وخمسمائة كتاب في الرياضيات وثمانية عشر ألف كتاب في الفلسفة ، وجاء خليفة فاطمي آخر فأسس مكتبة أخرى إلى جوار الأولى ، وكانت تشغل ثماني عشرة قاعة .

ولقد شجع هذا الاقبال من جانب الخلفاء والسلاطين غيرهم على الاقتداء بهم ، فترك الوزير المهلبي عند وفاته عام ٩٦٣ م نحو مائة وسبعة عشر ألف مجلد ، واقتنى زميله ابن عباد مكتبة من مائتين وستة آلاف مجلد ، كما خلف أحد القضاة مليوناً وخمسين ألف مجلد .

وكانت تجارة الكتب تكلف المجتمع العربي آلاف الآلاف من الدنانير سنوياً ، كذلك كانت الكتب مصدراً من أهم مصادر الرزق لمئات الألوف من البشر .. فهناك صناع الورق في سمرقند وبغداد ودمشق والقاهرة ، وهناك النساخ والخطاطون ومعظمهم من الرحال الذين يريدون أن يكسبوا قوتهم اليومي أو من فقراء المتعلمين ، ثم نجد مجلدي

الكتب يطبقون الورق على الطريقة الصينية في الحجم الذي كان يعرف باسم المنصوري والذي يعرف الآن باسم (فوليو Folio) والبغدادي ، وهو المعروف الآن باسم (كوارت Quart) . وبالاضافة إلى هؤلاء وهؤلاء نجد تجار الورق وتجار الكتب ... ومن أشهر تجار الورق بن النديم الذي نشر فهرسه في عشرة مجلدات تشتمل على جميع ما وصل إلى علمه من الكتب التي ظهرت حتى ذلك الحين باللغة العربية ، سواء في الفلسفة أو الفلك أو الرياضيات أو الطبيعة أو الكيمياء أو الطب ، وسواء أكانت من الكتب العربية الأصلية أم المنقولة اليها من اللغات الأجنبية .

وأدى انتشار الورق في مختلف أنحاء الدولة الاسلامية إلى كثرة الكتابة ، وأصبحت الوراقة مهن ذائعة الشهرة ، وكانت تقوم مقام المطابع اليوم ، ومن الطريف أن بعض الوراقين كانوا في الأصل من العلماء ، ودعاهم الفقر إلى احتراف مهنة الوراقة ، مثل ياقوت الحموي وأبي حيان التوحيدي ، ومما لاشك فيه أن الوراقة كانت حرفة شاقة ، تجهد فيها الأعين بسبب كثرة النسخ ، وكان مما سبب الخصومة بين الصاحب بن عباد وأبي حيان التوحيدي ، أن الصاحب كلفه أن ينسخ كتباً كثيرة ، استكثرها أبو حيان . إلا أن الفقر هو الذي أضطره إلى قبول ذلك .

وحكى عن أبي زكريا يحيى بن عدى ، وهو نصراني ، نسخ نسختين من تفسير الطبري ، وأنه كان يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة ، ومن الطريف أن حكى وراق نام ليلة فرأى في المنام كأن القيامة قامت ، وحوسب فدخل الجنة ، فلما دخل الباب استلقى على قفاه وقال : « آه والله استرحت من النسخ » .

ومن الطريف أن العرب اصطلحوا على أبعاد قياسية للورق يحرصون عليها ، ويخصصون كلا منها من الكتابات ، أو يختصون به طائفة دون طائفة ، وكانت الورقة الكاملة تسمى (الطومار) ، فكان يكتب للخلفاء في ورقة من ثلثي طومار ، وإلى الأمراء من نصف طومار ، وإلى العمال والكتاب من ثلث طومار ، وإلى التجار وأشباههم من ربع طومار ، وإلى الحساب والمساح من سدس طومار .

ولقد خصص القلقشندي فصلاً من كتابه (صبح الأعشى في صناعة الانشا) للحديث عن مقادير قطع الورق ، وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام ، فبين مقادير قطع الورق في الزمن القديم ، ومقاديره في زمانه ، ويختم القلقشندي حديثه عن مقادير قطع الورق بقوله : هذه مقادير قطع الورق بالديار المصرية والبلاد الشامية ، أما غير مملكة الديار المصرية من الممالك ، فالحال فيها يختلف في مقادير الورق المستعمل بدواوينها ، فأما بلاد المشرق فعلى نحو المقادير المصرية ، وأما بلاد المغرب والسودان وبلاد الفرنج ، فعادة

كتابتهم في طومار واحد ، يزيد طوله على عرضه قليلاً ، ما بين صغير وكبير ومع ما يقتضيه حال المكتوب .

وكان يستعمل بديوان الانشاء ثلاثة أنواع من الورق : **أولاً - الورق البغدادي** ، أجود هذه الأنواع وأكثرهم اتساعاً ، وقد خصص لكتابة المصاحف وعهود الخلفاء وبيعتهم ومكاتبة الملوك ، سمي بذلك لأنه كان يجلب من مدينة بغداد ، **ثانيا - الورق الشامي** ، وهو على أنواع منها الحموي وقد عرف بذلك لأنه كان يجلب من حماة ثم ينقل إلى دمشق ، ومنها الورق الشامي المشهور الذي كان يستعمل بدواوين الانشاء في اليمن والحجاز وبلاد الروم ، ولا يقدم كاتب السر على استعمال هذا النوع من الورق إلا بإذن خاص ، وآخر أنواع الورق الشامي هو ورق الطير ويقال له ورق البطائق ، وكان رقيقاً جداً بحيث يمكن وضعه تحت أجنحة حمام الزاجل . **ثالثا - الورق المصري** ومنه الورق المنصوري ويعتبر أرقى الورق قطعاً وأعظمه حجماً .

تسمية الخطوط المبكرة بأسماء المدن :

مما يؤسف له أن المعلومات عن هذه الخطوط المبكرة ضئيلة للغاية فلا يذكر صاحب الفهرست سوى اليسير من خصائص الخط المكي والمدني وهو يعالجهما على أنهما خط واحد فيقول « فأول الخطوط العربية الخط المكي وبعده المدني ثم البصري ثم الكوفي أما المكي والمدني ففي ألفاته اعوجاج إلى اليمين وفي شكله اضطجاع بسيط ومن ذلك يفهم أنه لم يكن ثمة فروق خصائصية واضحة بين الخط المكي والخط المدني » . ويذكر ابن النديم أن من أنواع المدني المدور والثلث . فمن اسمى الخطين الأولين نعرف مدلولهما ، كما قد يكون الخط الثالث جمعا بين الاثنين . أما الخط البصري فلم نعثر له على أمثلة نستطيع أن نتعرف منها على صفاته وأغلب الظن أنه كان وخط الكوفة شيء واحد لقرب ما بينهما من العهد والمكان فلا يكاد يميز أحدهما عن الآخر إلى الاختلاف في درجة الاجادة وقد نتج ذلك عن طريق التنافس العلمي بينهما . والذي لابد أن يكون قد اتخذ مظهراً فنياً إلى جانب مظهره العلمي . فشمل الخط تجويداً كما شمل العلوم الأخرى ، على أنه ليس ثمة نماذج من هذا الخط أو ذاك لنستطيع أن نعرف من تلك النماذج ما أصاب أحدهما من تفوق هذا المجال .

ويرجح أن تكون تسمية الخطوط بأسماء المدن قد جاءت من أن العرب الذين كانوا لا يعرفون الكتابة قبل الاسلام تلقوها مع ورود السلع التجارية فسموها بأسماء الجهات التي وردت منها . ولاشك في ذلك فقد عرف الخط العربي قبل عصر النبوة بالخط النبطي كما عرف بالحيرى والانباري ، ثم انتهى إلى المدينة ، وعرف باسمها وعندما انتقل النشاط

السياسي والثقافي إلى العراق في عهد عمر وعلي ، انتقلت الخطوط المعروفة إلى البصره والكوفة وعرفت هناك من أول الأمر بأسماء المدن التي جاءت منها . ثم لم يلبث أن عرفت باسم الخط الحجازي ، ولكن حدث في الكوفة ان اهتموا بتجويد هذا الخط وهندسة أشكاله ، فتميز باستقامة حروفه وغلب عليه الجفاف واستحق بذلك أن ينفرد باسم جديد هو الخط الكوفي . وانتشر هذا الخط السياسي من الكوفة إلى أرجاء العالم الاسلامي لتكتب به المصاحف المكرمة عند كل المسلمين في حين ظل الخط الحجازي اللين الطيع في خدمة الدواوين لمرونته وسرعة كتابته ، فاستخدمه العامة في أغراضهم اليومية المختلفة واستخدمه الخاصة في حركة التدوين لمرونته وسرعة كتابته ، ولاشك أن الخط العربي قد نال في الكوفة قسط كبير من التجويد ، وتنوعت على مر الزمن أشكاله ، وتعددت صوره ، وأصبح ذا مسحة زخرفية خاصة وطغت شهرة هذا النوع على غيره من الخطوط التي استخدمت في الكوفة فاستأثر وحده باسمها كأنما لم تنتج الكوفة خط غيره .

وقد شاع هذا النوع اليابس في العالم الاسلامي وعرف باسم الخط الكوفي ولكن لا يعقل أن تكون الكوفه قد اقتصرت على هذا النوع وقنعت به لأنها لم تكن تستغنى عن خط مرسل تدون به المراسلات وما تحتاج له في الحياة اليومية ، وهي البلد الذي يصدر عنه الرسائل والكتب إلى عمال الدولة وولايتها ، ولكن هيهات أن يؤدي الخط الكوفي مهمة التراسل وهي المهمة التي تحتاج بطبعها إلى السرعة والمطاوعة ، فلابد والحال كذلك أن تكون الكوفة قد استخدمت إلى جانب الخط الكوفي الذي عرف باسمها خطوط أخرى لينة ، هي صورة من خطوط الحجاز تطورت فيها أو بقيت على حالها الذي كانت عليه لتؤدي به الأغراض اليومية وأعمال الدولة لتدوين الحركة العلمية التي عرفت بها الكوفه . وظل الحال على ذلك الوضع حتى تعددت الأقلام في العصر العباسي واختص كل قلم بنوع من الكتابة فسميت الخطوط بمقاديرها كالثلث والنصف والثلثين كما نسبت إلى الأغراض التي تؤديها كالتوقيع أو أضيفت لمخترعيها كالرياس أو عرفت بهيئتها كالمسلسل الذي ليس في حروفه شيء عن غيره . ولذلك بطل ذكر الخطوط المدنية والمكية والبصرية وان كان اسم الكوفة ظل متداولاً باعتباره في هذا العصر أصل الأقلام المخترعة ولاستخدامه في كتابة المصاحف والكتابة التأسيسية على واجهات المباني وفي داخلها ولم تعد تسمى الخطوط بأسماء المدن إلا في القليل النادر .

تاريخ الكتابة والكتاب في العصرين الأموى والعباسي

في عنق كل جيل من الناس أمانة عظيمة بالنسبة للأجيال التى سبقته ، وهذه الأمانة هي أن يقوم هذا الجيل بنقل ما ورثه من تراث أدبي وعلمي وفني عن تلك العصور ، وذلك بأسلوب جديد وعرض جديد للظروف المحيطة بالأمة ، وبهذه الطريقة تصل هذه الأمة ماضيها بحاضرها ، وتجعل من جهود أسلافها في شتى العصور سلسلة متصلة الحلقات يمكن أن تعطي صورة دقيقة من حضارتها التي تميزت بها عن سائر الحضارات .

والمعروف أن الثقافة العربية ثقافة قديمة عميقة الجذور ، وذلك في كل اقليم من الأقاليم التى ازدهرت فيها تلك الثقافة ، وهي من هذه الناحية خليقة بأن يعنى بها على هذا النحو ، بحيث نعتبر أنفسنا مقصرين في حق أمتنا اذا نحن تركنا التراث العربي القديم مكتوباً بخطوط أصحابه وأعلامه ، معروضاً بطريقتهم التي كانت ملائمة للعصر الذي عاشوا فيه . ومن هنا يدعونا داعى الانتماء للعروبة والاسلام من آن لآن . أن نعمد الى هذا التراث . فنقوم بنشره أولاً عن طريق الطباعة الحديثة ، والطباعة من الأساليب التكنولوجية المعاصرة والتي من أجلها سميت العصور الحديثة بهذا الاسم . ولا يجب الاكتفاء بنشر هذا التراث القديم عن طريق الطباعة فقط ، إنما يجب أن نأخذ في عرض هذا التراث بطريقة حديثة تلائم أذواق الجيل الذي نحن منه وللأجيال التى تأتي من بعدنا أن تفعل ما فعلنا وهكذا .

الكتابة والكُتّاب في العصر الأموى :

تحول العرب سريعاً من أمة أمية لا تعرف الكتابة ، وتعتمد فقط على ما وعته الآذان وحوته العقول وحفظته الصدور .. إلى تعلم الكتابة ، وكان أول ما عنى به العرب تدوين أخبار آبائهم في الجاهلية ، وأنسابهم وأشعارهم فكثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار .

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تعدل عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف ، فقد قامت في كل البلاد والأمصار الاسلامية مدارس دينية ، عنيت بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف . وتلقين الناس الفقه ، وكان الكثير من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه ، كما أخذت تدون في القرن الأول الغزوات الاسلامية وممن عنوا بها ، عروة بن الزبير وأبان بن عثمان بن عفان . وأخذ الناس منذ أوائل عصر بني أمية ينقلون عن

الموالى بعض معارفهم كما كثرت كتب التاريخ والأدب وزخرت برسائل سياسية ، مثل شرح بن أبي الحديد على نهج البلاغة ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة .

الدواوين : من المعلوم أن عمر بن الخطاب أول من أقام الدواوين في الاسلام ، إذ أحس بالحاجة إلى سجلات يدون فيها الناس معطياتهم وأموال الغنائم .. ولما ولى الخلافة معاوية أتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل وديوان الخاتم وفيه كانت تختم الرسائل الصادرة منه وظل ديوان الخراج يكتب في الشام ومصر بالكتابة الرومية وفي العراق بالكتابة الفارسية إلى عصر عبد الملك بن مروان فنقلها الى العربية . وأصحاب ديوان الرسائل ، هم الذين كانوا يدبجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة ، وكانوا يختارون من أرباب الكلام وأصحاب البيان .

عبد الحميد الكاتب :

أبلغ كتاب العصر الأموى هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونصح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : فتحت كتابة الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد . ولكم كان أبى العباس القلقشندى بارعاً وأميناً حين أشار الى الأستاذ الأول لفن الكتابة العربية وهو **عبد الحميد الكاتب فذكر أنه وضع الأساس الأول لآداب هذه الكتابة في رسالته التي عنوانها : « إلى الكتاب ، والتي أولها »** أما بعد .. حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وارشدكم فان الله عز وجل - جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وبعد الملوك المكرمين أصنافاً وان كانوا في الحقيقة سواء ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة ، والعلم والرواية ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون ، فليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب ، فتناقشوا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين .. وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، ثم بالعربية فإنها ثقات ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وأرووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تصبوا اليه هممكم ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .

ويمضي عبد الحميد الكاتب في رسالته ليحدد للكُتّاب ما ينبغي أن يكون عليه طعامهم وسكنهم ، بالبعد عن التبذير ، ويحذرهم من الانشغال بالتدبير عن العمل . ويحذرهم من الغرور . « ولا يجاوز الرجل منكم – في هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومركبه ، ومطعمه ومشربه ، وبنائه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره – قدر حقه ، فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم – خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التصنيع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متالف الشرف ، وسوء العاقبة في الترف ، فانهما يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب ويفضحان أهلها ، ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب .

واعلموا ان للتدبير آفة متلفة ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ عمله ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن اكثاره ، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه ، وامداده بتسديده ، مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وادبه ، فانه ان ظن منكم ظان ، أو قال قائل : ان الذي برز من جميل صنعته ، وقوة حركته ، انما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمله غير جاف .

ولا يقل أحد منكم أن أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير ، من مرافقه في صناعته ، ومصاحبه في خدمته ، فان أعقل الرجلين عند ذوى الألباب ، من رمى بالعجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقل منه ، وأحمد في طريقته ، وعلى واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه ، من غير اغترار برأيه ، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعشيره ، وحمد الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته » .

بل ان عبد الحميد الكاتب في هذه الرسالة يوصى الكتاب بالدور الذي تقوم به في حياتنا المعاصرة اتحادات الكتاب في الرعاية الاجتماعية لأعضائها اذ يقول : « وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع اليه حاله ، ويثوب اليه أمره ، وان أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه ، وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته ، وقدم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه احفظ منه على ولده وأخيه ، فان عرضت في الشغل محمدة ، فلا يضفها إلا إلى صاحبه ، وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملل عند غير الحال ، فان العيب اليكم معشر الكتاب ، أسرع منه إلى القراء ، وهو لكم أفسد منه لها » .

ويحدد عبد الحميد الكاتب دوره عند توليه مسئولية قائلاً :

« وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً ، فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مكرماً وللغيء موفراً ، وللبلاد عامراً ، وللوعية متألفاً ، وعن ايذائهم متخلفاً » .

ويمضي عبد الحميد مع الكتاب يوجههم بأسلوب التغيير الذي ينبغي أن يلجأ اليه الكاتب قائلاً :

« واذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، اعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح ، بألف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة اذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فان كانت رموحاً لم يهجها إذا ركبها ، وان كانت شبوباً اتقاها من قبل يديها ، وان خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها ، وان كانت حروناً قمع برفق هواها في طريقها فان استمرت عطفها يسيراً ، فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم ، وجربهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ، ومداراته وتقويم أوده ، من سائس البهيمة التى لا تحير جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها . إلا فأمعنوا - رحمكم الله - في النظر ، وإعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة ، والاستثقال والجفرة ، ويصير منكم إلى الموافقة ، ويصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، ان شاء الله تعالى » .

قد يغضب القارىء المعاصر أو قد يضحك من تشبيه عبد الحميد لمهمة المؤلف بمهمة سائس البهيمة ولكن التشبيه في عصر عبد الحميد لم يكن يثير غضباً ولا ضحكاً ، بل كان متوافقاً مع ظروف العصر والبيئة .

ورسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب معروفة وجميلة ، وهي من عيون النثر العربي إلى يومنا هذا .. ثم هي جماع الأخلاق والفضائل التي يجب أن يتحلى بها الكتاب قديماً وحديثاً .

أثر ديوان عبد الملك بن مروان واضع مقومات تقدم الكتابة العربية

١ – الديوان والتراسل في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ)

يعتبر عمر بن الخطاب واضع أسس الحكم الاسلامي من الناحية العملية ويعبر عن ذلك بقول المؤرخين إن عمر أول من وضع الديوان أو دون الدواوين[١] ، وكلمة الديوان وجمعها دواوين هي كلمة فارسية كانت تعنى في أول الأمر السجل الذي يكتب فيه ما يختص بشئون الادارة ، ثم أصبحت تدل على المكان الذي يعمل فيه الكُتّاب – جمع كاتب – وهم رجال من أرباب الأقلام . يجيدون الكتابة ويحسنون أداء الحروف . وقد كان معظم هؤلاء من أهالى البلاد التى فتحها الاسلام . لأن أغلب العرب لاسيما في أول أمرهم ، لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة إلا في النادر .

لذلك لم يشترط في الكتاب أن يكونوا عرباً أو مسلمين ، وإن اشترط عليهم الخليفة عبد الملك بن مروان اجادة اللغة العربية ، فقد كانت الدواوين إلى وقت عهده لا تكتب بالعربية إلا في الأقاليم العربية ، أما في غير ذلك فتكتب باللغات التي فتحها العرب ، فكان ديوان الشام يكتب باليونانية ، وديوان مصر بالقبطية ، وديوان فارس بالفارسية ولكن عبد الملك بن مروان أمر بنقل الدواوين الى العربية ، مما ترتب عليه أن أصبحت الادارة عربية منذ عهده في جميع انحاء الخلافة الاسلامية .

ولقد أصبح لموظفي الدواوين في الدولة العباسية شأن كبير ، فقد كانت لهم علامات تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة وترمز اليهم ، منها الدواة والكرسى والمخدة والمسند والمرتبة[٢] وهي أدوات تستخدم في الكتابة والجلوس في الديوان ، كما أن الكبار منهم كانت لهم ألقاب أخصّها الشيخ[٣] . ويتميزون في ملابسهم بعمائم كبيرة تتفاوت في ضخامتها على حسب مراتبهم بحيث أصبح يطلق على طبقة الكتاب « أصحاب العمائم » .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين – القاهرة ١٩٤٣ .

(٢) صبح الأعشى : الجزء الثالث ص ٤٩٠ .

(٣) الخطط : ٢ ص ٢٤٤ ، وأيضاً د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ص ١٠١ .

(٤) الخطط : ٢ ص ٣٥٢ .

وقد كان عمل الدواوين يتلخص في الادارة المركزية والادارة المحلية ، فالأولى تشمل التراسل وشئون المال ، والأخرى تشمل ادارة الولايات .

التراسل : نعرف أن النبي ﷺ والخلفاء من بعده ، كانوا يتبادلون الرسائل مع الملوك وغيرهم من عمالهم وموظفيهم ، وقد أحكم نظام التراسل في عهد الأمويين ، وأصبح له ديوان خاص في عهد عبد الملك بن مروان ، يعرف **بديوان الرسائل** وبقى الأسم في عهد العباسيين ليدل على هذا الديوان .

كما أنه في مصر في عهد الفاطميين سمي بهذا الاسم أيضاً ، وان غلب عليه اسم **ديوان الانشاء والمكاتبات**[1] الذي بقى ليدل على ديوان الانشا في مصر بعدهم .

وقد أصبح عمل هذا الديوان معقداً ، وتعددت اختصاصاته ، وكثر عدد الكُتّاب الذين يعملون فيه ، فقد وجد فيه كتّاب رئيسيون يقومون بتجويد وتحسين الكتابة والانشاء ، وآخرون مساعدون يقومون بتجهيز الأدوات والورق والأحبار وغير ذلك وكان لابد للعاملين فيه أن يتقنوا اللغة العربية وآدابها ، وأن يعرفوا لغات أجنبية أهمها وقتئذ : الفارسية والتركية واليونانية والأرمنية وكذلك أصبح له منذ زمن مبكر أرشيف توضع فيه أصول كل ما يصدر عنه ، وله مشرف خاص اسمه الخازن ، فكانت أصول المراسلات ونسخها تنظم في دوسيهات تسمى أضابير توضع عليها بطائق تدل على محتوياتها ، ليسهل استخراجها .

وكل ما يصدر عن هذا الديوان ، كان لابد أن يكون عليه توقيع الخليفة[2] ليأخذ صبغة رسمية . وقد كان للنبي ﷺ خاتم يوقع به[3] ، وبقي هذا الختم في يد رسول الله ﷺ حتى وافته المنية ، وفي يد أبي بكر ، ومن بعده عمر بن الخطاب ، ثم صار الى عثمان فظل معه ست سنين ، ولما كثرت عليه المكاتبات دفعه الى رجل من الأنصار ليختم به ، وبعدها سقط في بئر تعرف باسم أريس وكانت ضحلة الماء ، فلما التمسوه لم يجدوه ، فاغتم

---

(١) ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسائل - تحقيق علي بهجت القاهرة ١٩٠٥ ، وأيضاً د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب . حققه السقا والأنباري وشلبي ط القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٤ .

(٣) راجع : علم الكتابة العربية (د. عبد الفتاح غنيمة) الجزء الأول ص ٢١١ . وأيضا د. أحمد جمال العمري : أبو بكر الصولي ص ٢٤٩

عثمان بعدها ، واتخذ خاتماً آخر من فضة أيضاً ونقش فيه مرة أخرى **محمد رسول الله** وقد استأثر الختم على المكاتبات والرسائل بمكانة كبيرة في عهد الخلفاء الراشدين .. ومنذ هذا الوقت والخلفاء يتخذون الخاتم للتوقيع ، حتى ان معاوية انشأ ديوان الخاتم ، ربما ليعنى

ديوان الرسائل ، ولكن منذ عهد العباسيين أو قبلهم ، عرف التوقيع بلفظة **العلامة** التي لا تعني توقيعاً بالخاتم ، وإنما عبارة دينية أو نعتاً . يقوم مقام التوقيع ، لذلك سمي توقيع سلاطين السلاجقة - الذين سيطروا على العباسيين باسم الطغرا أو الطغري ، وهي كلمة فارسية ، تعني نقشة معينة تدل عليهم ، ربما تكون نسبة إلى أحد الكتاب الذي أوجدها ولعله هو الحسين أبو اسماعيل الطغرائي وكان وزيراً للسلطان مسعود السلجوقي[1] وقد بقيت الطغراء حتى وقت سلاطين العثمانيين للتوقيع بها على الفرمانات وغيرها .

٢ - البريد : لم يكن من الممكن إرسال الرسائل من هذا الديوان بدون وجود تنظيم آخر يضمن وصولها ، ولا نعرف أنه وجد تنظيم معين لارسال الرسائل قبل الخلافة الأموية ، التي أنشأت مايعرف بالبريد[2] فيذكر المؤرخون أن معاوية وضع نظام البريد ، وجعله تابعاً لنظام التراسل ، وأن عبد الملك ابن مروان أحكمه ، ويذكرون أيضاً أن هذا النظام نقل عن البيزنطيين من النظام المعروف باسم الطريق العام ، أو عن الفرس ، وإن وجد في الدولة الاسلامية أساساً ليس حاجة الدولة ، وليس الأفراد . وكلمة بريد مجهولة الأصل ، فقد تكون من أصل عربي من بَرَد ، أي ثبت بما تستقر عليه الأخبار ، أو من الفارسية بريده دم ، ومعناه مقصوص الذنب كناية عن استخدام الفرس البغال في نقل رسائلهم وقص أذنابها أو من الناحية اللاتينية Veredus أي خيل أو ممن يقوم بنقل البريد Veredaril أو لعلها معرّبه لتدل على مسافة معلومة .

وكان للبريد في الخلافة الاسلامية وسائل متعددة ، منها الدواب بخاصة الخيل والجمال فكان يقام على السكك منازل أي أماكن ، عبارة عن قبة أو بيت توضع فيه الدواب لاستعمالها في نقل البريد ، وقد كان الذي ينقل البريد على الخيل في عهد المماليك يسمى بريدي ، وهو يحمله في خريطة أي حقيبة ، ويضع حول عنقه شرابة من حرير أصفر ، فقد ثبت فيها لوح من الفضة يوضع تحت ثيابه ، نقش عليه ما يدل على وظيفته في نقل الرسائل . أما الذي ينقل البريد على الجمال فيعرف بالنّجاب .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان - مصر ١٢٩٩ هـ ص ٢٨٤-٢٨٨ .

(٢) صبح الأعشى : جزء ١٣ ص ١٦٢ - ١٦٧ .

وأيضا جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي - مصر ١٩٠٢ ص ٩٥ .

كذلك استعار المسلمون نظام البريد بالحمام الزاجل أو حمام الرسائل وعرف باسم جناح المسلمين ، فكان أشبه ببريد الجو ، ولقد أفرد المسلمون لبريد الحمام ديوانا خاصاً ، وسجلوا دفاتر بأنساب الحمام المستخدم ، وتمييزه جعل له من الذهب خلاخيل في أرجله ، وألواح في أعناقه ، وقد كان المسلمون يستعملون اثناء الحروب اصطلاحاً أشبه بالشفرة فيما يحمله الحمام من أخبار ، حيث كانت تكتب الرسائل على ورق خفيف وبخط دقيق ورفيع يصعب قراءته ، حيث تطوي الرسالة وتعلق بأجنحة الحمام أو بأرجله ، وقد كثرت أبراج الحمام في عهد المماليك ، وكانت القلعة بالقاهرة مركزه ، ومن يشرف عليها يسمى برّاج . ولم يكن البريد يقوم فقط بنقل الأخبار ، ومتجددات الأحوال الرسمية ، ولكنه يقوم بأعمال الشرطة السرية فعرف بعض رجاله بالعيون ورئيسهم بصاحب الخبر[1].

٣ – **إصدار العملة العربية** : ظلت الدولة الاسلامية العربية ، منذ نشأتها حتى عهد عبد الملك بن مروان ، تتعامل بالنقود الأجنبية . ذلك أن العرب منذ الجاهلية كانوا يذهبون في التجارة الى بلاد الروم ، فيحصلون على عملة الدولة الرومية . ويذهبون كذلك الى بلاد الفرس أو اليمن ، فيحصلون على العملات الفارسية واليمنية . وكانت هذه هي النقود الموجودة في الأسواق . ولما ظهر الاسلام وفتح العرب تلك البلاد ، وجدوا فيها العملات الرومية والفارسية . كانت الدنانير الذهبية ترد اذن من بلاد الروم ، والدراهم الفضية تأتي من بلاد الفرس ، وهناك دراهم قليلة ترد من بلاد اليمن . ولم تهتم الدولة الاسلامية – في بادىء الأمر – بأن تصدر نقوداً خاصة بها . فهذه العملات في بادىء الأمر كانت موفورة . وكل ما فعله الاسلام أن أقر وزناً شرعياً خاصاً ، وهو الوزن الذي كانت تتعامل به قريش في مكة . وذلك لأن العرب والتجار كانوا يتعاملون بهذه النقود بالوزن – لا بالعدد كأنها تبر ، وليست نقوداً ، لاختلاف أحجام وأوزان الوحدات النقدية ، فلا يضمن العدل إلا بالوزن .

ثم اتسعت الدولة الاسلامية ، وتطورت الى امبراطورية ممتدة الأطراف ، وكثر فيها التعامل وازداد نشاطها التجاري . وكانت دولة الفرس قد انتهت . وانقطعت العلاقات التجارية بين الدولة الاسلامية والروم – أو قلت . فأدى ذلك الى أنه – في الوقت الذي كثر فيه التعامل ، وازداد النشاط الاقتصادي في الدولة الاسلامية – أخذت تقل كمية النقود السائلة في الأسواق ، لانقطاع مصادرها ، أو صارت – باطراد – لا تتناسب

---

(١) الخطط الجزء الرابع ص ٨٨ .

ولا تتكافأ مع نشاط الدولة المالي ، وحاجاتها الاقتصادية . وظلت الحالة تزداد سوءاً ، حتى وصلت الى درجة خطيرة .

وكان أهم عامل أدى الى سوء الوضع المالي - ولاسيما بالنسبة للنقود الفارسية - أن هذه النقود دخل عليها الغش والتزييف[1]، منذ أواخر عهد الدولة الفارسية . واستمر الغش فيها بعد ذلك ، وكذلك كثر تزييف أو انقاص العملة الذهبية . قال « قدامة » بالنسبة للدولة الفارسية : « ولما أخذ أمر الفرس يضمحل ، ودولتهم تضعف ، وسياستهم تضطرب - فسدت نقودهم . فقام الاسلام ونقودهم من العين (الذهب) والورق (الفضة) غير خالصة . الى أن اتخذ الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين الخ » . وقرر ابن خلدون أنه « تفاحش الغش في الدنانير والدراهم » ، « الى أن جاء عبد الملك وأمر بطبع العملة » . وهكذا كانت العملة الموجودة بالأسواق - كما نقول بالتعبير الاقتصادي - قد أصبحت « عملة رديئة » . والعملة الرديئة - كما ينص على ذلك قانون اقتصادي مشهور - تطرد دائما العملة الجيدة من السوق . وأدى ذلك الى نتائج اقتصادية ضارة كثيرة : فمنها هبوط قيمة العملة ، وارتفاع أسعار الحاجيات ، وزوال الثقة المالية ، ومن أهمها الغبن الذي يقع على الدولة في استيفاء حقوقها من الضرائب ، فيؤدي ذلك الى نقص كمية الخراج .

لكل هذه الأسباب ، ولأنه ما كان يمكن أو يصح أن تظل دولة - بل امبراطورية كبيرة كالدولة العربية الاسلامية - معتمدة في تعاملها التجاري أو الاقتصادي العام على نقود أجنبية - كان لابد من اتخاذ اجراءات لاصلاح هذا الوضع المالي الجامد ، الذي صار غير طبيعي ، وأيضاً لكي تستكمل الدولة شخصيتها أو مقوماتها الاقتصادية ، وتحقق سيادتها أو استقلالها المالي ، وتتمم كرامتها القومية .

وجاء حادث يؤثر في الكرامة القومية . فكان هو السبب الأخير أو المباشر الذي جعل المسئولين يرون ضرورة البدء في الاصلاح . هذا الحادث كان من أسباب سوء العلاقات بين الدولة الاسلامية ودولة الروم البيزنطية ، الذي سبق اعلان الحرب بينهما . وهي الحرب التي نشبت بين الخليفة عبد الملك وجستنيان - التي أشرنا اليها قبلاً . وذلك في سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) وما بعدها . وموجز الحادث أن مصر - كانت مشهورة بصنع الورق - كانت تصدر ورق الكتابة (القراطيس) الى دولة الروم ، وكانت الدولة

---

(١) تزييف العملة قضية تاريخية قديمة منذ الدولة الرومانية .

الاسلامية - في مقابل ذلك - تحصل على الدنانير الرومية . فحدث أن عبد الملك بن مروان أمر أن تكتب آية : « قل هو الله أحد » في صدر هذه الصحف ، وبدل عبارات التثليث . والصليب الذي كان يرسم عليها . فغضب ملك الروم ، وكتب الى الخليفة : « انكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه . فان تركتموه ، والا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه » . فساء ذلك عبد الملك وكبر عليه ، وشعر أن ملك الروم يهدده . وحينئذ أدرك أن الدولة الاسلامية الكبيرة لا يصح أن تظل معتمدة على النقد الذي يرد من بلاد العدو ، وتبقى عرضة لتهديده أو اذلاله . وهو العدو الذليل الذي يجب أن يبقى خاضعاً .

قرر عبد الملك اذن أن يحقق للدولة استقلالها المالي ، ويجري الاصلاح الذي يزيل المفاسد الاقتصادية التي تحدثنا عنها ، ويضمن سلامة العملة ، ويوفر الشروط اللازمة للنمو الاقتصادي وانتشار الرخاء . وبذلك قرر اصدار العملة العربية القومية . ففي عام ٧٤ هـ أنشأ دارا للضرب في دمشق ، وبدأ باصدار الدينار العربي الذهبي Dinarius Aureus وهو مسكوك من الذهب ويزن ٤٫٢٥ جم ، في ذلك العام - وهو عام الجماعة . وكذلك أصدر أمره الى الحجاج بانشاء دار للضرب في الكوفة ، وبدأ الحجاج اصدار الدرهم العربي الاسلامي Drachmوهو مسكوك من الفضةويزن ٢٫٩٧ جم . وعمم ضرب العملة في جميع الأنحاء منذ سنة ٧٦ هـ . وقد أصدر عبد الملك الدينار والدرهم على الوزن الشرعي ، والنسبة المعينة التي حددها الاسلام ، وذلك منذ عهد الرسول ﷺ والخليفة عمر بن الخطاب . فجاءت عملة نقية خالصة . وحرصت الدولة على سلامة النقد . ومنعت ضرب النقود الا في الدور الحكومية المعتمدة . وشددت في عقوبة من يمس العملة بغش أو تزييف . فكان هذا اصلاحاً شرعياً أو عملاً دينياً أيضاً ، يضاف الى حسنات عبد الملك ، الى جانب انه اصلاح اقتصادي .

ولما صدرت العملة الاسلامية وكثرت ، أمر عبد الملك بمنع التعامل بالنقود الأجنبية الرومية والفارسية وغيرها ، التي كان أكثرها عملة مغشوشة - كما بينا - وجمعت من الأسواق ، وأعيد سبكها وطبعها على النسبة الجديدة . وهكذا بطل التعامل - نهائياً - بالنقود الأجنبية . وصارت العملة الرسمية المعترف بها ، منذ ذلك الحين ، هي العلمة العربية الاسلامية الصحيحة : الدينار العربي الذهبي الخالص ، والدرهم الاسلامي الفضي الخالص ، والوحدات اللائي ينقسمان اليها وهي الفلس Follis وهو مصنوع من النحاس وله أوزان مختلفة ، وقد اهتم العرب بنقوش عملاتهم وأوزانهم ، وصنعوا لضبط هذه الأوزان وتحديدها صنجاً زجاجية مقدرة بالقراريط والخراريب . وأصبحت سمعة هذه العملة أشرف سمعة ، لأنها كانت تمثل أعلى درجة في الجودة والنقاء .

هذا الاصلاح الكبير – الذي كانت له أنفع النتائج الاقتصادية ، ووفر للدولة أيضاً ، من ناحية أخرى ، أحد عناصرها المعنوية ، ومقوماتها القومية – كان الفضل فيه للخليفة عبد الملك بن مروان .

٤ – **اللغة العربية هي اللغة الرسمية** : نفذ عبد الملك أيضاً اصلاحاً آخر ، كان له أجل النتائج من حيث صيانة أحد المقومات الكبرى للأمة ، وحفظ كيانها القومي ، وهو خاص باللغة . واللغة – بلا جدال – من أكبر مقومات وأهم أركان القومية .

فقد بقيت أهم دواوين في الدولة – وهي دواوين الخراج – وهي التي كانت تشرف على الشئون المالية للدولة ، وكانت موجودة في عواصم الدولة العربية الاسلامية ولها فروعها في مدن كثيرة – بقيت هذه الدواوين تستعمل اللغات الأجنبية – كما كانت حالها في عهود الدول السابقة قبل ظهور الاسلام . فكانت لغة الدواوين في العراق هي اللغة الفارسية ، ولغتها في الشام الرومية أي اليونانية ، وفي مصر اليونانية والقبطية . واستمر الحال على ذلك ، منذ بدء الاسلام حتى عهد عبد الملك . فكانت نتيجة ذلك احتفاظ الدولة بطوائف من الموظفين ، الذين يعتبرون أجانب ، أي من غير العرب والمسلمين . ومن نتائجه بقاء تلك اللغات الأجنبية حية ، وكأنها معترف بها لغات رسمية ، ويقبل الناس على تعلمها واتقانها لحاجة الدولة اليها ، وكونها طريقاً لتولي الوظائف العالية . ولو استمر الحال كذلك لبقيت هذه اللغات منافسة للغة العربية ، ولما أمكن للغة العربية أن تتغلب عليها ، بل لأدى ذلك الى انتشار هذه اللغات الأجنبية ، وكان هذا يضعف من شأن اللغة العربية وخطراً يهددها . وبالتالي كان يضعف من تكوين الدولة القومي .

وشعر عبد الملك بتعارض هذا الوضع مع شخصية الدولة العربية الاسلامية ، التي كان يرأسها ويرعاها . وكان هو مهتماً بالاشراف على جميع شئون الدولة ، وحريصاً على أن تبلغ الادارة درجة عالية من الكفاءة والدقة والانتظام ، ووجد – من الناحية العملية – أن هذا لا يمكن أن يتم ما دام هؤلاء الموظفون غريبين عن الدولة ، وما دامت اللغات التي يستعملونها في الأعمال والمكاتبات الرسمية هي لغات أجنبية . فقرر عبد الملك ازالة هذا الوضع الشاذ ، وأصدر أوامره بتحويل الدواوين الى اللغة العربية ، فتكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة في جميع الدواوين ، وفي الدولة . وهذه هي الحركة التي تسمى في كتب التاريخ بحركة : « **تعريب الدواوين** » . وكانت لها نتائج عظيمة بعيدة المدى .

كان رئيس ديوان الخراج بدمشق هو « سرجون ابن منصور الرومي » ، وكان محتكراً لهذا العمل منذ عهد معاوية . فأمر عبد الملك شخصاً عربياً هو « سليمان بن سعد

الخشني » ، الملقب أبا ثابت ، أن يقوم بتحويل الديوان من الرومية الى العربية . فقام سليمان بذلك منذ سنة ٨١ هـ . وأتم النقل بعد سنة . وكان عبد الملك قد جعل له خراج الأردن في مقابل هذا العمل . ولما أتم النقل ، عزل سرجون وتولى سليمان رئاسة الديوان . وحينئذ قال سرجون لكتاب الروم : « اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة » . وأمر عبد الملك بتحويل جميع دواوين الشام ، على هذا النحو .

وكان رئيس ديوان العراق يسمى « زاذان فروخ » – وهو فارسي – وكان محتكراً لهذا العمل كذلك من أيام يزيد – وقتل في أثناء فتنة ابن الأشعث في عام ٨٢ هـ . وجاء قتله مناسباً للوقت الذي اتجهت فيه الدولة الى تعريب الدواوين ، وصدر الأمر بذلك من الخليفة عبد الملك . فعين الحجاج بدلاً منه صالح بن عبد الرحمن ، وأمره بتحويل ديوان العراق من الفارسية الى العربية . وكان صالح يحذق اللغتين معاً . وحدد الحجاج له أجلاً لينهي عمله . فأتم مهمته بنجاح . وحكى أن « مردانشاه » بن زاذان فروخ بذل له مائة ألف درهم ، على أن يظهر عجزه عن هذا العمل ويمتنع عنه ، فأبى . وحينئذ دعا عليه لأنه – كما قال – قطع أصل الفارسية . وأمر الحجاج بتحويل جميع دواوين العراق من الفارسية الى العربية . وتخرج على يد صالح هذا أكثر كتاب العراق . ولذا كان عبد الحميد الكاتب يقول : « لله در صالح . ما أعظم منته على الكتاب » .

وكذلك تم نقل ديوان الخراج أيضاً في مصر ، من اليونانية والقبطية الى اللغة العربية ، ولكن في وقت بعد هذا . أمر بنقله عبد الله بن عبد الملك في آخر عهد أبيه .

ثم تم تحويل جميع الدواوين في سائر أنحاء الدولة الى العربية ، في أوقات بعد ذلك .

بذلك أصبحت اللغة العربية هي لغة جميع الدواوين ، ولغة الدولة . وكانت كبرى نتائج ذلك ابطال تلك اللغات الأجنبية ، فتحقق نصر اللغة العربية عليها . وكان تعريب الدواوين سبيلاً الى تعريب الجاليات والأقاليم ، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار العربية . ولما كانت هي اللغة التي تؤدي الى الوظائف والمناصب العالية ، فقد أصبحت لها المكانة الممتازة . وأقبل الموالي وغيرهم على تعلمها واتقانها ،فتكونت في الدواوين طبقات من الموظفين المثقفين الذين حصلوا على قدر من الثقافة العربية ، ونبغوا في الكتابة والآداب العربية . ومن أظهر الأمثلة في ذلك : عبد الحميد الكاتب ، ثم كبار الكتاب في عهد بني العباس .

حفظ عبد الملك للأمة العربية اذن أكبر مقوم لثقافتها القومية ، وأغلى عنصر تعتز به – بعد دينها – في تكوين شخصيتها – ألا ، وهو اللغة العربية . وكان لعبد الملك فضل لا يقدر في ذلك .

مكانة عبد الملك في التاريخ :

الآن بعد أن وصلنا الى هذه الغاية ، وفي ضوء ما قدمنا من حقائق عن سيرة عبد الملك وأعماله وفتوحاته واصلاحاته ، نستطيع القول بأن مكانته في التاريخ قد أصبحت واضحة . فهذه المكانة تحددها الجوانب الرئيسية التالية :

أولاً : أنه حفظ الدولة وثبت دعائمها ، ومكنها من البقاء والاستمرار .

ثانياً : أنه حقق وحدة الدولة . وهذا مطلب غال . وهو أكبر ضمان لبقائها ونموها وازدياد قوتها .

ثالثاً : أنه عمل على تقوية الدولة ، وجعلها تسترد مكانتها وهيبتها وسيادتها على الأعداء - كما كانت ، أو أكثر .

رابعاً : أنه وسع حدود الدولة ، فأضاف اليها أقاليم جديدة . وأهم ما تحقق في هذا الشأن فتوحه في بلاد المغرب . فأصبحت منذ ذلك الحين جزءا لا يتجزأ من الدولة العربية .

خامساً : وضع أساس السيادة الاقتصادية للدولة باصداره العملة العربية .

سادساً : حفظ أحد المقومات الكبرى للدولة وللقومية بتحويله جميع الدواوين الى اللغة العربية .

وقد استمرت الدولة بعد ذلك محتفظة بهذه المميزات والمقومات والأسس ، حتى بعد أن انتهى عهد الدولة الأموية ، وذلك بعد نحو نصف قرن . فان الدولة العباسية انما قامت - أيضا - على هذه الأسس ، واحتفظت بهذه المقومات . وكانت - على رغم تغيير الأسرة - استمراراً للدولة الأموية ، من حيث القواعد الجوهرية . ولولا اقامة عبد الملك للدولة على أسس ثابتة ، وتحقيق وحدتها ، واعادة قوتها وروحها وتدعيم نظمها - لما أمكن لبني العباس أن يقيموا دولتهم ويحفظوها ، ويسيروا بها الى أن أوصلوها الذروة التي بلغتها . فاللاحق بنى على جهود السابق ، والدولة الاسلامية العربية استمرت في حياتها .

التطور الشكلي للكتابة في العصر الأموي
(بدايات تحسين الخط)

العصر الأموي له فضلان على الكتابة العربية :

أولا : فضل بداية « تجويد » خط الكتابة وتحسينه أي اعطاؤه السمة الجمالية

للحروف وتكوينها بعيداً عن المعاني والمضمون .. أي بداية الحركة الفنية للخط .

ثانياً : فضل نقل صناعة الورق من أطراف الصين إلى سمرقند وبغداد وطرابلس والشام ، ولا يخفي ما في هذه الخطوة الذكية وهي انشاء صناعة الورق بالدول الإسلامية من أثر بالغ في نهوض وانطلاق صناعتي الكتابة العادية (أي صياغة الكلمات) وكتابة الخط (أي تجويد الحروف وتشكيلها تشكيلاً فنياً) .

ويلاحظ هنا أن « فن الخط » بدأ على أيدي « الكُتاب » فالكاتب أصلاً في الدولة الاسلامية هو ما يعادل الآن « وزير القصر » أو رئيس الديوان .. أو هو الأديب والسياسي والدبلوماسي والمسئول عن صياغة المعاني وتوجيهات الخليفة أو الوالي .. فلابد أن تكون العبارة التي يصيغها في قمة البلاغة والكياسة والجمال المعبر عن رفعة مصدرها ، وتشاء حكمة العلي القدير أن تكون الكلمة العربية متسعة لكل ما يصل اليه الفكر من المعاني والخيال وحبك الصياغة والهامات الفن وايحاءاته . وتنافس الكتاب وظهر النابهون والنابغون وهم كثيرون ومنهم عبد الحميد الكاتب كما سبق أن ذكرنا : وخالد بن أبي الهياج ومالك بن دينار .. وفي أواخر الدولة الأموية ظهر كاتب خطاط أجاد فن الكتابة فأوجد لنفسه شهرة عريضة بناها على أساس ابتكاره لأنواع جديدة من الخطوط لم تكن معروفة قبله ذلك هو : قطبه المحرر الذي انتهت إليه ريادة فن الخط في العصر الأموي . كان **قطبة المحرّر** هو الذي استخرج الأقلام الأربعة ، واشتق بعضها من بعض ، ويقول عنه ابن النديم : كان قطبة اكتب الناس على الأرض العربية ، وقامت شهرته على ابداعه أقلاماً جديدة لم تكن معروفة لدى أهل المدينة ولا أهل مكة ولا الكوفة والبصرة . وهذا يعني أن هذا الخطاط الأموي قد خرج عن الخط **المبسوط** اليابس والتزم الخط **المقور** اللين والذي كان شائع الاستعمال في مكة والمدينة .

أنواع خطوط الكتابة في العصر الأموي : (٤١ - ١٣٢ هـ) (٦٦١ - ٧٥٠ م) :

من الواضح أنه قبل ظهور الاسلام لم يكن هناك اهتمام بالكتابة أو تجويدها وسادت الكتابة السريانية والنبطية .

وبعد ظهور الاسلام واهتمام الرسول ﷺ والدعوة بالكتابة وتجويدها من واقع قوله لعلي بن أبي طالب كرم الله وجه : الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً بدأ ظهور المدارس الاقليمية .

وكان مما هيأ الفرصة للعناية بالخط العربي وانتشاره تعريب الدواوين في عهد الخليفة

الأموي عبد الملك بن مروان : إذ أدى استخدام اللغة العربية في الدواوين إلى إحلال الكتابة بالخط العربي محل الكتابات الأخرى . وأدى ذلك إلى الاقبال على تعلم الكتابة العربية وانتشار الخط العربي في الأقطار التي خضعت لحكم العرب بحيث صار الخط العربي من أهم مظاهر سيادة الدولة الاسلامية ، بل صارت كثير من اللغات غير العربية تكتب بخط عربي مثل الفارسية والتركية وغيرها .

وكان الخط يسمى باسم هذه الأقاليم مثل : الخط الحجازي .. والخط المدني .. الأول يمتاز بالليونة والثاني باليبوسة ثم التدوين المتميز بالسرعة والاستدارات .

ثم ظهرت مدرسة الكوفة صاحبة « الخط الكوفي » المنتسب إلى مدرسة « المدينة » اليابسة و« مدرسة البصرة » الخط البصري المنتمي إلى الخط الحجازي اللين .

ثم انتقلت الرعاية والاهتمام إلى دمشق بعد ما قامت الدولة الأموية وخطت الكتابة العربية خطوات إلى الأمام وظهر لها أعلام كان أعلاهم « قطبة المحرر » والذي أخذ يبتدع خطوطاً جديدة ويشير إلى قواعد تكوينها .

العصر العباسي عصر التأليف والترجمة والتدوين

لقد كان المسلمون في أواسط القرن الثاني الهجري يتدارسون علوماً كثيرة ، منها الشرعية ، ومنها اللسانية ، ومنها الكونية . وكان اعتمادهم في مدارستهم على التلقي والمشافهة . وكان بعض طلاب العلم يقيدون ذلك بالكتابة لتكون تذكرة لهم إذا طغى على عقولهم النسيان . وكانت الحافظة عندهم هي المرجع الأول وعليها المعول ، فلماانشئت مدينة بغداد وأصبحت مقر الخلافة الاسلامية أقبل أهل الفضل إليها ، وأمها العلماء من كل صوب ، وجعلوها دار اقامتهم ، فأصبحت بذلك موئل العلوم الاسلامية ومجتمع الفنون الأدبية وملتقى الثقافات المختلفة ، فزخرت بالنور وازدهت بالعرفان ، وأينعت فيها ثمار العقول ، وصارت منار الحاضر ومحط رحال العلماء والفضلاء .

والحق أن تاريخ بغداد السياسي والاجتماعي والأدبي يعتبر – إلى حد ما – تاريخ العالم الاسلامي في خلال حقبة من الزمان لا تقل عن خمسة قرون . ولا مراء في أنه لم تصل مدينة من مدن الاسلام في تلك العصور الخالية إلى ما وصلت اليه بغداد من سعة العمران وعظم الآثار . كما أنه لم تصب مدينة منها بما أصيبت به بغداد من الكوارث والجوائح . فكما تضافرت الأيدي على عمرانها ورفعة شأنها ، تضافرت الخطوب والعوادي على تمزيق



الحروف الأبجدية بالخط الكوفي المعروف بخط المصاحف القديم
بقلم الأستاذ كامل ابراهيم

أوصالها وطمس معالمها ، حتى لم يبق من رسومها اليوم أثر يمكن أن يهتدي به الباحث المنقب إلى تعيين المواضع التي كانت تقوم عليها تلك القصور الشاهقة والمباني الشامخة والمساجد الجامعة والمدارس العظيمة التي كانت تملأ سمع الزمان وبصره ، اللهم إلا بعض أطلال لا تزال ماثلة .

وقد أخذ الخلفاء والأمراء بناصر العلم والعلماء ، واشتد ولعهم بنقل العلوم الأجنبية وتدوين العلوم الدينية ، فاكتظت بغداد بالنابغين في علوم الدين ، والعباقرة في العلوم اللسانية ، والمبرزين في فنون السياسة والحرب . وكان كل من تفرد بضرب من ضروب المعرفة يلقي من الخلفاء ألواناً من الاكرام وضروباً من أشكال المنح والعطايا .

وفي هذه الفترة نبغ أئمة المذاهب الأربعة ، ودون مذهبا أبي حنيفة ومالك ، وزار بغداد الامام محمد بن ادريس الشافعي مرتين ، وفيها أملى مذهبه القديم ، ولقيه فيها الامام أحمد بن حنبل ولقح مذهبه بآرائه ، وقد أخذ عن ابن حنبل الكاتب الأديب ابن قتيبة .

وفي هذه الحقبة تم تدوين الحديث واللغة والشعر والتاريخ ، وظهر عظماء القراء ، ونهضت حركة الترجمة نهوضاً مباركاً فغزت العلوم الكونية الفكر العربي وصقلته ظهر أثره في جميع نواحي الحياة العباسية . وكان الخلفاء - وبخاصة المأمون - يشجعون هذه الحركة بكل ما أوتوا من قوة ، ويراسلون البعثات إلى البلاد الأجنبية ليستحضروا الكتب ،فيتلقفها المترجمون وينشروها بين الناس بالعربية ، وكانوا يغدقون العطايا لهؤلاء المترجمون حتى ليقال « أن المأمون كان يعطي حنين بن اسحاق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل »[1] .

وكان خلفاء بني العباس في عصرهم الأول يجلون العلماء ويحتفون بهم . وقد سهلوا نزوحهم اليهم ، وأجروا الأرزاق عليهم ، وبالغوا في اكرامهم ، وقربوهم ، وجالسوهم ، وآكلوهم ، وحادثوهم وعولوا على آرائهم ، فلم يبق ذو قريحة أو علم إلا اتجه إلى بغداد . والعلم لا يزدهر إلا في ظل حاكم يشغف به ويأخذ بأيدي أهله . وهؤلاء الخلفاء كانوا من أكثر الملوك رغبة في العلم ، ولهذا عنوا - إلى جانب ما ذكرنا - بانشاء خزائن الكتب ودورها . وكان لهذه الدور شأن كبير في نشر العلم والمعرفة ، ويقول المستشرق الأستاذ جويدي : « من الأمور التي أحيت العلوم في الأمة العربية اقامة دار الحكمة في بغداد[2] .

---

(١) وإذا كنت في حاجة الى معرفة واسعة عن حالة الترجمة فاقرأ كتاب أخبار الحكماء للقفطي ، • كتاب التمدن الاسلامي لجورجي زيدان ، وكتاب عصر المأمون لفريد رفاعي .

(٢) محاضرات جويدي ص ٩ .

وكان في تلك الدار خزانة كتب قيمة يجتمع فيها علماء ذلك العصر للدرس والبحث والمذاكرة . وكان علان الشعوبي ينسخ من تلك الخزانة كتباً للرشيد والمأمون والبرامكة . وكان ابن أبي الحريش يجلد هذه الكتب وهو معروف بهذه الصناعة[1] .

ومما ساعد على تقدم العلوم التنافس قام بين العرب والروم . فقد أنشأ الروم في ذلك العصر مدرسة تشبه دار الحكمة في القسطنطينية ، وكان ملك الروم « قسطنطين الثاني » محباً للعلم ، مشجعاً لأهله[2] .

وقد تنافس الأمراء وعلية القوم في اقتفاء أثر الخلفاء في خدمة الأدب والعلم ، والناس - كما يقولون - على دين ملوكهم ، فأنشأوا خزائن الكتب في قصورهم ، وسعوا ما وسعهم السعي إلى جمع الكتب ، مجزلين العطايا لكل من ينقل لهم ضرباً جديداً من المعارف . ومن أشهرهم بنو موسى بن شاكر ، محمد وأحمد والحسن ، ويقول عنهم ابن خلكان : « وكانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل . وكذلك آل بختيشوع ، وآل حنين بن اسحاق وآل الكرخي واسحاق الوصلي وغيرهم .

وقد أدرك القوم أن كل عز لم يسند بعلم كان مآله الانحلال ، فأكبوا على العلوم والآداب ، ينهلون من بحارها ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وأصبح التعليم صناعة ، فرخت عيشة المؤدبين ، وغدا التأديب طريقاً إلى المجد والسؤدد وسبيلاً إلى مؤانسة الخلفاء ومسامرتهم . وقد عمرت مجالس العلم والأدب ، وأمست دور الكبراء مثابة المفكرين وحملة الأشعار والطرف والأخبار .

وقد نهضت العلوم اللسانية نهوضاً حثيثاً في ذلك العهد ، ولاشك أن الدافع الأول لوضع هذه العلوم هو الدين . ذلك أنه لم تفشى اللحن في اللغة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم جزع الأئمة وذوو النعرة العربية من هذا اللحن وأشفقوا على القرآن أن يستغلق فهمه على الناس ، فهبوا لمحاربة هذا الوباء بالحض على التعلم وتدوين علوم اللسان من لغة ونحو .

وقد شد الخلفاء ورجال الدولة أزر هذه النهضة حرصاً على الدين الذي كان مظهرهم الأكبر ، فحشدوا في قصورهم أئمة اللسان يؤدبون أولادهم ، فكانوا أمراء الكلام والبلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة الدولة . وقد عرف الناس منهم ذلك فتقربوا اليهم بالعلم والأدب ، لم يعز على من فاته شرف الحسب والسلطان أن يتجه اليه بالعلم

(١) فهرست ابن النديم ص ١٠ .

(٢) محاضرات جويدى ص ١٠ .

والأدب ، فنبغ فيهم الكثير وقد كان نشاط المسلمين وتنافسهم في هذه الناحية يستثير الاعجاب ، وكانوا يتسابقون في تدوين العلم وتنظيمه تسابق آبائهم في الفتوح والغزوات .

ومن المحقق أن أول ما دون وكتب - بعد القرآن طبعاً - هو الحديث والفقه وأصوله ، ثم جاء النحو وعلوم العربية بعد ذلك .

وكانت هذه العلوم قبل ذلك العهد مختلطة غير مرتبة « فكان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة »[1] كما يقول السيوطي .

أما في العصر العباسي فقد دونت هذه العلوم واتخذت شكلاً آخر من حيث الترتيب والتبويب والقياس عليها . ووجدت بجانبها علوم أخرى دنيوية كالمنطق والفلسفة والرياضة والطب والهيئة والكيمياء .

والحق أن العلوم العربية كلها تقريباً قد وضعت أسسها في العصر العباسي الأول ، وبعضها تم بناؤه في هذا العصر . وكذلك ترجمت علوم الأمم الأخرى - كما ذكرنا - وتمثلها المسلمون ، وبدأ علماؤهم بعد ذلك يؤلفون فيها .

وقد ظل المسلمون فترات طويلة يعتمدون في حياتهم العلمية على تلك العلوم التي وضعت في هذا العصر .

وكان مما ساعد على تنشيط هذه الحركة العلمية والنهوض بها ظهور صناعة الورق واتساعها ويقال أن البرامكة هم الذين أشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم[2]. ثم أمر الرشيد ألا يكتب الناس إلا في الكاغد ، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة ، فتقبل التزوير ، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار[3] وكان لظهور الورق فضل وجود الكتب وخزائنها ، كما كان له فضل في قيام صناعة « الوراقة » . وكان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها ، وكان كثير من العلماء يذهبون إلى دكاكين الوراقين ويقرؤن ما فيها من كتب ، واشتهر منهم الجاحظ .

وليس من شك في أن العلوم قد اتخذت لوناً خاصاً في ظلال العباسيين ما كانت لتتخذه لو بعثت في عصر غير هذا العصر باستثناء العلوم التي كان مقياسها العقل الخالص كالمنطق والرياضيات وما شابهها[4] .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠١ .
(٢) حضارة الاسلام في دار السلام لجميل المدور ص ١٧٢ .
(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٤٩ ، وصبح الأعشى ٤٧٥/١ .
(٤) في كتاب ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٥٥ وما بعدها للأستاذ أحمد أمين

وكانت هذه العلوم تنتشر في الآفاق بوسائل عدة أهمها الكتاتيب والمساجد . وكان بالمساجد حلقات لمختلف العلوم كما كان الحال بالأزهر الشريف إلى عهد قريب . وكانت وسائل نشر العلم أيضاً مجالس المناظرة في القصور والدور ، وكان كثير من الخلفاء والوزراء والولاة يشجعون هذه المناظرات مادياً وأدبياً ، وأحياناً يشتركون فيها . وقد عقد السيوطي فصلاً عن « المناظرات مادياً وأدبياً ، وأحياناً يشتركون فيها . قد عقد السيوطي فصلاً عن المناظرات والمجالسات والفتاوي والمكاتبات والمراسلات »[1] أورد فيها الكثير منها . ومن أهم الوسائل « المكتبات » . وأعظم مكتبة ظهرت في العصر العباسي مكتبة « بيت الحكمة » التي أشرنا اليها فيما قبل .

وقد انتشرت إلى جانب ذلك مجالس اللهو والشراب ، وكان يغشاها الأدباء والشعراء وأرباب الفنون ، فكانت هي الأخرى ينبوعاً للشعر وما يتبعه من لطيف الملح وطريف الأفاكية .

وقد أخذ الناس يتمززون طعم الحياة وينعمون بمباهجها ، وأضحى رجال الدولة ومن والاهم يغشون مجالس الغناء والموسيقى والطرب وأصبحت معظم الطبقات تألف ذلك من غير حرج .

ولقد ساعد على تنوع الثقافات الحرية الفكرية التي أظلت العقول في ذلك الحين نتيجة امتزاج العنصر العربي بغيره من العناصر الأجنبية الأخرى وبخاصة في زمن المأمون .

وكان المأمون يترك للناس حرية المعتقدات مهما كان فيها من زيغ ومروق . وكان يؤتي بالمارق يمثل بين يديه فيجادله بالتي هي أحسن حتى يهديه سواء السبيل . وقد قال للمرتد الخراساني لأن أستحييك بحق أحب إلى من أن أقتلك بحق ، ولأن أقبلك بالبراءة أحب إلى من أن أدفعك بالتهمة . وأخذ يحاوره حتى أقام عليه الحجة ، فأناب المرتد إلى الله عن عقيدة وايمان .

وكان المأمون يسهم في المناظرات الدينية ويحاج الفقهاء في كثير من الأمور . وكان يأمر قاضي قضاته يحيى بن أكثم أن يحضر معه رجالا يحسنون الفقه والجواب ، فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه ، وعليه سواده وطيلسانه وعمامته ، فإذا استقر بهم المجلس تحدر عن فراشه ونزع عمامته ووضع قلنسوته ، وما كان يمنعه من خلع خفيه إلا العلة ، ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيالسهم ويقول لهم : « انما بعث لكم معشر القوم

---

(١) انظر كتاب « الأشباه والنظائر » ١٥/٣ للسيوطي .

للمناظرة » ثم يلقي عليهم مسائل الفقه ويرد على كل واحد منهم . وكان يخيرهم أن يسألوه أو يسألهم . ويؤثر عنه أنه كان يجل علماء اليهود والنصارى ، ويحتفي بهم في مجلسه لعلمهم وثقافتهم في لغة العرب وحذقهم لغة اليونان والسريان .

ويبدو لي أن المأمون كان يرمي من وراء هذه المناظرات كلها إلى اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين . وكان يكره في المناظرات إلى ما كان يبتغيه ، فلم ير بدأ من الاستعانة بسلطانه في اقامة ما يراه الحق ، ولا سيما مسألة خلق القرآن .

وقد بلغ من تمتع القوم بهذه الحرية أن المجوس كانا يعارضون علماء المسلمين ، وقد ذكر الجاحظ بعض هذه المعارضات في كتاب الحيوان .

والحق أن هذه الحرية الفكرية التي أباحها المأمون للناس جميعا كانت سبباً في تشتيت العقائد وكثرة الفرق بين المسلمين . فبعد أن كانوا لا يعرفون غير الكتاب والسنة اختلفت كلمتهم حتى أصبح الانسان يحار في كثرة الفرق ، ما بين حديثي ومعتزلي وشيعي وزيدي ورافضي وجبري ومرجئي وعثماني وجهمي .. إلخ ، فضلاً عن المارقة والدهرية وأشباههما . وكان المأمون نفسه شيعياً ، وله في ذلك مظهر عملي معروف ذكره المؤرخون . وربما تعددت المذاهب بين الأخوة في البيت الواحد مثل أولاد أبي الجعد ، وكانوا ستة ، منهم اثنان شيعيان ، واثنان مرجئان ، واثنان خارجيان .

مهما يكن من شيء فقد تمتع الناس في زمن المأمون بحرية فكرية ودينية لم ير لها مثيل في أي عصر من عصور الاسلام .

وقد كان من أثر اختلاف السكان في الدولة الاسلامية وتباين أصولهم وأجناسهم ، وامتزاجهم بالسكنى والزواج وغير ذلك ، ودخول كثير من أفراد الأمم الأجنبية في الاسلام ، ونمو الحضارة نمواً يتطلب دراية واسعة بكثير من شئون الحياة من هندسة وطب وفلك ونظام وحكم وسياسة ولغة وأدب ، كان أثر ذلك كله أن انتشرت في الدولة ثقافات مختلفة لأمم مختلفة . وكان لكل ثقافة رجالها البارزون الذين يحاولون جهدهم نشرها والترويج لها .

وكان من مظاهر هذا التنافس أن أخذت كل ثقافة تشق لنفسها طريقا تسير فيه . ولكن هذه الثقافات جميعاً أخذت تلتقي رويداً رويداً وتمتزج بالثقافة العربية ، وقد تكون من مجموعها ثقافة كبرى ذات لون خاص ، قد صبغت الصبغة الاسلامية ، وهي ما يعرف « بالثقافة الاسلامية » .

امتزاج الثقافات والأديان السماوية بالثقافة العربية :

وهذه الثقافات التي اتصلت بالثقافة العربية ثلاث : **الثقافة الفارسية** ، **والثقافة اليونانية** ، **والثقافة الهندية** ، يضاف إلى ذلك الثقافات الدينية **كاليهودية والنصرانية**[1] .

وقد أقبل رجال هذه الثقافات الأجنبية على اللغة العربية فحذقوها حذقاً يدعو إلى الاعجاب الشديد . ويحكى الجاحظ عن موسى بن يسار الأسواري – وهو قصاص فارسي الأصل أنه « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي اللسانين هو أبين » ، وهذا مثل له نظراء كثيرون . ونحن نجد بين علماء المسلمين رجالاً من كل جنس ونحلة قد أخذوا بحظ وافر في جميع نواحي العلم . ولعل أعظم هذه الأجناس أثراً في الحياة العباسية الفرس[2] .

فقد أثرت الثقافة الفارسية في الثقافة الاسلامية من نواحيها المختلفة . وأظهر ذلك الألفاظ الفارسية التي تسربت إلى اللغة العربية . وكان الفرس يدلون على العرب بما أخذته العربية من الفارسية . وقد نقلوا كثيرا من تراث آبائهم إلى العربية ، ويقول ابن النديم : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس . ونقلته العرب الى اللغة العربية » .

هذا إلى أن كثيراً من العرب عكفوا على تعلم الفارسية ، وقد نضج ذلك على ثمار قرائحهم وأقلامهم ، حتى الشعراء نراهم يدرسون الفارسية ويتقنونها ، وأوضح مثل لذلك العتابي الشاعر العباسي المعروف وهو عربي من تغلب ، وقد سأله رجل : « لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة ، اللغة لنا والمعاني لهم » وليس هناك من ريب في أن المام ابن قتيبة بالفارسية كان من الأسباب التي جعلت كتبه على شيء من الترتيب والتنسيق .

ومن أبرز أثر الفرس أن الكثير من عاداتهم قد تغلغل في المجتمع العباسي تغلغلاً شديداً وبخاصة ما يتصل بالغناء واللهو والشراب .

---

(١) احيلك على هذه الكتب لتقرأ الكثير فيها عن أثر الثقافات الأجنبية في الثقافة الاسلامية طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ، فهرست ابن النديم ، طبقات ابن أبي أصيبعة ، أخبار الحكماء للقفطي ، ثم ضحى الاسلام لأحمد أمين ، وتاريخ آداب جورجي زيدان وعصر المأمون لفريد رفاعي .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٣٤ .

وهناك لون آخر من الأدب كان للفرس أثر كبير فيه وهو باب « التوقيعات » وقد أعجب بها العرب ، لأن الايجاز من خصائص البلاغة العربية . وقد اهتم وزراء بني العباس وكتابهم بأمر التوقيعات ، وكأنما نزغ فيهم عرق من آبائهم ، فأنشأوا لها ديواناً سموه « ديوان التوقيع » .

هذا إلى أنه قد ترجم إلى العربية كثير من أمثال العجم وحكمهم ، وقد أورد الثعالبي قدراً كبيراً منها في كتاب « خاص الخاص » ويشير ابن قتيبة في مواطن متعددة من عيون الأخبار إلى المعاني التي اقتبسها الشعراء والخطباء من حكم الفرس .

ويرى أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين أن الكتب التي عرفت في العربية باسم « المحاسن والمساويء » أو « المحاسن والأضداد » كان محاكاة للكتب الفارسية التي عرفت باسم « شايد وناشيد » أي « ينبغي ولا ينبغي » أو « شايسته وناشايسته » أي « اللائق وغير اللائق » ويلاحظ أن حملة العلم في المسلمين كان أكثرهم من العجم في ذلك العصر مثل أبي حنيفة وحماد الراوية وخلف الأحمر وسيبويه والكسائي والفراء وأبي عبيدة وأبي العتاهية وبشار بن برد والجاحظ وابن قتيبة .. وغيرهم وغيرهم .

أما الثقافة اليونانية فكانت مستفيضة في بلاد الشرق بعد فتوح الاسكندر ، وقد وجد العرب في أول يقظتهم مستودعاً لآثار اليونانيين ، وقد نقلوا في العصر العباسي أهم ما وصل اليه العقل اليوناني ، كتآليف أرسطو ، وبعض مؤلفات أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، ورياضة فيثاغورس وغيرها . وهندسة اقليدس .. الخ .

وقد ظلت الاسكندرية عاصمة مصر اليونانية زمناً غير قصير منهل الوراد من طلاب العلم والثقافة . وكانت المدرسة التي أنشأها كسرى الأول سنة ٣٥٠ م في جند يسابور تنشر في الشرق علوم اليونايين ، وتستجيب لرغبة القوم في تذوق الفلسفة والطب حتى لقد قيل أن الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب تلقى علم الطب قبيل الاسلام في هذه المدرسة[١] التي ظلت تؤدي عملها في العصر العباسي .

وكانت حران في بلاد ما بين النهرين ذات حضارة يونانية ، وكان أهلها ينصرفون خاصة إلى الرياضيات والفلك ، واشتهر منهم في العصر العباسي ثابت بن قرة وابن سنان الطبيب العالم وأبو اسحاق الصابيء صاحب الرسائل .

وليس من شك في أن علماء الكلام قد اتصلوا بالكتب اليونانية التب ترجمت إلى

---

(١) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٦١ .

العربية ، وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ليدعوا حججهم أمام خصومهم ، كما كان يفعل اليهود والنصارى الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية قبلاً . ثم أصبح المسلمون يطلبون هذه الفلسفة للذة العقلية بعد أن كانوا يطلبونها للدفاع عن أنفسهم .

وكان للثقافة اليونانية أثر كبير في العلوم الاسلامية في الشكل وفي الموضوع على حد تعبير المرحوم أحمد أمين[1] أما في الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني الذي لون العلوم بلونه الخاص ، وكان ابن سينا يسميه « خادم العلوم » ، أما في الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في تعاليم المتكلمين .

وأثرت البلاغة اليونانية في البلاغة العربية ، وعرب كثير من الألفاظ اليونانية ، ونقلت قصص يونانية إلى العربية . وقد ذكر ابن النديم أسماء كتب كثيرة في الأسمار والتاريخ ترجمت إلى اللسان العربي[2] . ونحن نقرأ في البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد والفريد وغيرها كثيراً من حكم فلاسفة اليونان . ولاشك أن تمثل وهضم الثقافة اليونانية أنجب اخوان الصفا والفارابي وابن سينا وابن رشد وأمثالهم .

وأما الثقافة الهندية فقد وصلت إلى العرب عن طريق الفرس ، وربما كان أهم ما عرفه العرب منها الإلهيات (ويراد بها الدين ممتزجاً بالفلسفة) ، والحكم ، وبعض الرياضيات ، وشيئاً من الأدب والفن .

وقد تأثرت بعض الفرق الدينية الاسلامية بالدين الهندي ، وأخذوا عنه فكرة « تناسخ الأرواح التي تأثرت بها كثير من الديانات السماوية وغير السماوية . ولاشك أن التصوف اتصال بمذاهب النساك في الهند . ومكانة التصوف في الأدب العربي نثره ونظمه لا تحتاج إلى تبيان .

وكان في بغداد أطباء هنود إلى جانب أطباء اليونان والروم والفرس ، مثل « صالح بن بهلة الهندي » و« بازيكر » و« وقلبرقل » وغيرهم .

وقد اندمج الهنود عقب الفتح الاسلامي في المسلمين ، واعتنق كثير منهم الاسلام ، وأقبلوا على تعلم العلوم الاسلامية ، ونبغ فيها بعضهم ، وظهر فيهم وفي أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدثون ، منهم أبو عطاء السندي ، وابن الأعرابي ، وأبو معشر نجيح السندي ، وفتح بن عبد الله السندي الفقية المتكلم . وقد ترجم إلى العربية كثير من كتب الهنود ، وبخاصة ما يتصل بالكواكب والفلك .

---

(١) ضحى الاسلام ١/٢٧٤ .

(٢) الفهرست ص ٣٠٥ .

وقد عربت ألفاظ هندية كثيرة ، وبخاصة أسماء النباتات ، ونقلت إلى العربية آراء لهم في البلاغة ذكر الجاحظ طرفاً منها ، وهي تدل على أن تعريفهم للبلاغة يقرب من تعريف العرب لها وقد أولع العرب بالقصص الهندي ، ومن المحقق أن كثيراً من أصول « كليلة ودمنة » هندي ترجم إلى الفارسية ، ومنها إلى العربية مع زيادة على الأصل الهندي . ويرجح ابن النديم أن قصة السندباد البحري هندية . وقد نقل العرب كثيراً من حكم الهند ، وتجد قدراً كبيراً منها في « عيون الأخبار » وكثيراً ما تقرأ لابن قتيبة هذه الجملة « وقرأت في كتب الهند » وقد أشار ابن قتيبة إلى بعض المعاني التي اقتبسها الشعراء من الهنود .

ولاريب في أن العرب قد اتصلوا بالهنود قبل الاسلام ، ولذلك نراهم يطلقون على كثير من نسائهم اسم « هند » وكان خير السيوف وأمضاها يجلب من الهند ، ولذلك يقال عن بعضها الهندي والمهند والهندواني .

وللديانتين اليهودية والنصرانية أثر كبير في الثقافة الاسلامية والمعروف أن الامبراطورية الاسلامية كانت تضم عدداً غير قليل من أهل الكتاب ينعمون بحرية العمل والعبادة ، وقد أثرى كثير منهم وخالط المسلمون هؤلاء واتخذوهم أصدقاء ولبعض شعراء المسلمين شعر يمدح فيه النصارى واليهود ويذكر لهم خلالاً كريمة .

وقد تسرب إلى المسلمين شيء كثير من ثقافة هاتين الديانتين . ولعل أهم منبع لهذه الثقافة التوراة والانجيل ، وهما كتابان سماويان اعترف بهما الاسلام وورد ذكرهما كثيراً في القرآن .

وقد استفاد العرب كثيراً في قصصهم من أهل الكتاب وممن أسلم منهم ، وبخاصة ما يسمونه العلم الأول وهو ما يتعلق بأخبار الأمم السالفة .

وأكثر ما تأثر بالثقافة اليهودية هذه المسائل التي وردت في القرآن الكريم ولها نظير في التوراه ولاسيما قصص الأنبياء فقد كان علماء التفسير يضيفون إلى شروحهم ما ذكر في التوراة وغيرها من الكتب اليهودية ، يعينهم على ذلك اليهود أنفسهم أو من أسلم منهم . ومن أشهرهم عبد الله بن سلام الذي أسلم عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وكعب الأحبار الذي أسلم في خلافة عمر ، ووهب بن منبه وغيرهم .

كما أن المسلمين عنوا بتاريخ بني اسرائيل وأنبيائهم ، كما فعل ابن قتيبة في كتاب المعارف والطبري في تاريخه .

وكان لليهود أثر واضح في بعض المذاهب التي ظهرت في الاسلام . ويقال أن أول من

تفوه بكلمة خبيثة في الاعتقاد في الاسلام هو « الجعد بن درهم » مؤدب مروان بن محمد ، وقد أخذ ذلك عن بعض اليهود ، ويروى ابن الأثير أن أحمد بن أبي داود الذي كان يقول بخلق القرآن قد أخذ مذهبه هذا عن اليهود من مصدر يصل سنده إلى لبيد بن الأعصم اليهودي وكان يقول بخلق التوراة . وابن عبد ربه يذكر أن فرقة الرافضة قد تأثرت أشد تأثر بتعاليم اليهود . ولاشك أن مسائل التشبيه التي أثيرت في تفسير بعض الآيات القرآنية مثل « الرحمن على العرش استوى » و« يد الله فوق أيديهم » قد تأثرت بتفسير اليهود للآيات المماثلة لها في التوراة . وقد آمن جماعة من الشيعة بالتشبيه .

وقد تأثر كثير من المسائل التي أثارها المتكلمون باليهود . ومن زعماء المتكلمين الذين هم من أصل يهودي « بشر المريسي » ، وهو من القائلين بخلق القرآن . أضف إلى ذلك أن كثيراً من حكم اليهود ونصائحهم قد غزت الأدب العربي ، وورد كثير منها في عيون الأخبار والعقد الفريد . وقد أشار الأستاذ جويدي إلى أن كثيراً من الأخبار التي أوردها ياقوت في « معجم البلدان » مأخوذ من كتب اليهود ، وأورد كثيراً من تآليف اليهود التي أثرت في ثقافة العرب .

والحال كذلك في **الديانة النصرانية** ، فقد كان لها ثقافة دينية أهمها الانجيل ، وما لازمه من شروح ، وما أضيف اليه من قصص وأخبار . وقد تسرب ذلك كله إلى المسلمين ، كما كان الشأن مع اليهود تماماً . وعنى مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى وبعض الحواريين ، كالطبري والمسعودي .

وكما نشأ جدل بين اليهود والمسلمين نشأ جدل أيضاً بين النصارى والمسلمين . والظاهر أن الجدل قد حمى وطيسه بين المسلمين والنصارى بصورة أقوى مما كان بين المسلمين واليهود ، وذلك لأن اليهود – فيما أدى – عنصر يؤثر العافية ولا يوجه نشاطه إلا إلى النواحي المادية وما يتصل بجمع المال واستثماره .

وقد دخل الشعر العربي كثير من ألفاظ النصرانية مثل الصليب والقربان والمسوح . وكانت الأديرة منتجع الشعراء يغشونها ويتشببون بفتيانها وفتياتها في شعر دقيق .

هذه هي الثقافات الأجنبية التي طرأت على الثقافة العربية ، وقد امتزجت بها امتزاجاً قوياً . وأطلق عليها كلها مؤرخ الأدب « الثقافة الاسلامية العباسية » . وهذه الثقافة تباين من غير شك – الثقافة الاسلامية العربية في العصر الأموي .

وكان أكثر المسلمين الماماً بهذه الثقافات أهل الكلام . ومن أجل هذا كان المتكلمون هم أصحاب اليد الطولى في المزج بين هذه الثقافات كلها كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين .

فلا مندوحة من القول اذن بأن اللغة العربية قد دخلتها عناصر لم يكن لها عهد بأمثالها من قبل ، فاستلزم ذلك أنماطاً حديثة من التفكير . فبعد أن كان العقل لاصقاً بصور المادة لا يحيط إلا بما تعانيه الحواس انسلخ بعض الشيء من هذه المادة ، وتعلق بالأمور المجردة ، فحلل أجزاء النفس وأحاسيسها وعواطفها ، وطمح فيما فوق البشر ، فنظر في المباديء والنتائج والعلل ، وما شابه ذلك .

ومما يبعث على الاعجاب المقرون بالفخار أن نرى هذه اللغة البدوية قد فسحتْ في رحابها حتى وسعت ثمار كل هاتيك القرائح .

وبعد فاني لأرى الضرورة تلح على في أن أشير — في لمحة خاطفة — إلى سمة كانت بارزة في سماء هذا العصر لتكتمل لنا الصورة الصادقة الكاملة له .. وتلك السمة هي **الصراع الذي كان بين العرب والموالى** ، وكان لهذا الصراع أثر بالغ في الأدب والعلم والفن جميعاً .

لقد اعتنق العرب الاسلام ورفعوا راية الجهاد في سبيل نشره ووقر في أذهانهم أنهم من جنس لا يتطاول إليه جنس آخر ، وتملكهم شعور بالعظمة والسيادة والاستعلاء . فنظروا إلى غيرهم نظرة السيد إلى المسود ، وسموا من هو غير عربي « أعجمياً » .

وكان العرب — شعباً وحكاماً — في العصر الأموى يسيرون على ضوء هذه الفكرة ، وكتب الأدب مترعة بالحكايات التي تدل على ذلك ، وبلغ من غلوهم في ذلك أن الحجاج أمر ألا يؤم بالكوفة إلا عربي .

وهذه العصبية العربية العنيفة كانت تقابلها عصبية أخرى من أولئك الموالي المستضعفين ولاسيما الفرس ، وهم خلقاء أن يأكل الحقد قلوبهم ، لأنهم كانوا سادة فأصبحوا مسودين . وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم الغابر وعزهم التليد ، ويعتبرون حكم العرب لهم ضرباً من سخرية القدر . ولذلك نراهم يهتبلون كل فرصة لاظهار ما يضطرم في نفوسهم من الحقد والبغض ، ولكن بني أمية كانوا يكبتون هذا الشعور أعنف كبت كما حدث لاسماعيل بن يسار مع هشام بن عبد الملك . بيد أن هذه النزعة التي أخمدها الأمويون قد اتجهت إلى دعاية خفية ضد بني أمية ، وانتهت بقيام دولة بني العباس كما هو معروف .

وقد عرف العباسيون للفرس عظيم فضلهم في قيام دولتهم ، وصرح زعماؤهم بذلك في خطبهم وفي أحاديثهم مثل داود بن على وأبي جعفر المنصور .

ومن ذلك ندرك أنه قد أصبح للفرس في دولة العباسيين شأن كبير ، ولكنهم لم يقضوا

على نفوذ العرب تماماً لأن الخلفاء عرب هاشميون ، وهم يفخرون بذلك ، ولذلك نراهم ينكلون بالفرس أشنع تنكيل يوم شعروا بطغيانهم كما فعل المنصور بأبي مسلم ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل .

ومن أجل هذا نرى كثيراً من عظماء الفرس ينزعون إلى الفخر بالنسب العربي والولاء العربي حتى ان أبا مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسباً عربياً فينتمي إلى سليط بن عبد الله ابن عباس وكذلك نرى اسحاق بن ابراهيم الموصلي – على الرغم من مكانته لدى الرشيد – يهرع إلى خازم بن خزيمة – وهو عربي – وينتمي إليه معتزاً بذلك .

فليس من شك اذن في أن العرب لم يذلوا كثيراً في هذا العصر ، ولم تهوى عزتهم إلى الحد الذي يصوره المؤرخون . وكل ما حدث أن حركة العصبية العربية قد دفعت بحركة أخرى فارسية ، وأن الصوت الخافت الذي كان يهمهم به اسماعيل بن يسار قد انطلق من عقاله حراً قوياً .

وكان يتزعم هذه الحركة الفارسية جماعة على رأسهم بشار ابن برد الذي كان يفخر بالعجم ويتبرأ من الولاء العربي ويدعو الموالي إلى تركه ، ويحقر العرب ، وكان يجهر بذلك أمام المهدي فلا يعاقبه كما عاقبه هشام اسماعيل بن يسار حينما فخر بأجداده الفرس . وحذا حذو بشار في ذلك شعراء الموالي مثل ديك الجن والخزيمي والمتوكلي « وكان من ندماء المتوكل » .

مهما يكن من شيء فقد قوى نفوذ الفرس في الدولة العباسية ، وأصبحت الاستعانة بهم في أمور الدولة أمراً مقرراً ، بعد أن كان استخدامهم في العصر الأموي – على ندرته – يقابل بالامتعاض ، ويقول الجاحظ[1]: « ان دولتهم » أي العباسيين « أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية أعرابية » . ويذكر السيوطي « أن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب » ، وحذا حذوه الخلفاء من بعده « فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها » كما يقول المسعودي .

وبلغ من نفوذ الفرس أن حبب بعضهم إلى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجاً للناس ، فبنى بناء سماه « العتبة الخضراء » ، وقطع الميرة في البحر عن المدينة ، فغضب أهل الحجاز ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقد أفتى لهم بذلك الأمام مالك بن أنس ، فعذبه والي المدينة ، فلما تولى المهدي « أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالاً عظيماً واتخذ حرساً من الأنصار » .

(١) الجاحظ (ت – ٢٥٥ هـ) عاش ما يقرب من مائة سنة وهو ابو عثمان عمرو بن بحر ، من كنانة ، ونشأ بالبصرة ، يعدّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي وهو ثمرة ناضجة لكل الجهود

وقد قوى نفوذ الفرس في زمن الرشيد بفضل البرامكة ، واتسع نفوذهم في عهد المأمون لما تغلب على أخيه الأمين بفضل مناصرتهم له ، وعد انتصاره انتصاراً للفرس على العرب .

وزاد هذا النفوذ أيضاً أن الخلفاء العباسيين كانوا يتعصبون للاسلام ، ولم يتعصبوا هذا التعصب للعروبة . وساعد على ذلك أن أكثر هؤلاء الخلفاء كانوا مولدين ، فلا عجب إذا جهر الفرس بذم العرب والتعصب لجنسهم ، ولا عجب أن يصبح هذا مذهباً خاصاً لهم يعرف « بالشعوبية » . وكان الخلفاء العباسيون لا ينكرون منهم ذلك ، بل اننا نرى المأمون يدنيهم منه ، فيجعل سهل بن هارون – المعروف بمقته للعرب – يتولى الهيمنة على خزائن الكتب . وعرب الحجاز يتعصبون للحجاز .. وهكذا . واشتطوا في هذا التعصب البيئى ، فتميم البصرة تفخر على تميم الكوفة .. وهكذا .

ولاشك أن هذا التعصب البيئى قد أحدث نهضة علمية خصبة في جميع العلوم . فمدرسة البصرة في النحو تناهض مدرسة الكوفة ، ولكل منهما أنصار . ولما ظهرت مدرسة بغداد ناهضت المدرستين الأوليين . وكان الفقيه العراقي ينازع الفقيه الحجازي ، ونشأ عن ذلك مذهب الرأي ومذهب الحديث .

وقد أورثتنا هذه العصبية البيئية كثيراً من الأخبار التي وضعت في مزايا البلدان وعيوبها ، وفي طباع سكانها وأخلاقهم . ونقرأ الكثير من ذلك في كتاب « عيون الأخبار » .

وينبغي أن أذكر أن علماء الموالي ممن شرح الله صدورهم للاسلام قد أنكروا من بني جنسهم هذا التحامل البغيض ، فهبوا يردون عليهم بكل ما أوتوا من قوة ، وعلى رأس هؤلاء ابن قتيبة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر نفوذ الفرس فيما يلي :

١ – ملئت قصور الخلفاء بالموالي يستخدمون في أعمال شتى .

٢ – أصبحت المناصب الكبيرة مقصورة على الفرس تقريبا ، وأهمها الوزارة .

٣ – تغلغلت النظم والعادات والتقاليد الفارسية في الحياة العباسية من جميع نواحيها ، ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين : « لست أنكر أن الفرس قد أثروا في الحياة العربية تأثيراً شديداً ، ولكنه في كثير من الأحيان تأثيراً سيىء جداً . وحسبنا أن الفرس هم الذين أدخلوا على العرب **سياسة الحكم المطلق** ، وجعلوا قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن . فقد تعلموا من الفرس طرائقهم في الأكل والشرب واللبس وتأثيث القصور واللهو والعبث » .

ولعل أظهر أثر للفرس في نظام الحكم العباسي « **الوزارة** » ، وبجانب الوزارة موظف آخر اسمه « **السياف** » . وذلك مظهر من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة ، ولم يكن معروفاً في الدولة الأموية .

كان من أزهر عصور الاسلام من الناحية العلمية ، فقد تم فيه نمو علوم الثقافة الاسلامية كلها ، ففيه أتمت المذاهب الأربعة في الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث ، وما من علم قديم أو حديث إلا له أعلام نابغون في هذا القرن خاصة علوم اللغة والأدب والنحو والرواية ومن الأعلام المشهورين في هذا القرن ابن السكيت وابن دريد وابن الأخفش وابو حاتم السجستاني وابن راهويه وأبو بكر الصولي وغيرهم ممن لهم درجات عالية في هذه العلوم .

ومن مؤرخي هذا القرن من العرب وجغرافيهم **البلاذري والبلخي واليعقوبي والطبري وابن البطريق** ومن الفلاسفة الكندي والفارابي ومن الأطباء الرازي وابن ماسويه وممن برزوا في الرياضيات الخوارزمي واضع الجبر ولم يكن الأمر مقصوراً على نبوغ هؤلاء الأعلام ، بل كانت الثقافة الموسوعية قسمة شائعة بين الناس جميعاً ، يشارك فيها خاصة الناس وعامتهم وكلهم يحضرون مجامعها ومناظراتها وقد شاع ذلك بينهم شيوعاً كبيراً .

أعلام الكتابة العربية :

وإذا كان لنا أن نرد الفضل إلى ذويه في مجال تاريخ الكتابة العربية في العصر العباسي وجب علينا أن نذكر ان ابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦ هـ) لأنه أول من ألف في الموسوعات العربية ومنها كتاب « أدب الكاتب » ، ثم اتخذ من جاءوا بعده هذا الأساس وشادوا عليه موسوعاتهم مثل أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (٢٥٥ — ٣٣٦ هـ) الذي ألف كتابه (أدب الكتاب) فغمز فيه ابن قتيبة بالتقصير في كتابه أدب الكاتب وتوسع ابن الصولي في مسائل لم يتعرض لها سابقه ، كحسن الخط والدواة والقلم وترتيب الكتاب والقراطيس والدعاء في الكتاب والمكاتبات وغير ذلك من المسائل الكثيرة التي أغفلها ابن قتيبة .

ومن بعدهم جاء القلقشندي (٧٥٦ — ٨٢١ هـ) ليصل إلى الذروة السامقة في موسوعته المشهورة « صبح الاعشى في صناعة الانشا » إلى المستوى العلمي المشهود له به في هذا المجال .

ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) العالم الناقد الأديب الكاتب

ابن قتيبة كان عالماً غزير العلم واسع المعرفة ، لم يترك لوناً من ألوان الثقافة إلا ونهل منه ، مهما كان مصدره ، يقول ابن قتيبة في مقدمة أدب الكاتب « ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شين الكذب « ويرى ابن قتيبة أن التجمل بكريم الخلق وحسن السجايا أفضل من طلب العلم » .

وقد وصف بعض المستشرقين هذا الكتاب وصفاً دقيقاً في كلمات موجزة فقال البارون دي سيلان Le Baron de Slane انه أي الكتاب دليل المعارف الأدبية والنحوية والتاريخية التي لا يستغنى عنها الكاتب الفني[1] .

ويقول بلوشيه Blochet أنه بيان دقيق للمعارف التي يجب أن يلم بها الكاتب الديواني الرفيع .

ويقول الأستاذ بروكلمان Brocklman في دائرة المعارف الاسلامية . الواقع أن مصنفات ابن قتيبة قد تناولت جميع معارف عصره ومصداق ذلك أننا نراه قد ألف في جميع الفنون العربية التي كانت معروفة في زمنه .

ويقول جورجي زيدان انه كتاب « يبحث فيما يحتاج اليه الأديب في صناعة الكتابة من الآداب والعلوم ، واصلاح ما كان يقع فيه الكتاب في أيامه من الخطأ أو الوهم في معاني الألفاظ أو الاشتقاقات والتراكيب ، مما نحن في حاجة اليه حتى اليوم .

ومن أهم مزايا الكتاب أنه وسع في أفق النشاط اللغوي وجعله يتعدى دائرة اللغوين إلى دائرة الكتاب وموظفي الديوان وغيرهم . وقد لاقى كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة عناية كثيرة قلما يحظى بها كتاب آخر . فقد أقبل الناس على قراءته وتفهمه ، وتناوله بعضهم بالشرح والتعقيب والتعليق ، وأهم هذه الشروح شرح ابن السيد البطليموسي المتوفي سنة ٥٢١ هـ وشرح أبي منصور الجواليقي المتوفي ٥٣٩ هـ .

وأول من عنى بطبع كتاب أدب الكاتب المستشرق سبرول Sproull عام ١٨٤٧ باللغة الفلمنكية . وطبع الكتاب بمصر سنة ١٣٠٠ هـ الدكتور ماكس جرونرت Max Grunert طبعة جيدة في ليون سنة ١٩٠٠ م ووضع له فهرساً قيماً .

---

(١) فهرس دى سيلان للمخطوطات العربية بباريس ص ٧٠٦ راجع د. اسحاق موسى الحسينى The Life and works of ibn qutaiba .

كتب ابن قتيبة :

١ - **كتاب أدب الكاتب** وقد سبق أن ذكرناه .

٢ - **كتاب الأنواء** : وهو خاص بعلم الميقات من وجهة نظر العرب ويتضمن تنبوءاتهم الفلكية والجوية . كما تناول فيه السحب والمطر والبروق ومساقط النجوم ومواقع الكواكب وأثرها في عصمة الانسان من الضلال . وتحدث عن الأزمنة والفصول والشمس والقمر والقطب والمجرة والرياح وأنواعها وتحديد مهامها .

وتوجد نسخة من كتاب الأنواء في مكتبة أكسفورد تحمل اسم علم الفلك ويعتبره ادوارد براون E.Browne من كبار علماء الفلك .

٣ - **كتاب المعاني الكبير** لم يكن هناك غرض خاص يتعلق بتأليفه سوى افادة كل ناشد للعلم وهو كتاب أدب وشعر ولغة ، وكله شرح لنصوص شعرية بشواهد شعرية مما يوضح تبحره في اللغة ومالم يتاح لغيره من علماء عصره .

٤ - **كتاب مشكل القرآن وغريب القرآن** يتناول فيهما المتناقض والمتشابه من القرآن والمقلوب والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة ومخالفة اللفظ معناه واللفظ الواحد للمعاني المختلفة مما يؤكد أن كاتبهما عالم لغوي غزير المادة .

٥ - **كتاب تأويل مختلف الحديث** توجد منه نسخة خطية بدار الكتب ، أراد به ابن قتيبة تصحيح الأحاديث التى أدعى عليها المتكلمون وبذل فيه جهداً مشكوراً ينبيء عن ثقافة دينية واسعة وتظهر فيه شخصيته كل الظهور .

٦ - **كتاب الميسر والقداح** نهج ابن قتيبة في تأليفه منهجاً علمياً اشبه بالبحوث العلمية فهو يستقرىء ما قيل في القداح والميسر عند العرب ثم قام بتعريف الميسر والياسر ثم انتقل الى الاستقسام بالأزلام وعرفه وهو يشبه القرعة . ثم تناول أسماء القداح ويعتبر كتابه هذا خير مرجع لهذه الظاهرة الاجتماعية التي كانت متفشية عند العرب في الجاهلية .

٧ - **كتاب الأشربة** : وهذا الكتاب مزيج من الأدب والفقه . ولهذا جاء لطيفاً وسهل التناول وبعيداً عن الجفاف وقد دعمه بالأدلة الشرعية والمنطقية ويدل على قوة العقل والثقة بالنفس عند ابن قتيبة .

٨ - **كتاب عيون الأخبار** : وهذا الكتاب من خير الكتب لخاصة الناس وعامتهم كما أنه مظهر راق لامتزاج الثقافات في العصر العباسي .

أبو بكر الصولي (٢٥٥ - ٣٣٦ هـ)

تركي الأصل ، عربي المولد والمنشأ والمربى والثقافة - علم من اعلام الاسلام عاش قرابة ثمانين عاماً، وهو العالم الفقية الأديب الكاتب الشاعر الناقد الاخباري المؤرخ ، الشطرنجي ، النديم[١] . عاش أبو بكر الصولي في فترة تولى فيها ١٢ خليفة ، نادم أربعة منهم واتصل بمعظم الباقين . ويعد عصر الصولي من أزهى العصور في الاسلام من الناحية العلمية ، ففيه نمت واينعت علوم الثقافة الاسلامية كلها وأهمها علوم القرآن وامتزجت الثقافات ، إذ كان من أثر اختلاف السكان وتعدد الأجناس في الدولة وتباين أصولهم وامتزاجهم بالسكنى والزواج وغير ذلك ، أن امتزجت الثقافة الفارسية بالثقافة اليونانية وبالثقافة الهندية وبالثقافة العربية الاسلامية وكان محصلة ذلك تكامل ثقافي في شتى فنون المعرفة ولاشك أن الذي ساعد على ذلك تعرب الكثير منهم ، ودخول العديد من أفراد هذه الأمم المفتوحة والمجاورة في الاسلام ، فكانت ثقافة العصر ثقافة موسوعية متنوعة لأمم متعددة متباينة .

خلاصة القول أن عصر الصولي كان عصر الشمول - عصر امتزاج الثقافات - عصر الالمام بكل المعارف والعلوم والفنون . وتظهر شخصية الصولي المعلم من خلال كتابه « **أدب الكتاب** » الذي ألفه خصيصاً لتعليم الكتاب أصول حرفتهم وهي الكتابة ، والكتابة الديوانية خاصة .

وأدب الكتاب كتيب صغير ولكنه يحوي الكثير من المواد اللغوية والأدبية والثقافية التي تفيد الكتاب وتصقل مواهبهم وتمدهم بالمعلومات ، هذا بالاضافة إلى العديد من المواد الفقهية المتصلة بالخراج والجزية وحساب الأموال ، وغير ذلك من الأمور التي تهم عمال الدولة وكتابها الرسميين . ألفه في عهد الخليفة الراضي بالله كما يفهم من ثنايا الكتاب في باب « ما يتكاتب به الناس اليوم » .

جعل الصولي كتابه في ثلاثه أجزاء . ذكر في كل منها أبواب يكمل بعضها بعضاً حتى يسهل على متداوله ، وقد جعل الجزء الأول أدبياً بحتاً تناول فيه فضل الكتابة بالشرح والتحليل وكيفية افتتاح الكلام في المراسلات وطريقة تصدير الكتب .

كما تناول أدوات الكتابة ووسيلتها - فتكلم عن القلم وما جاء في وصفه شعراً ونثراً وطرق بريه وإعداده . ولا ينسى الصولي آلة الخط من حيث أنواع القلم .. وتكلم أيضاً

(١) د. أحمد جمال العمرى : أبو بكر الصولي العالم الأديب النديم ، أعلام العرب ١٩٧٣ .

عن الخط وأنواعه وصفاته ومميزاته وعيوبه ، ولم تكن هذه الموضوعات هي كل ما تناوله الصولي في قسمه الأول . ثم تناول الصولي في الجزء الثاني الكتب وتحليل معناها في اللغة ومادة الكتابة ولغتها وتحدث عن الانشاء والسطور والمقابلة بالكتاب وكل ما يتصل بالرسائل منذ كتابتها . حتى ارسالها إلى الجهات المقصودة ، كما ذكر طرق الدعاء وشرح كيف يتكاتب الناس في عصره ، ثم تناول في آخر هذا الجزء الدعاء .. والتأريخ ، ثم اختتم هذا الجزء بالتأريخ لتحويل الديوان من النظام الفارسي إلى النظام العربي .

وحين تناول موضوع الخط نراه يفتتحه بآراء العلماء والحكماء مبيناً حسن الخط مستشهداً على ذلك بآراء كثيرة نذكر منها بعض الأمثلة : الخط صورة روحها البيان ويدها السرعة وقدمها التسوية ، وجوارحها معرفة الفصول ، عن يحيى بن خالد البرمكي) . الخط أصل الروح وإن ظهر بآلة الجسد (النظامي) ويستشهد بقول أرسطو الخط دليل على ما في النفوس .

ثم يقارن بين اللفظ والخط وأنهما ضروريان وإن كان للخط فائدتان وليس للفظ إلا واحدة ، فالخط يبلغ الحاضر والغائب أما اللفظ فلا يبلغ إلا الحاضر ، ويقول ان الخطوط مهما اختلفت فالأصول واحدة فهي كالأشخاص منهم مهما اختلفوا فإنهم يجتمعون في الصنعة . وأن خط الانسان يصير مثل حليته ونعته في الدلالة عليه .

وينتقل ابن الصولي إلى وصف الخط الجميل وما قاله الكتاب والحكماء فيه ، يعقبه بعقد فصل فيما قيل في حسن الخط من الكلام المنظوم ويورد أشعاراً في وصف الخط الجميل وما قيل في صفات الخط وتركيباته واسمائه المختلفة ويذكر السمات التي يجب أن تتوفر في الخط حتى يستحق أن يوصف بالجودة ، مستشهداً بآراء كبار الكتاب ، ويظل ينتقل بنا الصولي من عنصر الى عنصر ، وجميع هذه العناصر موضوعها الخط . وهكذا في كل موضوع يتناوله ، يبسطه ويحلله ويذكر جميع عناصره وكل ما يتصل به كما يذكر بعض الطرائف والنوادر مما يضيف إلى كلامه سمة التشويق والتنويع .

وسمة بارزة في منهج الصولي التعليمي وهي التأريخ لأصل الموضوع الذي يتحدث عنه وتطوراته عبر القرون الماضية حتى عصره مما يضفي على موضوعاته لمسة ثقافية جميلة وواسعة تجعل القارىء ملماً بكل ما يحيط بالموضوع فحين تناول الصولي موضوع « الخاتم » في ثنايا كلامه عن المراسلات ذكر كل ما يتصل بأوليات الموضوع منذ عهد النبي عليه السلام حتى عهد بني العباس .

فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ ، حينما أراد أن يبعث بكتاب إلى قيصر الروم ،

قيل له «أن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً » ، فاتخذ خاتماً من فضة ، نقش عليه « محمد رسول الله » وكانت الثلاث كلمات في ثلاثة أسطر[1] .. وبقي هذا الختم في يد رسول الله ﷺ ، حتى وافته المنية وفي يد أبي بكر ، ومن بعده عمر بن الخطاب ، ثم صار إلى عثمان فظل معه ست سنين ، « ولما كثرت عليه الكتب دفعه إلى رجل من الأنصار ليختم به » ، وبعدها سقط في بئر تعرف باسم « اريس » ، وكانت ضحلة الماء فلما التمسوه لم يجدوه ، فاغتم عثمان بعدها ، واتخذ خاتماً آخر من فضة أيضا ، ونقش فيه مرة أخرى « محمد رسول الله» ، وقد استأثر الختم على المكاتبات والرسائل بمكانة كبيرة في عهد الخلفاء الراشدين ، لا تقل أهمية عما هو مدون في الكتاب نفسه ، حتى قيل أن عمر بن الخطاب قد أوصى به[2] ، ويأتي معاوية بعد ذلك ليؤكد هذه المكانة بانشائه لديوان الخاتم ، ويقال أن ذلك حدث بعد أن أعطى كتاباً إلى عمرو بن الزبير يأمر فيه زياد ابن أبيه عامله على العراق بأن يعطي حامله مائة ألف درهم ، ففتح عمرو الكتاب وجعل المائة مائتين ، وتسلم المبلغ من زياد ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدد ، فاكتشف معاوية تزوير عمرو فأمر بحبسه ، إلا أن أخاه عبد الله بن الزبير قضى عنه المبلغ الزائد فأطلق سراحه ، وكان هذا دافعاً لمعاوية لاتخاذ ديوان للختم ، وكان من مهامه الرئيسية ، تسجيل ما يصدر عن الخليفة ، ثم يختم سواء كانت رسالة أو وثيقة ، قبل أن يرسل إلى الولايات والأمصار ، وبعد ختمها كانت تلف وتحزم بخيط توضع في نهايته قطعة من الشمع ، ويطبع عليها أيضا بخاتم آخر ، حتى تحاط بالسرية التامة ، وقد أسند معاوية ديوان الخاتم إلى عبيد بن أوس الغساني ، وسلم الخاتم اليه ، وكان على فصه « لكل عمل ثواب »[3] ، ونال الختم في هذه الآونة ثقة لا حد لها ، حتى أن معاوية حينما أرسل إلى « الحسن عند مراودته اياه في الصلح ، بعث اليه بصحيفة بيضاء ختم على أسفلها ، وكتب اليه « أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت اسفلها ما شئت فهو لك » ، وهناك الكثير من الأقوال التي تؤكد أهمية الختم ومكانته ، منها ما أورده أيضاً أبو بكر الصولي ، فيقول على لسان ابن عباس أنه قال : « كل كتاب غير مختوم فهو أقلف » ، وعن ابراهيم بن العباس الصولي قال : « الكتب موات ما لم يوقع فيها توقيع الختم ، وتختم فإذا فعل بها عاشت » ، « وكان محمد بن عبد الملك الزيات إذا أراد أن يختم الكتب دعا

---

(١) راجع أدب الكتاب للصولى – نشر محمد بهجة الأثري القاهرة ١٣٤٢ هـ .

(٢) د. أحمد جمال العمرى : أبو بكر الصولى ص ٢٤٩ .

(٣) راجع : د. أحمد جمال العمرى : أبو بكر الصولي – أعلام العرب ١٩٧٣ ، وأيضاً أبو بكر الصولي : أدب الكتاب .

بدرج فيه الخاتم فإذا جيء به وهو خاتم الملك ، قام قائماً ، فأخذه اجلالاً ثم جلس فأخرجه ، وختم الكتاب به ورده إلى الدرج وختم عليه » .

هذا عن مكانة الختم ، أما عن الطريقة التي كان يعد بها ، فقد اختلفت تبعاً للشكل والحجم ونوع الخامة المصنوع منها ، فمن حيث الشكل ، كان منه ما يمسك باليد ويطبع به وهناك ما يلبس في أصبع اليد ويستعمل وهو في يد صاحبه ، ومنه ما كان عن طريق خيط في صدر الكاتب .

والصولي في تحليل موضوعاته يميل كثيراً إلى الاستطراد والتنقل من موضوع إلى موضوع لكي يتجنب الرتابة والملل فكان ينتقل من دائرة موضوعه الأصلي الذي يتناوله إلى موضوعات فرعية ، ويحللها ويوضحها ، ثم يعود إلى أصل الموضوع مرة ثانية في مهارة ودقة فعندما تناول موضوع « فضل الكتابة » وأرخ لها ، شرع يشرح كيف تكون الكتابة ، وكيف تكون المكاتبات وكيف تبدأ .. فتناول افتتاحها وأنها لابد أن تبدأ كأي شيء ب« **بسم الله الرحمن الرحيم** » ثم أنبرى يوضح – كعادته – الأصل في هذه العبارة ويحللها مبيناً كيف نشأت وتجمعت حتى وصلت إلى هذه الصورة فألف فصلاً في « أصل بسم الله الرحمن الرحيم » يقول فيه كانت قريش تكتب في جاهليتها ، باسمك اللهم وكان النبي ﷺ كذلك .. ثم نزلت سورة هود وفيها بسم الله مجراها ومرساها فأمر النبي ﷺ بأن يكتب في صور كتبه (بسم الله) .. ثم نزلت في سورة بني إسرائيل (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى) فكتب (بسم الله الرحمن) .. ثم نزلت في سورة النمل (إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) فجعل ذلك في صور الكتب إلى الساعة وكتب بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة من القرآن إلا في أول سورة التوبة .

ثم ينتقل إلى موضوع آخر يتصل بفقه اللغة .. فيحلل لفظ (اسم) وهل هو من السمو أو السمة .. الخ وهكذا ينتقل الصولي من موضوع إلى موضوع .. على أننا ينبغي أن نعرف : أن تنقله هذا لا يخل ولا يمل ، وأنه داخل الدائرة الكبرى لموضوعه ، فهو ينتقل من مجال إلى مجال حول نواة موضوعه ليوضح ما اشتمل عليه من عناصر ومعلومات أدبية ونحوية وتاريخية .

وسأل الصولي بعض الكتاب عن الخط : متى يستحق أن يوصف بالجودة فقال : إذا اعتدلت أقسامه ، وطالت ألفه ولامه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صعوده حدوده ، وتفتحت عيونه ، ولم تشتبه راؤه ونونه ، وأشرف قرطاسه ، وأظلمت أنفاسه ، ولم تختلف أجناسه ، فأسرع إلى العيون تصوره ، وإلى القلوب تنمره ، وقدرت فصوله ، وأدمجت

أصوله ، وتناسب دقيقه وجليله ، وتساوت أطنابه ، واستدارت أهدابه ، وصغرت نواجذه ، وانفتحت محاجره ، وخرج عن نمط الواراقين ، وبعد عن تصنع المحررين ، وخيل أنه يتحرك وهو ساكن[1] . ومنهج الصولي في كتابه « أدب الكتاب » يختلف عما انتهجه ابن قتيبة في كتابه « أدب الكاتب » فالكتابان وان اتفقا في الغرض الأساسي الذي ألفا من أجله – وهو تعليم الكتاب وتثقيفهم وتدريبهم – إلا أن كتاب الصولي يختلف في معظمه عن كتاب ابن قتيبة ، يختلف من حيث المادة الأدبية ، ومن حيث المنهج والتبويب والترتيب ، وطريقة التعليم .

ولاشك أن كتاب أدب الكتاب للصولي يدل دلالة واضحة على قوة روحه الأدبية ، المتجلية في فهمه الرائع ، وفي طريقة تحليله للمواد الأدبية تحليلاً فنياً يصقل الحس ، ويصفى الذوق ويربي ملكة الكتابة والأدب ، ومن هذا الكتاب نستطيع أن نعرف عقلية الرجل المعلم بوصفه أحد كبار أئمة الأدب المشهود لهم بحسن التأليف وروعة التصنيف في عصره .

(١) راجع : أحمد جمال العمري : أبو بكر الصولي - أعلام العرب ١٩٧٣ ، وأيضاً أبو بكر الصولي : أدب الكتاب ص ١٥٣ .

أبو حيان التوحيدي فيلسوف الفن
بين مشكلة الابداع الفني وتفسير ظاهرة الانفعال الجمالي
(٣١٠ - ٤١٣ هـ)

من أعلام الحركة الفلسفية الأدبية في القرن الرابع الهجري ، عاصر رقي الحياة العقلية وتقدم العلوم والفنون ، وتنوع الثقافات والحركات الفكرية في العصر العباسي ، وظهر أثر كل هذا في كتبه ورسائله ، حتى لقد اعتبره بعض الباحثين الناطق بلسان الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري وبعد أن نضجت العلوم وبوصفه مفكراً موسوعياً . حاول أن يمزج الفلسفة بالأدب[١] ، وليس من شك في أن جمع أبو حيان بين التراث اليوناني من جهة والثقافة العربية من جهة أخرى ، هو الذي أهله للقيام بهذا الدور الحضاري الهام ، في عصر كثرت فيه المجالس الأدبية والندوات الفكرية ، وقد تردد أبو حيان على مجالس وزراء كثيرين من أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد وابن سعدان ، فكان أديب الثقافة الرفعية والفكر الممتاز في كل منتدى من هذه المنتديات . وأبو حيان التوحيدي هو ذلك المعلم المحقق الناقد ، الوراق الناسخ الخطاط وهو في كل مؤلفاته يثير مشكلة وحدة الفنون فهو إذا تحدث عن حسن الخط وجماله وعن دور القلم واستخدامه ، فإنما يتحدث عن الفن وكأديب مبدع وباحث ، لا يستجلب أمثلة إلا من واقع مهنته وفنه ، ولا تدور أفكاره إلا من معين ثقافته وموسوعية إلمامه .

والمتأمل في كتاب « **الامتاع والمؤانسة** » - مثلا - يعجب لثقافة أبي حيان الواسعة واطلاعه الغزير ، إذ يجد في هذا الكتاب مسائل من كل علم وفن : فأدب وفلسفة وحيوان وأخلاق وطبيعة ، وبلاغة وتفسير وحديث ولغة وسياسة وفكاهة ومجون ، وتحليل لشخصيات فلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس .. إلخ .

والتوحيدي رجل عاش بيئة سياسية حافلة بالفوضى والاضطراب ، كما عاصر فساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ظل حكم بني بويه ، وليس من شك في أن آثار هذا العهد القاسي المظلم قد انعكست على تفكيره وأسلوب معاشه .

---

(١) وصفه لنا ياقوت في معجم الأدباء فقال أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة فرد لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة .

راجع ياقوت الرومى - معجم الأدباء - القاهرة - طبعة الدكتور فريد رفاعى ج ١٥ ص ٥ .

لذلك فانه لم يتنكر لضرورات حياته الطبيعية ، بل بقى مجرد انسان من لحم ودم تؤرقه مشكلات الرزق والمعاش ومطالب الحياة المادية ومستلزمات التعامل الاجتماعي ، وشتى ظروف الحياة البشرية . من هنا تحددت شخصيته « وأحب التنويع » واتسمت به أخلاقه مما دفعه إلى الأخذ من كل علم بطرف ، فكان من ذلك اهتمامه بدراسة الفقه والحديث وانشغاله بالكلام والتوحيد ، وعنايته بمسائل المنطق والفلسفة . وانصرافه إلى البحث في اللغة والنحو ، والكتابة تجويدها وتحسينها ، ثم اشتغاله بالتصوف ، وعليه ندرك السر في تلك الروح الموسوعية التي أتاحت لأبي حيان الفرصة للمزج بين كل تلك الثقافات ، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن التوحيدي كان فيلسوفاً مع الفلاسفة ، ومتكلماً مع المتكلمين ، ولغوياً مع اللغويين ، ومتصوفاً مع المتصوفين[1] . كما كان معنياً بكل ما يمس الانسان في حياته . وليس بدعاً أن نراه يهتم بالفن والفنان . صحيح أننا لا نجد عند أبي حيان نظريه فلسفية متكاملة في تفسير الجمال أو تأويل الفن أو شرح الابداع الفني أو تحليل عملية التذوق الجمالي ، ولكن من المؤكد أننا نلتقي في ثنايا رسائله ومؤلفاته بالكثير من الأسئلة التي تدور حول امثال هذه المواضيع ، ولئن كان جانب كبير من اهتمام أبي حيان قد انصرف إلى فن البلاغة ، وفن الشعر ، وشتى فنون الكتابة ، إلا أنه قد عالج مسائل أخرى عديدة هي أدخل في باب « الفن » بصفة عامة منها في باب « الأدب » .

فرق أبو حيان التوحيدي بين العلم والفن ، فالعلم يحاول تفسير الظواهر الطبيعية والمعرفة العلمية تفسير محايد للظواهر ، بينما الفن ذاتي للانسان عما يحيط به من ظواهر . والفن ينبع من ذات الانسان ومن داخله .

وهذا الفن من أخص خصائص الانسان باعتباره سمة حضارية من ناحية ولوناً اجتماعياً من ناحية أخرى وأحد أشكال حرية الانسان ثالثاً .

والفن هو الذي ينعش الحياة في صورها الثلاث : العاطفة والعقل والارادة . والفن عند التوحيدي ينسحب على الرسم والنحت والشعر والموسيقى والخط ، فإنها جميعاً تخرج من ذات الفنان ونفسه المبدعة الملهمة ، وكلها تمت إلى معنى الرفعة ، وكلها تتصل بالجمال ، وكلها تجمعها العاطفة والخيال .

والصناعة عند التوحيدي تعني الفن بجانب كونها تعني المقدرة الفنية التي بلغت بها المهارة والاتقان حد الكمال . والفنان يبلغ أرقى مراحل التكامل الوجودي ، فهو يعمل

---

(١) « الهوامل الشوامل » : مقدمة أحمد أمين ص « و » .

على تشخيص الجمال ، وربطه بمواقف الانسان . ووظيفة الفن الأساسية عند أبي حيان هي التنوير والحفز إلى العمل وتحسين الافهام .

وإذا كان الناس قد اعتادوا تمييز الانسان عن الحيوان بعقله أو نظره فقط فان التوحيدي يشير إلى سمة أخرى تميزه عن الحيوان ، ألا وهي الحاسة الفنية أو القدرة على التذوق الجمالي وهو يقول : ان الانسان متميز عن الحيوان بالأيدي لاقامة الصناعات وابراز الصور مماثلة لما في الطبيعة بقوة النفس[1] ، فإذا عرفنا أن كلمة الصناعة عند العرب كانت تنصرف كلية إلى معنى الفن وإذا لاحظنا هنا أهمية « اليد » في ابراز الصور والفنون الجميلة ، وإذا أدركنا دور النفس في العمل على محاكاة « الطبيعة » أمكننا أن نفهم كيف أن الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يدرك الجمال ويعمل على تحقيقه ، وليس بدعاً أن يكون الموجود البشرى أقدر الموجودات جميعاً على تذوق الجمال ، فإن الطبيعة قد حبته بصراً حاداً وسمعاً رهيفاً ، والسمع والبصر أخص بالنفس من الاحساسات الباقية ، لأنهما خادماً النفس في السر والعلانية ومؤنساها في الخلوة .. الخ[2] .

وليس من شك في أن الانسان يجد لذة كبرى في الاستماع إلى الأغنية العذبة ، أو التملي بالصورة الحسنة ، ولكن الناس قلما يتساءلون عن الأصل في هذه « المتعة الجمالية » أو السر في هذا التذوق الفني ، وأما أبو حيان التوحيدي فإنه يثير مشكلة « الادراك الجمالي على أحسن وجه » ، حينما يكتب إلى زميله مسكويه قائلاً : « ما سبب استحسان الصورة الحسنة ؟ وما هذا الولوع الظاهر ، والنظر ، والعشق الواقع من القلب ، والصبابة المتيمة للنفس ، والفكر الطارد للنوم ، والخيال الماثل للانسان ؟ أهذه كلها من آثار الطبيعة أم هي من عوارض النفس ؟ أم هي دواعي العقل ؟ أم من سهام الروح أم هي خالية من العلل جارية على الهذر . والعبث وطريق الباطل ؟ .

وواضح من هذا النص أن التوحيدي باحث معنى بالتعرف على الأصل في الادراك الجمالي وهل هو مجرد ظاهرة طبيعية ، أم هو ظاهرة نفسية ، أم هو ظاهرة عقلية أم هو غير هذا كله ؟ كما أنه مهتم بالوقوف على شتى الأعراض الجسمية والنفسية التي تلحق عاشق الجمال ، حتى لتكاد تجعل منه مخلوقاً غير عادي يلاحقه طيف الجمال وتطارده صورة المحبوب ، ويؤرقه العشق الواقع من القلب .

---

(١) الامتاع والمؤانسة : تحقيق ونشر أحمد أمين وأحمد الزين – القاهرة – لجنة التأليف والترجمة والنشر ثلاثة أجزاء ١٩٤٤/٤٢/٣٩ جزء ٢ ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق الجزء الثاني ص ٨٣

ويمضي أبو حيان إلى حد أبعد من ذلك ، فيتساءل عن السبب في أن الصورة الجميلة الماثلة أمامنا الآن كثيراً ما تنسينا كل ما عداها من صور ، حتى أنه ليخيل الينا أحياناً أننا لم نر نظيراً لها من قبل .

والتوحيدي هنا حريص على تعرف الخلاف بين « **الانفعال الجمالي** » وغيره من ضروب الانفعالات النفسية الأخرى ، مما يدلنا على اهتمامه الشديد بالوقوف على طبيعة ذلك النوع الخاص من « **الانفعال** » الذي يقترن برؤية الجمال أو سماعه .

ولعل من هذا القيل مثلا قوله : « لم صار من يطرب الغناء ويرتاح للسماع يمد يده ، ويحرك رأسه ، وربما قام وجال ، ورقص ونعر وصرخ ، وربما عوا وهام . وليس هكذا من يخاف ، فانه يقشعر ويتقبض ، ويواري شخصه ، ويغيب أثره ، ويخفض صوته ويقل حديثه[1] ؟

وواضح من هذا النص أن أبا حيان يتساءل عن السبب في اختلاف مظاهر « **انفعال الطرب** » عن مظاهر « **انفعال الخوف** » في حين أن كلاً منهما « **تأثر وجداني** » يطرأ على النفس ، ويحدث بعض التغيرات في البدن ، والظاهر أن أبا حيان كان معنياً إلى حد كبير بوصف آثار انفعال الطرب على النفس والبدن ، فاننا نراه يسرد علينا في كتابه « الامتاع والمؤانسة » استجابات الكثير من معارفه وأصحابه وأصدقائه لبعض المؤثرات الجمالية ، من حسن طبيعي ، وغناء شجي ، ورقص بديع .. الخ وربما كان من أعجب هذه الاستجابات ما رواه لنا أبو حيان عن أحد الصوفية من أنه إذا سمع غناء إحدى الجواري « ضرب بنفسه الأرض ، وتمرغ في التراب ، وهاج وأزبد ، وتعفر شعره ، وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه ، ومن يجسر على الدنو منه ، فانه يعض بنانه ، ويخمش بظفره ، ويركل برجله .. إلخ[2] » .

ولا يجد التوحيدي أية غرابة في أن يكون للغناء مثل هذا التأثير على النفس : فانه أرق شيء خلقه الله ، وألينه على الأذن والقلب ، وأظهره للسرور والفرح ، وأنفاه للهم والحزن ، خصوصاً وأنه يقرع السمع وهو منه على مسافة ، فتطرب له النفس ويهتز له البدن .

ويمضي التوحيدي إلى حد أبعد من ذلك فيتساءل عما إذا كان الحيوان نفسه يستجيب

---

(١) الهوامل والشوامل ، المسألة ٥١ ، ص ٣٩ .

(٢) الامتاع والمؤانسة : جزء الثاني ص ١٦٦ .

للجمال ، أو ما إذا كان هذه الاستجابة وقفاً على الانسان . وهو يقول في ذلك : « هل تتصاغى البهائم والطير إلى اللحن الشجي والصوت العذب » ؟

وقد سبق أن ذكرنا كيف جعل التوحيدي من « الفن » أو الصناعة ظاهرة انسانية تتوقف على القوة الناطقة التي يتمتع بها الموجود البشري فلابد لنا اذن من أن نفرق بين عملية ابداع الفن وعلمية تذوقه ، وما دام الحيوان لا يشترك مع الانسان في العملية الأولى ، في حين أنه يشترك معه في العلمية الثانية ومعنى هذا – بعبارة أخرى – أن أبا حيان لا يرى مانعاً من نسبة « **الانفعال الجمالي** » إلى الحيوان بينما نراه يختص الانسان – دون سواه من باقي الكائنات – بالقدرة على ابداع الجمال واستحداثه .

وهنا تثار مشكلة « الابداع الفني » فنرى التوحيدي يحاول تفسير هذه الظاهرة البشرية النوعية باظهارنا على العلاقة القائمة بين الطبيعة والصناعة أو الفن . وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا الصدد هو أن يقال أن الطبيعة فوق الصناعة ، أو أن الصناعة دون الطبيعة ، بدليل أن الصناعة تحاول التشبه بالطبيعة ، فلا تكاد تقوى على ذلك ، في حين أن الطبيعة لا تتشبه بالصناعة ولا تكمل بها ، هذا إلى أن الطبيعة وراءها قوة إلهيه قادرة ، فكيف للصناعة البشرية أن تساويها أو أن تكون مستعلية عليها ، في حين أنه لا سبيل لقوة بشرية أن تتساوى مع قوة إلهيه .. من قريب أو من بعيد[1] .

ويرى التوحيدي أن الموهبة الطبيعية لا تكفي وحدها لظهور الفنان وإنما لابد من أن تنضاف إليها الخدمة أو الصناعة ، ما دام من الضروري لكل موهبة طبيعية أن تصقل وتهذب حتى تستحيل إلى موهبة فنية ، فان الصناعة نشاط بشري يصدر عن العقل ويستملي من النفس ، فليس بدعاً أن نراها تملي على الطبيعة وتحاول أن تصقلها وتهذبها . وإذن فليس يكفي أن نقول أن الصناعة تقترب وتحاكي الطبيعة ، وانما يجب أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن الطبيعة نفسها في حاجة إلى الصنعة ، مادامت مرتبة الطبيعة دون مرتبة النفس .

ويحاول أبو حيان أن يطبق هذه النظرية على فن الكتابة والبلاغة ، فنراه يقرر أنه وان كان لابد للأديب من طبيعة جيدة ، ومزاج صحيح ، وسليقة سليمة ، إلا أنه لابد له أيضاً من صناعة متقنة . وإلمام جيد ، ودراسة ، طويلة الباع . وأبو حيان يؤكد أهمية الذوق الفني أو السليقة الأدبية ويبين أن البلاغة الصحيحة هي التي تجمع بين عمق المعنى وجودة اللفظ ، أو بين سلامة التفكير وحسن التعبير ، وبحيث يصل المعنى إلى القلب في

(١) الامتاع والمؤانسة : الجزء الثانى ص ٣٩ .

أحسن صورة من اللفظ ، ويحذر أبو حيان من أن نتوهم أن القول البليغ قد يصدر عن صاحبه كما يصدر ماء من الينبوع . فإن فن الكتابة البليغة ، مثله في ذلك كمثل غيره من الفنون فن عسير يحتاج إلى جهد وتعلم وممارسة وطول باع ، ومعنى هذا أن الكلام الذي يسنح به الطبع قلما يجيء كلاماً بليغاً ، لأن في البلاغة من الفن ما يتطلب جودة الصياغة ، وحسن السبك ، وصحة التقسيم ، وترتيب الألفاظ ، مع مجانبة التكلف والتزام الأصالة دون إطالة . لأن التكلف مفضحة وصاحبه مذموم .

ويعود التوحيدي في موضوع آخر إلى تحليل فن الكتابة فيبين لنا أن هذا الفن « مركب من اللفظ اللغوي ، والصوغ الطباعي ، والتأليف الصناعي والاستعمال الاصطلاحي » ولكنه ينص في الوقت نفسه على أن المشتغل بهذا الفن في حاجة إلى نشاط ذهني واستدلال عقلي ، وقدرة على التمييز ، وطاقة على ممارسة البرهان ، ومعنى هذا أن الأديب الكاتب في حاجة إلى عقلية فلسفية وتفكير منطقي ، كما هو في حاجة إلى سليقه أدبية وذوق فني .

وأبو حيان يثور على أدباء الزخرف والتحسين اللفظي ، فنراه ينصح الأديب قائلاً : « ولا تعشق اللفظ دون المعنى ، ولا تهو المعنى دون اللفظ وكن من أصحاب البلاغة والانشاء ، فالبليغ يستمد بلاغته من العقل ، ويصدر فيها عن التمييز الصحيح . والبلاغة هي ثمرات العقل ، وفن يقوم على احقاق الحق وابطال الباطل . وقد أساء بعض أهل الانشاء والتحرير إلى فن البلاغة أبلغ اساءة ممن اصطنعوا شتى أساليب التشدق والكذب والخداع ، فأوهموا الناس بأن هذا الفن زخرفة وبهرجة وبراعة خدع واحتيال . وفات هؤلاء ان البلاغة فن يحتاج إلى دراسة وتحصيل وطول مراس ، فإن الكاتب لا يكون كاملاً ولإسمه مستحقاً ، إلا بعد أن ينهض بدراسة أصول هذه الصناعة ، ويجمع إليها أصولا من الفقه ، وآيات من القرآن ، وعلماً واسعاً بالحديث ، وأخباراً كثيرة مختلفة في فنون شتى لتكون عدة له عند الحاجة إليها ، مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة ، والعبادات المأثورة ، والتجارب المعهودة والمجالس المشهودة .. الخ[1] .

والتوحيدي لا يرى موضوعاً للمفاضلة بين البلاغة وغيرها من الفنون ، أو بينها وبين ما عداها من علوم ، فإن حاجة الانسان إلى الحساب والهندسة والكيمياء ، لا تنفي حاجته إلى التحرير والكتابة والانشاء .

ويتوقف التوحيدي عند مشكلة « الصدق الفني » فيحاول أن يبين لنا كيف أن

---

(١) الامتاع والمؤانسة - الجزء الأول ص ٩٦ .

الفنان البليغ يتبع منطقاً آخر غير منطق الصدق في الحياة الواقعية ، لأن الفنان لا يقتصر على محاكاة الواقع أو ترديد الحاصل بل هو يعبر عن السانحة اللطيفة والبادرة الخفية باللفظ الملائم والتعبير الصادق . وبيت القصيد في الكلام الجيد أن يجيء خالياً من التكلف ، بعيداً عن التعسف بحيث ترتاح له الآذان ، وتقبل عليه الأذهان . ولم يجانب التوحيدي الصواب في حكمه على البلاغة ، فإن هذا الفن – كغيره من الفنون يحتاج إلى الدربة والمران وطول الممارسة ، ولا يتأتى لصاحبه الابداع فيه إلا بعد جهد وطول باع وصراع عنيف .

والظاهر أن التوحيدي قد فطن إلى أن الفن – في أصله – صارع عنيف ضد المادة : فإننا نجده يصور لنا – في مواضع عديدة – ذلك الجهد الذي يبذله أهل البلاغة في سبيل تطويع اللفظ وتصفية المعنى ، وتخير العبارة الخ .

والواقع أنه قد يكون في استطاعة « **السرعة** » أن تحصل على إذن دخول في أي ميدان من الميادين اللهم إلا في ميدان الفن : فانه ليس من طبيعة الانتاج الفني أن يكون وليد العجلة والتسرع واللهفة والاندفاع . والتوحيدي يذكر الكاتب بهذه الحقيقة حين يقول له : « أن من يرد عليه كتابك فليس يعلم أسرعت فيه أم أبطأت ، وإنما ينظر أصبت فيه أم أخطأت ، وأحسنت أم أسأت[1] . هذا إلى أن الأديب الكاتب في حاجة إلى الالمام بقواعد اللغة ، والوقوف على أصولها الدقيقة ، حتى يكون مالكاً لناصية القول . وليس من شك في أن دراسة اللغة تستلزم وقتاً طويلاً ، وجهداً كبيراً وممارسة شاقة . والتوحيدي ينص بصراحة على أن « من تكامل حظه من اللغة ، وتوفر نصيبه من النحو ، كان بالكلام أمهر وعلى تصريف المعاني أقدر ، وازداد بصيرة في قيمة الانسان ، المفضل على جميع الحيوان[2] » .

وهذا النص يذكرنا مرة أخرى بأن اللغة من أخص خصائص الانسان ، وأن الموجود البشري هو الموجود الوحيد الذي يعبر عن نفسه باللفظ الرقيق ، والمعنى الدقيق والعبارة الجزلة ، واللغة السهلة ، دون تكلف أو تعسف ، ودون إقلال أو اخلال .

والتوحيدي حريص على معرفة حظ كل من النثر والشعر من البلاغة ومرتبة كل واحد منهما ، ومزية أحدهما ، ونسبة كل منها إلى الآخر ، وطبقات الناس فيهما .. وعلى أي شكل يتفقان ، وأيهما أجمع للفائدة ، وأرجع بالعائدة ، وأدخل في الصناعة ، وأولى

(١) الامتاع والمؤانسة – الجزء الأول ص ٦٥ .

(٢) رسالة في العلوم ص ٢٠٤ .

بالبراعة[1] . وقد أجاب أبو حيان على هذه التساؤلات اجابة طويلة مفصلة ، وأتى خلالها على كل ما ادعاه عن أرباب هذه الصناعة ، فروى الكثير من أقاويل البلغاء وأهل الكتابة ولعل من هذا القبيل مثلاً ما أورده عن أبي عابد الكرضي من أنه قال : النثر أصل الكلام ، والنظم فرعه ، والأصل أشرف من الفرع ، والفرع أنقص من الأصل[2] .

ولهذا قيل أيضاً : أن النثر كالحرة ، والشعر كالأمة ، والأمة قد تكون أحسن وجهاً ، وأدمث شمائل ، وأحلى حركات ، ألا أنها لا توصف بكرم جوهر الحرة ولا يشرف عرقها ، وعتق نفسها ، وفضل حياتها . والتوحيدي يروي لنا أيضاً عن ابن كعب الانصاري أنه قال : أن من شرف النثر أن النبي ﷺ لم ينطق إلا به ، آمراً وناهياً ومستخبراً ومخبرا ، وهادياً وواعظاً ، وغاضباً وراضياً . وما سلب (أي الرسول) النظم إلا لهبوطه عند درجة النثر ، ولانزه عنه إلا لما فيه من النقص ، ولو تساويا لنطق به ، ولما اختلفا ، خص بأشرفهما الذي هو أجول في جميع المواضع ، وأجلب لكل ما يتطلب من المنافع[3] .

ومفاد هذا القول أن الأحاديث النبوية الشريفة قد جاءت كلها منثورة نظراً لما في النثر من متسع للقول ، فضلاً عما فيه من ليونة وسيولة وسلامة .

ويورد لنا التوحيدي بعض أقوال المدافعين عن الشعر فيقول : ان الشعر موسيقى ذات ايقاع ، الناس يتغنون ، ويطربون له كما أن من فضل الشعر استشهاد الناس به ، حتى لقد أصبح الشاعر حجة في نظر الناس أجمعين ، وفي مقدمتهم الحكماء والفقهاء والنحويون واللغويون أنفسهم .

بيد أن الكثيرين قد حملوا على الشعراء بدعوى أنهم ليسوا علماء ولا حكماء وإنما هم بشر ناقصون .. ولهذا قيل : لا تصحبن شاعراً فإنه يهجوك مجاناً ويطري أخلاقك بثمن ، هذا لأنه مع الريح أين مالت به مال .

والتوحيدي يعارض هذا الرأي الأخير بالذات قائلاً : ان الشعر لا يخرج عن كونه كلاماً وإن كان من قبيل الشعر ، والكلام يوصف بالصدق أو الكذب ، فليس الصواب مقصوراً على النثر دون الشعر ، ولا الحق مقبولاً بالشعر مرفوضاً بالنثر وإنما للنثر فضيلته

(١) الامتاع والمؤانسة : الجزء الثاني ص ١٣٠ .
(٢) الامتاع والمؤانسة : الجزء الثاني ص ١٣٢ .
(٣) الامتاع والمؤانسة : الجزء الثاني ص ١٣٥

التي لا تنكر ، كما أن للشعر شرفه الذي لا يجحد ولا يسترد ، وكلاهما يتطلب اللفظ الحلو المقبول والمعنى الفخم النبيل .

ويستطرد أبو حيان فيحدثنا عن الأسلوب المقالي « بأن خير الكلام ما أيده العقل بالحقيقة ومساعدة اللفظ بالدقة ، وكان له سهولة في السمع ، وعذوبة في القلب ، وروح في الصدر بحيث يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام . وخير نموذج لهذا النوع من الكلام كتاب الله عز وجل فهو كلام ليس فيه أثر للصنعة ولا علامة للتكلف ، قليله كثير ، كثيره غزير ، ومعناه أقوم من لفظه ، ولفظه أرشق من وزنه ، ووزنه أعدل من نظمه ، ونظمه أحلى من نثره ، وهو شيء يستوى فيه تعجب الجاهل وتحير العالم ، ويستعلي الذهن ، ويستغرق الفهم ويحجب الرؤية عن الادراك ، ويردها إلى البديهة في التسليم[1] .

وهكذا يقدم لنا أبا حيان دراسة شاملة مستفيضة لفن البلاغة فأوضح أن « **الكتابة الفنية** » هي ثمرة لاتحاد اللفظ والمعنى وامتزاج الصورة بالمادة وتكافؤ الشكل مع الموضوع . ولعل هذا ما عبر عنه التوحيدي بعبارته السهلة «أحسن الكلام مارق لفظه ، ولطف معناه ، وتلألأ رونقه ، وقامت صورته بين شعر كأنه نثر ، ونثر كأنه شعر » .

ان الدكتور ابراهيم كيلاني قد طبع للتوحيدي ثلاث رسائل وهي **رسالة السقيفة ورسالة الحياة ، ورسالة في علم الكتابة** ، ومهما يكن من أمر فان ما اكتشف من سنايا هذه الرسالة الأخيرة يدل على حياة فكرية خصبة وفعالية وفيرة في التأليف . ورسالة الكتابة ترجع إلى أن أبا حيان التوحيدي امتهن الوراقة وكان خطه جميلاً ، وتعتبر هذه الرسالة من أقدم ما وصلنا عن الخطوط العربية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة وهي عن الخطوط العربية القديمة وأنواعها والأصول المدعية للكتابة ، ومن ثم لا نجد خير من يؤلف فيها غير التوحيدي الذي كان بحكم مهنة الكتابة والوراقة معنياً بهذه الصنعة مطلعاً على دقائقها وأسرارها ، ومن ثم فهو خبير بهذه المهنة وبدقائقها علمياً وعملياً . يقول فيها : كنت يوماً من الأيام عند بعض الرؤساء ، وجرى كلام في نعت الخط وشرح أقسامه وتفصيل فنونه ووصف مذاهب أصحابه .. فانبريت بكلام كنت وعيته كله من أبي محمد بن البربري المحرر عندنا ببغداد .. ووصلت ذلك بما كنت سمعته من الأفضل وأصحاب الأقلام البارعة وأرباب الخطوط اليانعة .

وقد تناول التوحيدي في رسالته في علم الكتابة أنواع الخطوط العربية في زمانه وأنواع الأقلام وبريها وقطها ، ومعاني الخطوط . وصفات الخط الجيد ، وبعض الصفات الفنية

---

(١) ينقل الينا أبو حيان التوحيدي هذا الرأي من الكاتب النصراني أبي عبيد الكاتب – راجع الامتاع والمؤانسة ص ٩٧ .

للخط ، كل هذا بالاضافة إلى أقوال كثيرة في الخط وصفاته منسوبة إلى أصحابه من العرب في المهنة والفن وغيرهم .

وتعتبر هذه الرسالة محصلة ما قيل في هذا الفن إلى وقته ، وهذا ما عناه التوحيدي عندما ختم رسالته بقوله « هذا ما انتهى اليه القول في الخط وصفاته والقلم وحالاته » .. ومن ثم يتضح لنا قيمتها العلمية والوثائقية والفنية أيضاً فهي من أقدم ما ألف في العربية بهذا الفن ومن أولى المراجع لمن يريد البحث عن الخط العربي وقواعده وفيها وصف لخطوط أغلب معاصرية ممن أمتهنوا |صنعة الكتابة[1] .

كان أبو حيان التوحيدي يائساً في حياته وبعد مماته ، أما في حياته فقد عاش فقيراً وأما بعد موته فلم يجد من المؤرخين من يترجم له ترجمة وافية ، وذلك برغم اتساع آفاقه وعمق أغواره ، حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

مؤلفاته : يقال ان أبا حيان قد ألف نحو عشرين كتاباً ، لكن لم يبق منها إلا عدد قليل منها : والظاهر أن أسبقها تأليفاً هو الهوامل والشوامل وتبعه الامتاع والمؤانسة ثم الصداقة ثم الذخائر والبصائر .

١ – **كتاب الصداقة والصديق** نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر
٢ – **كتاب الهوامل والشوامل** نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر
٣ – **كتاب البصائر والذخائر** نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر
٤ – **المقابسات** نشره الدكتور عبد الرحمن بدوي
٥ – **الاشارات الالهية** نشره الدكتور عبد الرحمن بدوي
٦ – **الامتاع والمؤانسة** نشره الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود

يدور السمر في كتاب الامتاع والمؤانسة على ليال ، لكل ليلة موضوع رئيسي يحدده الوزير أبي عبد الله العارض بسؤال يلقيه .. ويرد التوحيدي على السؤال لكن سرعان ما يستطرد ويتشعب فيتناول أمور كثيرة منوعة وغالباً ما يختم بملحمة وداع ..

على أن أبا حيان يخص العرب واللغة العربية بالثناء ، فيقول أنه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد في أي منها نصوع العربية ، أعني الفرج التي في كلماتها ، والفضاء الذي نجده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها

ويقارن بين علم الحساب والبلاغة أيهما أنفع أو قل بين العلوم الرياضية وفنون الأدب والكتابة ، ويقول : لئن اكتفت الدولة بكاتب واحد .. فلا يكفيها مائة محاسب رغم أنه لا غنى للمحاسب نفسه عن الانشاء والكتابة .

جماليات الخط عند أبي حيان :

لقد كان أبو حيان التوحيدي المتوفي عام ٤١٤ هـ أول من تحدث في جمالية وتقنية الخط ، أوضح ذلك في رسالة تحت عنوان « علم الكتابة »[١] وهي من أقدم ما ألف بالعربية في هذا الفن كما سبق أن ذكرنا

ولقد امتهن أبو حيان مهنة الوراقة ، أي نسخ الكتب ، وكان خطه جميلاً ، واتصل بأكثر خطاطي زمانه المشهورين من أصحاب الاقلام البارعة ، وأرباب الخطوط اليانعة . والخط السائد في زمانه هو الخط الكوفي وكان على اثنتى عشرة قاعدة . ويعدد التوحيدي بعض أنواع الخط الكوفي فيورد منها : « الاسماعيلي والمكي ، والاندلسي ، والشامي والعراقي ، والمصري » قائلاً : فهذه هي الخطوط العربية التي كانت، منها ماهو مستعمل قديماً ، ومنها الحديث لزمانه وأما هذه الطرائق المستنبطة فهي مروية عن الصحابة التي اتصلت بابن مقلة وياقوت المستعصمي وغيرهم ، هؤلاء الذين تفننوا في كتابة الخط العربي بحسب اجتهادهم .

عناصر الخط الجميل :

ويضع أبو حيان شروطاً للخط الجميل فيقول : والكاتب يحتاج إلى سبعة معان : الخط المجرد بالتحقيق ، والمحلي بالتحديق ، والمجمل بالتحويق ، والمزين بالتخريق ، والمحسن بالتشقيق ، والمجاد بالتدقين ، والمميز بالتفريق . مؤكداً أن الكتابة الفنية هي ثمرة امتزاج واتحاد وتكافؤ شكل الحروف مع موضوع الكتابة بشرط توافر الوحدة الفنية ، لكي يكون للكتابة طابع تعبيري خاص .

أما المجرد بالتحقيق : فاظهار الحروف كلها ، منثورها ، مفصلها وموصلها ، بمداتها وقصراتها ونفريجاتها وتعويجاتها ، حتى نراها كأنها تبتسم عن ثغور مفلجة ، أو تضحك عن رياض مدبجة .

وأما المراد بالتحديق ، فاقامة الحاء والخاء والجيم وما أشبهها على تبييض أوساطها ، محفوظة عليها من تحتها وفوقها وأطرافها ، أكانت مخلوطة بغيرها أو بارزة عنا ، حتى تكون كالاحداق المفتحة **وأما المراد بالتحويق** فإدارة الواوات والفاءات والقافات وما أشبهها

---

(١) لأبي حيان ثلاث رسائل : رسالة السقيفة ورسالة في علم الكتابة ، ورسالة الحياة تحقيق ونشر ابراهيم الكيلاني . دمشق . منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٩٥١ - راجع : د. زكريا ابراهيم : أبو حيان التوحيدي أعلام العرب العدد ٣٥ ١٩٦٤ ص ٢٧١ - ٢٩٧ .

مصدرة وموسطة ومذنبة يكسبها حلاوة ويزيدها طلاوة . **وأما المراد بالتخريق** وجوه الهاء والعين والغين وما أشبهها كيفما وقعت أفراداً وأزواجاً ، بما يدل الحس الضعيف على اتضاحها وانفتاحها . **وأما المراد بالتعريق** فابراز النون والياء وما أشبهها ، مما يقع في إعجاز الكلمة مثل عن وفي ومتى وإلى وعلى بما يكون كالمنسوج على منوال واحد . **وأما المراد بالتشقيق** فتكنف الصاد والكاف والطاء وما أشبهه ذلك مما يحفظ عليها التناسب والتساوي . فان الشكل يصح ومعهما يحلو ، والخط في الجملة كما قيل هندسة روحانية بآلة جسمانية . **وأما المراد بالتنسيق** ، فتعميم الحروف كلها مفصولها وموصولها بالتصفية وحياطتها من التفاوت في التأدية ، ونفض العناية عليها بالتسوية . **وأما المراد بالتوفيق** فحفظ الاستقامة في السطور من أوائلها وأواسطها وأواخرها وأسافلها وأعاليها بما يفيدها وفاق لا خلافاً **وأما المراد بالتدقيق** ، فتحدد أذناب الحروف بارسال اليد ، واعتماد سن القلم وادارته مرة بصدره ، ومرة بسنيه ، ومرة بالاتكاء ومرة بالأرخاء ، بما يضيف اليهما بهجة ونوراً ورونقاً **وأما المراد بالتفريق** ، فحفظ الحروف مزاحمة بعضها لبعض ، وملابسة أول منها لاخر ليكون كل حرف منها مفارقاً لصاحبه بالبدن ، جامعاً بالشكل الأحسن .

ويختم أبو حيان شروط الخط الجميل ، بشرط أساسي جامع فيقول « فهذه جملة كافية متى كان طبع الكاتب مواتياً ، وفعله مواطئاً وقريحته عذبة وطينته وطنه » .

أنواع الأقلام في الخط العربي :

وقدم أبو حيان في رسالته عن علم الكتابة ، تفاصيل عن أنواع الأقلام وطرق بريها وقطها ، والقلم هو الوسيلة لفن الكتابة ولذلك وجب اختياره بدقة «وخير الأقلام ما استمكن نضحه في جرمه وجف ملؤه في قشره ، وقطع بعد القاء بزره ، وصلب شحمه وثقل حجمه » « والقلم المحرف يكون الخط به أضعف وأحلى والمستوى أقوى وأصفى ، والمتوسط بينهما يجمع أحد حاليهما وماكان في رأسه طول فهو يعين اليد الخفيفة على سرعة الكتابة ، وما قصر فبخلافه[1] .

وينصح سعيد بن حميد الكاتب ، أن يتبع الفنان الخطاط مايلي :

---

(١) ويتم برى القلم بأربعة طرق حسب ما أورده أبو حيان في الرسائل ص ٤٢ .
الفتح وبري القلم الصلب أكثر نفعاً ، وفي حالة الرخو أقل ، وفي حالة المعتدل بينهما مع مراعاة نحت حواشي القلم وبطنه فيكون مستوياً من جهة سن الكتابة .

« أن يأخذ القلم في أصلح أجزائه ، وأبعد مايمكن من موضع المداد فيه ، ويعطيه من أرض الكتابة حظه ، ولا يكتب بالطرف الناقص في سنة ، ويضعه على عيار قسطه ، ويصوره بأحسن مقاديره ويعدله في شطره ، ويشبه مما يأتي من شكله ، ويقرن الحرف بالحرف على قياس ما مضى من شرطه في تقريب مساحته وتبعيد مسافته ، ولا يقطع الكلمة بحرف يفرده في غير سطره ، ويسوي أضلاع خطوط كتابته ولا يحليه بما ليس من زيه ، ولا يمنعه ما هو له بحقه ، فتخلف حليته وتفسد تسميته[1] .

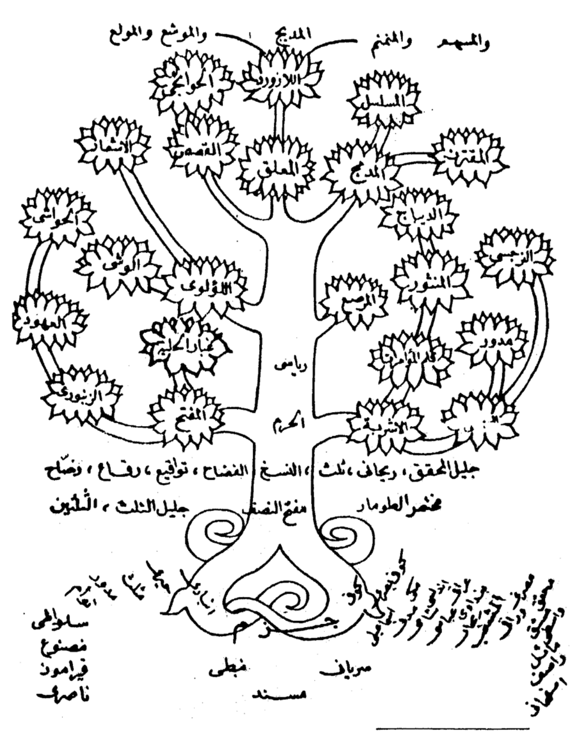
أقوال في مزايا كتابة الخط العربي :

خط القلم يقرأ بكل مكان وفي ظل أي زمان ، ويترجم بكل لسان ، ولفظ اللسان لا يجاوز الآذان ، ولا يعم الناس بالبيان ، ولولا الكتاب (أي الفنانين الخطاطين) « لانتفت أخبار الماضيين وانقطعت أنباء الغابرين . والفن ينقل العواطف الكامنة في النفس ويفصح عنها بشكل فصيح جذاب . فهو يعبر عن العالم الداخلي للانسان المبدع ، وليس فقط عن العالم الخارجي وعن آثار الانسان والزمان . وقال علي بن عبيده : القلم أصم ، ولكنه يسمع النجوى . وأبكم ولكنه يفصح عن الفجوى ، وهو أعيا من باقل ولكنه أفصح وأبلغ من سحبان وائل ، يترجم عن الشاهد ، ويخبر عن الغائب » .

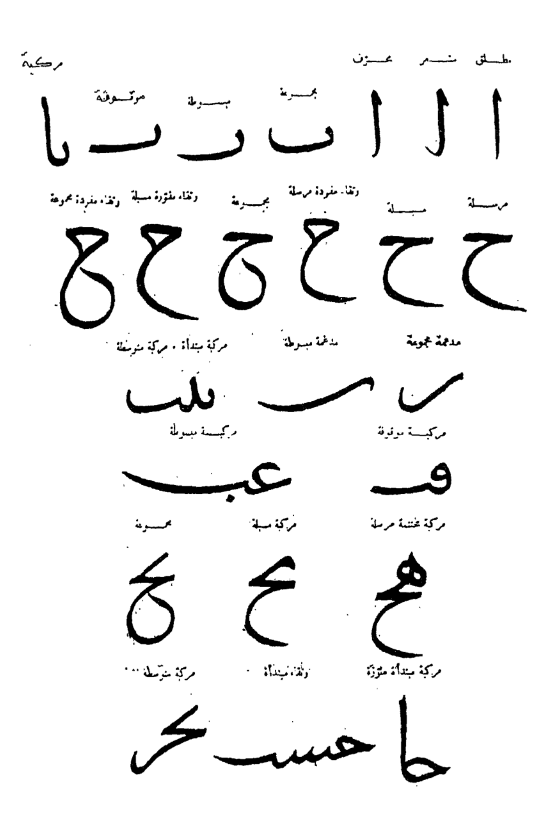
وقال جبل بن يزيد : « القلم لسان البصير يناجيه بما استتر من الاسماع . ويناغيه بما استثار من الطباع ، ويحدثه بما حدث وان كان في البقاع « ثم يتابع أبو حيان تعريفه للفن فيرى أنه مؤلف من شكل ومضمون ، من فكر هو الحكمة وابداع هو البلاغة ، وهو لري العقول الظامئة والنفوس التواقة للجمال قال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان : « القلم شجر ثمرته اللفظ والفكر ، وبحر لؤلؤة الحكمة والبلاغة ، ومنهل فيه ري العقول الظامئة ، والخط حديقة زخرتها الفوائد البالغة » .

---

(١) الرسائل ص ٤٧ .



(شجرة أسماء الأقلام العربية من فجر الاسلام الى انتهاء العباسيين تقريباً)



كتابة بعض حروف الألفباء المفردة والمرتبطة بطريقة ابن البواب وابن مقلة وهي توضح عناصر الخط الجميل عبد التوحيدي ، يشاهد فيها كيف استنبطت حروف الخط الثلث

الفصل الخامس

التطور الشكلي للكتابة في العصر العباسي

نحو مسيرة التقدم
في
تحسين وتجويد الخط العربي

التطور الشكلي للكتابة في العصر العباسي
نحو مسيرة التقدم في تحسين وتجويد الخط العربي

قلنا فيما سبق أن النهضة العربية والقفزة الحضارية الضخمة ظهرت في العصر العباسي وحينما نقول « ظهرت » فانما نعني أن بذورها زرعت من قبل أي منذ ظهور الاسلام ولكنها أينعت وازدهت وأثمرت ثمارها في العصر العباسي .. إذ بلغ الخط شأواً عظيماً وظهر أول ما ظهر خطاطان كبيران أصلهما من دمشق هما : **الضحاك واسحاق بن حماد** وعاش الأول في عصر أبي العباس السفاح والثاني في عهدي المنصور والمهدي . وبعدهما ظهر **ابراهيم الشجري** تلميذ اسحاق وأخذ منه قلمه الذي عرف « بالجليل » واستنبط منه خطين جديدين هما :

خط الثلث وخط الثلثين .. كما أبدع أخوه **يوسف الشجري** خطاً جديداً أطلق عليه خط « التوقيع » حررت به المكاتبات السلطانية ، وفي ذلك العهد برز الخطاط الكبير **الأحول المحرر** الذي أبدع عدة أقلام استمد أصولها من القلم الجليل، منها ماسماه خط النصف وآخر خفيف الثلث وثالث سماه المسلسل أي يكتب متصل الحروف . وكان من الطبيعي .. بعد ظهور هؤلاء الأعلام في فن التجويد أن يظهر العملاق والمعلم الأول ذلك هو الوزير « **أبو علي بن محمد بن مقلة** » المتوفي سنة ٣٢٨ هجرية الأستاذ الأكاديمي الذي كان أحد أئمة منهجة الخطوط العربية وضبط نسبها والذي حدد شكلها وأحكم العلاقات بينها ، وجعل عماد مقياسها هو حرف الألف . وبذلك أصبح تعليم كتابة الخط يخضع لمنهج مدرسي عمل به حتى الآن . كتب عنه القلقشندي الكثير في موسوعته الأدبية العلمية التاريخية (صبح الأعشى في صناعة الانشا) فابن مقلة هو الذي هندس الحروف وأجاد تحريرها وعنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها .

وما استهل القرن الخامس الهجري حتى ظهر مجود عظيم عرف باسم (**ابن البواب**) وهو « الحسن علي بن هلال » والمعلم الثاني وقيل عنه أنه أكمل قواعد الخط وأتمها « ثم تلاه » **ياقوت المستعصمي** المسمى (قبلة الكتاب) .

وفي عصر المأمون تنافس الكتاب في تجويد وتحسين الخطوط العربية وظهرت أقلام

جديدة مثل المرصع وقلم النسخ وقلم الرقاع وقلم الغبار وقلم الرياسي و« المحقق » أو النسخ الفني وغير ذلك من الابتكارات . هؤلاء الثلاثة يمثلون كبار الخطاطين الأفراد الذين حازوا الشهرة والصيت في العصر العباسي وكان لهم من بعدهم تلاميذ ومحبين وصالاً لفضل علمهم وفنهم في الخط العربي .

أنواع الخطوط في العصر العباسي :

كان الخط في صدر الاسلام والدولة الأموية يسمى باسم الاقليم الذي اشتهر فيه مثل الحجازي والمدني والكوفي والبصري .. إلخ . أما في الدولة العباسية فقد تغيرت هذه التسمية لسببين :

١ – كثرة الأنواع المستحدثة بأيدي خطاطين معروفين بالاسم والوظيفة .

٢ – انتشار صناعة الورق ووجوده في أحجام مختلفة ومحدودة .

ولذلك فان الخطوط أول الأمر كانت تسمى باسم الورق الذي يكتب عليه ثم سميت أحياناً باسم صفة معينة في ذات الخط مثل المرصع والمسلسل .. وها هي بعض الأنواع :

١ – الجليل/نسبة إلى حجمه فهو أكبر الأقلام التي يكتب بها وصاحبه **اسحاق بن حماد** . والذي عاش في عهد الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور .

٢ – الطومار/نسبة إلى حجم معين من ورق الكتابة استنبطه**ابراهيم الشجري** من الخط الجليل حيث تتلمذ على يد اسحاق بن حماد .

٣ – الثلثين/نسبة إلى ثلثي قلم الطومار – استنبطه أيضاً **ابراهيم الشجري** من الخط العربي الجليل .

٤ – الثلث/نسبة إلى ثلث الطومار وكتب به **إبراهيم الشجري** (مات سنة ٢١٠هـ) .

٥ – خفيف الثلث/نسبة إلى ثلث الطومار وكتب به **الأحول المحرر** وكان خطه يوصف بالبهجة والحسن من غير احكام ولا اتقان إلا أنه أبدع عدة اقلام استمد أصولها من الخط الجليل . وكان من المعجبين به الخليفة المأمون . كما كان أستاذاً للخليفة المقتدر وأولاده .

٦ – النصف/نسبة إلى نصف قلم الطومار وكتب به **الأحول المحرر** .

٧ – التوقيع/نسبة إلى المكاتبات السلطانية وكتب به **يوسف الشجري** شقيق إبراهيم الشجري لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به على ظهر القصص .

٨ – المسلسل/نسبة إلى تسلسل حروفه واتصالها وكتب به **الأحول المحرر** .

٩ – المنسوب نسبة إلى تحقق النسب الموضوعة له وكتب به الوزير **ابن مقلة** .

١٠- النسخ/نسبة إلى ما ينسخ به من كتب ومصاحف ظهرت في عصر المأمون وهو تطوير للخط الحجازي .
١١- النسخ المحقق/نسبة إلى تحقق القواعد الموضوعة له ، كتب به **ابن مقلة وابن البواب والمستعصمي**.
١٢- المرصع/نسبة إلى تزيينه وتحليته بأسلوب الترصيع وكان ذلك في العصر الأموي .
١٣- الرقاع/نسبة إلى رقاع الدعوة أو تذييلات الحكام وهو غير خط الرقعة التركي .
١٤- الرياسي/نسبة إلى ذي الرياستين وهو **الفضل بن سهل الفارسي** حيث كان يحرر الكتابة السلطانية بهذا الخط دون غيره . وقد ذكره القلقشندي في صبح الأعشى .
١٥- الغباري/نسبة إلى صغر حجمه كأنه ذرات الغبار أو إلى كتابة قديمة على ألواح من الطين يذر عليها نوع أبيض من الغبار وتترك حتى تجف ثم يحفر عليها بمسمار فكان يسمى الغباري أو « غبار الحلبة » وكان الخط الذي بدأ به العرب كتابة رسائل الحمام الزاجل[١] والتي تحمل على أجنحتها وبعضهم يسميه قلم الجناح نظراً لدقته حيث يكتب به في القطع الصغيرة من الورقة ، ولابد أن يكون قلم الكتابة رفيعاً .

هذا ولقد كان الخط العربي هو القاسم المشترك في كثير من الفنون الأخرى كالعمارة والفنون التطبيقية ، على التحف المعدنية والزجاجية والفسيفساء والحلي والأرابيسك والنسج والتطريز وكثير من الصناعات ، كما أنه أصبح الآن عماد فن الاعلان بأنواعه المختلفة . في كل وسائل الاتصال .

وقبل أن ننتقل إلى مدارس فن الخط العربي في الشرق بعد العصر العباسي سنوجز الحديث عن بعض أنواع الخطوط التي ظهرت آنذاك :

الخط المغربي :

وهو مشتق من الخط الكوفي القديم ، وأقدم ما وجد منه يرجع إلى سن ٣٠٠ هـ وقد كان يسمى « بالقيرواني » نسبة إلى القيروان عاصمة المغرب بعد الفتح الاسلامي وهي مؤسسة سنة ٥٠ هـ واكتسبت أهمية سياسية كبرى بعد انفصال المغرب عن الخلافة .

(١) استخدم بعض أساتذتنا للخط العربي اسلوب الخط الغباري في كتابات حديثة ودقيقة وذلك على بعض الحبوب كالقمح والذرة بأن كتبوا البسملة أو بعض الآيات القرآنية للدلالة على التمكن من طواعية الخط العربي في أيديهم ومنهم الأستاذ حلمى محمد حسن خطاط جامعة الاسكندرية حتى بداية السبعينات (والمتوفى عام ١٩٨) رحمة الله عليه . راجع كتابنا عن اساطين الخط العربي المعاصر

العباسية اذ صارت عاصمة المغرب العلمية ولما انتقلت عاصمة المغرب إلى الأندلس ظهر فيها خط جديد سمي بالأندلسي أو القرطبي نسبة إلى قرطبة وهو مستدير الشكل بعكس القيرواني الذي كان مستطيلاً بشكل ملحوظ .

ولما تغلغل الاسلام في أواسط أفريقيا ظهر نوع جديد من الخط المغربي اسمه « الخط التمبكتي » نسبة إلى مدينة تمبكتو التي انشئت عام ٦١٠ هـ ، وأهم ما يفترق فيه الخط المغربي عن خط المشرق نقطتان هما :

١ - أن حرف الفاء ينقط بنقطة واحدة أسفل رأسها وليس فوقها كأهل المشرق .ڢ وحرف القاف ينقط بنقطة واحدة أعلاه لا نقطتين ڧ .
٢ - أن الترتيب القديم للحروف الأبجدية عند أهل المشرق هو : أبجد - هوز - حطي كلمن - سعفص - قرشت - إث خذ - ضظغ .

أما عند أهل المغرب فهو : أبجد - هوز - حطي - كلمن - سعفص - قرست ثخذ - ظفش . ويوجد الآن في أفريقيا أربعة أنواع مختلفة من الخط المغربي :
١ - **الخط التونسي** : وهو يشبه خط المشرق غير أنه يتبع الطريقة المغربية في تنقيط الفاء والقاف .
٢ - **الخط الجزائري** : وهو حاد الزوايا وصعب القراءة غالباً .
٣ - **الخط الفارسي** : ويمتاز بالوضوح والاستدارة .
٤ - **الخط السوداني** : وهو غليظ وذو زوايا أكثر مما هو مستدير .

فنون الكتاب
في العصر الطولوني الاخشيدي

فنون الكتاب في العصر الطولوني ، تتمثل لنا في فن الخط العربي ، وفي المادة التي كانت تكتب عليها النصوص المختلفة (البردي - الرق - الورق) وفي شكل الكتاب وتطور هذا الشكل من الملف إلى الصورة التي نرى عليها الكتاب اليوم . وفي التصوير التوضيحي لمادة الكتاب ، وفي التجليد الذي كان ضرورة لازمة لحفظ هذه الصحائف من الضياع ، وفي التذهيب أو استعمال مداد الذهب في الكتابة وفي الزخرفة .

وقد سارت هذه الفنون جميعاً في اتجاه التطور والتقدم البطيء الذي لم يخرجها عن

الخطوط الرئيسية التي كانت عليها من قبل ، وليس عندنا ما نقول عنها إلا فيما يتعلق بفن الخط، فقد ظهرت له صورة فنية جديدة إلى جانب صورة الخط الكوفي ، صورة لانستطيع أن نقف عليها إلا إذا عدنا إلى الوراء قليلاً عندما دخل الخط الحجازي إلى بلاد العراق مع الفتح الإسلامي بصورتيه الجافة واللينة، وان نتذكر أن أهل الكوفة قد عنوا بالصورة الجافة منه وابدعوا منها صوراً رائعة هي الخط الكوفي . أما الصورة اللينة فقد تركت يستعملها الناس في التدوين ونسخ الكتب ومن هنا عرفت بخط النسخ . ولكن هذا النوع من الخط لم يقف عند الصورة التي جاء عليها من الحجاز بل أخذ هو الآخر يصعد في سلم التطور درجات لاسيما في عهد الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، ذلك العصر الذي اتسم بنهضة علمية عظيمة تتمثل في الترجمة وفي التألف في شتى نواحي المعرفة الأمر الذي استتبع كثرة النساخ . وقد ظهرت بالفعل في عضر المأمون صورة جديدة لخط النسخ عرفت **بالخط المحقق** تمييزاً له عن الخط المطلق أو الدارج الذي كان يستعمله العامة .

وهذا الخط إنما سمي كذلك لأنه يحقق التناسب والدقة في رسم الحروف وهو – على حد وصف الصولي له في كتابه أدب الكاتب ، خط دقيق تظهر فيه الصنعة على عكس الخط المطلق أو الدارج الذي يستعمله العامة .

وقد ولد هذا الخط في العراق على يدى الوزير/**محمد بن على المشهور بابن مقلة**(٢٧٢ – ٣٢٩ هـ) والذي قال عنه ابن خلكان في تاريخه أن جودة الخط وتحريره قد انتهت اليه ، وأنه هندس الحروف ، ووضع لها مقاييس يضبط بها أشكالها من مدات وقوائم . وقد قال القلقشندى في كتابه صبح الأعشى[١] . أن ابن مقلة قد نسب الحروف جميعاً الى حرف الألف الذي اتخذه أصلاً بنى عليه رسم الحروف ، والألف عنده ثمان نقط وعرضها نقطة واحدة ، والباء تتكون من قائم ومنبسط مقدارهما معاً قدر الألف . والجيم تتكون من خط مائل مقداره طول الألف ومن نصف دائرة قطرها طول الألف . والدال تتكون من خطين مائل ومنبسط طولهما معاً طول الألف . والراء تساوي ربع دائرة قطرها طول الألف .

وقد بدأ هذا الخط يشق طريقه في مصر ، وقد تبوأ في العصور اللاحقة مكانة سامية . ثم ازداد رفعة حتى يحل محل الخط الكوفي في الكتابة على الآثار وينتقل الخط الكوفي الى المحل الثاني من الأهمية[٢] .

---

(١) القلقشندى – صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٤ .

(٢) كان تسجيل النصوص الأثرية على التحف والعمائر بالخط الكوفي ثم أصبح هذا التسجيل في

وإذا كانت لم تصل الينا أمثلة من المخطوطات المصورة من العصر الأموي وعرفنا بوجودها فقط من المراجع التاريخية والأدبية ، فنحن أسعد حظاً في العصر الطولوني الأخشيدي لوصول بعض أوراق متناثرة من مخطوطات عربية مختلفة بها صور توضيحية تكشف عن فن التصوير في هذا العصر . إذ كشفت الحفائر الأثرية في منطقتي الاشمونين والفيوم عن هذه الأوراق المحفوظة اليوم في المكتبة الأهلية بفيينا ، وقد قام بدراستها المستشرق النمساوي أدلف جروهمان دراسة مستفيضة ، وظهرت هذه الدراسة في الكتاب القيم عن « الكتاب الإسلامي »[1] .

ومن أهم هذه الأوراق ثلاثة يتجلى فيها الفن الإسلامي في العصر الطولوني الأخشيدي بصورة واضحة .

فمن الأشمونين جاءت ورقة عليها صورة رجل ملتح تحتل نصف الورقة بينما النصف الآخر به في أعلى زخرفة شبيهة بزخارف الخشب الطولوني ، والجزء الأسفل به زخرفة نباتية وهندسية شبيهة بما نراه في باطن أحد عقود المسجد الطولوني المطلة على الصحن .

وفي الفيوم عثر على أجزاء كثيرة من مخطوطات عربية نختار هنا مثالين : الأول قوامه ورقتان من مخطوطة بها كتابات عربية وبها رسم شجرة فيها فواكه قرمزية اللون ، وعلى جانبي هذه الشجرة مرتفع من الأرض عليه ما يشبه المنارة الملوية في سامراء أو أبي دلف بالعراق ، أو منارة ابن طولون في مصر . وعلى أساس طراز الخط ، وأسلوب الرسم يمكن أن تنسب هاتان الورقتان إلى العصر الذي نتحدث عنه .

أما المثال الثاني فهو ورقة كبيرة بها نص عربي من الفصل السادس والأربعين من كتاب في الحب . وفيها رسم سيدة ذات شعر طويل أمامها رجل جاث على ركبتيه . والرسم – كما يقول الدكتور جروهمان في دراسته – به تأثيرات واضحة من الفن القبطي ، وهذه التأثيرات القبطية مستمدة بدورها من الفن الفرعوني كما يتجلى ذلك في بردية تورينو بايطاليا التي ترجع إلى عصر الدولة الحديثة من تاريخنا الفرعوني . والتأمل في الصور الادمية بهذه الورقة يؤكد لنا التشابه بينها وبين الصور الآدمية على الخزف الطولوني ذي البريق المعدني .

ولاشك أنه في هذه الأوراق ذات الصور دليل ملموس على عدم تحريم الاسلام لفن

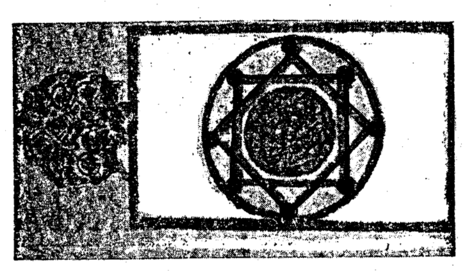
أواخر العصر الفاطمي بالخط النسخي ولكنه كان يسير على استحياء ثم أخذ يشق طريقة في قوة في العصر الأيوبي والمملوكي وأصبح الخط الكوفي في المحل الثاني من الأهمية .

(١) هذا الكتاب ساهم في وضعه جروهمان المختص بدراسة البردى وارنولد المختص بدراسة التصوير الاسلامى واسم الكتاب هو : Arnold & Crohmana, The Islamic Book.

التصوير إذا كان هذا الفن لا يهدف إلى رسم مايعبد من دون الله وعدم إستعمال الصور في المساجد ليس دليلا على هذا التحريم إذ لم يكن الدافع إليه تحريم التصوير أو كراهيته كفن **ولكنه كان سموا بالاسلام كدين يرتفع فوق الماديات ، ويجعل الصلة بين العبد وربه في بيت الله صلة روحية قوامها التجرد من كل ما هو مادي .**

وقد استمر فن التذهيب يسير في طريق التطور وأن كان نساخو المصاحف قد تحرجوا من كتابة كلام الله بمداد الذهب نظراً لما في ذلك من الأسراف الذي قد يكون غير مستحب في هذا المجال ومن هنا نلاحظ أنهم قد اقتصروا على استخدام مداد الذهب في رسم فواصل الآيات ، وفواصل السور ، وفي رسم زخارف الهوامش الجانبية في بعض الصفحات في كتاب الله ، وفي تجميل الصفحات الأولى والمصاحف بالزخارف الهندسية والبناتية .

ولعل أقدم مثال نرى فيه التذهيب هو مصحف من رق ، يرجع إلى حوالي سنة ٢٨٣ هـ (٩٠٠ م) موجود في مكتبة شيستر بيتي في مدينة دبلن بايرلندا ، وقد وصفه المستشرق اتنجهوزن في كتابه « التصوير عند العرب » وهذا المصحف يزدان في صفحته الأولى بزخارف هندسية بسيطة عملت بمداد الذهب قوامها مستطيل تتوسطه دائرة فيها نجمة ثمانية الرءوس بداخلها دائرة أخرى صغيرة مملوءة بخطوط .



(١) انظر ص ١٦٨ من كتاب : Ettinghausen (R.), Arab Painting, Skira, p. 62 .

بيد أن مفهوم الخط العربي وتجويده في مصر ابان العهد الطولوني الأخشيدي ، الا يخرج عن كونه عباسي المظهر والسمات ، ولدينا لوحة تأسيس المسجد الطولوني بالخط الكوفي وهي على درجة متواضعة من الأتقان . وإذا كانت مدرسة مصر لها التبعية الفنية لكل ما كان قائماً في بغداد ، فإنها قد شكلت بعد ذلك مدرستها حين انتقلت الخلافة إلى مصر بعد الكارثة المغولية عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م وحرق بغداد العاصمة في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله . وظهر بمصر الخطاط المجوّد **الحسن بن علي الجويني** وهو ذلك الخطاط الذي قيل عنه « لم يكتب بعد ابن البواب أجود من الجويني المتوفى عام ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م .

الكاتب في مصر الأخشيدية

كانت وظيفة الكاتب من الوظائف الرئيسية في مصر الأخشيدية وفي الخلافة بوجه عام . إذ كان الكاتب يساعد الوزير في عمله ويحرر الرسائل التي يبعث بها الأمير إلى الخليفة أو إلى غيره من الملوك والأمراء[١] . ولذا كان الكاتب يختار ممن نالوا قسطاً كبيراً من الثقافة الأدبية وعرفوا بأصالة الرأي ، وإجادة الكتابة حتى يستطيع القيام بعمله على الوجه الأكمل . وكان من دواوين الإدارة ديوان خاص تصدر عنه الرسائل والمكاتبات .

والواقع أن ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل ازدهر نشاطه وظهرت الحاجة إليه منذ العصر الطولوني إبتداء من ولاية أحمد بن طولون واستفحال ملك الديار المصرية في الإسلام وترتيب أمرها وإلى حين انقراض الدولة الأخشيدية ، وفي خلال ذلك ترتب ديوان الانشاء بها وانتظم أمر المكاتبات والولايات »[٢] .

ويبدو أن الأمير الاخشيدي كان له ديوان للانشاء على رأسه كاتب أو أكثر من كاتب واحد . وأن الكاتب لم يكن يعمل في تحرير الرسائل فحسب بل كان يقوم بما يدخل في عصرنا الحالي في أعمال رئيس الديوان أو السكرتير الخاص أو كاتب السرّ .

وأول من نعرفه من كتاب الاخشيد علي بن محمد بن كلا . وقد كان كاتبه في دمشق

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٠٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٩٥

و Zaki Mubarak: La Prose Arabe au IVe siècle p. 24.

قبل قدومه إلى مصر . وهو الذي أوفده الأخشيد إلى بغداد ليلتمس من الخليفة القاهر ولاية مصر فرد القاهر بأنه قد ولي عليها محمد بن تكين[1] . وكان الأخشيد عظيم الثقة بابن كلا . وكان قد أوفده إلى الرملة سنة ٣٢٨ هـ وفوضه في عقد الصلح بينه وبين ابن رائق ، بعد أن أفلحت وساطة الحسن بن طاهر العلوي بينهما[2]

والظاهر أن ابن كلا لم يكن من رجال القلم فحسب ، بل كان من رجال السيف أيضاً ويبدو أن الأخشيد لاحظ في سنة ٣٣٣ هـ أن هذا الكاتب جمع ثروة كبيرة فشك في أمره وصادر أمواله وقبض عليه[3] ، ولكنه أطلق سراحه بعد ذلك .

وكان ابن كلا بين الحاضرين في الاجتماع الذي عقد بدار الامارة في مصر لما ورد نعى الأخشيد[4] .

وكان الأمير يعتمد على كاتبه كل الاعتماد بوصفه « رئيس ديوانه » ، فكان يشاوره في معظم الأمور حتى خلط الناس في هذا العصر بين الوزير والكاتب في بعض الأحيان .

كاتب السر في الدولة الطولونية :

كان في بلاط بني طولون موظف يسمونه « كاتب السر » فضلاً عن الكتاب أو السكرتيرين العاديين . ونظراً لخطورة شأن هذه الوظيفة فقد كان يختار لها شخص من أشد المقربين الى الأمير . وكان عمله أن يكون على مقربة من الأمير كلما استقبل أحداً ، فلا يظهر لأحد على الرغم من سماعه كل شيء . وكان يكتب محضراً بكل حديث بين الأمير وأفراد الرعية . وكان أحمد بن طولون يحرص على الانتفاع بهذه المحاضرة في تكييف خططه الحكومية المختلفة .

ومن كتاب العصر الأخشيدي محمد بن عبد الرحمن الروذباري . وكان يعاون الفضل بن جعفر بن الفرات ، وقد خلفه في أعماله حين سافر ابن الفرات إلى بغداد[5] . ومنهم على بن صالح الروذباري ، وقد كتب المقريزي أنه كان كاتباً لكافور وأنه حسن له أن يوفر من « ميزانية » الرواتب بخفضها وأن الله ابتلاه بمرض قضى عليه سنة ٣٤٧ هـ وأن « هذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالسوء »[6] .

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٠ .
(٢) المرجع نفسه ص ٢٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٧ و ٤٠ .
(٤) المرجع نفسه ص ٤٥ .
(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥ .
(٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩ .

ويبدو من الموازنة بين النصوص التاريخية المختلفة أن طائفة الكتاب في العصر الأخشيدي كانت تنقسم قسمين : الأول الكتاب السياسيون وهم الذين كان القوم يخلطون بينهم وبين الوزراء . أما القسم الثاني فالكتاب الذين كانوا يشتغلون بتحرير الرسائل ويؤلفون ديوان الانشاء بالمعنى الذي ذكره القلقشندي .

وكان زعيم أولئك الكتاب المحررين في العصر الأخشيدي ابراهيم بن عبد الله ابن محمد النجيرمي[١] .

وذكر المؤرخون أن من كتاب الأخشيد أبا جعفر بن المتفق وابن توماس[٢]، ولكننا لم نستطع أن نعثر في المراجع التاريخية على شيء من سيرتهما ، اللهم إلا ما رواه بن سعيد نقلاً عن ابن زولاق بشأن نفي ابن توماتس إلى الإسكندرية بعد وفاة الأخشيد وقبض الماذرائي على مقاليد الأمور[٣] ثم ما رواه عن اشتراك ابن المتفق بثلاثمائة دينار في نفقات متنزه أقامه الأخشيد[٤] .

الحركة الثقافية في الدولة الطولونية

كان أحمد بن طولون ، مثل غيره من الأمراء المستقلين عن الخلافة العباسية ، يريد أن تكون امارته منافسة للخلافة العباسية في العلوم والفنون وغير ذلك من ضروب الحضارة والتمدن . ونحن نعلم أنه بعد فتح العرب لمصر بدأت مصر تشترك مع سائر الولايات الاسلامية في الأخذ بالعلوم الفقهية والدينية الاسلامية وأصبحت مصر مركزاً علمياً هاماً خصوصاً في أواخر عصر الولاة ، فكان يفد اليها الطلبة لتلقي العلم وخاصة من افريقية والمغرب والأندلس . كذلك ظلت الاسكندرية مركزاً للثقافة اليونانية والرومانية ولم يتعرض المسلمون لمدرسة الاسكندرية أو للاديرة التي كانت مراكز الثقافة المسيحية في مصر . ولكن مدرسة الاسكندرية فقدت الكثير من مركزها العلمي لأن كثيراً من علماء

---

(١) نسبة إلى نجيرم وقد قال السمعاني إنها محلة بالبصرة وخالفه ياقوت فقال انها بلده صغير على مقربة من سيراف على ساحل الخليج الفارسي . انظر ياقوت : معجم مادة نجيرم وياقوت : معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(٢) ابن ظافر الأزدي (في وستنغلد) ص ٥٨ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥ ؛ انظر أيضاً ص ١٧ من المرجع نفسه ، وقد ورد هذا الاسم في ابن سعيد ابن ترماقس وابن قرماقس .

(٤) المرجع نفسه ص ١٢ .

الروم غادروا مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح . أما الأقباط فانهم لم يهتموا اهتماماً كبيراً بدراسة الثقافية اليونانية والرومانية . واتجه أغلب العرب ، والأقباط الذين أسلموا ، الى دراسة العلوم الاسلامية الدينية . ولكن ليس معنى هذا الانصراف كلية عن العلوم القديمة ، فنرى ابن الداية يشير في كتاب المكافأة الى انتفاعه بالثقافة اليونانية وافادته منها . ويبين أنه مغرم بافلاطون بصفة خاصة ويقتبس من حكمه .

وكان أحمد بن طولون مشغوفاً بمجالسة الفقهاء وأهل العلم مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . وبلغ به ولعه بالحديث وسماعه وروايته أنه كان ينتقل الى مجلس القاضي بكار بن قتيبة طلباً للمزيد .

وكانت مدينة القطائع في عهد الطولونيين حافلة بالعلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين، نذكر منهم على سبيل المثال القاضي بكار بن قتيبة الذي كان من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم بالفقه الاسلامي . ومن أشهر المحدثين الذين شهدوا بداية حياة ابن طولون في مصر الربيع بن سليمان بن داود الأزدي الجيزي تلميذ الامام الشافعي . ويذكر مؤرخون أن أحمد بن طولون أعطاه في أول درس ألقاه في جامعه كيساً به ألف دينار .

ومن فقهاء المالكية الذين شهدوا هذا العصر محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم . وكان فقيهاً في مذهب الامام مالك . ولما قدم الامام الشافعي مصر صحبه محمد وتفقه عليه، فلما مات الشافعي في سنة ٢٠٤ هـ ، رجع محمد الى مذهب الامام مالك وانتهت اليه الرياسة بمصر . وكان محمد هذا فقيه مصر في عصره على مذهب مالك كما رسخ في مذهب الامام الشافعي وتتلمذ عليه كثيراً من أهل المغرب والأندلس . وكان له مصنفات كثيرة وتوفى سنة ٢٦٨ هـ .

ومن ملامح النهضة الأدبية في مصر أن حفل العصر الطولوني بطائفة من أئمة الكتاب مثل ابن عبد كان ، والحسن بن رافع ، ويعقوب بن اسحق ، وجعفر بن عبد الغفار المصري ، وأحمد بن أيمن ، واسحق بن نصير .

ووضح ازدهار الدراسات اللغوية في العصر الطولوني على يد الوليد بن محمد التميمي النحوي المعروف بولاد[1] . كذلك أنجبت المدرسة اللغوية أحمد بن جعفر الدينوري صاحب كتاب « المهذب في النحو » . كذلك شهدت مدرسة اللغة ظهور أبي جعفر

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين : في الأدب المصرى الاسلامي من الفتح الاسلامى الى نحو الفاطميين . ص ٦٨ « القاهرة ١٩٢٩ م » .

النحاس أحمد بن اسماعيل صاحب كتاب « معاني القرآن ومنسوخه » ، ومحمد بن حسان النحوي .

أما في ميدان الدراسات التاريخية فقد شهدت السنوات الأولى من مجيء أحمد بن طولون الى مصر أقدم مؤرخ لمصر الاسلامية وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر » والذي توفي سنة ٢٥٧ هـ ، وهو أخو الفقيه المالكي محمد ابن عبد الله بن عبد الحكم . والحق أن ابن عبد الحكيم يمت الى عصره الولاة أكثر مما يمت للطولونيين . ولكن من أشهر مؤرخي الدولة الطولونية أحمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية . وقد وصلنا من كتبه المكافأة وسيرة أحمد بن طولون وسيرة أبي الجيش خمارويه . ويتبين من كتابة ابن الداية أنه كان ذا ثقافة واسعة فهو كاتب وشاعر وعالم بالهندسة والفلك . وقد اكسبته صلته بالأمراء ورجال الدولة والكتاب والعمال والفلاحين ، خبرات اجتماعية واسعة ونظرة ثاقبة في صميم المجتمع المصري ظهرت فيما كتبه في كتابه المكافأة .

وقد شجع أحمد بن طولون ومن جاء بعده من الطولونيين الشعراء الذين كانوا أهم وسيلة للاعلام في تلك الأزمنة . ويدلنا على ذلك مارواه المقريزي عن القاضي ابي عمرو عثمان النابلسي الذي قال في كتابه « حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » انه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة ، يحوي فهرسة شعراء ميدان ابن طولون .

اهتمام العزيز بالله الفاطمي بالعلم والتدوين :

تميز العالم الاسلامي في العهد الفاطمي الذي عاصره الخليفة العزيز بالله بنهضة ثقافية اسلامية عظيمة يفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندسية الى اللغة العربية ، وبفضل نضوج ملكات المسلمين في البحث والتأليف ، وتشجيع الخلفاء والأمراء لرجال العلم والأدب ، وانتشار العمران واتساع أفق الفكر الاسلامي بارتحال المسلمين .

وكان من اثر قيام كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية ونهضت الثقافة . وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . أضف الى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مبادئها السياسية والحربية . وكان للجدل والنقاش اللذين قاما بين الفرق الشيعية والسنية أثرهما الواضح في النهضة العلمية التي تميز بها العصر الفاطمي[١] .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٠ .

اهتم المعز والعزيز بالله بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلاً عن الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الاسماعيلية كالفقه والتفسير . وكان للجامع الأزهر أثر كبير في النهضة الثقافية في مصر .

اهتمام العزيز بالكسوة الشريفة وكتابتها :

ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية في عهد الخليفة العزيز بالله في دار الكسوة ، والتي كانت تفصل الثياب لموظفي الدولة على اختلاف مراتبهم . كما كان يصنع بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التي يمنحها الخلفاء للوزراء والأفراد وكبار رجال الدولة في عيد الفطر . وكانت هذه المنسوجات الحريرية تبين مقدار مهارة المصريين وتفوقهم في هذه الصناعة .

وكانت الكسوة التي أمر الخليفة المعز لدين الله بنسجها للكعبة مربعة الشكل مصنوعة من ديباج أحمر سعتها مائة وأربعون شبراً وفي حافاتها اثنا عشر هلالاً ذهبياً ، في كل هلال أترجة ذهبية ، وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق وتنقش في حافاتها الأيات التي وردت في الحج بحروف من الزمرد الأخضر ، وتزين هذه الكتابة بالجواهر الثمينة ، وتعطر هذه الكسوة بمسحوق المسك ، وتوضع في القصر حتى يشاهدها الناس .

وكان يميز المنسوجات الفاطمية زخارف قوامها أشرطة من الكتابة توازيها اشرطة أخرى بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها في بعض وعليها رسم طائر أو ورود أو حيوانات .

اهتمام العزيز بالعلماء :

شهد عهد الخليفة العزيز بالله نهضة علمية كبرى ساهمت في تقدم الصناعات ، فقد حوّل العزيز الجامع الأزهر إلى جامعة علمية يقصدها آلاف الطلاب ، وكان العزيز يمدهم بما يحتاجونه من أقلام وورق ومحابر ، ورتب وزيره يعقوب بن كلس قوماً يجلسون في داره لنسخ القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والأدب ، فتقدمت صناعة الورق في الفسطاط أبرز مراكز هذه الصناعة ، وصحب انتشار صناعة الورق تقدم في تجليد الكتب واستخدم الصناع جلود العجول ، كما استخدموا الحرير والديباج والأكلس في تجليد المصاحف كما تقدم فن الخط والتذهيب .

من العلماء أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني الذي تخصص في علوم اللغة

وخاصة النحو . وقد كلفه الخليفة العزيز بالله بأن يؤلف كتاباً « يجمع فيه سائر الحروف التي ذكرها النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد في تأليفه الى الحرف الذي جاء لمعنى وأن يجرى ما ألفه عن ذلك على حروف المعجم[١] » وقد ألف القيرواني كتابه في ألف ورقة ، ومن كتبه أيضاً كتاب (التعريض) .

ونبغ في عصر العزيز بالله كثير من العلماء منهم أبو الحسن على ابن رضوان الطبيب الفيلسوف الذي وضع كثيراً من الكتب في الفلسفة والمنطق وغيرها من علوم الحكمة وزاد عدد كتبه على السبعين كتاباً ، وأصبح في عهد العزيز رئيساً للأطباء . ومن الطريف أن الناس في عهد الفاطميين ، بل والخلفاء أيضاً ، كانوا يؤمنون بعلم التنجيم ، وقد رأى على بن رضوان ان طالعه يدل على أنه خلق ليكون طبيباً ولذا اجتهد حتى يحقق ما دله الطالع عليه .

وكان على بن رضوان من المجددين في صناعته ، ولم يكن عمله مقصوراً على النقل والشرح لكتب من جاء قبله من الأطباء مثل جالينوس وابقراط ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار . وكان يدون مشاهداته ويغير ما دلت التجربة على فساده ، ويظهر ما ظهر له صلاحه . ولم يكن هذا الطبيب جشعاً كل همه الكسب من صناعته بل كان طبيباً انساناً يصرف اهتمامه لاسعاف الملهوف ومساعدة الفقير المحتاج وكانت حياته كلها حياة كد وكفاح وعمل متصل[٢] .

وجعل يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله في قصره مستشفى أمده بعدد من الأطباء يستقبلون المرضى من عامة الشعب يفحصونهم طبياً ويقدمون لهم الدواء مجاناً .

ومن المؤرخين المعاصرين للخليفة العزيز بالله والذي اهتم بدراسة عصره المؤرخ المصري ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) واشهر كتبه هو (فضائل مصر وأخبارها وخواصها) ، ومن كتبه أيضاً (قضاة مصر) وهو ذيل لكتاب القضاة لأبي عمر الكندي .

ومن الجغرافيين المعاصرين للعزيز بالله شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشاري المقدسي المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) وكتابه هو (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٩ .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٣ .

وفي سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٦ م) كتب المهلبي للخليفة العزيز بالله كتاباً في الطرق والمسالك وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفاً دقيقاً وكان علماء الجغرافيا في القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان إلا قليلاً جداً . وسمى المهلبي كتابه (العزيزي) نسبة الى الخليفة العزيز بالله . وأصبح هذا الكتاب أهم مصادر الجغرافي ياقوت الحموي عند حديثه عن السودان[١] .

فن كتابة المخطوطات في العصر السلجوقي :

كان العصر السلجوقي غنياً بالآثار التي تحمل الكتابة الكوفية الزخرفية بالنسبة إلى العهود السابقة . وقد ظهر إلى جانب الخط الكوفي المائل الذي تتزايد زخرفته على الدوام ، المفرع ، المضفور ، خط جديد مستدير هو النسخ الذي ينباين بانطلاقاته وانتفاخاته تبايناً فريداً مع طراز الأحرف المقتضب . وقد عرف النسخ في باديء الأمر بوصفه الكتابة العادية السارية – وقد عرف تحول الألف الميلاديّة إلى الألف الثانية ، وكان اكتماله ونضجه على يد كبار أساتذة مدرسة بغداد ، وأصبح استعماله شائعاً عاماً في تدوين الكتب ، وفي النقوش الكتابية التذكارية ، والكتابة على الأدوات والتحف على السواء . ويرد النسخ بصورة بينة في غزنة قبل غيرها . وفي قونية لا يقتصر على الزخرفة الحجرية في الأبواب ، بل يظهر كذلك في فسيفساء الخزف وهي صناعة أصعب . وقد استعمل في البلاد الأخرى بمهارة فائقة منذ القرن الثاني عشر ، بخلاف شواهد القبور التي استمر فيها أمداً طويلاً تقريباً نوع محلي من الخط الكوفي يدخل في روع الرائي أنه لمجرد الزخرفة .

أما في فن الكتب فقد استعيض عن الرقاق التي كانت مستعملة حتى ذلك الحين ، بالورق الذي أدخلت صناعته في سمرقند أول الأمر على غرار صناعة الورق الصيني ثم لم يلبث أن انتشرت صناعته . وقد كان مستحباً أن تكون النصوص القرآنية المكتوبة بالخط المائل أو المستدير في النسخ الفاخرة على أرضية أرابسك ، ثم كان أن اكتسبت صفحات البداية أهمية زخرفية أخرى وتصل قمة الخط الكوفي الى ذروتها في المصاحف السلجوقية التي يرجع إلى القرن الحادي عشر والثاني عشر ، وبالمتحف البريطاني نسخة من القرآن الكريم تحتوي على صفحات جميلة محلاة بوحدات زخرفية من ضفائر وتفريعات نباتية تحمل مميزات العصر السلجوقي المبتكر وخصائصه التي انفرد بها ، وقد كتب هذه النسخة الخطاط الفنان المجود **ابو القاسم بن ابراهيم** وتاريخها سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م وفي عهد السلاجقة أيضاً تحول خط المصاحف من الكوفي الى النسخ الذي اصبحت له مكانته الفنية

(١) متز : الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ جـ ٢ ص ١٠ .



صورت کرکدن
فاذا برد العصير فصفه فهذا الشراب موافق لوجع الحلق والجنب والرئتين



ثلاث صفحات من المخطوطات التي كتبت في العصر السلجوقي، وهي غنية بالكتابات الكوفية المزخرفة .. ، والنسخ والفارسي مع الرسومات التوضيحية.

الرفيعة وأقدم مصحف مكتوب بالخط النسخي القرآني موجود بمكتبة شيستربيتي بمدينة دبلن بايرلندا Chester Beatty, Dublin .

وبظهور الخط النسخ انسحب الخط الكوفي الزاهر من ميدان الكتابة الاجتماعية ، ورضى أن يبقى ناسكاً قانعاً يسكن المساجد والمحاريب وزخرفة المآذن والقباب وبعض المصاحف تبركاً وحلية ، وفي بعض القصور والقلاع والأسوار للحلية والتاريخ لأنه طيّع مع الزخرفة يتمشى معها نباتية كانت أم هندسية مع بقاء حروفه على قواعدها الأصلية . بيد أن دور بغداد الرئيسي تجاوز إذ ذاك تلك التجديدات التي استحدثت في الزخرفة الكتابية ، فإن لها أن تباهي بأنها أسست المدرسة الإسلامية الأولى لفناني الصور المصغرة ، وكان ذلك في القرن الثاني عشر إثر الترجمات العربية لأغلب العلوم الطبيعية اليونانية . وهي ترجمات زودت بصور تفسيرية تخللت النص . وهذا الطراز التصويري الذي وجد على هذا النحو قد استخدم في شرح أدب التسلية المكشوف الذي كان محبوباً إذ ذاك ، والذي فرض على هذا الطراز التصويري مهما تقتضي أساليب جديدة في التصوير مع ضرورة اظهار مقدرة في التلوين . وهكذا سرعان ما نجد بجانب مؤلفات إديسقوريدس، وجالينوس خرافات الحيوان في كتاب كليلة ودمنة ، ومقامات الحريري محلاة بصور تضارع دقة الرسم والتلوين الذي يتم عن الذوق في صور الكتب الغربية المعاصرة لها إن لم تفقها . ولم يتضح بعد أصول مدرسة مصوري المصغرات – تلك التي ازدهرت هذا الازدهار الفجائي – بيد أن البحث عنها في العصر الهيليني المتأخر القديم وفي بيزنطة أقل في جدواه منه في فن الكتاب الذي بلغ تطوره منزلة رفيعة في الأديرة شرقي تركستان . وهو فن كان يحذقه كتبة السر للقواد السلاجقة ، وقد دفعوا به إلى تطور جديد لكثرة الاستخدام والممارسة .

الكتابة والعلماء في عصر الأيوبيين

كان عصر الأيوبيين عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية . وتمثل هذا الإحياء في بعث العلوم الشرعية والاهتمام بالقرآن والحديث اهتماماً بالغاً ، ويرجع ذلك لاهتمام الحكام والناس وتقديرهم للعلم والعلماء ، والدراسة والمدارس . والحق أن العلم كان رائداً للناس جميعاً ، وكانت الغيرة عليه من غيرتهم على أوطانهم ودينهم ، ولذلك لم يبخلوا عليه بكل غال ونفيس .

وشجع الحكام العلماء ، وتسابقوا إلى تقريب الفقهاء والحفاظ والقراء ، بل سعى كثير من ملوك الأيوبيين وأمرائهم لينهلوا من فيضه ، وعرفنا من ملوكهم الأدباء والشعراء : الأفضل بن صلاح الدين ، والملك المعظم عيسى بن العادل ، ويلقبونه بمأمون بني أيوب ، والملك المنصور داود . كذلك عرفنا في الكامل بن العادل الذي تولى حكم مصر زمناً طويلاً حبه الكبير للعلماء والمدارس .

ولهذا كثر بناء المدارس ودور الحديث والفقه ، وبذل الحكام كل ما في وسعهم لتوفير الأساتذة من أقطار العالم الإسلامي شرقاً وغرباً . ومن ثم أصبحت عواصم مصر والشام والعراق المشهورة : القاهرة ، والإسكندرية ، ودمشق ، وحلب ، وبغداد ، والموصل قبلة القصاد من سائر بلدان العالم العربي والإسلامي في المشرق والمغرب .

وربما بدا غريباً للمؤرخ والباحث في تاريخ الأدب على السواء أن يزدهر العلم والأدب في عصر غلبت عليه أحداث الحروب الصليبية التي عصفت بالشرق الإسلامي سنين طويلة . ولكن يبدو — أن الشرق قد اعتاد أن تسير الأحداث العنيفة جنباً إلى جنب مع الثقافة والفن[1] .

وقد اعتمدت حركة البعث العلمي والأدبي في هذا العصر على التراث الإسلامي في العصور السابقة ، وكان الدافع إليها حماس السلاجقة السنيين لإحياء شعائر أهل السنة ، فكانوا مدفوعين بالدعوة للقرآن ، قراءته ودرسه وتفسيره وعلومه المتصلة به والحديث وجمعه وروايته وحفظه وشرحه ، وذلك على أثر فترة من الزمن طغت فيها عناصر الثقافة اليونانية البعيدة عن روح الإسلام ، كفلسفة الدهريين والمناطقة والملاحده ، على عقول العلماء والمتعلمين ، ونشأت نتيجة لذلك تيارات متعددة ، تتجه اتجاهات شتى بالعقيدة الإسلامية وتكاد تنحرف بها وبمقوماتها عن الطريق السوي . كذلك كان لاشتداد

---

(١) راجع Lane poole: Saladin p. 21 .

الحركات العقلية عند مفكرى الإسلام أثره في صرف الناس عن طريق السنة « القرآن والحديث » ولعل أشد تلك الحركات أثراً حركة المعتزلة والمتكلمين التي ظهرت منذ أواخر القرن الثاني للهجرة واشتدت في القرن الثالث ، ثم حركة السنية والباطنية الذين احتضنوا آراء المعتزلة المتحررين في العراق ومصر وكانت مدارسهم وعلماؤهم دائبة على تدريس تلك العلوم ، ولعل أبرز تلك المدارس دار الحكمة التي أنشأها الفاطميون في القاهرة .

وجاء السلاجقة ، وكانوا سنيين متحمسين ، فناهضوا الحركات العقلية في الإسلام ، التي احتضنها الشيعة أعداؤهم المذهبيون ، بعد أن استولوا على مقاليد الحكم في بغداد والشرق جميعاً ، واستولى أتباعهم على الشام ومصر . وكان للسلاجقة في ميادين الثقافة الإسلامية جولات صادقة مظفرة . وكان أبرز حكامهم اهتماماً بالعلوم والعلماء والمدارس الوزير العظيم نظام الملك[١] . (قتل سنة ٤٨٥ هـ)إذ كان سُنّياً شديد التعصب لعلوم الحديث . وكان يعقد مجلسه ، ويجعل فيه حلقة لقراءة الحديث يحضرها علماء عصره المبرزون[٢] . وقد دفعه حماسه لأهل السنة – بتأييد من السلطان السلجوقي ملكشاه – إلى بناء المساجد والمدارس الكبرى لتعليم أبناء المسلمين القرآن والحديث والعلوم العربية الأخرى التي تخدمها[٣] . وسمى كثير من المدارس التي أسسها بالنظامية نسبة إليه ، فكانت عواصم البلاد الإسلامية الكبرى لا تخلو من واحدة منها على الأقل ، وخاصة في العراق وفارس ، فكان هناك نظامية بغداد في القرن السادس الهجري ، تخرج فيها كثير من العلماء المشهورين ، كما درس بها جماعة من المتفوقين . يقول لانبول : « فالمدارس النظامية ببغداد التي أنشأها الوزير نظام الملك كانت مركز إشعاع للعلم والثقافة للأقطار الإسلامية في فارس والعراق وسوريا ومصر ، حيث التقى هذا الشعاع بشعاع آخر كان ينبعث من الأزهر جامعة مصر »[٤] . ومنها نظامية نيسابور ، ونظامية الموصل وهراة .. إلخ .

وكان بناء مدرسة من أهم الأعمال التي يعمل لها سلاطين السلاجقة وكانت تماماً توازي عندهم بناء مسجد أو بناء قلعة . ودفعت هذه الروح نفسها أمراء « الأتابكة »

---

(١) راجع أتابكة الموصل في سلسلة : Receilles des Historiens des Crossades, Historiens Orienteaux vol. III P. 2-16 .

(٢) راجع معجم السلفي مصور بمكتبة بلدية الاسكندرية ورقة رقم ٤٩ .

(٣) الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي ص ٢٦ .

(٤) Lanepoole : Saladin p. 18 .

– بعد انحلال دولة السلاجقة – إلى التشبه بسلاطينهم العظام ، فأصبحت دمشق وحلب والقاهرة والموصل وبغداد وحمص وبعلبك ، ومدن أخرى إسلامية عربية كثيرة في عصر نور الدين وصلاح الدين مراكز هامة للثقافة بفضل ما أنشيء فيها من المدارس .

وقد بنى نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب مدرسة كبيرة في دمشق لأصحاب أبي حنيفة[١] كما بنى صلاح الدين مدرسة لأصحاب الإمام الشافعي بجوار ضريح الشافعي بالقاهرة . وكان صلاح الدين يقول للخبوشاني وهو يشرف على بنائها : زد احتفالاً وتأنقاً وعلينا القيام بمئونة ذلك[٢] . واشتهر صلاح الدين كذلك بأنه يعد أعظم مشيد لدور العلم في الإسلام بعد نظام الملك[٣] .

ولم تقتصر همة سلاطين السلاجقة وكبار رجاله في تشجيع العلم والعلماء على بناء المدارس ، وجلب العلماء والأساتذة من كل مكان ، بل كان بعضهم علماء بأنفسهم . وكان بعضهم الآخر شغوفاً بالعلم والدرس يحب الاستماع للعلماء والجلوس في حلقات الدرس . وكان منهم من يختلس الفرص عند الفراغ من مشاكل السياسة والحرب وأعمال الدولة فيخلد إلى عالم أو شيخ يسمع منه ويسائله ويحفظ عنه ما يلقنه إياه من أحاديث ومواعظ أو حكم غاليه . ويروي أن نظام الملك كان عالماً ، وأنه ألف كتاب « سياسة نامة »[٤] . في السياسة ، كما كان فقيهاً دينياً ، واشتغل بالفقه في حداثته زمناً ، وكان يحب العلماء ويقربهم وينفق عليهم كثيراً . يقول بروكلمان : « كان مديناً بشهرته – في المحل الأول – لما أسبغه من عطف على الفقهاء والعلماء »[٥] . وذكر ابن الأثير في أتابكة الموصل أنهم كانوا أحب الناس إليه ، وأقربهم إلى قلبه[٦] ، وكان يناظرهم في المحافل يبحث معهم مشكل المسائل وغامض الآراء في الفقه والعلوم الأخرى . ومن أشهر من قربهم نظام الملك ، وممن شجعهم العالم الفلكي والفيلسوف الشاعر المشهور عمر الخيام[٧] . وكان السلطان محمود السلجوقي (توفي سنة ٥٢٥ هـ) قوي المعرفة بالعربية . حافظاً لكثير من الشعراء والأمثال ، عارفاً بالتواريخ والسير[٨] .

---

(١) كتاب الروضتين ١/٢٢٩ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٨ .

(٣) تاريخ العرب مطول - لفيليب حتي وآخرين - طبع بيروت جـ ٣ ص ٧٨٢ .

(٤) راجع Lanepoole : Saladin P. 12 .

(٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ٢/١٢٨ .

(٦) أتابكة الموصل ٢ ص ٢٥٠ مجموعة Receilles .

(٧) Saladin P 12

(٨) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٩

وكان عصر سنجر وإخوته (٤٨٥ هـ - ٥٥٢ هـ) بصفة عامة عصراً زاهراً في الأدب والعلم وغيره أكثر من العصور الزاهرة السابقة ، فقد ازداد فيه عدد الكتاب والشعراء والعلماء من الفرس والعرب ، ونبغ فيه من شعراء الفرس جماعة مثل فريد الدين العطار ، ونظامي ، وعمر الخيام ، وسنائي ورشيد الدين الوطواط ، وأنوري وغيرهم[١].

كذلك كان سلاطين الدولة الغورية في غزنة لا يقلون عن معاصريهم السلاجقة حباً للعلم وتشجيعاً للعلماء ، واشتهر من هؤلاء السلاطين شهاب الدين الغوري وكان يفد إلى بلاطه العلامة فخر الدين الرازي صاحب التفسير المشهور والكتب المعروفة في الأدب والإعجاز والبلاغة وغيرها ، وكان السلطان يحبه ويعطف عليه ويبذل له المال[٢].

وفي العراق كان الخلفاء العباسيون ووزراؤهم يقربون العلماء ويشجعونهم كذلك بشتى الوسائل ، وكان من أبرز وزراء العصر وأكثرهم تقديراً للعلم والعلماء عمر الدين بن هبيرة (توفي سنة ٥٦٦ هـ) ، « وكان عالماً فاضلاً ذا رأي صائب وسريرة صالحة ، مكرماً لأهل العلم ، يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم . وألف ابن هبيرة هذا كتباً عدة ، منها « الإيضاح في شرح للأحاديث الصحاح »[٣] .

وفي الشام كان نور الدين معروفاً بشغفه بالعلم والمشتغلين به ، وبحبه للفقهاء وأهل الحديث ، وكان لا يفتأ يجمعهم في مجلسه ويستشيرهم في أمور الدين والحكم . وممن وفد إليه من مشاهير الفقهاء في العصر قطب الدين النيسابوري (توفي سنة ٥٦٨ هـ) . يقول أبو شامة : « فسر به نور الدين وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق » ، وبنى له مدرسة كبيرة للشافعية لفضله[٤] .

وفي مصر والشام كان صلاح الدين يحفظ القرآن ويروي الحديث ويسمعه من حافظه ، سمع على الحافظ السلفي عالم الإسكندرية ومحدثها الكبير في القرن السادس ، « كما جعل له ميقاتاً لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي »[٥] ، وجمع بلاطه جمهرة من العلماء حفظوا مآثره وترجموا له وألفوا الكتب في مناقبه ، وكان من خلصائه القاضي الفاضل ساعده الأيمن في تدبير المملكة ، وقد بزّ

---

(١) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٩ و Browne; P. 299 .

(٢) الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير ١٧١/٩ .

(٣) الروضتين ١٤١/١ .

(٤) كتاب الروضتين ١٢٤/١ .

(٥) كتاب الروضتين ٢١٤/١ .

صلاح الدين الأيوبي كل السلاطين والأمراء المعاصرين له في الانفاق على العلم والفقه ومدارسهما . وكان من سياسته مكافحة التشيع عملاً وعقيدة ، فاتخذ العلماء والفقهاء وسيلة لبلوغ غرضه .

وجاء بعد صلاح الدين خلفاؤه فأحبوا العلم كما أحب . وشارك العلماء السلاطين والأمراء في النهضة العلمية بهذا العصر ، فقد بنى القاضي الفاضل مدرسة له في القاهرة سماها بإسمه ، ووقف عليها أوقافاً ، ونقل إليه بعض كتبه ، وكانت مائة ألف مجلد[1] ، وبنى الحافظ السعدي مدرسة أنفق عليها من ماله ، واستعان بأهل الخير ، وأوقف عليها ما كان يملكه من مال وكتب[2] .

وكانت المدارس الكبرى في هذا العصر جامعات تدرس فيها العلوم المختلفة وتنقسم إلى أقسام حسب العلوم التي تدرس بها ، ويوكل بكل قسم أستاذ عالم من المشهورين ، فكان هناك أستاذ للتفسير ، وأستاذ للحديث وأستاذ للفقه وأستاذ للغة والأدب وأستاذ للنحو وأستاذ للتاريخ وأستاذ للفلسفة .. إلخ .

وكان بعض المدارس مستقلاً ، وبعضها ملحقاً بالمساجد ؛ وبها أجنحة خاصة لاقامة الطلبة الوافدين ، ينامون ويأكلون ويشربون وتجرى عليهم الرواتب . وكانت الدولة تنفق على المدارس بسعة وسخاء ، وكان يلحق بالمدارس دور للكتب لاطلاع الطلاب ودرسهم وكان ببغداد دار كبرى للكتب يقوم بالاشراف عليها أحد العلماء الأفاضل ، وكذلك كانت حال مدارس الشام ومصر والأندلس .

وكان نظام التعليم في المدارس الاسلامية وقتئذ يقوم على مرحلتين : **الإبتدائي** وكان منهاجه في جميع البلاد الاسلامية يقوم أساساً على كتابة الخط العربي وقراءة القرآن ، وتعلم النحو والصرف والشعر ، **والعالي** وكان يقوم على تفسير القرآن ومعرفة الديانات والفلسفة ، وأصول اللغة والفقه والشعر وعلم القراءات والتاريخ وعلم البلدان (الجغرافيا) والحديث وعلومه . ولم يكتف الطلاب بهذا بل كان بعضهم يتخصص في علم من هذه العلوم أو أحد فروعه . مما يضطره إلى الرحيل لسماع شيوخ العلم في المدارس الأخرى ممن يشتهرون بالألمام الواسع والدراية والشاملة .

وكان بعض الأساتذة ملماً بلغات كثيرة ، وكانت دروسهم موسوعية تجمع كل شيء ولم تكن المدرسة أو المسجد المصدر الوحيد للثقافة والعلم في العصر الأيوبي ، وانما

(١) مرآة الزمان ٤٧٣/٨ .

(٢) فوات الوفيات ٢٧٢/٢ .

شاركتها المكتبة العامة والخاصة . وكان الأهتمام بالغاً باقتناء الكتب وحفظها ، فأنشئت دور الكتب في قصور الخلفاء والسلاطين والأمراء واشتهر منها في مصر مكتبة القصر الفاطمي – وقد تحدث عنها المؤرخ أبو شامه في كتابه الروضتين قال : وكانت من عجائب الدنيا ، لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر ، كان بها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبري ، ويقال أنها كانت تحتوي على (ألف ألف كتاب (مليون) وكان فيها الخطوط المنسوبة شيء كثير ، ويقول العماد الأصبهاني أن بها من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد وكانت من مختلف العلوم والفنون . في الأدب والشرع والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية والهندسة والتاريخ والتفسير ، ولكل كتاب خمسين أو ستين جزءاً مجلداً ، وكانت الكتب محفوظة في خزائن مقسمة مرتبة على الرفوف ومفهرسة . وانتهى الأمر بهذه المكتبة العظيمة الى أن بيعت بالمزاد وآل بعضها الى القاضي الفاضل وبعضها الآخر الى العماد الأصبهاني . وكانت بالحواضر الاسلامية الأخرى غير القاهرة دور كتب مشهورة منها دار الكتب الملحقة بمدرسة بغداد ، كما كانت ببغداد دار كتب أخرى في هذا العصر تعرف برباط المأمونية ، وكان بآمد دار كتب عظيمة حوت ألف ألف وأربعين ألف كتاب وكانت بأصبهان دار كتب كبيرة بجوار جامعها بناها تاج الملك .

وظل عشق علماء المسلمين للكتب يفوق كل شيء ، إذ كانت الكتب المتنفس لهم يضمنونها آراءهم ، وكوامن أفكارهم ، لأنه لم تكن لديهم وسائل اتصال أخرى لبث هذه الآراء . كما كانت الكتب السبيل الوحيد لتحصيل المعرفة . ومما يروى عن حب العلماء للكتب وكثرة جمعهم لها أن مكتبة القاضي الفاضل الخاصة كانت تضم مائة ألف كتاب ، وكان القاضي القفطي (٥٧٠ – ٦٤٦ هـ) قد جمع من الكتب مالا يوصف وقصد من أجلها الآفاق والأمصار ، وكان لا يحب من الدنيا سواها وقدرت مكتبته بخمسين ألف دينار .

وكانت للكتب أسواق تباع فيها وتشترى في الحواضر الكبرى . وقد تقدمت قرطبة على حواضر الاسلام في تجارة الكتب . وكان أعيانها يتنافسون في شراء الكتب الثمينة ويرخصون في سبيلها كل غال . وكان العلماء وطلابهم كالنحل يطوف البلاد ليجمع الشهد متمثلاً في الكتب ، وكان نتيجة لهذا التنقل مظاهر فريدة في الانتشار لم توجد إلا في التراث الاسلامي . ذلك أن العالم كان يؤلف ما يؤلف في كل بلد يحل به ويخلف هذه الكتب لتلاميذه لينسخوها ويتداولوها . وقد أثرت رحلات العلماء وتنقلاتهم على الحياة الفكرية في الحواضر الاسلامية ، وجعلت المسلمين والأمراء يوجهون عنايتهم لهؤلاء العلماء الرُحّل من الشرق والغرب ، فيبنون لهم المدارس والنُزل التي تأويهم وتوفر لهم

الموسيقى ويقول « ينبغي لمن يرغب أن يكون خطه جيداً وما يكتبه صحيح التناسب أن يجعل لذلك أصلاً يبني عليه حروفه ، ليكون ذلك قانوناً له يرجع إليه في حروفه لا يتجاوز ولا يقصر دونه ، ومثال ذلك في الخط العربي أن تخط ألفاً بأي قلم شئت وتجعل غلظه الذي هو عرضه مناسباً لطوله وهو الثمن ، ليكون الطول مثل العرض ثمان مرات ثم تجعل البركار على وسط الألف ، وتدير دائرة تحيط بالألف لا يخرج دورها عن طرفيه : فإن هذا الطريق والمسلك يوصلان إلى معرفة مقادير الحروف على النسبة ، ولا تحتاج في مقاييسك ما تقصده إلى شيء يخرج عن الألف وعن الدائرة التي تحيط به » .

وهكذا يستمر في الحديث عن باقي الحروف ، ويتكلم بعد ذلك عن الحروف التي تروس والتي تطمس والتي تفتح .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأقلام المستعملة في ديوان الإنشاء في زمانه ومقدار قطع الورق المناسب لكل قلم **ويذكر أنها سبعة أقلام هي : الطومار ، ومختصر الطومار ، والثلث ، وخفيف الثلث ، والرقاع ، والمحقق والغبار .**

أما عن قطع الورق فيذكر أن الطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله وهو المسمى إالفـرخ ، أما مختصر الطومار فله قطع البغدادي الكامل ، والثلث لقطع الثلثين ، وخفيف الثلث لقطع النصف ، والرقاع لقطع العادة ، والغبار القطع الصغير من ورق الطير .

ويُذكر أن الطومار يكتب به السلطان علاماته على المكاتبات والولايات ومناشير الإقطاع وأن المحقق استحدثت كتابته في تغراوات كتب القانات . أما الغبار فيكتب به بطائق الحمام والملطفات وما في معناه .

ثم يتحدث عن الأصل في تسمية قلم الثلث وما في معناه من الأقلام المنسوبة إلى الكسور والثلثين والنصف ويقول : « إن الأصل في ذلك أن للخط الكوفي أصلين من أربع عشرة طريقة وهو قلم الطومار ، وهو قلم مبسوط كله ليس فيه شيء مستدير ، وقلم غبار الحلية وهو قلم مستدير كله ليس فيه شيء مستقيم فالأقلام كلها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسباً مختلفة ، فإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلث سمي قلم الثلث وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلثان سمي قلم الثلثين .

وثمة رأي آخر وهو أن قلم الطومار مساحة عرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون ، وقلم الثلث منه بمقدار ثلثه وهو ثماني شعرات وقلم النصف بمقدار نصفه وهو

أثنتا عشرة شعرة ، وقلم الثلثين بمقدار ثلثيه وهو ثمان عشرة شعرة ويتبع ذلك بإيراد أمثلة للأقلام السبعة المختلفة التي ذكرها ، والحروف المختلفة بالنسبة لمواقعها في الكلمات ثم يتحدث عن أوجه تجويد الكتابة وتحسينها بالكلام عن حسن التشكيل وحسن الوضع ، **فلحسن التشكيل خمسة شروط هي : التوفية** بمعنى أن يوفي كل حرف من الحروف حظه من الخطوط التي يركب منها من مقوس ومنحني ومنسطح ، والثاني **الإتمام** وهو أن يعطي كل حرف قسمته من الأقدار التي يجب أن يكون عليها من طول أو قصر أو دقة أو غلظ ، والثالث الإكمال وهو أن يؤتي كل خط حظه من الهيئات التي ينبغي عليها من **انتصاب وتسطيح وانكباب واستلقاء وتقويس** ، والرابع **الإشباع** وهو أن يؤتي كل خط حظه من صدر القلم حتى يتساوى به فلا يكون بعض أجزائه أدق من بعض ، ولا أغلظ إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف مثل الألف والراء ونحوهما ، والخامس **الإرسال** وهو أن يرسل يده بالقلم في كل شكل يجري بسرعة من غير احتباس يضرسه ولا توقف يرعشه .

أما عن حسن الوضع فهناك أربعة أشياء لازمة وهي : الترصيف أي وصل كل حرف متصل إلى حرف **والتأليف** وهو جمع كل حرف غير متصل إلى غيره على أفضل ماينبغي ويحسن ، والثالث **التسطير** وهو إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى تصير سطراً منتظم الوضع كالمسطرة ، والرابع وهو **مواقع المدات المستحسنة** من الحروف المتصلة .

ومما لا شك فيه أن هذه العناية قد أتت ثمارها ، وتوفر للبلاد الخطاطون المجيدون الذين رأسوا ديوان الإنشاء ، وتولوا تحرير الوثائق والكتب والمواثيق فضلاً عن تحرير المخطوطات ، والمصاحف الثمينة الغالية التي تزدان بها معارض دور الكتب والمتاحف المختلفة،وتحتفظ بعض المصاحف المملوكية بدار الكتب بأسماء محرريها ، فثمة مصحف باسم السلطان برقوق قام بتحريره **عبد الرحمن الصائغ** ، ومصحف آخر باسم السلطان فرج حرره **موسى بن إسماعيل الكتاني** ، كما أن مصحفاً ثالثاً يحمل اسم كاتبه هو **موسى بن إسماعيل بن أحمد الجرجاني** .

وآخر ما يذكره القلقشندي عن الخط فصل عن مراعاة فواصل الكلام ، إذ يقول إن الخط إذا كان متميز الفصول وصل معنى كل فصل منه إلى النفس على صورته ، وإذا كان متصلاً دعا إلى إعمال الفكر في تخليص أغراضه ، ويذكر أن الفواصل دائرة عند النساخ وبياض عند كتاب الرسائل .

ويختم كلامه بمراعاة حسن التدبير في قطع الكلام ووصله في أواخر السطور وأوائلها .

ونراه يتحدث بعد هذا عن لواحق الخط ، وهي : النقط والشكل .

وحظيت من فضلاء الكتاب بما لم تحظ مملكة من الممالك ولا مصر من الأمصار ، وحوت من أهل الفضل والأدب بما لم يحو قطر من الأقطار - استخرت الله في كتابة هذا التاريخ .. إلخ .

قسم القلقشندي الكتاب إلى **مقدمة وعشر مقالات وخاتمة** وجاء كتابه على هذه الصورة كموسوعة لها هذا التقسيم الدقيق لامكان الانتفاع بها والرجوع اليها عند الحاجة .

في المقالة الأولى تحدث القلقشندي عما يحتاج إليه الكاتب من المواد فجعلها في بابين كبيرين :

أولهما : ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العلمية .

ثانيهما : ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العملية .

ثم عمد إلى الباب الأول فقسمه إلى ثلاثة فصول :

١ - **ما يحتاج الكاتب إلى معرفته على وجه الاجمال** « وصاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى أنه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس ، والى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة . فما ظنك بما فوق هذا وذاك ؟ .

٢ - **ما يحتاج اليه الكاتب من الأدوات** وقد ذكر القلقشندي منها تسعة عشر نوعاً هي جماع الثقافة العربية وعناصرها المختلفة كالشعر والقرآن والحديث والحكم ، والأمثال ، وكلام الخطباء ورسائل البلغاء إلى آخر ذلك والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ومعرفة أنساب العرب والعجم ، وأيام هؤلاء وهؤلاء ووقائعهم ومفاخرهم والوقوف على عادات العرب في الجاهلية .

٣ - **ما يحتاج اليه الكاتب من معرفة الأزمنة والأيام والشهور والسنوات والمواسم والأعياد** . وانتقل أبو العباس بعد ذلك إلى **الباب الثاني** وموضوعه الأمور العملية فقسمه إلى أربعة فصول :

١ - **في ذكر آلات الخط ومبادئه وصوره وأشكاله** .

٢ - **في الكلام عن الخط نفسه** .

٣ - **فيما يتصل بالخط من النقط والضبط والشكل** .

٤ - **في مصطلح الخط** .. وهكذا .

وتحت كل فصل من هذه الفصول السابقة كلها يأتي القلقشندي بالأنواع فيقول النوع

الأول والنوع الثاني وهكذا وتحت كل نوع منها يأتي بالجمل فيقول الجملة الأولى والجملة الثانية وهكذا . تقسيم علمي منهجي ممتاز .

تاريخ ديوان الانشاء :

اتفق الباحثون على أن لفظ ديوان لفظ فارسي معرب والديوان بالفارسية تعني الشياطين وسمى الكتاب بذلك لحذقهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي ، والمقصود بالانشاء الرسائل والمكاتبات وقد أوضح لنا القلقشندي من أقوال السابقين في وصف المكانة التي يتمتع بها كاتب الديوان قوله :

« ليس في منزلة خدم السلطان أخص من كاتب الرسائل ، فانه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه والافضاء إليه مهماته ، وتقريبه من نفسه من آناء ليله وساعات نهاره » .

ألقاب صاحب الديوان :

كان في الدولة الأموية يلقب **بالكاتب** ثم جاءت الدولة العباسية فلقب **بالوزير** ، وكانوا يلقبونه في الدولة الفاطمية **بكاتب الدست** وفي أوائل الدولة العثمانية لقب **بكاتب الدرج** وفي أيام المنصور **قلاوون** لقب **بكاتب السر** ، والعامة يبدلون الباء من كاتب السر فيقولون **« كاتم السر »** .

وأما عن نظام الديوان فقد حدثنا القلقشندي بأنه يتألف من سبعة كتاب بالاضافة الى صاحب الديوان وهم يمثلون وظائف رؤساء الأقسام .

ثقافة كاتب الانشاء : حدد أبو العباس القلقشندي ثقافة الكاتب على أنها قسمان كبيران :

١ - **الثقافة العلمية** وهي تتألف من عناصر أهمها :

(أ) **علوم اللغة العربية** كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والقرآن الكريم والحديث الشريف وخطب الخطباء ورسائل البلغاء وقصائد الشعراء وأمثال الحكماء .

(ب) **معرفة أنساب العرب والعجم** والوقوف على عاداتهم وتقاليدهم .

(ج) **تاريخ الأمة العربية** وتاريخ الأمم الأخرى ، والاهتمام بتاريخ الخلافة الاسلامية . ونظمها ووظائفها وأحكامها وأعيادها ومواسمها والدول التي تتبعها ، وتتبع العصور الاسلامية منذ ظهور الاسلام .

(د) **الثقافة الجغرافية** أو علم المسالك والممالك كما سميت آنذاك .

(هـ) **الالمام باللغات الأعجمية** كالفارسية واليونانية والسريانية والعبرية وغيرها من لغات الأمم التي لها صلة بالاسلام .

(و) **فن الوصف** وصف الكائنات الحية النباتية والحيوانية والانسان والأنواع والأجناس مثل الطيور والحشرات والوحوش والكواسر والدواب . كما يجب على الكاتب اجادة وصف الآلات على اختلافها التي يستخدمها الملوك والأمراء ، كالخاتم والتخت والمظلة والفاشية (سرج الفرس المزركشة) واللجام والمهماز والزمام والركاب والسوط وأيضاً الخيام والمشاعل ومعرفة آلات السلاح كالسيف والرمح والقوس والدبوس والعصا والدرع والمنجنيق وآلات الوقاية .. وهناك الموازين أنواعها وأوصافها . وهناك آلات اللعب كالنرد والشطرنج ونحوها . وهناك آلات الطرب كالعود والرباب والدف . وهناك الأحجار الكريمة كاللؤلؤ والياقوت والزمرد والماس والفيروز والبللور والمرجان والعقيق ، ومعرفة صفات كل حجر على حدة . ولا غنى للكاتب عن معرفة الطيب بجميع أنواعه كالمسك والعنبر والعود والصندل .. والجهات التي ترد منها .. الخ .

٢ – ننتقل بعد ذلك إلى عناصر الثقافة العملية : أهمها ما يلي :

١ – **معرفة فن الخط** وهو من ألزم الفنون لكاتب الانشاء في عصر لم يكن يعرف الطباعة الحديثة وعصر كان الاعتماد فيه على فن الخط ، فلا غرابة بعد ذلك أن نرى أبا العباس القلقشندي يعنى عناية تامة بهذا الفن ويتناوله من جميع وجوهه ويصف لنا جميع أدواته وصوره وأشكاله .

٢ – **فضيلة الخط وتاريخ الخط العربي** ، تحسين الخط ، هندسة الحروف ، تنقيط الحروف ، هيئة امساك القلم – كيفية إستخدام الدواة ، وضع القلم على الورق ، كيفية حركة اليد بالقلم في الكتابة ، تناسب الحروف ومقاديرها في كل قلم ، كتابة رءوس الموضوعات (الترويس) .

أنواع الأقلام المستعملة في ديوان الانشاء ، الصورة التي يختص بها كل حرف من حروف المعجم – ضبط الكلمات بالشكل ، الحروف المفردة . الحروف الموصولة بغيرها ، صورة كل حرف من هذه وتلك على حدة .

تعليق : أليست هذه نفس الطريقة المتبعة فى معاجم اللغة العربية كالمحيط للفيروزبادي

وكاللسان لابن منظور ؟ وأليست هذه الطريقة هي أسلوب البحث العلمي على أسس مناهج البحث ؟

آداب مهنة الكتابة عند القلقشندي

القلقشندي واحد من أولئك الرواد الذين اشتركوا في بناء الثقافة الاسلامية خاصة « فن الكتابة والتحرير » وهذا الفن أكبر برهان على أن ثقافة القلقشندي خليقة بالاعجاب والخلود .

ذكر لنا القلقشندي رأيه في أن **الكتابة صناعة روحية تتم بآله مادية** والمقصود بالروحية هنا هو الألفاظ التي يتخيلها الكاتب ويضم بعضها إلى بعض في ذهنه ليؤلف منها صورة باطنة تقوم في نفسه .

والمقصود بالمادية هو الخط الذي يخطه الكاتب بقلمه ، ويعيد به الصورة القائمة في ذهنه حتى تصبح صورة محسوسة ظاهرة بعد أن كانت صورة باطنة . وفي رأيه أن الكتابة وان كثرت أنواعها وتعددت أشكالها لا تخرج عن أصلين هما .

١ - كتابة الأنشاء .

٢ - كتابة الأموال (الحسابات) .

إلا أن العرف جرى على تفضيل الأولى على الثانية وذلك لما تحتاج إليه الأولى من زيادة العلم والثقافة وغزارة الأدب والفضيلة وذكاء العقل والقريحة ، وذلك فضلاً عن جودة الرواية والقدرة على التصرف والتنوع في التعبير واختراع المعاني .

وتحدث القلقشندي عن صفات خاصة في الكاتب وهي عشرة :

صفة الاسلام وان كان قد عدل عنها وصفة الذكورة - والحرية وصفة التكليف ، والاستقامة والبلاغة والعقل وشرف النفس والعلم والكفاءة هذا فضلاً عن صفات أخرى ، منها أن يكون الكاتب قوي النفس حاضر البديهة ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، ظاهر الأمانة ، عظيم النزاهة كريم الخلق ، مأمون ، مؤدب ، مليح الزي ، عطر الرائحة . وسنذكرها تفصيلاً فيما بعد .

آداب الكتابة أن يكون حسن السيرة وحسن المعاشرة وتحت حسن السيرة نجد مجموعة من الأخلاق الكريمة وعلى رأسها تقوى الله في السر والعلن ، وقصد الآخرة في كل ما يصدر عن الكاتب من رأي وعمل ، ثم بعد عن مواطن الشبهات والريبة ، ولزوم العفة والاعتدال في طلب اللذة . والاكتفاء بما يقيم المرؤة وأن يتحلى الكاتب بصمات جليلة منها :

١ – صفة الاخلاص

٢ – صفة النصيحة

٣ – كتمان السر

٤ – صفة الشكر

٥ – صفة الوفاء

٦ – عدم المن

٧ – حسن اختيار وقت العرض

٨ – حسن الوساطة

وتحت عنوان حسن المعاشرة قال أنها خمسة :

١ – حسن معاشرة الملوك والعظماء

٢ – حسن معاشرة الأكفاء والنظراء

٣ – حسن معاشرة الاتباع والمرؤوسين

٤ – حسن معاشرة الرعية على وجه العموم

٥ – حسن معاشرة من يمت للكاتب بصلة مهما كان نوعها

ومن تمام آداب الكاتب وكمالها أن يعرف حقوق أساتذته في صناعة الكتابة ، ومشايخه الذين فتحوا له أبوابها وذللوا له سبلها ولكم كان القلقشندي بارعاً وأميناً في نفس الوقت حين **أشار إلى الأستاذ الأول لفن الكتابة العربية وهو عبد الحميد الكاتب** فذكر أنه وضع الأساس الأول لآداب فن الكتابة في رسالته التي عنوانها « **إلى الكتاب** » والتي سبق ذكرها وقد أفرد لها القلقشندي نحواً من خمس صفحات من كتابه لأنه حرص على أن ينقلها للقارىء كاملة غير منقوصة .

وهذا الفن كان الكتبة في زمانه يتنافسون فيه تنافسهم في ميدان البلاغة وميدان الأدب وميدان التاريخ ونحو ذلك .

ومعلوم بأنه في هذه الفترة ظهرت المطبعة وقلت العناية منذ ذلك الوقت بفن الخط الذي هو من أجمل فنون العرب ولم يزل إلى يومنا هذا ومن أجملها في الحقيقة ، غير أن العناية به أصبحت مقصورة على طائفة الخطاطين فقط .

فن الكتابة :

ونحن نعلم أن النبي ﷺ اهتم بأمر تعليم المسلمين القراءة والكتابة فنراه يشترط لفك الذين يعرفون القراءة والكتابة من أسرى موقعة بدر أن يعلم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

واقتدى المسلمون بالرسول واهتدوا بتعاليمه فاهتموا بأمر الخط أعظم اهتمام وأولوه عناية فائقة فوجدت المدارس لتعليمه واشتهرت الفسطاط بمدارسها ونبغ عدد من الكتاب في الخط وعكف بعضهم على اشتقاق أنواع جديدة من الأنواع التي كانت معروفة في عهده وهكذا تعددت أنواعه وأشكاله وحفظت لنا المصادر أسماء بعض من اشتهروا بجودة الخط فنذكر أن رياسة الخط جودة وإحكاماً انتهت في العصر الطولوني إلى **أبي طبطب** المحرر لدرجة أن أهل مدينة السلام كانوا يحسدون أهل مصر على أبي طبطب **وابن عبد كان** ، يعني كاتب الإنشاء لابن طولون ويقولون : بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما ، وأشتهر في العصر الفاطمي **ابن الصيرفي** بحسن الخط واستخدمه بدر الجمالي .

وذاع صيت كثير من الناس في الخط فيما تلا ذلك من عصور نكتفي بذكر بعضهم ممن استطاعوا أن يكونوا لهم مدرسة في الخط ، فمن هؤلاء **الحسن أبو علي الجويني** الكاتب البغدادي المولد وقد رحل إلى القاهرة وأقام بها وتوفي عام ٥٨٦ هـ – ١١٧٢ م ، **وابن العفيف** وقد أسس مدرسة للخط في القرن الرابع عشر الميلادي وهو **عماد الدين الأنصاري الشافعي** المتوفي سنة ٧٣٦ هـ وسنة ١٣٣٥ ، ومنهم **ابن الصائغ** مؤسس مدرسة تنسب إليه في القرن الخامس عشر الميلادي وهو **عبد الرحمن بن يوسف الزين القاهري** .

ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالخط وأمره وضعهم المؤلفات عنه وعن أنواعه والنسبة الفاضلة فيه نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر **كتاب القلم وهو رسالة في خط الكتابة لإسحق بن إبراهيم اليربري المعروف بابن العديم من القرن الرابع الهجري** (العاشر الميلادي) **وكتاب منهاج الإصابة في أدوار الكتابة للشيخ شمس الدين محمد بن أحمد ابن علي الزفتاوي** المولود سنة ٧٥٠ هـ سنة ١٣٤٩ المكتوب المجود بالفسطاط وله مختصر في قلم الثلث ، ومنها العناية الربانية في الطريقة الشعبانية وهي ألفية من نظم الشيخ **زين الدين شعبان بن محمد بن داوود الأساري** محتسب الفسطاط ، وممن كتب عن الخط القلقشندي في صبح الأعشى .

وقد أمدنا القلقشندي بمعلومات قيمة عن الخط ولعل أفضل ما نفعله في هذا المقال هو أن نستعرض ما حفظه لنا القلقشندي في كتابه المذكور .

وأول ما نلاحظ قبل أن يتكلم عن القلم أو الخط وما يجب أن يتوفر له من شروط ليصبح خطاً محققاً نراه يتحدث عن الخط وما ورد بشأنه في القرآن الكريم ﴿ اقرأ وربك الأكرم ★ الذي علم بالقلم ★ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ومثل ﴿ والقلم وما يسطرون ﴾ ثم يذكر ما ورد على لسان البعض كقول عبيد الله بن العباس « الخط لسان اليد » وقول جعفر بن يحيى « الخط سمط الحكمة وبه تفصل شذورها وينتظم منثورها » وقول مسلم بن الوليد « من عجائب الله تعالى في خلقه وإنعامه عليه من فضله تعليمه إياهم الكتابة المفيدة للباقين والمخاطب للعيون بسرائر القلوب على لغات متفرقة في معان معقولة ، بحروف مؤلفة من ألف وباء وجيم وذال ، متباينات الصور ، مختلفات الجهات ، ولقاحها التفكير ، ونتاجها التأليف ، تخرس منفردة وتنطق مزدوجة ، بلا أصوات

ثم ينتقل إلى حديث عن بيان حقيقة الخط فيقول : إنه علم تتعرف منه صور الحروف المفردة وأوضاعها وكيفية تركيبها خطا أو مايكتب منها في السطور وكيف سبيله أن يكتب وما لا يكتب وإبدال مايكتب منها في الهجاء وبماذا يبدل ، ثم يعقد فصلاً لبيان المقصود من وضعه والموازنة بينه وبين اللفظ فيقول : إن المقصود من وضعه أداء المعنى المشعور به للمسمع إذ لا وقوف على ما في الذهن ووضع الخط لأداء اللفظ المقصود فهمه للناظر فيه ، فإذا أردت إيقافك أحداً على ما في ذهنك من المعاني تكلمت بألفاظ وضعت له ، وإذا أردت تأدية ألفاظ لذلك الإيقاف إلى أحد بغير شفاه نقشت النقوش الموضوعة لتلك الألفاظ ، فيطالع تلك النقوش ، ويفهم منها تلك الألفاظ ، ومن الألفاظ تلك المعاني .

أما الموازنة بين الخط واللفظ : فالأصل في ذلك أن الخط واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان مشتركان فيه من حيث أن الخط دال على الألفاظ ، والألفاظ دالة على الأوهام ، وهما يعبران عن المعاني ، إلا أن اللفظ معنى متحرك واللفظ معنى ساكن ويستمر في عقد المقارنات بين الخط واللفظ ، والتشابه بينهما بدرجة كبيرة جداً حتى أطلق على القلم اسم اللسان ، فقالوا : الأقلام ألسنة الإفهام ، والقلم أحد اللسانين .

ويحدثنا بعد ذلك عن وضع الحروف سواء الحروف بصفة عامة أو حروف اللغة العربية التي تنسب إلى آدم عليه السلام ، والنظرية الاصطلاحية التي تنسب وضع الحروف إلى جماعة من طي .

وينتقل من هذا إلى عدد الحروف وجهة ابتدائها وكيفية ترتيبها وصور الحروف العربية وتداخل أشكالها والحث على تحسين الخط والطريق إلى تحسينه ويقول : « إن الوجه الصحيح في تصحيح الحروف أن يبدأ أولاً بتقويمها مفردة مبسوطة لتصبح كل صورة منها على حالها ثم يؤخذ بالرباعي ثم بالخماسي فإن هذه هي أمثلة الأسماء والحروف

وأن يعتمد في التمثيل إلى توقيف المهرة في الخطوط العارفين بأوضاعها ورسومها واستعمال آلاتها ، فإن لكل خط من الخطوط قلماً من الأقلام يصلح لذلك الخط ، وهذه الأقلام المختلفة نظير آلات الصنائع المختلفة التي يصنع الصانع لكل آلة منها جزءاً من صناعته لا يصنع به غيره ولا يعول على كتابة خط من الخطوط نقل مثاله بنفسه فإن ذلك لا يكفيه إذ لو كان ذلك كافياً لاستغنى في جميع الصنائع عمن يوقف عليها .

ويتلو ذلك الحديث عن هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها مبتدئاً من الألف إلى الياء واصفاً كل حرف وما يجب أن يتوفر فيه من اشتراطات ليكون خطاً محققاً .

ويمكن أن نقول : إن أساس الخط عندهم عملية هندسية أساسها النقطة والدائرة فمن النقطة تتكون الألف وما شابهها ومن الدائرة الجيم وما شابهها ويتكلم عند حديثه عن الحروف حرفاً حرفاً ما يجب أن يتوافر فيه من عدد النقط أو أجزاء الدائرة كما يمدنا هذا الفصل من كتابه بأوصاف الحروف أو أجزائها مثل الخط المنتصب للألف ، والخط المنتصب والمنسطح للباء ، والخط المنكب ، ونصف الدائرة للجيم والمنكب والمنسطح للدال والمنتصب والمقوس للسين وهكذا ، وهو في هذا النسبة بين كل جزء وآخر حتى تأتي الكتابة محققة .

ثم يتكلم بعد ذلك عن معرفة ابتداء الحروف وانتهائها ، فبدأ بالحروف التي تبدأ بنقطة ، ثم الحروف التي تبدأ بشظية ، ثم بحلقة ، ثم ما يختم بنقطة القلم ، ثم ما يختم بشظية وما يختم في ختمه إرسالاً مبيناً حروف كل نوع .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض ما يجب على الكاتب اعتباره عند الكتابة ثم حركة اليد بالقلم في أثناء الكتابة فيقول نقلاً عن بعض الكتاب « كل خط منتصب ينبغي أن يكون الاعتماد فيه من القلم على سنيه معاً وكل خط يمنه إلى يسرة ينبغي أن يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلاً ، وكل خط من يسرة إلى يمنة ينبغي أن يمال رأس القلم إلى اليمنة قليلا وكل شظية ينبغي أن تكون بالسن اليمنى من القلم ، وكل نقطة ينبغي أن تكون بسنى القلم ، وكل تقعير كما في النون وتعريقة الصاد يجب أن تكون بالسن الأيمن ، وكل رسالة يجب أن تكون بسن القلم اليمنى ، وكل تعريج كما في عراقة الجيم والعين يجب أن يكون بسن القلم اليسرى ، وكل ما أخذ فيه من يمنة إلى يسرة كاللام ونحوها ينبغي أن يمال فيه رأس القلم إلى اليسرة قليلاً ، وكل ما أخذ فيه من يسرة إلى يمنه كرأس الجيم ينبغي أن يمال رأس القلم فيه إلى يمنة قليلاً وكل خط منتصب يجب أن يكون انتهاؤه إرسالة ، وطول كل سنة من السين ونحوها مثل سدس ألف خطها .

أما تناسب الحروف ومقاديرها في كل قلم فينقل عن إخوان الصفاء من رسالة

الراحة وتكفل سبل الرزق ليتفرغوا للدرس والعلم . وقد تمتع العلماء في ظل دولة صلاح الدين وخلفائه ببحبوحة العيش ولم يكن لهم شاغل سوى التأليف ، ونالوا على تأليفهم للكتب تشجيعاً ، فكثر انتاجهم في جميع العلوم . ويروى عن ابن الجوزي أنه ألف في جميع فروع الثقافة الاسلامية في عصره تقريباً . ألف في القرآن والحديث والتاريخ واللغة والأدب والشعر والوعظ والفقه ، وكان هناك أمثال ابن الجوزي ، وامتاز بعضهم بأنه جمع إلى جانب الثقافة الاسلامية والعربية ثقافات أخرى . ومن هؤلاء ابن الخشاب النحوي ، وكذلك عبد اللطيف البغدادي الرحالة العالم الذي صنف ما يزيد عن خمسين كتاباً في مختلف العلوم والفنون ، ومن هؤلاء أيضاً الامام الفخر الرازي والزمخشري (المتوفى ٥٣٧ هـ) والامام الغزالي (متوفى سنة ٥٠٥ هـ) والجواليقي والشهرستاني والنسخي والحريري والسهروردي وابن فيرة الشاطبي ، وابن رشد الفيلسوف . وكان هذا العصر عصر الأعمال العلمية الضخمة أو الموسوعات المرجعية الكبرى .

مهنة الكتابة
وديوان الانشاء في العصر المملوكي

أبي العباس القلقشندي (٧٥٦ – ٨٢١ هـ) ولد بمدينة قلقشندة جنوب مركز طوخ بمحافظة القليوبية وهو أبي العباس أحمد بن على القلقشندي . كان أحد الفضلاء ممن برعوا في الفقه والأدب وكتب في الانشاء ، ووضع كتابا في هذه الصناعة .

نشأ أبو العباس القلقشندي نشأة علمية سليمة وتربى تربية صحيحة ثم توجه إلى الاسكندرية وأقام بها مدة من عمره في طلب العلم على مشهوري العلماء في زمانه واشتغل في اثناء ذلك بفنون اللغة العربية والأدب حتى أجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص المشهور « **بابن الملقن** » بالفتيا والتدريس على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه ، وأن يروي عن كل تأليف في الفقه والحديث وغير ذلك من كتب أصول الفقه الاسلامي . وفي سنة ٧٩١ أي في سن الخامسة والثلاثين اختير ابو العباس للعمل في ديوان الانشاء وكان أن وضع كتابة **صبح الأعشى في صناعة الانشا** الذي استغرق منه أكثر من عشرين عاماً .

شعر القلقشندي بعد ذلك بأن كتابة الانشا في زمانه تستوجب العلم بأنساب العرب فتوفر على تأليف كتابين عظيمين في هذا العلم وهذان الكتابان هما .

١ - **نهاية الأرب في معرفة انساب العرب** ، ورتبه على حروف المعجم وجعله مقدمه ومقصد وخاتمه ويتلخص في علم طبقات الأنساب ومساكن العرب .

٢ - **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان** وانهاه قبل وفاته بعامين . وهو استدراك وإضافة على كتاب نهاية الإرب .

هذه أطراف يسيره من حياة رجل من رجالات مصر في العصور الوسطى توفر على خدمة العلم والأدب بكل ما يملك من فطنة وغيرة وقوة . حتى أصبح من أعظم بناة الثقافة العربية . وان نظرة واحدة الى جهود الرجل العلمية والأدبية لتدلنا بجلاء عن أهمية هذا الرجل كمؤرخ للثقافة العربية في العصور الوسطى حيث عاش في عصر المماليك وهو العصر الذي تبلورت فيه الشخصية المصرية واتخذت لها شكلاً .

غير أن الذي لا شك فيه أن صبح الأعشى هو أهم كتبه على الاطلاق وهو الكتاب الذي عرف به القلقشندي ودوره ككاتب في مجالات العلم والأدب ، لما بذله فيه من جهود طيبة حيث أنه رجع إلى أكثر من مائة مصدر أو يزيد . ولاشك أننا نعرف أن الكتابة العربية انما تأثرت منذ نشأتها بعامل هام هو ديوان الانشاء . أقوى أسباب نهضة الكتابة في خلال العصور الاسلامية ، مثلما تتأثر حركة التأليف الأدبي في وقتنا بالطباعة الحديثة .

أهمية ديوان الانشاء :

حين تؤرخ للكتابة العربية منذ العصور الاسلامية الأولى ونحاول أن نلتمس الأسباب التي من أجلها نهض فن الكتابة ، لا نجد أقوى من هذا السبب الذي ترجع اليه قوة الكتابة العربية وزيادة نهضتها ونعني به ديوان الانشاء . وقد صعد ديوان الانشاء بالكتابة العربية إلى أعلى درجات الجمال والزينة .

ويقول القلقشندي في بداية مقدمة كتابه « صبح الاعشى في صناعة الانشا » لما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وانفعها لاسيما كتابة الانشا التي لا يلتفت الملوك إلا إليها ، ولا يعول في المهمات إلا عليها ، يعظمون أصحابها ، ويقربون كتابها .. وكانت الديار المصرية .. أعز الله حماها ، وضاعف علاها .. لم يزل يعلو قدرها ، ويسمو ذكرها إلى أن صارت دار الخلافة العباسية وقرار المملكة الاسلامية ..

(١) د. عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، أعلام العرب ١٩٦٢ .

هذا عرض مجمل لما احتواه كتابه صبح الأعشى للقلقشندي من معلومات وبيانات وتعليم عن الخط وأنواعه والشروط التي يجب اتباعها لتجويده وتحسينه ونستطيع أن نقف من هذا كله على مقدار العناية والأهمية التي وجهها الكتاب والخطاطون المجيدون وغيرهم ، لتوفير كل ما يكون من شأنه أن يساعد الكتاب على تحسين خطوطهم وتجويدها .

ديوان الكتابة « الإنشاء » عند المسلمين

اهتم المسلمون منذ ظهور الاسلام بالمراسلات التي عرفت فيما بعد بالمراسلات الديوانية ، ثم اتخذت كلمة « الانشاء » سمة خاصة بها ، وأصبح لهذه الكلمة الأخيرة معنى وظائفي ، أي أنها أضحت « وظيفة » لها شروطها الخاصة ومراسمها الذاتية ، بل يمكن القول بأن الشروط التي تطلب توافرها فيمن يشغلها بلغت حداً لم تبلغه أية وظيفة أخرى اللهم إلا « الخلافة » حين وضع الفقهاء لها شروطاً لا تنعقد إلا بها[1] ، ولعل من أقدم الرسائل ذلك الكتاب الذي يقال إن الرسول عليه السلام أنفذه إلى هرقل يدعوه للإسلام ، هذا بالإضافة إلى أن الرسول ﷺ اتخذ له منذ البداية « كتاباً » يكتبون عنه فيما يصدر عنه من رسائل وفيما يكاتب به أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ، وكذلك من قرب من السلاطين والملوك يدعوهم إلى اعتناق الإسلام ، ومعنى هذا أن الكتابة وجدت « كفنّ » ، أو « الكاتب » كوسيلة للترجمة عما يراد الإفصاح عنه للمرسل إليهم : إلقاء كان أو رداً ، وقد استكثر الرسول من الكتاب حين جاوزوا الثلاثين عداً ، فإذا وضعنا هذا العدد من الكتاب في الذهن جاز لنا القول بأنهم كانوا يؤلفون في مجموعهم بذرة أول « ديوان إنشاء » وضع في الإسلام ، وإن لم يتخذ هذا الاسم مدلولاً عليه ، ثم تطور بتقدم الأيام حتى بلغ ذروة التنظيم في العصر المملوكي نظراً لاتساع رقعة الدولة وتعدد جهات اختصاصها واتصالاتها لاسيما الخارجية منها بصورة جعلت من القائمين بالكتابة الديوانية هيئة خاصة ، وهذا ما حمل القلقشندي على افراد كتابه الضخم « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » لهذا الموضوع ، ولقد قام هذا الكتاب في أصله على « مقامة » كتبها هو بنفسه وسماها « الكواكب الدرية في المناقب البدرية » وهي التي

---

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب الماوردي للأحكام السلطانية .

Rosenthal: Political Thought in Medievai Islam.

أدرجها في صبحه[١] ، وإن كان هناك من يردها إلى محاولة من جانبه للنسج على منوال الحريري والهمذاني[٢] ، وليس من شك في أن قوام مادة « الإنشاء » – من حيث التطور التاريخي والنهج التقليدي في الكتابة ، إنما يعتمد على إدراك القلقشندي لهذا الفن .

ولو رجعنا إلى المدلول التاريخي للفظ « الديوان » لوجدنا الأوائل القدامى قد ردوه على اختلاف فيما بينهم إلى أصلين ، أولهما الأصل الفارسي ، ولقد أشار إلى ذلك الماوردي في الأحكام السلطانية ، فذكر أن هناك وجهين للأصل الفارسي للتسمية – أحدهما أن كسرى مر ذات يوم على كتاب ديوانه وهم يحسبون مع أنفسهم ويجمجمون فيما بينهم ، فتعجب منهم وقال عنهم « ديوانه » أي « المجانين » ، أما القول الآخر فهو أن « الديوان » بالفارسية اسم للشياطين « فسمي الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور ، ووقوفهم على الجلى منها والخفي » ، وهذا الأصل الفارسي لم ينكره بعض علماء اللغة كالأصمعي ، وتابعه الجواهري في الصحاح وسبق لنا أن ذكرناه .

أما ثاني هذين الأصلين فهو الأصل العربي على سعة مدلوله واستعماله ، ومهما يكن الاختلاف في مرده اللغوي فالثابت أن العرب منذ أربعة عشر قرناً عرفوا هذا الديوان وإن كان إذ ذاك في صورة أولية ، أشار إليها القلقشندي في قوله « إنها لم تكن في الشهرة وتواتر الكتابة في زمانه » ﷺ ، ومعنى هذا كله أن الديوان قديم الإنشاء ، وأن الشخصية البارزة فيه هي شخصية « الكاتب » أو « المنشيء » الذي تبوأ منذ بداية ظهوره مكانة سامية ، فهو « الأمين على السر الذي يفضي به إليه بما قد يحجب الخبر فيه عن غيره » ، ومن ثم شرطوه بشروط كان الالتزام بها في معظم العصور[٣] ضرورة لاتخرج عنها الدولة أو الخليفة أو السلطان ، وردوها إلى **أسس عشرة أولها : العدالة** ، من حيث أعتبار الكتابة ولاية شرعية وهذا تكريم لها ، **وثانيها : ما يعرف بالتكليف** ، وذلك للحاجة إلى بالغ مدرك لما يقتضيه الرأي والأمر ومالا يجوز فيه التعديل على الصبي ، **وثالثها : الذكورة ، ورابعها : الإسلام** ، لأن الدولة إسلامية من ناحية واعتماداً على الآية الكريمة من ناحية أخرى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ماعنتم** ﴾[٤] ، **وخامسها : الحرية التي بانتفائها ينتفى الكمال والقدرة على** .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ .

(٢) C.f. C.E. Bosuvorth: A maqama on 'Secretaryship: al-Qulqashaudi's al-Kawakib al-Durriya fil manaqib al-Badriyya, BSOAS, Vol., XXVII, Pt, 2, 2964, pp. 291-298.

(٣) تخلى المسئولون عن بعض الشروط في العصر الفاطمي .

(٤) قرآن كريم « سورة آل عمران ، ٣ : ١١٨

التصرف غير المشروط أو المقيد ، **وسادسها : البلاغة ، وسابعها : وفور العقل فلا ولاية** ولا شهادة لغير العاقل ، **وثامنها : العلم بمواد الأحكام الشرعية** حتى لا تخرج القضية عن نطاق العدل الذي قضى به الشرع ، **وتاسعها : شرف النفس ، وعاشرها : الكفاية لما يقتضيه** منصب الكتابة من تولى الرجل المناسب .

وإذا كانت بعض الوظائف تتطلب في وقتنا الحاضر ما يعرف بالمقابلة الشخصية فقد كانت هناك صفات أخرى تطلبها القوم يومذاك في الكاتب منها :

صباحة الوجه وفصاحة اللفظ ، وطلاقة اللسان ، وإيثارة الجد على الهزل ، وتوقد الفهم وحسن الإصغاء ، وإيثارة الشغل على الفراغ ، ثم بعد ذكل ملازمته لمجلس الملك أو السلطان إذا كان جالساً ، وملازمته للديوان إن لم يكن جالساً « ليتأسى به سائر كتاب الديوان وكي لايجدوا رخصة في الغيبة عن ديوانهم » على حد تعبير قوانين ديوان الإنشاء لمن يشغل وظيفته ، كما تطلبوا فيه كتمان السر ، الأمر الذي يصر القلقشندي على خطورته ويراه ضرورة لا يمكن التجاوز عنها فيمن يشغل وظيفة كاتب الإنشاء فيقول عنها « هذه الصفة هي الشرط اللازم والواجب المحتم » ، وأورد عن المأمون في هذا الصدد قوله : « الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء : القَدْحُ في الملك ، وإفشاء السر ، والتعرض للحُرَم » وقد ثبت هذا المعنى في الأذهان وأصبح أمراً مألوفاً يعد التجاوز عنه نقضاً لا يجوز معه انعقاد الوظيفة حتى ليشير القلقشندي إلى أن العامة في مصر يبدلون « الباء » في كاتب السر « بميم » فيقولون « كاتم السر » ويرد ذلك إلى رأيين إما لأنه يكتم سر الملك ، وإما من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة ، ثم يعقب على ذلك قائلاً : « ولكنهم لا يعرفون الثاني » وهذا ترجيح منه لفكرة كتمان السر .

هذه هي بعض صفات الكاتب في الديوان ، فما هو شأن الديوان في العصور الإسلامية ؟ .. لقد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسول ﷺ ، فاتخذ كل منهم كاتباً أو أكثر ، فلما قامت الدولة الأموية أصبح أمر هذا الديوان مفوضاً إلى كاتب يقيمه خليفة الوقت الذي كان هو ذاته « يوقع على القصص ويحدثها بنفسه ، أما الكاتب فيكتب ما يبرز إليه من توقيعه ، ويصرفه بقلمه على حكمه » أي أن التوقيع كان لصاحب السلطة العليا ، أما التصريف فلمتولي مهمة الكتابة ، وظل لفظ « الكاتب » يطلق طوال عصر بني أمية على متولي هذا الديوان حتى ولي الخلافة أبو العباس السفاح فاستوزر أبا سلمة الخلال وأصبح هذا الفعل نهجاً يسلكه من جاء بعده من خلفاء بيته ، على أن أهمية المكاتبات في هذا العصر أدت إلى نقلة جديدة في ديوان الإنشاء لم تكن من قبل ، تلك هي إضافة ديوان الرسائل هذا تارة إلى الوزير حيث يتولى أموره ويصرفها بنفسه ، وقد يفرد عنه – أي عن الوزير – تاره أخرى بكاتب ينظر في أمره ، وفي هذه الحال الثانية يقوم

كاتب ديوان الإنشاء باعتماد ما يرد إليه من ديوان الوزارة ويمشي على ما يلقي إليه من توقيع الوزير الذي ينفذ إشارة الخليفة . وقد وجد بفضل الكتابة في الديوان جماعة من البلغاء أسهموا بقدح معلى في الأدب مثل يحيى بن خالد وزير الرشيد ، وابن العميد وأبي إسحاق الصابي .

على أن العناية باللغة وفنون الأدب والبلاغة والتمثيل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار القدماء وأمثالهم : ما لبثت أن زحزحت عن مكانتها تبعاً لتدهور الأوضاع السياسية وضعف قوة العرب ، فحل محلها – بعد سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ – كتابات ديوانية بالمغولية والفارسية حين آلت مقاليد الأمور لهؤلاء الأعاجم ، ولم يكن من المتوقع بطبيعة الحال إلا أن يبطل رسم الكتابة المعتبرة ، وهذا هو الذي ألم بالكتابة الديوانية في غير مصر التي عرفت الديوانية بصورة أو بأخرى منذ عهد بعيد فرعته وليداً ، واهتمت به حتى اكتمل عوده في النهاية ، وانتظمت قواعده ، واعتبرت أصوله في العصر المملوكي ، ويمكن إجمال هذه المراحل فيما يلي :

كانت المرحلة الأولى في قيام الديوان في مصر مصاحبة للفتح العربي لها ولم يكن من المنتظر أن تحدث طفرة في الكتابة ، فمصر قريبة العهد بالحكم البيزنطي ورسومه وتقاليده ووظائفه ، كما يغلب اللسان القبطي على العامة وبعض الخاصة ، بيد أن البلاد كانت قد دخلت في مرحلة جديدة هي مرحلة الاستقرار العربي وما يتطلبه الحكم الجديد من مراسلات مع الخلافة ومعاملات مع الشعب ، إلى جانب ما كان لابد من وجوده من التنظيمات الإدارية البيزنطية ، ومن ثم فليس لنا أن ننتظر أنتقالاً كلياً مما جرى عليه القوم إلى تعريب كامل ، لذلك لم تبذل عناية كبرى بشأن ديوان المراسلات ، ولقد فسر القلقشندي صرف الهمة عن الديوان إلى أن المسؤلين اقتصروا منذ بداية الفتح العربي حتى أوائل الدولة الطولونية على « المكاتبات لأبواب الخلافة ، والنزر اليسير من الولايات » .

على أن سمات ديوان الإنشاء أخذت في الانبثاق في الفترة الممتدة من أوائل الدولة الطولونية حتى نهاية الإخشيدية ، لكن هذه السمات كانت أشبه ببراعم لم تتفتح أزاهيرها إلا في العهد التالي ، وهو عهد الخلافة الفاطمية ، وهذا هو دور الاستقلال الأول في تاريخ مصر الإسلامية ووقوفها تجاه الخلافة العباسية موقف النضال والعداء ، وإذ كان الفاطميون جد حريصين على تدعيم سلطانهم في نفوس الجماعات التي تدين لهم بالطاعة وكذلك بين الأمم . وإذا كانت مصر قد أصبحت ذات علاقات تجارية وسياسية مستقلة بكثير من الدول والولايات ما بين إسلامية ونصرانية فلا مشاحة إذا اهتم الفاطميون بديوان الإنشاء ، وإن استعملوا فيه بصورة واضحة جماعات من المسلمين والذميين على السواء ،

وكان هذا حدثاً جديداً يكاد يزعزع الشرط الرابع من الشروط التي كان من المطلوب توافرها في « الكاتب » ، وتطالعنا في هذا العصر أسماء أفراد من غير أهل الإسلام مثل ابن سوردين النصراني وأبي سعيد العميدي وابن أبي الدم اليهودي .

وكان متولي ديوان الإنشاء أو الرسائل أو الكتابة – وكلها تسمية لمسمى واحد – من أجل الكتاب بلاغة ومنزلة ، ويخاطب « بالأجل » ويلقب حينذاك « بكاتب الدست » ، وكانت المكاتبات تسلم إليه مختومة ، وأصبحت له رسوم معينة تقتضيها مكانته عند الفاطميين الخلفاء ، فهو عندهم « أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاصقات » .. هذا إلى أن له حاجباً من الأمراء الشيوخ ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة .

ثم جاءت الدولة الأيوبية ، فكان مجيئها بداية فترة جديدة في ديوان الإنشاء لما جرى خلالها من تطور ملحوظ ، إذ نلاحظ لأول مرة ما عمد إليه صلاح الدين من جمعه الوزارة وديوان الإنشاء للقاضي الفاضل ، وكأنه كان في ذلك ناظراً إلى ما حدث عند قيام الخلافة العباسية من جمع الوزير بين الوزارة والكتابة ، وقد بدا ذلك الجمع بين الأثنين أمراً مقرراً في أغلب الأحيان زمن الأيوبيين الذين أرادوا في الوقت ذاته محو رسوم الفاطميين في هذا المجال ، فلم يستعملوا سوى المسلمين . ولا تطالعنا في هذه الفترة أسماء لأصحابها عرق قريب أو بعيد في الذمية .

فلما انتهت ولاية الأيوبيين وقامت دولة المماليك أو الدولة التركية كما تسمى أحياناً أصبح كاتب ديوان الإنشاء في المكانة المرموقة في الدولة ، يصاحب السلطان في حله وترحاله ويرافقه في حملاته ، ويعرف من أسرار الحكومة ماقد يخفي في كثير الأحيان على صفوة الخاصة من خاصة السلطان .

وثم صفة أخرى هي أن صاحب ديوان الإنشاء أصبح ينقل من مصر إلى دمشق ، حدث هذا لأول مرة للقاضي شرف الدين عبد الوهاب ابن فضل الله الذي كتب في مصر للأشرف بن قلاون وأخيه الناصر محمد في سلطناته الثلاث ، وللعادل كتبغاً ، والمنصور لاجين ، والمظفر بيبرس ، ثم نقله الناصر محمد بن قلاون إلى كتابة السر بدمشق .

وتطالعنا في هذه الفترة أسماء كثيرين من كتاب ديوان الإنشاء قد يرجع البعض منهم إلى أسرة واحدة ، ويأخذ كل منهم نفسه بالاهتمام بالفنون اللازمة المهيئة إياه لشغل وظيفة كاتب السر ، وكان الواحد في بعض الأحيان يستعمل ولده بالنيابة ، أو يوليه استقلالاً ، كما حدث من القاضي محيي الدين بن فضل الله حيث فوض أمر الديوان ، استقلالاً لولده

القاضي علاء الدين سنة ٧٣٨ هـ ، ولم تكن هذه الظاهرة تعني إيثار ذوي القربى أو ترجع إلى عصبية أسرية ، ولكن يمكن تفسيرها باهتمام العائلة بالآلات اللازمة لكتابة الإنشاء ، نظراً لما تدره الكتابة على شاغلها من كسب مادي ومعنوي ومكانة مرموقة في المجتمعين المصري والشامي ، وهي مكانة ترقي بصاحبها إلى مجالسة السلطان .

ولم يكن ثمة لقب واحد متفق عليه في بداية هذه الدولة يطلق على كاتب ديوان الانشاء فكان « يعبر عنه بكاتب الدست حيناً وكاتب الدرج حيناً آخر » ثم أطلق لقب « كاتب السر » لأول مرة زمن المنصور قلاون ، أطلقه على القاضي فتح الدين عبد الظاهر ، ومن ثم نزل لقب « كاتب الدست » درجة فأصبح يطلق على من دونه من كتاب الديوان ، والألقاب كالأشخاص منها ما يهرم فيموت ومنها ما يخلي مكانه لجديد .

وإذ كانت القاهرة مركز سلطان الديار المصرية الشامية وفيها الخليفة وإذ كانت هناك دواوين لكتابة الرسائل في كل ولاية ونيابة فقد أطلق على متوليه في مصر لقب « صاحب دواوين الإنشاء » بالجمع في بعض الأحيان تعظيماً له لمحاورته السلطان والخليفة ، أما كاتب ديوان الإنشاء . بدمشق فيسمى « بمتولي ديوان الإنشاء بالشام » ، وأما متوليه في حلب وحمص وحماه وطرابلس وصفد فيسمى « بصاحب ديوان المكاتبات » مضافاً إلى النيابة الموجودة بها . أما النيابات الصغرى كغزة والكرك والإسكندرية فيقال لمتولي ديوان كل منها « كاتب الدرج » .

وهناك ظاهرة أخرى تطالعنا في بداية الدولة الجركسية هي اصطناع جماعة من غير أهل مصر وإن كانوا من المتعممين ، فقد عهد برقوق في سلطنته الأولى بالديوان إلى القاضي أوحد الدين عبد الواحد التركماني ، وفي ولايته الثانية إلى علاء الدين الكوكي ثم لبدر محمود الكلستاني .

كان للديوان في مصر رسوم وتقاليد معتبرة منها ما يتعلق بموظفيه ومنها ما يتعلق بمحفوظاته : صادرة ، أو واردة ، وقد ارتفعت منزلة صاحب ديوان الإنشاء في مصر فبعد أن كانت مهمته في العصور الأولى مقصورة على أن يكتب بأسلوبه ما يلقي به إليه أصبحت له اختصاصات معينة يتصرف فيها بحكمته ووفق قواعد مرعية هي نتاج تجارب سابقة موصولة في حقل الكتابة والمراسلات الديوانية ، ولعل أهم ما أضيف إليه من الاختصاصات هو مراعاة الألقاب والمراتب والدعاء في المكاتبات والولايات وهذا أمر منظور فيه إلى تعقيدات نظم الحكم والسلطنة في الدول والإمارات المختلفة يستوي في ذلك منها الإسلامية وغير الإسلامية ، فليس له أن يزيد أحداً في لقبه عما لقبه به الحاكم، ولذلك نص القلقشندي على أنه ينبغي على صاحب الديوان « أن ينزل كل واحد من الكاتبين

وأرباب الولايات منزلته على ما يقتضيه مصطلح الزمان من علو وهبوط » وحينئذ عليه أن يحتاط في ذلك ويؤاخذ كتاب الإنشاء بما حدد لهم من غير إفراط ولا تفريط ، فالملوك والسلاطين يسمحون ببدرات المال ولا يسمحون بالدعوة الواحدة ، وإن نظرة واحدة للألقاب التي تفتتح بها المراسلات سواء ما ورد منها في القلقشندي أو في غيره من المصادر والمراجع أو مازال منها مخفوطا يمكن الاستدلال منها على مكانة الكاتب وملته .

يضاف إلى هذا أنه ينبغي على الكاتب أن يتصفح ما يخرج من الديوان من الولايات والمناشير والمكاتبات فإنه « إذ أزل الكاتب في شيء زل بسببه متولي الديوان ، بل السلطان بل الدولة بأسرها » ومعنى هذا أنه لا يجوز أن يلقب أحداً دون لقبه وإلا أنزله من مكانته وترتب على ذلك أمران أحدهما أن يستقر في الأذهان أن الدولة الصادر منها الكتاب لا تعرف مجريات الأحداث والأمور خارج حدودها وأنها تعيش في عزلة وثانيها أن مخاطبة المخاطب بلقب دون لقبه فيه حط من منزلته وما يترتب على هذا الخلط من تغير نفساني قد يؤدي إلى تراخ في العلاقات أو تؤثر فيها ، ثم إن لصاحب ديوان الإنشاء حق الدخول على السلطان حتى في أوقات لا يسمح فيها بالدخول لأحد عليه ، وله أن يأخذ في مثل هذه الحظات اثنين هما طارق الليل فشر ما جاء به ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة ، ورسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد علم سنة فليدخله عليه ولو كان في لحافه .

لم يبلغ ديوان الإنشاء في أي مملكة من الممالك الإسلامية مابلغه ديوان الإنشاء في الديار المصرية من حيث التنظيم وتعدد الوظائف واختصاص كل واحدة بعمل معين وتطورها في بعض الأحيان ، ونستطيع على هدى ما جاء في ثنايا صبح الأعشى أن نقسم هذه الوظائف إلى فترتين أولاهما ما كان سائداً فيها حتى بداية العصر المملوكي وثانيهما وظائف العهد المملوكي .

وبناء على ما يذكره القلقشندي فقد كان هناك في كلتا الحالتين صاحب الديوان وكان تحت إدارته في العهد الأول سبعة كتاب دونه منزلة وإن كانوا كلهم في الأهمية بالدرجة القصوى وهم :

١ - **كاتب يتولى الإنشاء من نفسه ويبدع في العبارة بقدر ما أتاحته له بلاغة اللغة وتمكنه منها وحفظه للأشعار والمؤثورات والحكم العربية وفوق كل ذلك وجوب حفظه للقرآن الكريم والأحاديث النبوية** فكان تلقي إليه الكلمة الواحدة والمعنى المفرد فيتولاه من حيث الصياغة وحسن التعبير ووضوح الفكرة والإطناب حيث ينبغي الإطناب وتضمين ما يؤيدها من آي الذكر الحكيم والاستشهاد بالأحاديث الشريفة والتمثل

بالأشعار الرائعة والحكمة البليغة ، أي أنه كان يتطلب فيه أن يكون مالكاً لمقاليد البلاغة والفصاحة قادراً بملكته البيانية على إدارة اللغة والألفاظ وفن التلاعب بالمعاني تلاعباً يمكنه من مدح المذموم وذم الممدوح ، ولم يكن ذلك بالأمر الذي يعاب عليه أو يقدح في مكانته ، بل كان – في كثير من الأحيان – ميزة يرقي بها إلى المكانة السامية والوظيفة الرقيقة والمنصب الجليل في الديوان ، **أما الثاني فكاتب يكتب عن السلطان واشترط فيه إلى جانب البلاغة أن يكون على دين مولاه وأن يكون « عالماً بقدر طبقة المكتوب إليه »** .

٣ – **وأما الثالث فكاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبرائها وولاتها ووجوهها من النواب والقضاة** ، وأن ينشيء تقليدات ذوي الخدم الصغار ، ويشترط فيه أن يكون كريم النفس عفيفها لا يقع تحت إغراء يدخله في تجربة توذي به إلى إفشاء سر أو التشدق بأمر قبل صدوره لأنه كما يقول القلقشندي يعلم بالوالي قبل توليه والمصروف قبل صرفه .

٤ – **وأما الرابع فكاتب يكتب المناشر** ، ولقد تطلبت كثرتها – لاسيما في الدولة المملوكية – كثرة عددية من الكتاب الذين يتولون هذا الضرب من الكتابة فيستقل كل واحد أو جماعة منهم بمجموعة خاصة وهذه الكثرة العددية تحتمها ضرورة توفير نسخ متعددة للنسخة الأصل مطابقة لها تمام المطابقة حتى في التنقيط والضبط بتعبير هذا العصر « مخلدة في الديوان ، لاتغادر المبيضة بحرف لتكون موجودة فيما لو احتيج إليها » .

٥ – **وأما الخامس فكاتب يبيض ما يبيضه المنشيء ، ويشترط فيه حسن الخط** (خطاط) .

٦ – **وأما السادس فكاتب تقتصر مهمته على النظر فيما قد كتب أي أنه أشبه بالمراجع** حتى يؤمن عثرات القلم وسهو البال من خطأ لغوي أو إعجام أو تصحيف أو سقوط حكمة أو حرف يغير المعنى أو حذف لفظه أو إضافتها مما قد يتبدل معه المقصود ويفسر الموضوع على غير وجهة والظاهر أنه كان يشترط فيه فوق كل شيء إتقان علم اللغة وحفظ القرآن والحديث .

٧ – **وأما السابع فكاتب يكتب التذاكر والدفاتر الخاصة بمتعلقات الديوان** ، وكان عدد أفراد هذه الطائفة كبيراً كما يستدل من تعدد المهام الموكولة إليهم ، شأنهم في ذلك شأن رجال الفئة السالفة وتنقسم وظيفة الكاتب منهم في هذا الضرب إلى أقسام لعل أهمها هو قيامه بوضع جزازات أو تذاكر منفصل بعضها عن بعض تشتمل على أهم ما يتضمنه كل كتاب من الكتب الصادرة من الديوان أو الواردة إليه أي أنه يستفرغ كل ما في الرسالة من أمور يفصل بعضها عن بعض فإذا احتيج لمسألة خاصة بذاتها أمكن العثور

عليها في يسر وسهولة ، وتكون لكل تذكرة علامة باسمها أي ذات عنوان شاملة لاسم مرسلها المصدرة إليه وعليها تاريخ المكاتبة .

ومن وظيفة الكاتب في هذه الطبقة أيضاً أن يضع دفتراً بالألقاب المختلفة ومراتب مخاطبة كل شخص وما يجب أن يدعى له به في السجلات والمكاتبات والمناشير والتوقيعات حتى لا يخاطب فرد بلقب غير لقبه عظم أو صغر هذا اللقب ، ففي كليهما حط من مكانته ومن مكانة الدولة ويشمل هذا الدفتر أوراقاً منفصلة ، فتكون لكل شخص ورقة خاصة به متضمنة تاريخه وألقابه ووظائفه وما أنعم به عليه من إقطاع وخلع . وتاريخ صرفه واسم من صرف به ، فإن ولي وصرف من يومه تضمنت الورقة الولاية والصرف وإن تعددتا ، وهذا يتطلب السرعة في إعداد هذه التذاكر ولا تقتصر على تذكرة . ومن ثم كان لنا أن تتوقع أن العمل في ديوان الإنشاء كان مستمراً ليلاً ونهاراً والغرض من هذا الدفتر أن يكون موجوداً لدى كتاب الإنشاء إذ لاتسع الذاكرة مهما كانت واعية أن تحفظ في دقة ما يتعلق بهذه الأمور ، وإذا كان كتاب هذه الطائفة كثيرين فقد وكل إليهم إلى جانب هذا كله وضع دفتر بالأحداث الجليلة مع ذكر تواريخها ، وليس من شك في أن المنفعة جليلة وهي عندي أشبه بالجزازات التي يدونها الباحث الحديث حين يجمع مادة من مختلف المراجع والمصادر الأصلية ، ومن ثم لا ينبغي عليه إن أراد كتابة بحثه إلا أن ينسق بين بعضها والبعض الآخر .

وليس من شك في أنه لو عثر اليوم على هذه الجزازات أو بعضها لأمكن التنسيق بينها وإلقاء ضوء كشاف على تاريخ مصر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحربي وعلاقات مصر بمختلف الدول حينذاك وفي هذا يقول القلقشندي : إنه لو جمع من هذا الدفتر وسابقه تاريخ لاجتمع .

ويقوم كاتب التذاكر أيضاً بعمل فهرست منفرد للكتب الصادرة والواردة يومياً وشهرياً وسنوياً مع ذكر ورودها وصدورها وخلاصة مضمونها فإن كان الأمر هاماً نسخه الكاتب بأكمله وسلمه على حده للخازن .

ويقوم الكاتب بعمل فهرست الإنشاءات والتقاليد والمناشير ويجري هذا الفهرست على حساب الشهور كل شهر على حدة ، فإذا حال الحول ودارت السنة استجد آخر على نحوه ، على أن هناك كتباً ترد على ديوان الرسائل المصري تكون بلسان غير العربية ، كالتركي والفارسي لذلك يوكل إلى فرد بارع في لسان المكتوب متمكن منه حاذق له بالقيام بترجمته إلى العربية (رواية برقوق) ، وإذ كانت هذه الرسائل غير العربية كثيرة فقد تطلب ذلك عمل فهرست لجمع هذه الأصول وترجمتها ويتضمن هذا الفهرست

محتويات كل كتاب واسم من قام بترجمته إلى العربية لتكون العهدة عليه ويكون لما جاء من فهم لترجمته مسئولاً .

هذه هي طائفة موظفي الديوان « من الكتاب » ونلاحظ فيها تكويناً هرمياً قمته صاحب الديوان وقاعدته طائفة كبيرة من الكتاب كل منهم حجر في هذا البناء ، على أنه يوجد إلى جانبهم في الديوان أيضاً وظيفتان هما :

١ – وظيفة الخازن الذي يؤتمن على حفظ كل المراسيم والمناشير والقرارات والمعاهدات ، وهذا **ما يعرف بالأرشيف في العصر الحديث** مصطلحاً ووظيفة ، وقد اشترطوا ألا يتم النسخ إلا في حضور الخازن وأن يكتب الكاتب أمامه ما يفيد اسم الجهة التي ورد منها الكاتب وتاريخ وروده وتاريخ الرد عليه ، فإن لم يكن ثم جواب عليه قالوا « أخذ الخازن على المنشور حط صاحب الديوان نفسه أنه لا جواب عنه » وذلك لتبرأ ذمته ولا يتهم في وقت من الأوقات أنه أخفاه أو يدعي أنه لم يعلم به .

٢ – أما الوظيفة الثانية فكانت وظيفة صاحب الديوان وهو الذي يتخذه صاحب الديوان نفسه حتى لا يصبح مكانه مجمعاً لك من أرد الدخول عليه ، فيصرفه ذلك عن تصريف مهام الأمور ومراجعة مختلف كتاب الديوان .

أما في القرن الثامن ومستهل القرن التاسع للهجرة فقد أصبح ديوان الإنشاء يتألف من طبقتين فقط هما :

١ – **كتاب الدست** ، وكانوا يجلسون بين يدي السلطان وتحت كاتب السر ، وقد بدأ هذا التنظيم زمن الظاهر بيبرس حيث جعلهم ثلاثة على رأسهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهذا مما يدل على سر مكانتهم لدى السلطنة على أن هذا العدد أخذ في الزيادة حتى إنهم بلغوا العشرة زمن الأشرف شعبان بن حسين ثم جاوزوا العشرين في أخريات أيام القلقشندي وقد أدت هذه الزيادة العددية إلى أن انخرط في سلك كتاب الدست جماعات ممن ليسوا بأهل لأن يكونوا بينهم .

٢ – **أما الفئة الثانية فتعرف بكتاب الدرج** ومهمتهم كتابة ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة الأمير أو الوزير أو الدوادار من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير وغيرها ، وقد نسبوا إلى كتابتهم هذه المكتوبات في الدرج وهو في عرف الوقت بنوع من الورق المستطيل المركب من عدة أوصال تبلغ العشرين وتكون متلاصقة ، وينفي القلقشندي إطلاق لقب الموقعين على كتاب الدرج ، وإنما يقول : أنه يجوز أن يطلق عليهم « كتاب الإنشاء » لأنهم

يكتبون ما ينشأ من المكاتبات ، ولقد كثر عددهم حتى بلغ مائة وثلاثين ، وإن يكن أبرعهم قد شاركوا كتاب الدست في التقاليد والتواقيع على أنهم لم يعودوا يهتمون بحسن اللفظ وبلاغة العبارة ، بل إنهم مهتمون بتلفيق كلام المتقدمين في بعض الظروف والأحوال .

فن كتابة المخطوطات وزخرفتها في تبريز وسمرقند في العصر التيموري :

احتفظت بغداد بمركز الزعامة في تجميل المصاحف وزخرفتها ، وظلّت محافظة على هذا المركز في العهد « الخاني » أيضاً . وقد تطور الخط الكوفي خاصة في بغداد إلى أعمال زخرفية كبيرة الحجم أمكن أن تصمد في وفرتها المعمارية للمقارنة بالمصاحف الكوفية القديمة المكتوبة على الرقوق . وكانت الأحرف تحشى بالذهب بصورة تنم عن الذوق في لوحات مشرشرة عائمة وتحلّى القاعدة غالباً بعرانيس زخرفية . أما الصفحات التي بها عناوين السور فازدادت تحليتها بمزج مناطق هندسية مختلفة مليئة بالنصوص والزخارف . وفي أواخر القرن الثامن الهجري انتقلت تلك الزعامة من بغداد إلى تبريز وسمرقند . وكانت لكل من هاتين المدينتين شهرة بالفعل في فن الكتاب الإسلامي فازداد طراز التجميل وفرة في التلوين وتعاظم فيض الزخرفة فوق أسطح الصفحات الفاخرة حتى إنها كانت تطغي أحياناً على الكتابة كل الطغيان . كذلك كان الفنان المسلم يتوسع في تشكيل رؤوس الفصول ومقرنصات الهوامش بحيث تعترض النص اعتراضاً بيّناً ، وتصبح زخرفة الكتاب شبيهة بفسيفساء القاشاني في القباب والإيوانات إلى حدّ يلفت النظر . وفي الحق أنه من الطبيعي أن كان المؤرخون يُستقدمون من البلدان المجاورة لرسم المشروعات الخاصة بتغشية المباني بالزخرف ، وأنهم كانوا يطبقون طراز التجميل المنشأ في نقابتهم على نماذج التغشية الخزفية في رسم مماثل .

وفي العهد التيموري نهض فن تجليد الكتب والمخطوطات نهضة هائلة وكان قد أدى إلى ذلك الحين أعمالاً باهرة . وقد ساعدت المخطوطات الفاخرة المشتملة على قصص الخيال الفارسي على ألسنة الطير والحيوان على تجويد عملية التذهيب والضغط وتفصيل الجلد الرقيق الشبيه بالمخرم للجلدة الداخلية تجويداً بلغ من أمره أن دخلت فيه الموضوعات المغولية المفضلة الخاصة بقصص الحيوان .

وقد كان الاتصال بأعمال فناني يوان الصينيين والمجاورة لسمرقند بمثابة دافع في تصوير المنمنات إلى تطور منتج متعدد النواحي ، ما كانت البدايات المتواضعة في مدرسة بغداد لتجعل أحداً يحرزه . ويظهر أن الذي أحدث هذا الاتصال في باديء الامر كثرة تصاوير

النبات والحيوان في بعض كتب التاريخ . ومن اليسير أن نتابع كيف تغلب عنصر شرق آسيا هنا شيئاً فشيئاً في تصوير المناظر الطبيعية والكائنات الحية ، وكيف سطا في عنف أحياناً وهدد بقلب الأوضاع الفنية جميعاً رأساً على عقب ، إلى أن روض بعد ذلك ثانية ، فاصطبغ بالصبغة الزخرفية الإسلامية . ثم كانت فيما بعد الطبعات الفاخرة لكتب الملاحم الفارسية المحبوبة وهي التي تطلبت قبل غيرها اجتهاد المصورين ، فسرعان ما رأيناهم يتبارون في إبداع تصاوير رائعة لأهم المناظر من شاهنامة الفردوسي وأشعار نظامي العاطفية في المجنون وليلى وخسرو وشيرين ، ونصوص أخرى كانت إذ ذاك محبوبة جداً . وقد تأثرت هذه الصور بالفن الصيني وخاصة في وصف المناظر الطبيعية الرومانسية الخلابة . وقد بعث على الدهشة أن كان هذا الشيء آخر ما سمع عن مدرسة بغداد في أواخر القرن الثامن الهجري (١٤ م) وقد أنتقل من ذلك الحين إلى المراكز التي يرجع إليها التطور اللاحق في شيراز وهراة . وقد اكتسبت عاصمة خراسان أهمية خاصة بفضل أكاديميتها الخاصة بفن الكتاب والتي أسسها بايسنقر أحد الأمراء التيموريين وكانت كثيرة الانتاج في نواح كثيرة . وتغلبت في فن الخط كتابة فارسية جديدة سلسة أبتكرها **مير علي التريزي** وأطلق عليها اسم خط « **النستعليق** » . ووجد هذا الخط في سلطان علي بمدينة مشهد خير من يؤديه في أروع مظاهره . وكذلك كان التصوير يطرد تقدمه سواء من ناحية التأليف أو من ناحية التلوين . وقد كان مما يصعب حل مشكلة الصورة على المصورين تصعيباً كبيراً متعمداً ، أن أسطر النص التي كانت تعطى لهم من أول الأمر ، تكتب غالباً بطريقة سريعة ، وكانت مراعاة المطابقة التامة بين الصورة والنص الذي تمثله هو أول مطلب جمالي في الكتاب . وهذا المطلب الذي يرمي إلى توحيد تأثير المرئي والمكتوب قد صانا فن التصوير الفارسي للكتاب من تعميق مساحة الصور باستخدام المنظر الأفقي كما حدث في الأقطار الغربية . وقد تعهدت سمرقند التي كانت تقف في المقدمة إلى جانب هراة ، تصوير مؤلفات العلوم قبل كل شيء . أما في بخاري فيبدو أن التصوير بالفرشاة في لمسات رقيقة مع لمسات طفيفة بالذهب كان محبوباً إذ ذاك . وقد كان لهذا أثر ملحوظ بعد ذلك في مدرستي التصوير الهندية والفارسية .

ويعتبر العصر التيموري في ايران عصراً ذهبياً لفن تحسين الخطوط . وذلك بفضل رعاية الأمير تيمور للخطاطين وشمولهم بعطفه ، وقد ظهر في هذا العصر ايضاً ، نوعان من الخط هما **الخط الديواني والخط الدشتي** . وصاحب هذا التقدم في الخط ، تطور في صناعة الورق والحرير ، واعتبرت مدن تبريز وهراة وأباد مراكز صناعية هامة في العالم الاسلامي لانتاج أنواع فاخرة من الحرير والكتان للكتابة وقد عنوا بصقلها وتلوينها

لتناسب ما يكتب عليها من قوانين وأوامر الدولة ومن أشهر الأنواع التي أنتجت في تلك المراكز الصناعية نوع يشبه المرمر في تموجاته وعروقه وتعاريجه الجميلة ونشأت تبعاً لذلك تجارة رائجة للرقائق المخطوطة بالكتابة القرآنية والأدعية والحكم . مما جعل الهواة يتسابقون لاقتناء اللوحات نظير مبالغ طائلة .

فن كتابة المخطوطات والمصاحف في العصر الصفوي بإيران :

كان فن الكتابة في العصر الصفوي متمماً لبدايته في الفترة المغولية عامة ومدرسة هراة خاصة ، فأصبحت تبريز مركزاً عالمياً لإنتاج المصاحف الخطية الفاخرة ، ومنها خرجت أبرع نماذج المصاحف المكتوبة بالخطين النسخ والثلث ، وأبرع الاطارات الفنية للأغلفة وبدايات المصحف بالزخرفة والتذهيب، مع ابتكار التقسيم لصفحات المصاحف بالعناوين إلى مناطق منظمة بأطباق نجمية أو دلايات جامات الخراطيش وما إليها . وتأثرت بهذه المهارة في الرسم الزخرفي فنون أخرى في مقدمتها زخارف السجاد . وبقي نموذج المصحف المبتكر هناك مثلاً يحتذي في فارس وتركيا والهند حيث استقدمت لذلك في القرن السادس عشر خطاطين ومزخرفين من تبريز . وفي الوقت نفسه قامت نهضة في كتابة النصوص غير الدينية وزخرفتها ، مثل : الشـاهنامة وأشعار نظامي وجامي وغيرهما . وأسفر تعاون الخطاطين والمصورين عن إنتاج كتب غاية في الجمال . منذ ذلك الحين بدأ الاهتمام الشديد بجمع منتجات أساتذة خط **النستعليق** مثل سلطان علي المشهدي ، ومير على التبريزي الكاتب .

وكان للمجلدين شأن كبير في المخطوطات الدينية وغيرها ، وأنتجوا في التذهيب أعمالاً تفوق منتجات العهود التي سبقتهم وأدى استعمالهم القوالب إلى إشاعة . الجمال في أغلفة الكتب كما عالجوا تخريم الورق لتحلية الصفحات الداخلية ببراعة ، واستعانوا بطريقة اللاكيه لتزيين دفتي الكتب وفي الثلث الأخير من القرن الخامس عشر برزت أعمال **بهزاد** العظيم ، والتي تمثل تحرر مصوري رسم المصغرات من الطريقة المغولية وتأسيس طراز وطني مستمد من الواقعية السليمة . للوصول إلى طرز ثقافية عامة . وعمل بهزاد في القصر الملكي من سنة ١٥٠٦ حتى سنة ١٥٢٠ م . وكان يعاين بنفسه المواد والخامات التي تستخدم في صناعة الكتاب ، ولعله كان يفضل التآليف التي تشغل الصفحة كلها أو الصفحتين . ومن قبله كان الخطاطون يرسمون الماكيت للمصورين . وامتاز بهزاد بالتركيز على التصوير الطبيعي غير المتكلف والاستعانة بالألوان المتعددة المتدرجة لإبراز الفروق الطبيعية بين ملامح الوجوه . وقليلة هي الصور التي رسمها بيده ، ولكن هناك عشر

لوحات من القرن السادس عشر تحمل اسمه بغير حق . وقد جاوزت شهرته فارس ، ونبغ من تلاميذه كثيرون نهجوا نهجه في تصوير الكتب وفي كتابة وتصوير دواوين الشعراء . وابتدع بعضهم مناهج جديدة مثل **سلطان محمد** ، مدير الأكاديمية في عهد الشاه تاهماسب ، الذي أحرز نفوذاً كبيراً ، وأدخل عادة اقتناء (الألبومات المصورة) والتي تضم عادة نماذج المخطوطات أو الرسوم والصور المصغرة لكبار الفنانين .

ومنذ ذلك الحين تطورت مهمة الرسامين ، وقل اشتغالهم برسم المشاهد القصصية ، بينما زاد اهتمامهم بدراسة الصور والأشخاص (البورترية) في مناسبات بعينها . وكذلك في الموضوعات المستوحاة من الطبيعة . وأصبح وصف واقع الحياة هو المبدأ الفني النسائد في مدرسة أصفهان على يد الفنان المصور **رضا عباس** ألمع شخصياتها . وكان بارعاً ودقيقاً في تحريك فرشاته ، كما أنه من حيث اختيار موضوعاته وأمانة نقلها في تخطيطات سريعة يعتبر من القلائل الذين وصلوا إلى ما وصل إليه أساتذة الفن في هولنده خلال القرن السابع عشر ، كما كان للاهتمام بالفن الأوروبي في عهد الشاه عباس الكبير أثر في التطور في ذلك العهد .

الكتابة والتصوير في كتب العلم والأدب والدين والتاريخ :

لقد خيل للكثيرين أن التصوير من النواحي الفنية التي لم يعني بها العرب، ولكن الواقع بخلاف ذلك ، فلقد عرف العرب تصوير الأحياء ، وزاولوه ، وغزوا به جميع فروع الفن الاسلامي ، وتجلت عبقريتهم بنوع خاص في المخطوطات ، فلقد شغفوا بتزيين كتب العلم والأدب والدين والتاريخ بصور توضح وتفسر بعض ما تتضمنه من بحوث وحوادث وبما تحويه من تعليقات مكتوبة حول الصورة أو فوقها أو تحتها ، وطبيعي أن تكون الصور الدينية نادرة في الفن الاسلامي نظراً لما أحاط بموضوع التصوير ومزاولته من شكوك ، ولكننا مع ذلك نجد صوراً مختلفة بعضها يصور الملائكة مثل صورة اسرافيل وهو ينفخ في العصور وبعضها يعطينا فكرة عن حياة رجال التصوف والزهاد والفقهاء ، وعن مجالسهم وحضارتهم وذكرهم . بل الكثير من المخطوطات مزدانه بصور توضح بعض ما يذكره المؤلف خاصة في الفلك وعلوم النبات والحيوان .

أما الصور التي تمثل الحياة الاجتماعية فكثيرة لا يحصيها العد ، منها مناظر في الهواء الطلق تجلو علينا جمال الطبيعة بألوانها الساحرة ، وأزهارها الباسمة وأشجارها الباسقة ، وجبالها الشاهقة ، وأنهارها الجارية ، وسمائها الصافية وسحبها المتراكمة ، وفيها صور تمثل الصيد والمصارعة ،وصور تمثل القصور بأثاثها الفاخر وبما يجري تحت سقفها من مجالس

الأنس والشراب ، ومناظر الشباب . هذا يقرأ في كتاب وهذه تتزين في المرآة ، وهذا يمط شفتيه وهذه تسبح في الخيال ، وهذا متكيء على سفينة وهذه تفتح ذراعيها لاستقبال طفلها ، وهؤلاء جماعة يشتغلون ببناء مسجد .

وأما الصور التي تفسر وتوضح موضوعات علم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم الحيل أو بعبارة أخرى علم الحركة كما نسميه بتعبيرنا الحديث فنجدها في المخطوطات التي تتناولها هذه الموضوعات وهي موزعة بين متاحف العالم ومكتباته ويكفي أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل للجزري ، وكتاب عجائب المخلوقات . للقزويني وكتاب الأدوية للعالم المشهور رشيد الدين الصنوري الذي بين فيه كيف ينبغي أن تكون عليه كتب العلم حتى يمكن الاستفادة منها ، فهذا الكتاب الذي يتناول جانباً من علم النبات كان مزداناً بصور توضح مادته ، فقد كان رشيد الدين يصطحب معه مصورا يحمل الاصباغ على اختلافها وتنوعها ، ويتوجه معه إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ، ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها ، ثم أنه سلك في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك أنه كان يرى النبات للمصور في إبان إنباته وطراوته فيصوره ، ثم يريه اياه وقت ذواه ويبسه فيصوره ، فيكون الدواء كنبات يشاهده الناظر إليه في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه به في الأرض فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين . وهذا ما يعرفه العلماء المحدثين بعلم الشكل الظاهري Morphology .

وكتب التاريخ مثل « تاريخ الطبري » وكتاب « جامع التواريخ » للوزير رشيد الدين . وكتب الأدب مثل « مقامات الحريري » و« كليلة ودمنة » و« شاهنامة الفردوسي » و« بستان سعدي » و« قصائد نظامي » ، كانت هذه الكتب وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره معيناً لا ينضب يستمد منه المصورون المسلمون على اختلاف اجناسهم من عرب وفرس وهنود وترك ، الوحي في أعمالهم الفنية . فالصور التي تمثل مغامرات ابن زيد السروجي في مقامات الحريري ، وتلك التي تصور قصة « خسرو » وشيرين وقصة « مجنون ليلى » ، وقصة سيدنا يوسف ، كلها في الحقيقة أمثلة جميلة تنطق بأن المصور المسلم قد استطاع بريشته أن يعطينا صوراً رائعة للحياة والنظم الاجتماعية في طبقات المجتمع الانساني في البيئات المختلفة ، ولعل من أروع هذه الصور ان لم يكن أروعها جميعاً تلك التي تمثل محاولات زليخة للايقاع بسيدنا يوسف التي صورها « بهزاد » أشهر المصورين المسلمين جميعاً والتي نستطيع أن نستمتع بمشاهدتها في معرض الكتب المصرية بالقاهرة في مخطوط « بستان سعدي » فلقد حرصت زليخة على الايقاع بهذا النبى

الجميل الذي شغفها حباً فأمرت - كما يقول سعدي - ببناء قصر به بسبع غرف لكل واحدة منها باب يفتح على التي تليها وفي الغرفة الأخيرة من الداخل علقت صورة لها وقد ارتمت بين ذراعي يوسف ، وقد خيل لها غرامها أنه متى جاء يوسف وغلقت الأبواب وراءه وانتهى الى هذه الغرفة الأخيرة ورأى ذلك المنظر وقع في غرامها ولم يملك إلا أن يستجيب لرغبتها ، ولكنها نسيت أنه من المخلصين لله ، يصرف عنه السوء والفحشاء فما كاد يفطن لحيلتها حتى انصرف إلى الله يدعوه بقلبه فانفتحت الأبواب المغلقة ونجا من زليخة ، وقد استطاع بهزاد بريشته أن يتفنن في تصور تلك المشاهد الراوية لهذه القصة .

ولقد أقبل الكثيرون من المصورين على تقليد أعمال بهزاد بل وعلى تزوير توقيعه على الصور مما جعل التعرف على أعماله الحقيقية أمر ليس باليسير ، وقد كان يعيش هذا المصور في بلاط الشاه اسماعيل الصفوي سلطان ايران الذي كان يعتز بهذا الفنان ويحرص عليه حرصه على أغلى شيء في ملكه ، ويقال أنه عندما نشبت الحرب بين هذا السلطان وبين الأتراك العثمانيين سارع فوضع مصوره العظيم في كهف سري لا يفطن إليه أحد ، ووضع معه الخطاط المشهور **شاه محمود نيسابوري** ،وعندما انتهت الحرب كان أول شيء اتجه إليه هو الاطمئنان عليهما .

وقد خطا التصوير الاسلامي بين يدي بهزاد خطوات واسعة نحو النضوج ولعل من أهم ما يذكر له أنه كان يحرص في صوره على أن تترجم أسارير الوجه عن الحالة النفسية التي يعانيها أشخاص صوره بطريق تأسر اللب وتؤثر في النفس .

ويأخذ فريق من مؤرخي الفن على التصوير الاسلامي وقوفه عند حد توضيح النصوص وينكرون عليه نضوجه الفني . أما عن المأخذ الأول فانهم ينسون أن التصوير الأوربي إنما سار من قبل في نفس هذا السبيل فكان في أول أمره توضيحاً للأساطير اليونانية والرومانية ، وتوضيحاً لما جاء في التوراة والانجيل من قصص وحوادث . وأما عن المأخذ الثاني فانهم يحاولون الحكم على التصوير الاسلامي بما يرونه في التصوير الأوربي من اتجاهات فنية ، وهم في ذلك جد مخطئون لأن لكل من هذين الفرعين من التصوير فلسفته ، ولكل منهما مميزاته وخصائصه . ومن أبرز مميزات التصوير الاسلامي عامة عنايته الشديدة بالألوان بل افراطه في ذلك افراطاً ملحوظاً مما يبعث في الصور احساس بما لها من سحر عجيب ، ومن مميزاته ايضا عدم خضوعه لقواعد المنظور كما أصطلح عليها في التصوير الأوربي فتبدو الصورة الاسلامية وكأنها في مستوى واحد ، ومنها أيضاً عدم عنايته بتوزيع الضوء والظل ، وإبعاد الصور الاسلامية عن ظاهرة التجسيم الذي نراه في الصور الغربية ، ومنها كذلك عدم الدقة في مراعاة النسب الطبيعية في رسم أجزاء الجسم

الانساني أو بعبارة أخرى عدم مراعاة أصول التشريح . هذه الخصائص التي نلاحظها في التصوير الاسلامي هي التي أعطت لهذا التصوير طابعه الخاص وميزته عن غيره .

وهي التي تترجم في الواقع فلسفة الفن الاسلامي عامة ، تلك الفلسفة التي تهدف الى تجميل الحياة لا الى تخليدها ، ومن هنا لم يحرص الفنان المسلم على تمثيل الطبيعة تمثيلاً صادقاً كما هو الحال في الفنون السابقة عليه التى نسج على منوالها الأوروبيون فيما بعد ، بل جعل كل همه إلى التجميل والتزيين ، وهذا يتحقق بالنقل عن الطبيعة نقلاً صادقاً كما يتحقق كذلك بالتصرف في رسم ما ينقل عنها أو في تهذيبه أو تحويره ، والتصرف والتهذيب والتحرير من مظاهر العبقرية الفنية من غير شك لأن الفنان يكون حينئذ قد تجاوز مرحلة النقل والتقليد إلى مرحلة الابداع والابتكار ، ويخطىء من يظن أن ما يراه في التصوير الاسلامى إنما مرده إلى ضعف في قوة الملاحظة أو نقص في القدرة الفنية . وهذا التصوير إنما قام في مرحلته الأولى على التقليد فاتخذ من الصور المسيحية التي صورها اليعاقبة أو النساطرة . ومن العصور الفارسية التي صورها اتباع مذهب مانى . نماذج له سار على هديها وحرص على تقليدها في صورة فبدت في الصور الاسلامية ، التي ترجع الى المدرسة التي أصطلح مؤرخو الفن الاسلامي على تسميتها بمدرسة بغداد ، كثيراً من مظاهر تلك الصور نذكر منها على سبيل المثال الهالة أو أكليل النور التي نراها في التصوير الاسلامي حول رءوس الشخصيات الهامة وكانت ترسم من قبل حول رءوس الأنبياء والقديسين ، ثم أخذ يشق طريقه هو في سبيل النضوج والتطور فتجلت خصائصه التى ذكرناها من قبل والتي نلمسها في صور بهزاد وفي صور غيره من المصورين المسلمين ،

التجليد :

عندما انتقل الكتاب من صورة الملف إلى الصورة التي هو عليها الآن كان من الطبيعي أن تظهر الحاجة إلى غلاف يمسك الصفحات المختلفة بعضها الى بعض ، ويحفظها من التلف أو الضياع فظهر التجليد منذ أن استعمل البردي والرق والورق على هيئة صفحات مستقلة عن بعضها ، أما هيئة الملف القديم فكان يكتفى فيه بجعل اللصق الأول سميكاً لكى يحفظ باقي الملف عندما يدور حوله .

وقد كان التجليد أول أمره يقوم على لوحين من الخشب تثبت بينهما صحائف الكتاب ، ثم ارتقى الناس بهذه الألواح ، فبعضهم زينها بأشرطة من طلاء الذهب أو الفضة ، وبعضهم غطاها بصحائف من هذين المعدنين النفيسين وقد رصعت هذه الصحائف في بعض الأحيان بالأحجار الكريمة ، وقد كان طبيعياً أن تضيع معظم الأغلفة

التي من هذا القبيل لطمع الناس في ذهبها وفضتها وأحجارها النفيسة . وبعض الناس غطى الخشب بالجلد ، ثم استبدلت ألواح الخشب بألواح مصنوعة من أوراق البردي قد أحكم لصق بعضها الى بعض حتى أصبحت كأنها الورق المقوى (الكرتون) ، وكسيت ألواح البردي بالجلد . وقد كان هذا الكرتون يصنع عادة من الأوراق البردية القديمة وكثيراً ما كانت تحتوي هذه الأوراق على معلومات تاريخية واجتماعية قيمة وقد اتجه بعض علماء البردي بالفعل إلى هذه الجلود البردية وأخذوا ينزعونها في حذر وفي دقة شديدة بعضها عن بعض ، توصلا إلى مافيها من معلومات تكشف عن الصورة الحقيقية للعصر الذي كتبت فيه .

وهذا الجلد الذي استعمل في تغطية الخشب أو الكرتون المتخذ من البردي قد سلك الناس في سبيل زخرفته مسالك شتى، وكان للعرب فضل ابتكار طرق كثيرة في الباس هذا الجلد حلة قشيبة من الجمال الفني من أهمها طريقة الضغط.وتسمى عند أهل الصنعة بطريق الدق ، وطريقة التخريم ، وطريقة التقطيع . أما طريقة الضغط فكانت تؤدي عادة بآلة بسيطة تحمي بالنار ويضغط بها على الجلد فتظهر فيه أشكال بارزة تمثل عناصر زخرفية مختلفة ، ويترتب على هذه الطريقة عادة أن يبقى سطح الجلد العلوي حافظاً للونه الأصلي بينما يكتسب السطح المضغوط لوناً غامقاً من أثرالضغط . وطريقة التخريم قوامها استعمال طبعتان من الجلد تلصق أحدهما فوق الأخرى ، وتخرم الموضوعات الزخرفية في الطبقة العليا قبل لصقها . وطريقة التقطيق ملخصها أن تقطع الزخرفة في الجلد ثم يلصق هذا الجلد الذي قطعت فيه الزخرفة على قماش ملون وفي بعض الأحيان تقطع الزخارف في جلد أبيض رقيق يلصق فوق قماش أسود فيبدو غلاف الكتاب وكأنه قد زين (بالدنتلا) . وأهم الزخارف التي استعملها العرب في تزيين جلود مخطوطاتهم بالوسائل سالفة الذكر هي الرسوم الهندسية ، والعناصر النباتية ، والصور الحيوانية والآدمية ، والمناظر الطبيعية ، والزخارف النجمية ، وكثيراً ما كانت تتوسط جلدة الكتاب صرة أو جامة ، كما أصطلح على تسميتها بعض مؤرخي الفن الاسلامي مملوءة بالفروع النباتية أو الرسوم الهندسية الرائعة ، ويحتل كل ركن من أركان هذه الجلدة ربع هذه الصرة أو شكلاً قريباً ، فيبدو الغلاف كله وكأنه لوحة سجادية جميلة من الطرز الشرقية القديمة . ويقال أن بعض أنواع سجاد الشرق في العصور الوسطى ، وبعض الأبواب الخشبية المصفحة بالنحاس التي شاعت في مصر في العصر المملوكي قد استمدت تصميمها من جلود المخطوطات المزينة بهذه الطريقة . والواقع أن المصورين كانوا أكبر عون للمجلدين فيما يحتاجون إليه من زخارف ، والمزخرفين أنفسهم كانوا يمدونهم بالنماذج الرائعة للأشكال الحيوانية والزخارف النباتية والهندسية التي يستفيدون بها في عملهم .

ولقد ظهرت في جلود المخطوطات الاسلامية ظاهرة لم تكن معروفة من قبل هي « اللسان » الذي كان يطوى لحماية الأطراف الأمامية للكتاب ، وقد أخذ الأوربيون هذا « اللسان » عن المجلدين المسلمين ، كما أخذوا عنهم أيضاً الزخارف سالفة الذكر والطرق التي اتبعت في عملها ، ولا يزال « اللسان » موجوداً في بعض الجلود الأوربية مما يذكرنا اليوم بما أسداه أجدادنا بالأمس للغربيين .

ولم تكن العناية بزخرفة باطن جلود المخطوطات وألسنتها بأقل من العناية بأجزائها الظاهرة للعيان،إذ بذل الفنان المسلم جهداً واضحاً في سبيل تزيين هذه الأغلفة حتى بدت قطعاً من الفن الجميل ، والواقع أن تزيين الأجزاء الخفية سواء في الأغلفة أو في غيرها من المنتجات الفنية الاسلامية ليكشف لنا عن **ميزة امتاز بها الفنان المسلم في العصور الوسطى هي أنه أحب الفن للفن ، ولم يهدف من وراء عمله الفني إلى إرضاء الناظر إلى عمله ، بقدر ما كان يهدف إلى إرضاء حاسة الجمال في نفسه** . ولقد عنى أجدادنا في العصور الوسطى بفن التجليد عناية كبيرة وبذلوا في سبيل تجليد مخطوطاتهم الأثمان الغالية . ولقد وصلت إلينا أمثلة عدة من جلود المخطوطات موزعة بين المتاحف المختلفة في المغرب وتونس والمتحف الاسلامي ومعرض دار الكتب المصرية في القاهرة .

التذهيب :

رأينا حتى الآن كيف انتقل الكتاب من يد الوراق إلى يد الخطاط لينسخه ، ثم إلى يد المصور ليفسر نصوصه برسومه وبصوره الجميلة ، ثم الى يد المجلد لكي يعمل بدوره على حفظ تلك الأوراق التي ازدانت بالخط الجميل وبالصور الرائعة فيصنع لها غلافاً مزخرفاً يزيدها جمالاً على جمالها فإذا ما انتهى من عمله دفع بالكتاب إلى المذهب لكي يقوم بتذهيبه .

والتذهيب عامة طريقة قديمة من طرق التزيين عرفها المصريون القدماء كما عرفها الرومان والبيزنطيون الذين استعملوا التذهيب في تزيين المخطوطات .

وأغلب الظن أن العرب قد ورثوا تذهيب الكتب عن البيزنطيين بين ما ورثوه عن رجال تلك الدولة من نواحي الحضارة ، ولكنهم لم يجمدوا عند حد ما تعلموه منهم بل نراهم قد توسعوا في استعماله عن ذي قبل ، فلم يعد التذهيب قاصراً على تزيين صفحات الكتاب بل أصبح يستعمل في غلافه .

وأهم المواد التي كان يحتاج إليها المذهب في عمله هي طلاء أو مداد الذهب « أي المحلول المكون من برادة الذهب والماء والصمغ وعصير الليمون . كما يقول القلقشندي في

صبح الأعشى ، وصفائح الذهب الرقيقة التي كان يستعملها في زخرفة الجلود . ثم حجر اللازارد الذي استخدمه في عمل اللون الأزرق والواقع أن اللونين الذهبي والأزرق كانا أحب الألوان إليه ، وكان ما عداهما من الألوان إنما يستخدم لابراز جمال هذين اللونين .

ويكون التذهيب في صفحات الكتاب باستعمال مداد الذهب في الكتابة أو في الزخرفة أو فيهما معاً .

والكتابة بمداد الذهب كانت معروفة في الشرق قبل الاسلام كما ذكرنا آنفاً ، ولقد ثار رجال الكنيسة على أولئك الذين كتبوا الكتاب المقدس بهذا المداد ولم يستعمل المسلمون مداد الذهب في كتابة ألفاظ القرآن الكريم تقشفا واكتفوا باستعماله في كتابة فواصل الآيات وفواصل السور ورسم الزخارف المختلفة سواء في أول المصحف أو آخره أو في هوامش صفحاته . على أننا مع ذلك نلاحظ وجود مصاحف قليلة في معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة قد كتبت كلها بمداد الذهب من أهمها مصحف قلاوون ، ولكن ينبغي أن نذكر دائماً أن هذه المصاحف قليلة جداً بالنسبة لغيرها من المصاحف المكتوبة بالمداد الأسود ، وأن هذه القلة ليس مرجعها فقط إلى ارتفاع تكاليف عمل مثل هذه المصاحف المذهب بل أغلب الظن أن للشعور الديني دخلاً في ذلك . ولقد كانت الزخرفة هي المجال الذي تجلت فيه براعة المذهب وقدرته على استخدام اللونين الذهبي والأزرق وغيرهما من الألوان بمهارة فائقة تنتزع الاعجاب من كل من يراها ، فالصفحتان الأولى والثانية من المصحف وكذلك الصفحة أو الصفحتان الأخيرتان منه هي في الواقع لوحات فنية بكل ما يحتمله هذا التعبير من معني : فيها التنوع بين الألوان ، وفيها أيدي الصناع الماهرة ، وفيها الفكرة الكامنة ، وفيها التوازن والانسجام فمرآها يسحر العين ، وزخرفها ترتاح له النفس ، تصميمها يثير التفكير ويبعث على التأمل . وفي معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة مصحف كبير الحجم (٥٠ × ٤٠ سم) كتب في القرن الثامن الهجري (سنة ٧١٣ هـ/١٣١٣ م) يعد في الواقع مثالاً رائعاً لفن التذهيب بل يعد من أروع أمثلة فن الكتابة ، فمن أية زاوية جئناه رأينا الفن الجميل ممثلاً أحسن تمثيل ، يتجلى في التذهيب ، ويتجلى في الخط ، ويتجلى في الزخرفة على اختلاف أنواعها من رسوم هندسية إلى أشكال نجمية إلى زخارف نباتية لاسيما تلك التي اصطلح مؤرخو الفن على تسميتها بالأرابسك أو زخرفة التوريق ، ويتجلى كذلك في التجليد . ومن أروع أمثلة التذهيب ايضاً الصفحات الأولى من مخطوط « بستان سعدي » الذي سبق أن أشرنا إليه عند كلامنا على التصوير .

وتلك الصفحات الموجودة في متحف المتروبوليتان التي أصلها من مخطوط « عجائب المخلوقات » للقزويني التي نرى فيها زخارف رائعة من أهمها صور الملائكة والطيور

والحيوانات الخرافية . وقد رسمت ملونة بدرجات مختلفة من الألوان الذهبي والأبيض والأحمر والأخضر وهذه الألوان محددة باللون الأسود .

أما التذهيب في جلود المخطوطات فيقوم إما على وضع صفائح رقيقة من الذهب فوق الجلد ثم تثبيتها بواسطة الضغط عليها بآلة ضغطاً شديداً ، وقد اشتهرت مدينة قرطبة بالأندلس بهذه الطريقة ومنها تعلمها الأوربيون ، وإما يكون بملء الأجزاء المنخفضة في الجلود ذات الزخارف البارزة باللون الذهبي ، وقد وصلت هذه الطريقة إلى البندقية من الشرق وحذقها البنادقة وأذاعوها في أوربا .

ويعتبر التذهيب من أرفع فنون الكتاب ، وكلمة « مذهب » كانت من الكلمات التي يحرص الفنان على اضافتها إلى نفسه فخراً بعمله .

وبعد .. فقد بلغ العرب في فن الكتاب أسمى درجات الاتقان وأروع مراتب الجمال والواقع أن الانسان وهو يتأمل مخطوطاً من مخطوطاتهم الفنية التي سطروها في العصور الوسطى لا يدري موضع الجمال فيه ، أهو رشاقة الخط أم جمال الزخرفة أم روعة الصور أم إتقان التجليد أم سحر التذهيب والتلوين أم هذه مجتمعة ؟؟

الخط العربي وأهل التجويد

ارتبط الخط الجميل على مر العصور الاسلامية بحفاوة الأمراء والملوك والسلاطين ، ونال الخطاطون تقديرهم واجلالهم في المجتمع العربي الاسلامي ولقد تميز الخطاط العربي بيد قوية متزنة مطواعة ، وخيال خصب مبتكر ، وروح متحمسة لدرجات الكمال ، ومثابرة على الاجتهاد والتحسين ، في صبر وأناة بالغين ، يقوي كل ذلك الاحساس بقدسية الأحرف المكتوبة ، والاعتزاز والفخر بجلائل الأعمال في المساجد والعمائر والتحف ، وتشجيع من أفراد ومجتمع يقبل على انتاجه ، ويقدر مجهوده ، ويتذوق فنه ، وبلغ من اعتزاز كبار الخطاطين بعملهم أن كان حرصهم على التوقيع على تلك الأعمال من الأمور الهامة .

ولقد بلغ كثير من الخطاطين المسلمين مستويات عالية في الأداء الفني وأظهروا في مجال تحسين وتجويد الخط مهارة تدعو إلى الدهشة والتقدير وحققوا أعمالاً تبلغ حد الاعجاز لمن احترفوا تلك المهنة . فما بالنا بمن يهوون التأمل والرؤية الجمالية في تلك الخطوط وما ينتابهم من شعور واحساس بدرجات التفنن والاعجاز التي يصعب على الانسان وصف تجلياتها .

وطوال العصر الحديث اعتبر الخطاط في المجتمع العربي والاسلامي أحق أرباب الصناعات والفنون الاسلامية بمعنى الفنان ، وأقربهم إلى الفكر لأنه يكتب ويجود كتاب الله وسنة رسوله – كما أنه لا يألوا على نفسه جهداً في كتابة مأثور الكلام وعذب الحديث شعراً ونثراً .. كما يكتب خلاصة ما توصل إليه الفلاسفة والحكماء وأهل الشورى بل ربما كان الخطاط هو الفنان الأكثر تكريماً وإجلالاً ، سواء عند العامة أو الخاصة أو عند رجال الفكر ورجال الدين والدولة ، وكان بعض الأفراد يجلون الخطاطين حتى أنهم كانوا يحملون لهم المحابر أو يمسكون لهم الشمعدان للانارة أثناء الكتابة .

ومن وصل إلى منصب الوزير من الخطاطين ابن مقلة الذي تبوأ الوزارة مع ثلاثة من الخلفاء ، كما أن شيوخ الاسلام في تركيا كان كثير منهم خطاطين .

وكما زاول كثير من ذوي النفوذ والسلطة الخط على سبيل الهواية أو الاحتراف ، واعتبر توفيقهم في ذلك تشريفاً لهم وفضلاً من الله عليهم ، ولقد ذكر لنا التاريخ أسماء كثير من الخلفاء والسلاطين والوزراء وغيرهم من الذين عنوا بمزاولة هذا الفن الجميل ، أو الحرص على رعاية أهل التفنن من الخطاطين واقتناء النماذج الجميلة من أعمالهم مثل المستعصم بالله والحاكم بأمر الله وشاه جيهان والسلطان عبد الحميد وغيرهم .

ومن ثم فلا عجب أن حظى الخطاطون دون غيرهم من الفنانين الاسلاميين بقسط وافر من عناية الكتاب فذكرهم الشعراء وأفردت لهم الكتب والفصول التي تناولت الكلام عن حياتهم وأخبارهم ومدارسهم ، وأشادت بمواهبهم وتحدثت عن أساليبهم وتجديدهم في مجال الخطوط ، وتغنت بما وهبهم الله من ذوق راق وفن جميل . ومن أمثلة ذلك كتاب رسالة الخط المنسوب ، وألفية زين الدين شعبان الآثاري « وتحفة خطاطين » لسليمان سعد الدين و« مناقب هزوران » لمصطفى الدفتري المعروف بعالي الشعر ، والخطاطون والمصورون للقاضي أحمد بن النديم ، ورسائل اخوان الصفا « وصبح الأعشى للقلقشندي ، وكشف الظنون » و « أدب الكاتب » وعيون الأخبار ونهاية الإرب .

ولقد كان الخطاط هو الفنان الأول والرئيسي بين فناني اخراج المخطوطات والكتب ، ويليه في المرتبة المذهب فالمزوق فالمصور فالمجلد ، وكان الخطاط في معظم الأحيان هو الذي يقوم بالكتابة أولاً ، ثم يحدد للباقين أعمالهم بعد ذلك ، كما كان الخطاط يجمع إلى فنه في كثير من الأحيان اتفاق فنون الكتاب الأخرى كفنون نابعة من الخط ومساعدة له . وفي كثير من الحالات كان المخطوط أو الكتاب يشتمل على توقيع الخطاط أو ذكر اسمه تفصيلاً وتاريخ الكتابة باعتباره من منجزات الفنان ، وأحياناً باعتباره أحق المنفذين لاعداد المخطوط بالذكر ، ومن أمثلة ذلك نسخة مخطوط من مقامات الحريري مؤرخة ٦٣٤ هـ

(١٢٣٧ م) أقتصر فيها على ذكر اسم ناسخها يحيى بن محمود الواسطي[١] .

وأسهم الخطاط العربي في اخراج معظم التحف الاسلامية سواء في مجال العمارة أكبر مجالات الفنون التطبيقية للفنون أو الفنون التشكيلية الأخرى إذ لم يقتصر عمل الخطاطين على كتابة الصحائف والمخطوطات والورق ، بل امتد إلى الكتابة على التحف الفنية بواسطة التلوين والترصيع والتكليف والحفر ، سواء في الجص أو الخشب أو الحجر أو غير ذلك من مواد البناء والزخرفة وقلما تخلو تحفة من عمل الخطاط العربي .

الوظيفة التسجيلية للخط :

كان للخط بالنسبة لمنتجات الفنون الاسلامية المختلفة دور تشجيلي هام ، على مستوى عال ، من حيث القيمة الأثرية التاريخية والعلمية : ذلك أن العبارات المكتوبة على أثر أو التحفة قد تتضمن اسم الصانع ومكان الصناعة والتاريخ واسم من عملت له التحفة ووظائفه وألقابه وبعض الأدعية والمراسيم والأوامر الادارية والألفاظ اللغوية والمصطلحات ، وغير ذلك من الحقائق التاريخية المهمة التي قد تلقي الأضواء على بعض المظاهر الاجتماعية وعلى الأساليب الفنية وتطورها .

كما أن أسلوب الخط نفسه قد يفيد بدوره في التعريف بالأثر وتحديد عصره ومكان صناعته : وذلك لأن الكتابة على التحف والأثار كان يتولاها في معظم الأحيان خطاطون يكتبونها حسب القواعد السائدة في عصرهم وقطرهم .

الوظيفة الفنية والزخرفية للخط :

أعار الخط العربي — بوصفه الفن الاسلامي الأصيل — إلى كل الفنون الاسلامية المختلفة طابعه الجمالي القائم على التناسب بين النقطة والخط ، ومن ثم تميزت الفنون الاسلامية في الدرجة الأولى بالطابع الزخرفي الذي يعتمد بصفة أساسية على الخط والنقطة وحسن التناسب بينهما .

ويتضح أثر الخط العربي بجلاء في الزخرفة الاسلامية : إذ تأثرت الوحدات الزخرفية الاسلامية بأشكال أحرف الهجاء وطريقة كتابتها حتى أنه تمتزج أحياناً حروف الخط بالوحدات الزخرفية الأخرى من نباتية وهندسية وحيوانية حتى يصعب التمييز بينها .

---

(١) محفوظ بالمكتبة الأهلية في باريس .

ودخلت حروف الهجاء في الخط بوصفها عنصراً زخرفياً هاماً في منتجات الفنون الاسلامية المختلفة وذلك لما له من ميزة زخرفية واضحة . ويتأكد هذا الدور الزخرفي إذا لاحظنا أنه في بعض الأحيان كانت التحف المختلفة تشتمل على حروف وألفاظ عربية لا معنى لها ، كما أن الكتابة كانت تصل أحياناً أخرى إلى درجة من الغموض بحيث يصعب قراءتها على غير المتخصص ، ويتعذر أحياناً أخرى على دارس الكتابات الأثرية القراءة والتفسير ، ومن ثم نجد أن دور الكتابة كان يقتصر في هذه الحالات على الزخرفة فقط . ولاشك أن الخط في كثير من الأحيان كان يمثل أهم العناصر في زخرفة التحفة أو العمل الاسلامي ، بل إنه في بعض الأحيان كان يمثل العنصر الزخرفي الوحيد فيه .

وكان أهم ما يتميز به الانتاج الفني في صدر الاسلام عن الانتاج الفني القديم في البلاد المفتوحة هو ما كان يزخرف ذلك الانتاج من كتابات عربية كوفية : إذ كان الخط العربي الكوفي في صدر الاسلام هو الميزة العربية الوحيدة في الأعمال الفنية ويتجلى ذلك بشكل واضح في قطع النسيج المصرية المبكرة التي لم تكن تشتمل على أي مميزات عربية غير ما تشتمل عليه من أشرطة بها بعض الكتابات بالخط العربي .

كما اقتصرت زخرفة بعض أنواع الخزف الايراني في القرون الاسلامية على بعض الكتابات العربية – ومن أمثلة ذلك بعض أنواع من الخزف المرسوم فوق الدهان الذي ينتسب إلى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (القرن ٩ ، ١٠) .

تحسين الخط :

ينقسم أسلوب الكتابة العربية للخط إلى نوعين : محقق ومطلق ، وأسلوب الكتابة المحققة أو المجودة على النسبة الفاضلة هو ما صحت أشكاله وحروفه على اعتبارها مفردة ، وحيث يأخذ كل حرف من أي نوع من الخطوط عناية كاملة في رسمه وآدائه بنسب متعارف عليها عند الكتابة . وكذلك يجد مثل هذه العناية في ربطه بغيره من الحروف ومن ثم الانتقال إلى ربط الكلمة بما يجاورها في السطر بحيث يبدو الخط المكتوب في مجمله على أحسن صورة من التنسيق والتنظيم والهندسة والاتساق ، كما يشعر القارىء الرائي لهذا الخط بالاحساس الاجمالي . وهذا النوع من الخطوط هو الذي كان يستعمل في كتابة القرآن والسنة النبوية وفي اللوحات الفنية الهامة وفي سجلات الدواوين لتسجيل الاتفاقات والعهود والمواثيق والمكاتبات الصادرة عن الأمراء والملوك والحكام وما شابه ذلك على قدر المكتوب عنه والمكتوب له حيث يقصد بكتابته التخليد والبقاء على الأعقاب .

أما أسلوب الكتابة العادية أو الخط المطلق : فهو خط الكتابة العادية للعامة من الناس

وحيث تتداخل حروف الكتابة وتتصل بعضها بشكل يبدو للعيان وللغالبية العظمى من الناس أنه لا تنسيق ولا تنظيم ، وإنما ارتجال وتسجيل لما لا يمكن تأخيره من المكاتبات والأمور العاجلة والوقتية لأمور الحياة . ومن أمثلة ذلك الخط ما يكتبه طلبة المدارس والجامعات في حصصهم ومحاضراتهم وفي المراسلات المعتادة بين الناس بعضهم وبعض .

ويسمى الخط حسناً إذا حسنت أشكال حروفه وحُسْنُ شكل حروف الخط في عين الرائي شبيه بحسن مخارج اللفظ العذب في السمع وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه أنه قال : الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً .

وإذا كان التعبير بالخط المكتوب واللفظ المنطوق يتقاسمان فضيلة البيان ووضوحه ، فان لكل منهما أثره في الوجدان . فالعبارة المكتوبة بخط حسن لها أثرها في القارىء الرائي . كما أن العبارة المقرؤة المنطوقة بصوت جميل لها أثرها في السامع .

ولاشك أن الخط العربي قد مر بمراحل طويلة من أحوال البداوة إلى أن وصل إلى ما أصبح عليه من حسن التجويد والاتقان . كما أنه في بداية نشأته صادف الكثير من العقبات في وسائل الكتابة التي لم تكن شائعة ومعروفة . فلم تكن خامات الورق وأدوات الكتابة من الأقلام كما هو الآن مما اضطر الكتبة الأول إلى الخربشة والحفر على الحجارة واستعمال أقلام مصنوعة من البوص والغاب وعيدان الأشجار . وعندما اكتشف الانسان أن بمقدوره الكتابة باستخدام السناج الأسود الناتج من حرق الأشجار . فكتب على الشقف والعظام وجريد النخل وعلى ألواح الطين وقطع الخزف والأديم والرق والبردي إلى أن عرف المسلمون في الشام صناعة الورق على يد الأسرى الصينيين في أواخر القرن الأول للهجرة فتيسرت سبل وامكانيات تحسين الخط وتجويده والتفنن في ابداع حروفه وكلماته ، والفضل الأكبر في تجويد وتحسين الخط العربي كتابة المصاحف والمساجد باعتبارها الفنون الاسلامية ، كما وأن الخط هو أحد الجذور الأساسية الثلاثة التي تفرعت منها الفنون الاسلامية وذلك بالاضافة إلى المساجد والمصحف الشريف ، وقد ظل في الوقت نفسه أهم العوامل المحققة لوحدة الفن الاسلامي على اختلاف العصور والأقطار ، إن هذا الفن الاسلامي العظيم قد استوحى في نشأته وخصائصه مبادىء الاسلام وأحكامه . فمن جهة يلاحظ أن الخط العربي نشأ بدافع الرغبة في الاجادة والاتقان وأحرز في ذلك المجال السبق على غيره من الفنون والحق أن هذه الرغبة في الاجادة والاتقان مستمدة من الاسلام نفسه : قال النبي ﷺ : « أن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » . ومن المعروف أن المبالغة في الاتقان والاجادة والتحسين تؤدي بطبيعتها إلى التنسيق والتزويق والابداع ، مما يفسر لنا الدرجة العظيمة من التأنق والزخرفة التي بلغها الخط العربي بأنواعه .

ومن جهة أخرى تأثر الخط العربي بدافع آخر هو الرغبة في تجميل الحياة والاستمتاع بزينتها ، وهذه الرغبة مستوحاة أيضاً من مبادىء الاسلام قال الله تعالى ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[1] .



(١) سورة الأعراف الآيات ٣١ - ٤٣ .



نماذج لبسملات كتبت بأسلوب الكتابة المجودة على البنية الفاضلة مع اختلاف في بعض الحروف بالأقلام التي كانت مستعملة في دواوين الانشاء

أول من قدر للخط معايير يضبط بها هو الوزير العباسي « ابن مقلة » الذي راعى في تجويده وتصحيحه أن يجرى على نسبة فاضلة ، إن زاد عنها قبح ، وإن قصر دونها سمج ، وكان ذلك في العراق حوالى عام ٣٠٠ م .

وكان ميل الفن الاسلامي بطابعه الزخرفي في مجال الخط من آثار العقيدة الاسلامية في بداية ظهور الاسلام وابتعاد الفنان المسلم عن تقليد الطبيعة وعن محاكاة الواقع حتى يتحاشى مضاهاة خلق الله سواء في صور الكائنات الحية أو في الصور الحيوانية ، ولذا تفوق في مجال الزخارف الهندسية حتى بلغ فيها مرتبة لا يكاد يدانيه فيها فن آخر .

وطور المسلمون الزخارف والكتابات الكوفية الهندسية على أسس مدروسة وابتكروا أنواعاً عديدة من هذه الخطوط الزخرفية ، لم يسبقهم أحد إليها ، ولا شك أن من عوامل تفوقهم في هذا المجال العوامل الآتية :

١ – معرفتهم للرياضيات بعامة .

٢ – معرفتهم لأساليب التجريد .

٣ – إحساسهم الفني لتناغم الحروف العربية وبفضل فطرتهم الشعرية ، وإزدادوا إحساساً بالتناغم والموسيقى .

٤ – كان لتعاليم الاسلام أثر في حركة انتشار تجويد الخط العربي .

إذ كان من نتيجة كراهية الاسلام لتجسيم المعتقدات الدينية أن بعد التصوير في المجتمع الاسلامي عن الدين فلم يدخل في المساجد[١] وقد استبدل بهذه الصور كتابات بالخط العربي الجميل تحقق الأغراض نفسها وتماثل في اشكالها وتصميمها النسب الجمالية في الصور ، إن لم تكن تفوقها . كما لم يستخدم التصوير في تجميل المصاحف حيث اقتصرت كتابة القرآن الكريم على الزخارف الهندسية والعناصر النباتية المحورة في تجريد جمالي بديع . واتخذت الكتابة لتوضيح المسائل الدينية كما اتخذت كوسيلة ، للارشاد والوعظ والاعتبار[٢] . وفي حين أن بعد التصوير عن الموضوعات الدينية هيأ له ميزة لم تتهيأ للتصوير في الفنون الدينية الأخرى ، إذ جعله مدنياً في طابعه ، وينظر إليه كفن من فنون الدنيا ، لا كعمل من أعمال الآخرة . ومن ثم كان أقرب من غيره إلى الفكرة الفنية الخالصة ، كما صار ميدانه الحياة الدنيا بما فيها من مناظر طبيعية وأحداث بشرية . وتصوير ما ليس فيه روح . فضلاً عما في رسم المناظر الطبيعية من توجيه للأنظار إلى جمال الطبيعة التي دعا الاسلام إلى تأملها وإلى تدبير قدرة الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه .

هكذا تميز الفن الاسلامي بوحدة تسود إنتاجه مهما تعددت الأقطار ، واختلفت الأجناس وتباعدت العصور هي وحدة الخط العربي . ترجع هذه الوحدات بصفة اساسة

(١) كاد أن يقتصر التصوير على توضيح الكتب العلمية وبعض الكتب القصصية والتاريخية .

(٢) Ernest J. & Grabe; The World of Islam pp 8-11

كما سبق أن ذكرنا إلى وحدة العقيدة التي انتشرت في العالم الاسلامي من مشرقه إلى مغربه ، إذ استوحى الفن من مبادىء الاسلام الكلمات والحروف التي يخضع لتعاليمها ومعانيها في معظم الأحيان .

كما كان للعروبة أيضاً دور رئيسي في اظهار وحدة الخط العربي كأهم الوحدات الفنية الاسلامية ، مظهرها الكتابة العربية التي اتخذ الفنانون منها مادة لتحسين وتجويد وزخرفة تحفهم على إختلاف أنواعها بحيث صارت الكتابة العربية عنصراً زخرفياً أساسياً في الانتاج الفني عند مختلف الشعوب الاسلامية ، بالإضافة إلى كون هذه الوحدة الفنية بطبيعتها تحمل بذور التجريد والتحسين والاختلاف ، حتى أنه لا يمكن أن نجد انتاجين فنيين يتطابقان وإلا كان أحدهما أصيلاً والآخر من أعمال التقليد – حتى ولو كانا من كتابة فنان واحد .

« ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغلظ ، ولا تبره عند عقدة ، فان فيه تعقيد الأمور ، ولا تكتب بقلم ملتو ، ولا ذي شق غير مستو ، فان أعوزك الفارسي والبحري ، واضطرت إلى الاقلام النبطية ، فاختر منها ما يضرب إلى السمرة ، واجعل سكينك أحد من الموسى ، ولا تبر به غير القلم ، وتعهده بالاصلاح وليكن مقطك أصلب الخشب لتخرج مستوية ، وابر قلمك إلى الاستواء لاشباع الحروف ، وإذا أجللت فالي التحريف . وأجود الخط أبينه ، وأجود القراءة أبينها »[(1)]

(١) يحيف على أحد الشقين فتضعف سنه ، وتكون شحمه القلم في بطنه متساوياً وان يكون الشق متوسطاً لجلفة القلم دق أو غلظ .

الشق : إذا كان القلم صلباً فيشق أكثر الجلفة ، وان كان صخراً يكون مقدار ثلث الجلفة وان كان معتدلاً يتوسط .

القـط : وهو أما محرف أو مستو أو قائم أو مصوب . وأجودها المحرف المعتدل . ويكون الخط به أضعف وأحلى . ومن الخطاطين من يجنح الى تدوير القطة ويمدها ويرغب فيها ، وأعنى بالدورة أن لا تظهر لها تحريفاً .

أما القط المستوى : فيتم بوضع يدك بالسكين على الاستواء . لا يميل الى جهة والخط به أقوى وأصفى .

أما القط القائم : فان يكون استواء القشرة والشحمة معاً .

والقط المصوب : غير محمود وهو قط الجلفة مع عدم استواء القشرة والشحمة ويقول الخطاط الوزير ابن مقلة : أطل الجلفة وحسنها وحرف القطة وأيمنها ، والقط هو الخط .

وأقسام القلم هي :

القضبة وتغلفها القشرة وتحت القشرة الشحمة ، وعند بري القلم تم فتحة تتشكل ما يسمى البطن وفي طرفي البطن الحواشي ورأس القلم الجلفا وتنتهي بالقطة وطرفا القطة يسميان السنان ، والقلم أنواع ، منها الفارسي والبحري والنبطي . حسب نوع القصب .

مبادىء في كتابة الخط :

ويستعرض أبو حيان بعض المباديء التعليمية التكنيكية التي جاء بها غيره من مشاهير الوراقين والخطاطين فيقول على لسان ابراهيم بن العباس مخاطباً غلاماً بين يديه . .

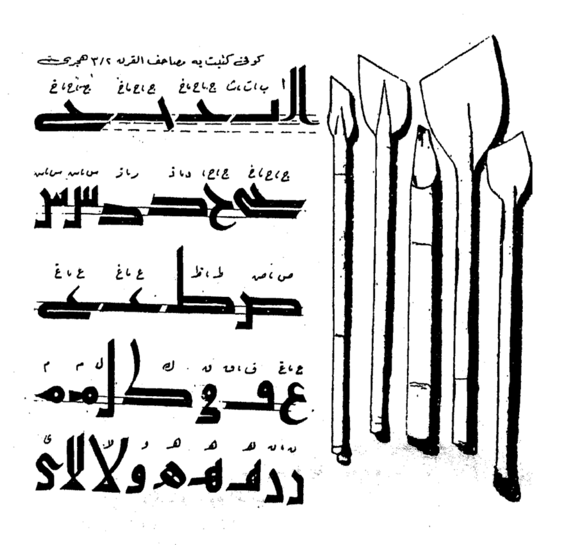
وكان الحسن بن وهب يقول : يحتاج الكاتب إلى خلال ، منها تجويد بري القلم ، واطالة جلفته وتحريف قطته ، وحسن التأني لامتطاء الانامل ، وارسال المدة بقدر اشباع الحروف ، والتحرز عند افراغها من التطليس وترك الشكل على الخطأ ، والاعجام على التصحيف ، وتسوية الرسم ، والعلم بالفضل واصابة المقطع .

والخط العربي يعتبر مظهر العبقرية الفنية عند العرب ، ولقد كان وسيلة للمعرفة ، ابتداء منذ أن كان جنيناً في رحم الكتابة الفينيقية[1] ثم توضح في الكتابة الآرامية ثم في الكتابة النبطية المتأخرة حتى بلغ كماله وجماله في الكتابة العربية ، وأصبح فناً له ما يقرب من ثمانين أسلوباً وطريقة ، من أشهرها الكوفي والثلث والرقعة والفارسي والديواني .. وفروع هذه الخطوط ..

وهذا موضوع الجزء الثاني من كتاب دراسات حول الكتابة العربية « **التحسين والتجويد والابداع** » .. والله نسأل التوفيق والسداد .

---

(١) نفس المصدر الرسائل ص ٥٦



نماذج مختلفة من أقلام الكتابة للخط العربي المعروفة بأقلام البسط وبجوارها حروف الهجاء للخط الكوفي القديم الذي كتبت به مصاحف القرن ٣/٢ الهجري .

بعض المراجع العربية

١ – د. ابراهيم أنيس : **في اللهجات العربية** – الانجلو – القاهرة ١٩٦٥

٢ – د. ابراهيم جمعه : **قصة الكتابة العربية** – دار المعارف – القاهرة ١٩٤٧

٣ – د. ابراهيم جمعه : **دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في القرون الخمسة الأولى للهجرة** – دار الفكر – القاهرة ١٩٦٩

٤ – د. ابراهيم مدكور وآخرون : **المعجم الفلسفي** – القاهرة ١٩٧٩

٥ – ابن النديم : **الفهرست** – **روائع التراث العربي** – بيروت

٦ – ابن سعد : **الطبقات الكبرى**

٧ – أبو بكر بن أبي داود : **كتاب المصاحف** – القاهرة

٨ – أحمد أمين : **ضحى الاسلام** ١٩٥٦

٩ – د. أحمد جمال العمري : **أبو بكر الصولي الأديب النديم** – أعلام العرب ١٩٧٣

١٠– د. أحمد فؤاد باشا : **التراث العلمي للحضارة الاسلامية** – دار المعارف ١٩٨٣

١١– د. أحمد محمود صبحي : **في فلسفة الحضارة « الحضارة الاغريقية »** مؤسسة الثقافة

١٢– البخاري : **صحيح البخاري** – محمد صبح جزء ٦

١٣– البلاذري : **فتوح البلدان** – القاهرة ١٩٣٣

١٤– الزركشي : **البرهان في علوم القرآن** – جزء أول

١٥– د. السيد عبد العزيز سالم : **دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام** – مؤسسة شباب الجامعة – جزء أول

١٦– د. السيد يعقوب : **الحضارات السامية القديمة** – القاهرة

١٧– السيوطي : **الاتقان في علوم القرآن**

١٨– الطبري : **التاريخ** – جزء ثالث

١٩– القفطي : **أخبار الحكماء**

٢٠– القلقشندي : **صبح الأعشى في صناعة الانشا** – عرض وتحليل : د. عبد اللطيف حمزة – أعلام العرب ١٩٦٣

٢١– أمين الخولي : **بحث عن القرآن** – دائرة معارف الشعب ١٩٦١

٢٢– الطاهر أحمد مكي : **دراسة في مصادر الأدب**– دار المعارف – جزء أول ١٩٧٠

٢٣– د. أنور عبد الواحد : **قصة الورق** – دار الكتاب العربي ١٩٦٨

٢٤– جاستون فييت : **القيمة الفنية للكتابة العربية** – مجلد الموظف – القاهرة ١٩٣٨

٢٥– جميل المدور : **حضارة الاسلام في دار الاسلام** – بيروت

٢٦- جواد على : **تاريخ العرب قبل الاسلام** - بغداد ١٩٦١

٢٧- جورج سارتون : **تاريخ العلم** - ٦ أجزاء - دار المعارف ١٩٦١

٢٨- جورجي زيدان : **تاريخ التمدن الاسلامي** - القاهرة - دار الهلال

٢٩- د. حسن الباشا : **مدخل الى الآثار الاسلامية** - دار النهضة العربية ١٩٧٩

٣٠- د. حسن قاسم حبيشي : **الخط العربي الكوفي** - بيروت ١٩٨٠

٣١- د. زكريا ابراهيم : **ابو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء** - أعلام العرب ١٩٦٤

٣٢- زكي صالح - **الخط العربي** - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣

٣٣- د. زكى محمد حسن : **الزخارف الكتابية في الفن الاسلامي** - مجلة الكتاب - يناير ١٩٤٦

٣٤- د. سهيلة الجبوري : **أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموى** - بغداد ١٩٧٧

٣٥- د. سهيلة الجبوري : **الخط العربي وتطوره في العصور العباسية - بيروت في العراق** - بغداد - مطبعة الزهراء ١٩٦٢

٣٦- د. شفيق غربال وآخرون : **تاريخ الحضارة المصرية « العصر الفرعوني »** مجلد ١ ١٩٦١

٣٧- د. شوقي ضيف : **العصر الجاهلي** - دار المعارف - القاهرة ١٩٦٠

٣٨- صالح أحمد العلي : **محاضرات في تاريخ العرب** - ج١ - بغداد ١٩٥٩

٣٩- صلاح الدين المنجد : **دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته الى نهاية العصر الأموى** - بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٢

٤٠- د. عبد الحليم منتصر : **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه** دار المعارف ١٩٨٠

٤١- د. عبد الرحمن زكي : **القاهرة تاريخها وآثارها** - القاهرة ١٩٦٦

٤٢- د. عبد الصبور شاهين : **تاريخ القرآن** - دار العلم - القاهرة ١٩٦٦

٤٣- د. عبد العزيز صالح : **التربية والتعليم في مصر القديمة** - الدار القومية ١٩٦٦

٤٤- د. عبد العظيم أنيس : **العلم والحضارة** - وزارة الثقافة

٤٥- غانم قدوري الحمد : **رسم المصحف** - دراسة لغوية تاريخية - بغداد ١٩٨٢

٤٦- فريد رفاعي : **عصر المأمون** - دار المعارف ١٩٦٧

٤٧- فيليب حتى : **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** - جزء أول

٤٨- فيليب حتى : **تاريخ العرب**

٤٩- د. مازن المبارك : **نحو وعي لغوي** - بيروت ١٩٧٩
٥٠- د. كامل البابا : **روح الخط العربي** - بيروت ١٩٨٣
٥١- د. محمد زيتون : **الصين والعرب عبر التاريخ** - دار المعارف ١٩٦٤
٥٢- د. محمد عبد العزيز مرزوق : **المصحف الشريف** - دراسات تاريخية فنية ١٩٨٥
٥٣- د. محمد عجاج الخطيب : **لمحات في المكتبة والبحث والمصادر** - بيروت ١٩٧٥
٥٤- د. محمد الأشقر : **لمحات من تاريخ القرآن** - طبعة النجف - العراق
٥٥- د. محمد غلاب : **اخوان الصفا وخلان الوفا** - دار الكاتب ١٩٦٨
٥٦- د. محمد فخر الدين بك : **تاريخ الخط العربي**
٥٧- د. محمد كمال جعفر : **في الدين المقارن** - دار المعارف
٥٨- محمد مصطفى : **الكتابة العربية عنصر زخرفي** - « المجلة » - القاهرة فبراير ١٩٥٧
٥٩- د. محمود الأمين : **رحلة في العراق القديم** - بغداد ١٩٥٣
٦٠- د. محمود شكر الجبوري : **نشأة الخط العربي وتطوره** - بغداد وزارة الاعلام ١٩٧٤
٦١- أ.د. محمود عباس حمودة : **دراسات في علم الكتابة العربية** - مكتبة غريب ١٩٧٩
٦٢- د. محمود عباس حمودة : **تاريخ الكتاب الاسلامي** - القاهرة - دار الثقافة ١٩٧٩
٦٣- د. محمود غنيم : **حفني ناصف** - أعلام العرب - العدد ٤٧ ١٩٦٥
٦٤- د. مصطفى العبادي : **مكتبة الاسكندرية القديمة** - الأنجلو ١٩٧١
٦٥- ناجي زين الدين : **بدائع الخط العربي** - بغداد ١٩٧٢
٦٦- د. نعيم أديب : **صناعة الورق** - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤
٦٧- د. نظمي لوقا : **عمرو بن العاص** - أعلام العرب العدد ٩١ ١٩٧٠
٦٨- هاردنج : **آثار الأردن** - تعريب سليمان موسى - عمان ١٩٦٥
٦٩- هارى المربازنر : **تاريخ الكتابة التاريخية** - ترجمة د. محمد عبد الرحمن برج الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤
٧٠- ياقوت الحموي : **معجم البلدان** - مجلد ٣
٧١- يوسف أحمد : **الخط الكوفي** - مطبعة حجازي ١٩٣٣

بعض المراجع الأجنبية

- Budge, E.A. Wallis: Easy lesson in Egyptian Heiroglyphics London 1902.
- Creswell;: Early Moslem Architecture Oxford 1969.
- Diringer, D: The Alphabet; a key to the history of man kind London 1968.
- Ernest & Grube; The world of Islam.
- Ernest; Arabesque in the Encyclopodia of Islam.
- Gibson: Text book of Syrian semetic inscriptin Oxford 1971.
- Grohmann, Adolf; Arabische palaographie Wien 1952.
- G.A.Cook: (Text book) of north semetic inscription London 1956
- Flury: Ornamental Kufic inscription Pottery survey of persian art. London 1957.
- Littmann: Arabic Inscription. Leden 1914.
- Syhayatai: The study of Islamic Calligraphy London 1966.
- Taylor, I.: The Alphabet London 1904.

محتــويات الكتــاب

صفحة

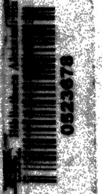
الفصل الثالث : الكتابة العربية بعد ظهور الاسلام وازدهاره

هــذا الكتــاب

هو أول كتاب من نوعه يعكف على دراسة الكتابة العربية ، تاريخها وتطورها على مر العصور وصولاً إلى مرحلة ظهور الإسلام الذي رفع قدر العلم والعلماء ، والكتاب يتتبع مسيرة الكتابة والكتاب عبر القرون ، ويعرض قضاياها وقضاياهم كما تراءت لهم وللمؤرخين في صورة شاملة توضح معالم ذلك التراث العلمي لأصول الكتابة العربية،مع إلقاء الضوء على مكانة الكتابة والكتاب العرب في تاريخ العلم عبر حضارات العصور الوسطى والحديثة ، وذلك بهدف اطلاع القارىء على أهم مقومات النهضة العربية وعناصر التقدم الحضاري ، خاصة موضوع كتابة القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ وفي عهد الصحابة ومن بعدهم وذلك دون شطط أو إسراف أو تأويل .

على أن كل ذلك لمحات من قصة الكتابة العربية وخط الكتابة الذي يكتب به الناطقون بالضاد في كل مكان ، ومن حق هؤلاء أن يتبينوا كيف أصبح لهم خط يكتبون به وكيف تعددت صوره .

المؤلف



طباعة تكنوتكس فن الجرافيك